

قضايا إسلامية معاصرة

نير في

كتابي من شخصي
شماره ثبت ٣٦٣٥٩
١٥٥٩

عرض القضايا العصرية ومعالجتها من منظور إسلامي
المجلد الثاني

- الديمقراطية
- الأحزاب والتعددية السياسية
- الوطنية: العقيدة والهوية
- مجتمع الرفاهية
- الإرهاب
- أهل الذمة
- الوحدة العربية
- الحرية
- المعارضة والتداول السلمي للسلطة
- المواطنة ودولة القانون
- دار الكفر ودار الإسلام « رؤية معاصرة »
- نحن والحضارة الغربية
- الأقليات والمواثيق الدولية
- المشروع الحضاري والإعلام

١٥

تأليف

د. منير محمد الغضبان

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كَافَّةُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ وَالتَّرْجُمَةِ مُحْفُوظَةٌ

لِلنَّاشِرِ

دَارُ السَّلَامِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّرْجُمَةِ

لصاحبها

عبدُ فادِرٍ مُحَمَّدُ الْبَكَارُ

الطَّبَعَةُ الْأُولَى

١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الغضبان ، منير محمد .

قضايا إسلامية معاصرة : عرض القضايا العصرية

ومعالجتها من منظور إسلامي / تأليف منير محمد

الغضبان . - ط ١ . القاهرة : دار السلام للطباعة

والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٢ م .

٢ مج ؛ ٢٤ سم .

تدمك ٧ ٠٠٧ ٢١٤ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الثقافة الإسلامية .

٢ - العنوان .

٢١٤

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت -

الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريدًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت

على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة

أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،

٢٠٠١م هي عشر الجائزة تويجاً لعقد

ثالث مضي في صناعة النشر

فهرس المجلد الثاني

٤٩٧	المحور الرابع: قضايا اجتماعية
٤٩٩	(١) المرأة
٤٩٩	وحدة الأصل البشري
٥٠٠	التكريم الرباني
٥٠١	هل الذكر كالأنثى؟
٥١٠	حقوق المرأة المسلمة وواجباتها
٥٢٠	رسالة المرأة في المجتمع
٥٢٨	حق المشاركة في السلطة التشريعية
٥٣١	حق المشاركة في السلطة التنفيذية
٥٣٨	حق المرأة في السلطة القضائية
٥٤٠	ماذا يريدون للمرأة؟
٥٤٥	ملخص البحث
٥٤٩	(٢) الإرهاب
٥٤٩	ماهية الإرهاب
٥٥٣	أمريكا بين المصالح والمبادئ
٥٨٣	الإسلام والإرهاب
٥٨٧	فكر متطرف
٥٩٣	إرهاب الدولة
٥٩٥	الإرهاب الدولي
٥٩٩	ملخص البحث
٦٠٤	(٣) الحوار
٦٠٤	تعريف الحوار
٦٠٥	كلمات عامة في الحوار
٦١١	العهد المكي والدعوة إلى الصبر

٦١٤	الحوار في ظل الدولة الإسلامية
٦٢٢	وضع المرتد في ظل الدولة الإسلامية
٦٢٥	(٤) الأقليات والمواثيق الدولية
٦٢٥	تعريف الأقلية
٦٢٥	الأقلية في العهد النبوي
٦٢٨	الأقليات على امتداد التاريخ الإسلامي
٦٣١	الأقليات في العالم وكيف عوملت
٦٣٤	الحرب العلمانية على الدولة العثمانية
٦٣٤	الحرب مع أوربا
٦٣٦	الأقليات في خط شريف كولخانة، والخط الهمايوني
٦٣٩	الأقليات الإسلامية في العالم
٦٤٥	الأقليات العرقية والدينية في الوطن الإسلامي
٦٤٦	المنطلق العلماني في حقوق الإنسان
٦٥٤	تطورات خطيرة في حقوق الإنسان
٦٥٦	الأقليات في سورية
٦٦٢	كيف كانت تعامل الأقليات في العهد الإسلامي في سورية؟
٦٦٧	الأقليات في عهد الاحتلال
٦٧٤	الأقليات في عهد الاستقلال
٦٧٥	الأقليات في عهد البعث وبعد انقلاب ٨ آذار
٦٨١	كيف نتعامل مع الأقليات اليوم؟
٦٨٣	ملخص البحث
٦٨٩	(٥) أهل الذمة
٦٨٩	لماذا نتحدث عن أهل الذمة؟
٦٨٩	مصطلح « أهل الذمة »
٦٩١	أهل الكتاب في ظل الدولة الإسلامية
٧٠٩	أهل الذمة في العهدين الأموي والعباسي
٧١١	شهادتان من خصوم الإسلام

٧١٢	أهل الكتاب في ظل الدولة العثمانية
٧١٣	شبهات حول أهل الذمة
٧١٤	ملخص البحث
٧١٧	المحور الخامس: قضايا عامة
٧١٩	(١) الوحدة العربية
٧١٩	تمهيد: لماذا الحديث عن الوحدة العربية؟
٧٢٠	أولاً: العرب وأصولهم
٧٢١	ثانياً: الملك العربي
٧٢٦	ثالثاً: العرب في العهد النبوي
٧٢٨	رابعاً: الوحدة العربية في عهد الراشدين: من المحيط إلى الخليج
٧٣١	خامساً: واقع الوحدة العربية في القرن العشرين
٧٣٩	سادساً: تطور مفهوم الوحدة العربية لدى البعث الاشتراكي
٧٤٠	سابعاً: الحركات الإسلامية والوحدة العربية
٧٤٢	ثامناً: الإخوان المسلمون في سورية وقضية الوحدة العربية
٧٤٥	تاسعاً: النموذج الإصلاحي للوحدة
٧٤٦	عاشراً: الوحدة العربية اليوم
٧٥١	ملخص البحث
٧٥٤	(٢) القضية الفلسطينية
٧٥٤	أولاً: فلسطين من النشأة إلى اليوم
٧٦٢	ثانياً: المقاومة المسلحة ضد المشروع الصهيوني والكيان الإسرائيلي
٧٦٥	ثالثاً: المقاومة الفلسطينية (١٩٤٩ - ٢٠٠١ م)
٧٧٢	رابعاً: التسوية السلمية وأبعادها ومراحلها
٧٧٦	خامساً: تقويم وخلاصات
٧٧٩	سادساً: التيار الإسلامي وأدواره الجهادية وآثاره
٧٨٢	(٣) المشروع الحضاري والإعلام
٧٨٢	المدخل
٧٨٢	تعريف أساسية

٧٨٤	مفاهيم إعلامية في ضوء الإسلام
٧٨٥	الإعلام السوري: رؤية سريعة
٧٨٦	لمحة عن وسائل الإعلام المعاصر
٧٨٨	خاتمة
٧٨٩	(٤) العولمة
٧٨٩	ماهية العولمة
٧٩١	الأوضاع الاقتصادية التي أدت إلى العولمة
٧٩٣	العولمة القديمة والعولمة الجديدة
٧٩٣	المكونات الست للعولمة
٧٩٤	مثلث إدارة العولمة الجديدة
٧٩٥	الخطوط العريضة للعولمة
٧٩٧	آثار تطبيق العولمة الاقتصادية
٧٩٨	العولمة المضادة
٧٩٩	رأي دعاة العولمة العرب في الإسلام
٨٠٤	العولمة والعرب
٨٠٩	سوريا والعولمة
٨١٣	الصهيونية والعولمة
٨٢١	ماليزيا والعولمة
٨٢٦	نقد العولمة
٨٣٨	العولمة اليوم ومنتدياتها
٨٤٣	الإسلام والعولمة
٨٥١	ملخص البحث
٨٥٨	(٥) الحرية
٨٥٨	الحرية لغة واصطلاحًا
٨٥٩	الحرية وخلق الإنسان الأول
٨٦٠	المفاهيم المختلفة للحرية
٨٦٦	أنواع الحريات

٩٠٥	الطرق بين الحرية والتحرير
٩١١	مفاهيم إسلامية عن الحرية
٩١٥	كيف نحقق الحرية اليوم؟
٩٢١	ملخص البحث
٩٢٧	السيرة الذاتية للمؤلف



قضايا إسلامية معاصرة

عَرْضُ الْقَضَايَا الْإِسْلَامِيَّةِ وَمُعَاجَلَتُهَا مِنْ نَظَرِ مُنَظِّرِي إِسْلَامِيٍّ

المحور الرابع

قضايا اجتماعية

- ١ - المرأة.
- ٢ - الإرهاب.
- ٣ - الحوار.
- ٤ - الأقليات والمواثيق الدولية.
- ٥ - أهل الذمة.

المرأة

الحديث عن المرأة شغل القرن كله بالنسبة للغرب، وشغل نصف القرن الماضي بالنسبة للشرق الإسلامي، وكُتبت مؤلفات كثيرة ساهم فيها كبار الدعاة إلى الله، وعالجوا فيها كل قضايا المرأة المسلمة المعاصرة. ولن يكون الحديث تكراراً لما سبق، إنما هو تلخيص من جهة، وإضافة من جهة ثانية لبعض المستجدات والاجتهادات التي تخص واقع المرأة المسلمة اليوم، ونبدأ بالحديث عن وحدة الأصل البشري:

وحدة الأصل البشري:

يقول ﷺ: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكما هي سنة الله ﷻ في خلقه: (من كل زوجين اثنين)^(١) كانت هذه السنة في البشر، الذين خلقهم من زوجين ذكر وأنثى. فهما ندان مع اختلاف الوظيفة لكل منهما، يتكاملان لتحقيق الرسالة المنوطة بهما في تحقيق الخلافة في الأرض.

وأنهت هذه الآية كل أساطير الغرب القديمة عن أصل المرأة وأنها خلقت من رجس ونجس وما بُني على هذه الأسطورة من آراء وأحكام.

- فهي عند اليونان رجس من عمل الشيطان، تُباع وتُشتري في الأسواق، وقد رمزت الأساطير اليونانية إلى المرأة (باندورا) بأنها ينبوع آلام الإنسان ومصائبه.

- وهي عند الرومان وفي قوانين الألواح الاثني عشر تعتبر الأسباب الثلاثة الآتية أسباباً لعدم ممارسة الأهلية. وهي: السن والحالة العقلية، والجنس - أي الأنوثة - وكان فقهاء الرومان القدامى يعللون فرض الحجر على النساء بقولهم: لطيش عقولهن.

- وفي جاهلية الهنادك كما ذكر غوستاف لوبون: « والمرأة في الهند تعد بعلمها ممثلاً للآلهة في الأرض وإذا آمت - أي فقدت زوجها - عادت لا تُعامل كونها إنساناً. وعُدَّ

(١) قوله ﷻ: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

نظرها مصدرًا لكل شؤم على ما تنظر إليه. وعُدَّت مدنَّسة لكل شيء تمسُّه، وأفضل شيء لها أن تقذف نفسها في النار التي تحرق جثمان زوجها».

- وعند اليهود كما في توراتهم المحرَّفة: المرأة أمرٌ من الموت، وإن الرجل الصالح أمام الله ينجو منها.

وعند النصارى: ينبوع المعاصي وأصل السيئة والفجور، وباب من أبواب جهنم. ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء، وحسبها ذلًّا وسوءًا أنها امرأة، وهي مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان.

وفي القرن الخامس اجتمع مجمع ماكون للبحث: هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه أم لها روح؟ وقرروا أنها خلُوت من الروح الناجية من عذاب جهنم، وعقد الفرنسيون عام (٥٨٦) للميلاد مؤتمرًا للبحث: هل تُعد المرأة إنسانًا أم غير إنسان، وأخيرًا قرروا أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب، ويقول سبنسر الفيلسوف الإنكليزي في كتابه (وصف علم الاجتماع): إن الزوجات كانت تُباع في إنجلترا فيما بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر، والقانون الإنكليزي حتى سنة (١٨٠٥ م) كان يُبيح للرجل أن يبيع زوجته، وحُدِّد ثمن الزوجة بست بنسات^(١).

التكريم الرباني:

أ - التكريم العام:

وهو الذي نال هذا المخلوق بغض النظر عن عقيدته وجنسه ولونه وسلوكه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وجعل التفاضل عنده ﷻ بالتقوى والعمل الصالح: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) مقتطفات من (المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي، والحجاب للمودودي، والمرأة في القرآن للعقاد).

ب - التكريم الخاص:

والتكريم الخاص للمرأة في فرض نفقتها على الرجل، وتفريغها لأعظم مهمة هي تربية أولادها في بيتها من غير حرمانها من حقوقها التي تشارك بها الرجل في بيتها ومجتمعها.

هل الذكر كالأنثى؟

نقول ابتداءً: لا؛ لأن الله جعل اختلافًا بين الجنسين: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾. فموضوع جعلهما مثل بعضهم هو موضوع عجيب حقًا، وليس الرجال جميعًا مثل بعضهم كذلك، وليس النساء مثل بعضهن كذلك، فقد أبدع الله تعالى كل عبد من عباده بصورة مستقلة عن الآخر، وليست مماثلة له، وكل فرد مستقل الكيان والشخصية.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [١٣] لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

والذين يحرصون على مساواة الرجل بالمرأة، يدفعهم لذلك خوفهم أن يكون الاختلاف اختلاف تمييز؛ لذلك يسوون بين الجنسين في كل شيء، ويعتبرون التسوية هي العدالة، وهذا خطأ ظاهر. فكل الحياة تقوم على التمايز بين البشر، والتسابق بينهم ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، والحياة كلها تقوم على الامتحانات والمسابقات القائمة على الاختلافات.

أ - اختلاف وظيفية، لا اختلاف تمييز:

وحيث أوضحنا القاعدة السابقة أن التمايز والتفاضل بالتقوى والعمل الصالح، وهذا يملكه كلا الطرفين، وإن وُجد نقص عند أحد الزوجين أتمه الآخر، وكان عنده فضل في جانب مقابل. ونقف عند هذين الحديثين لنبرز هذا المعنى:

- أخرج ابن عبد البر في كتابه (الاستيعاب) عن أسماء بنت يزيد بن السكن - رضي الله عنهما - أنها أتت النبي ﷺ فقالت: إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن قولي وعلى مثل رأيي، إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء، فآمنا بك واتبعناك ونحن معاشر النساء مقصورات مخدرات، قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإن الرجال فُضِّلوا بالجماعات وشهود الجنائز

والجهاد، وإذا خرجوا إلى الجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم. أنشأركمهم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال: «هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟» فقالوا: بلى يا رسول الله. فقال: «انصرفي يا أسماء، وأعلمي من وراءك من النساء، أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقته، يعدل ذلك كله».

فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ^(١).

فالحديث يؤكد لنا أن هذا التمييز للرجال في الجمعة والجماعة والجنائز والجهاد، يقابله تمييز النساء بحسن تبعلهن لأزواجهن، وطلبهن مرضاتهن، واتباعهن لموافقتهن، وكان بذلك التعادل بين الزوجين.

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار». فقالت امرأة جزلة^(٢): وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير. وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن». قالت: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقص الدين»^(٣).

فنحن أمام دعوة نبوية لإكثار الصدقة والاستغفار، مقابل ذنوب كبيرين يقعان عند المرأة: وهما كثرة اللعن، وجحود نعمة الزوج. والأهم في الحديث هو تتمته: «وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن». فالنص يحمل في ثناياه الفضل الآخر للمرأة. فهي على نقص عقلها ودينها تسلب العاقل الحصيف لُبّه وعقله، وتسيطر عليه بما أعطاها الله تعالى من جمال أسر، وعاطفة جياشة، وجاذبية تستأثر بقلب الرجل. فإن غلب الرجل بعقله، غلبته المرأة بعاطفتها.

ولكن تلك المرأة الجزلة - رضي الله عنها - كان لها فضل كبير على الأمة حين تجرأت وسألت عن نقصان العقل والدين. فقال ﷺ: «أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل».

(١) الاستيعاب في أسماء الأصحاب على هامش الإصابة (٤/٢٣٧، ٢٣٨).

(٢) جزلة: ذات عقل ورأي.

(٣) صحيح مسلم (١/٨٦، ٨٧)، (ح ١٣٢).

وليس من حقنا أن نضيف شيئاً آخر من عندنا إلى ما ورد عن رسول الله ﷺ حين لا تعادل شهادتها شهادة الرجل. وتعليل ذلك هو بعدها عن المعاملات والجنائيات، وانشغالها في بيتها يجعل تركيز اهتمامها أقل، بينما الممارسة المستمرة للرجل تجعل تثبته أكثر. ودليل ذلك، والله أعلم أن شهادة المرأة في ما يقع تحت اختصاصها يكفي ويُغني عن شهادة الرجل. (وأجاز العلماء شهادتهن منفردات فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة^(١)).

وقد عفا الله عنها من إعادة صلاتها أثناء حيضها ونفاسها وكلفها أن تقضي صيامها وعادل هذا العفو من هذه الجهة، ما أعده الله تعالى له وظيفياً في الإنجاب والنسل والآلام العظيمة التي تعانيها في الولادة والحمل، فتحقق الأجر الذي فاتها مقابل ذلك، وتتعدل القضية تماماً بعدها لإجراء المسابقة في ظروف متكافئة وليست متساوية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ب - وظيفة الرجل ووظيفة المرأة:

ونحرص على إبراز هذا الجانب لأن فيه من الاستغلال كذلك وسوء الفهم للمرأة والرجل على السواء. نقول ابتداءً: إن تخصص المرأة هو الرعاية والإشراف في البيت، وتخصص الرجل هو العمل للإنفاق على هذا البيت. وقد أعطيت المرأة من الحنان والعاطفة ما يساعدها على تأدية هذه المسؤولية، وأعطى الرجل من القوة والحركة والخبرة ما يساعده على تأدية هذه المسؤولية.

وبالتدقيق نلاحظ أن دور المرأة أعلى مقاماً من دور الرجل، فهي مربية متخصصة براتب مناسب لمستواها. يحكم ذلك كله حديث رسول الله ﷺ، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع في مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٢).

(١) تفسير القرطبي (٢م)، (٣/ ٣٩١).

(٢) البخاري (ص ٤٨٣)، (ح ٢٥٥٤).

والأمير قائد الأمة ومسؤول عنها، والرجل قائد أهله وزوجة وولداً ومسؤول عنهم، والمرأة ملكة في بيتها وولدها ومسؤولة عنهم، والعبد ملك على مال سيده ومسؤول عنه، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

فالمرأة إذن راعية وأميرة في بيت زوجها وليست أمةً أو خادمةً، ولكنها مسؤولة أمام زوجها وله حق الطاعة عليها بالمعروف، فهناك أميران في البيت، الرجل والزوجة. لكن إمرة الرجل أعلى، وهناك من الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين ما يكاد يصل إلى درجة التكافؤ.

ج - خلل خطير في فهموظيفتين:

ونشير إلى خلل خطير في فهموظيفتين للمرأة والرجل؛ هذا الخلل هو فهم التوزيع للرجل والمرأة بين البيت والمجتمع. فمعظم الدارسين يقولون: رسالة المرأة في البيت، ورسالة الرجل في المجتمع، وهذا خطأ فادح وواضح من ناحيتين:

الناحية الأولى: رسالة المرأة في بيتها، ورسالة الرجل في بيته حين يكون الحديث عن البيت فمسؤولية التربية قائمة عليهم معاً، بل الرجل هو المسؤول الأكبر. فالرجل راع في بيت أهله ومسؤول عنهم حتى لنجد الأدب والتربية في بعض النصوص مسؤولية الرجل والمرأة كما روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة»^(١).

والفهم الخاطئ - حتى لدى الإسلاميين - في ذلك، جعلهم يهملون بيوتهم، ويملؤون وقتهم عملاً خارج البيت، وحتى وجودهم في البيت فهو لخارج بيوتهم؛ للدعوات والضيافات واللقاءات. ثم ينحون باللائمة على المرأة بتقصيرها في تربية أولادها.

الناحية الثانية: للمرأة رسالة في مجتمعها، وللرجل رسالة في مجتمعه، يتم الحديث عنه فيما بعد لكن الخلل جاء من أن الرجل كي يؤدي رسالته في بيته، لا بد أن يقتطع جزءاً من وقته يعمل فيه لتأمين الجانب المادي له ولزوجه ولولده، ولكن ليست هذه رسالته في حياته.. هذا جانب مادي يكلف فيه لتحقيق المؤونة والمنفعة والرزق والكسوة بالمعروف. ولا علاقة له بالرسالة الكبرى في الحياة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾^(٢) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ^(٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وهذا التوزيع للوظيفتين لا يعني التوزيع القاطع، إنما هو الغالب، وشذوذات هذه القاعدة، وتداخل الوظيفتين، يكاد يجعل أحياناً الوظيفة واحدة. فكم من الأحيان يهباً العمل للمرأة دون الرجل، وكم من الأحيان يضطر الرجل إلى عمل امرأته لتكون عوناً له على مشاق الحياة، وكم من الأحيان تكون المرأة مسؤولة عن تربية زوجها يوم يكون زوجها منحرفاً عن الجادة، وكم من الأحيان يُؤسّر الزوج بزوجته حتى ليغدو الخادم المطيع لها من شدة تأثيرها عليه، وحبها لها، وقوة شخصيتها، ووهن شخصيته. لكن هذا كله لا يغير القاعدة الأصل.

ومن الخلل أيضاً في الفهم للوظيفتين، أن المرأة أمة في البيت مسؤولة عن كل شيء من تنظيف وكنس وكي وطهي، وهذه هي رسالتها الحقيقية، وعليها مع هذا كله أن تكون جاهزة لتلبية رغبات زوجها الجنسية في اللحظة التي يريد. وكذلك تبقى وظيفتها كما هي ولو مضت تعمل شطرنهارها لتعيّنه على أعباء حياته. فيبقى هو الرجل وهي المرأة الأمة. وهذا يقودنا إلى الحديث عن مفهوم القوامة في الإسلام.

د - الرجال قوامون على النساء:

وكم استُغلت قضية القوامة هذه، وقضية التفضيل هذه بغير معناها الحقيقي، وبغير مقصدها الذي جاءت من أجله، ونجدنا مضطرين لعرض قول أئمة التفسير حول هذه الآية. يقول ابن جرير رحمه الله في تفسيره: (والقول في تأويل قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾. يعني بذلك جلّ ثناؤه: الرجال أهل قيام على نسائهم في تأديبهم والأخذ على أيديهم فيما يجب لله ولأنفسهم. بما فضل الله بعضهم على بعض. يعني: بما فضل الله الرجال على أزواجهم من سوقهم إليهن مهورهن، وإنفاقهم عليهن أموالهم، وكفايتهم لهن مؤنهن، وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن؛ ولذلك صاروا قَوَّامًا عليهن، نافذي الأمر عليهن، فيما جعل الله إليهم من أمورهن. وبما قلنا في ذلك قال أهل التأويل ^(١).

ثم جاء بعدها بالتفسير المأثور في ذلك عن ابن عباس والضحاك والسدي وسفيان وقتادة. فالتفضيل إذن ليس شيئاً خارج الإنفاق، والقوامة: هي تأديبهم والأخذ على أيديهم فيما يجب لله ولأنفسهم.

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٨، ٣٩).

فالتفضيل شيء خارجي بالمال وليس شيئاً ذاتياً في التكوين، ولم يسق الطبري - رحمه الله - رأياً آخر في المأثور غير هذا الرأي. ومن عادته ﷺ أن يسوق كل الآراء، ثم يرجح ويختار بعدها ما يراه الأصح والأقوم. فإذاً ليس في تفسير الطبري رأي مأثور عن الصحابة أو التابعين أو تابعيهم يجعل التفضيل شيئاً غير الإنفاق.

أما عند القرطبي، فقد ساق آراء أخرى بصورة التضعيف، وكلها بدون سند. وهاك ما قاله القرطبي - رحمه الله - في هذه الآية:

(.. ثم يبين تعالى أن تفضيلهم عليهن في الميراث لما على الرجال من المهر والإنفاق، ثم فائدة تفضيلهم عائدة إليهن).

هذا هو الرأي المعتمد عنده، ويسوق بعدها الآراء الضعيفة التي قيلت في هذا الأمر.

(ثم فائدة تفضيلهم عائدة إليهن. ويُقال: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير، فجعل لهم حق القيام عليهن لذلك. وقيل: للرجال زيادة قوة في النفس والطبع ما ليس للنساء؛ لأن طبع الرجال غلب عليه الحرارة واليوسة فيكون فيه قوة وشدة، وطبع النساء غلب عليه الرطوبة والبرودة، فيكون فيه معنى اللين والضعف، فجعل لهم حق القيام عليهن بذلك وبقوله تعالى: ﴿وَيْمًا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾).

فجميع الآراء التي نقلها القرطبي - رحمه الله - عن اعتبار التفضيل سبباً خارجياً عن الإنفاق إنما هي أقوال لا يُعرف قائلها، وتفتقر إلى سند يُرْكَنُ إليه.

ومن أجل هذا تُنزع القوامة، مع نزع النفقة وينتهي التفضيل كما ذكر القرطبي - رحمه الله - فقال:

(الثالثة: فهم العلماء من قوله تعالى: ﴿وَيْمًا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أنه متى عجز عن نفقتها، لم يكن قوَّاماً عليها، وإذا لم يكن قوَّاماً عليها كان لها فسخ النكاح لزوال المقصود الذي شرع من أجله النكاح. وفيه دلالة واضحة من هذا الوجه على ثبوت فسخ النكاح عند الإعسار بالنفقة والكسوة وهو مذهب مالك والشافعي^(١)).

وحين يسوق لنا القرطبي رأي أبي حنيفة وأحمد لا لخلاف في معنى القوامة إنما اعتماداً على آية أخرى تطالب الزوجة بالصبر، حيث يتابع - رحمه الله -:

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (٣/١٩٩).

(وهو مذهب مالك والشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يُفسخ لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ . وقد تقدم القول في هذا في هذه السورة)^(١) .

إنها تمامًا مثل عقد عمل بين موظف وشركة ، يقوم بعمل مقابل مبلغ من المال يؤدي له ، وعليه حق طاعة قوانين الشركة ، والالتزام بمبادئها ، فإن أحلَّ رب العمل بالشرط ، ولم يؤدِّ الراتب المخصص حقَّ له فسخ عقده معها . وقد تعاقدت المرأة مع الرجل من خلال الإيجاب والقبول في الزواج ، على أن تقوم بالتفرغ لتأدية حقه الشرعي ، وتتفرغ لتربية ولده ، وعليها الالتزام بقانون الله في ذلك مقابل هذه النفقة أو الراتب المخصص . فإن أحلَّ بنفقته أو راتبه يحق لها فسخ عقدها معه .

أما ابن كثير - رحمه الله - ، فيسوق رأيه - رحمه الله - استنتاجًا من غير هذا النص فيقول :

(يقول الله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ أي الرجل قيِّم على المرأة ، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت ، ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء ، والرجل خير من المرأة ؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال ، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة »^(٢) ... وكذلك منصب القضاء وغير ذلك : ﴿ وَيِمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أي المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ . فالرجل أفضل من المرأة في نفسه ، وله الفضل عليها والإفضال فناسب أن يكون قيِّمًا عليها كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهَا دَرَجَةٌ ﴾ الآية^(٣) .

وما ساقه ابن كثير - رحمه الله - اجتهاد لم يقيم على تفسير مأثور كما شهدنا . فيبقى الرأي الأقوى هو ما اعتمد على نقل عن الصحابة والتابعين . والذين حصروا الفضل في هذه الآية بالنفقة .

بينما نجد السيوطي وهو أوسع من نقل التفسير بالمأثور يذكر في هذه الآية النقول التي وصلته : (وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ قال : بالتأديب ، والتعليم ﴿ وَيِمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ قال : بالمهر .

(٢) رواه البخاري .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٩٩/ ٥) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٧) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الزهري قال: لا تُقص المرأة من زوجها إلا بالنفس.

وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال: نحن نقص منه إلا في الأدب.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يعني أمراء عليهن أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله، حافظة لماله ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ وفضله عليها بنفقته وسعيه ﴿فَالصَّدَاقُ قَنْتَلُ﴾ قال: مطيعات...

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في الآية، قال: الرجل قائم على المرأة يأمرها بطاعة الله، فإن أبت فله أن يضربها ضرباً غير مبرح، وله عليها الفضل بنفقته وسعيه.

وأخرج عن السدي: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يأخذون على أيديهن ويؤدبونهن. وأخرج عن سفيان: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ قال بتفضيل الله الرجال على النساء ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ بما ساقوا من المهر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال: الصداق الذي أعطها ألا ترى أنه لو قذفها لاعتها، ولو قذفته جلدت).

فنرى في الأقوال الثمانية المنقولة ليس فيها من يجعل الفضل غير النفقة إلا سفيان الذي قال: (بتفضيل الرجال على النساء، وبما أنفقوا من أموالهم بما ساقوا من المهر). ولو لم تكن الواو في هذه الجملة العاطفة بين التفضيل والإنفاق لكان رأي الجميع واحداً بلا خلاف وبهمنا في هذا التفضيل الشديد أمران على غاية الخطورة:

الأمر الأول: أن الآية نزلت فيما بين الزوجين، والقوامة في البيت للزوج على زوجته. فلا يجوز تعميمها في كل قضية. والاحتجاج بها في كل أمر يخص الرجال والنساء خارج البيت وخارج ما بين الزوجين.

الأمر الثاني: أن الرأي الراجح والذي عليه تفسير الصحابة والتابعين أن الفضل للرجل على المرأة في هذه الآية هو الإنفاق ذاته وليس شيئاً خارجاً في كيان الرجل عن المرأة، وعلى ذلك فلا يجوز تعميم هذا النص في كل قضية. والتحدث عن القوامة؛ حيث لا يكون بيت زوجية ولا إنفاق.

(هـ) وللرجال عليهن درجة:

وقد ساق ابن جرير - رحمه الله - تأويلات هذه الدرجة على أقوال:

(أ) الفضل الذي فضله الله عليهن بالميراث والجهاد وما أشبه ذلك.

(ب) الإمرة والطاعة.

(ج) ما ساق إليها من الصداق، وأنها إذا قذفته حُذت، وإذا قذفها لاعنها.

(د) إفضاله عليها وأداء حقّها إليها وصفحه عن الواجب له عليها أو عن بعضه.

ويختار - رحمه الله - من هذه الأقوال رأي ابن عباس ترجمان القرآن وهو التفسير

الآخر من الأقوال الأربعة السابقة فيقول:

(.. وأولى هذه الأقوال عندي بتأويل الآية ما قاله ابن عباس: وهو أن الدرجة التي

ذكر الله - تعالى ذكره - في هذا الموضع الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب

عليها وإغضاؤه لها عنه وأداء كل الواجب الذي لها عليه. وذلك أن الله - تعالى ذكره -

قال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ عَقِيبَ قوله: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فَأخبر - تعالى

ذكره - أن على الرجل من ترك ضرارها في مراجعته إياها في أقرائها الثلاثة وفي غير ذلك

من أمورها وحقوقها مثل الذي له عليها من ترك إضراره في كتمانها إياه ما خلق الله في

أرحامهن وغير ذلك من حقوقه، ثم ندب الرجال إلى الأخذ عليهن بالفضل إذا تركن أداء

بعض ما أوجب الله لهم عليهن فقال - تعالى ذكره - وللرجال عليهن درجة بتفضلهم

عليهن وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن

عباس بقوله: ما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها لأن الله - تعالى ذكره - يقول:

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾. ومعنى الدرجة الرتبة والمنزلة، وهذا القول من الله - تعالى

ذكره - وإن كان ظاهره ظاهر الخبر فمعناه معنى ندب الرجال إلى الأخذ على النساء

بالفضل ليكون لهم عليهن فضل درجة^(١).

ثانيًا: الحقوق الأخرى:

١١ - حق الهجرة والمحنة والجهاد: والحق الذي نذكره في هذا المقام هو ما أنزل به نص القرآن الكريم بالمساواة وذكر الأنثى والرجل في النص ذاته: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنَ بَعْضٍ ۚ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سِيَاقَتِهِمْ وَلَا أَذْخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فالعمل الذي يثيب عليه الذكر والأنثى نصًا: هو الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم، وأودوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا. فهي حقوق ثلاثة (الهجرة، والمحنة في سبيل الله، والجهاد بالنفس) وذلك إضافة إلى الحقوق العشرة السابقة. فلها حق المشاركة في الهجرة، ولها حق الأجر على ما يصيبها من أذى في سبيل عقيدتها، ولها حق القتال والاستشهاد في سبيل الله. إذا صُدِّرت الآية بعمل الذكر والأنثى بصريح العبارة لا بالإشارة.

وسبب نزول الآية الكريمة يؤكد هذا الفهم الواضح.

(قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن سلمة رجل من آل أم سلمة قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ﴾ إلى آخر الآية وقالت الأنصار: هي أول طعينة قدمت علينا ^(١)).

(١) تفسير ابن كثير (٤٧٨/١)، وقال: «رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه». ومعنى قول الأنصار: أنها أول طعينة قدمت علينا، أي أنها أول مهاجرة في سبيل الله بمفردها، وإثبات نص هذه الهجرة درس لكل امرأة مسلمة في الوجود: (فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة.. قال ابن إسحاق: فحدثني.. عن جدته أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه وحمل معي سلمة بن أم سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رآته رجال بني المغيرة (أهلها).. قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبك هذه؟ علام تترك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه.. وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح. فما أزال أبكي حتى أُمسي سنة أو قريبًا منها حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها. قالت: فقالوا لي: الحق بزوجك إن شئت. قالت: ورد بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعت في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله. فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت في التنعيم لقيت عثمان بن طلحة، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية، قالت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد. فقلت: لا والله إلا الله وبني هذا، فقال: والله =

فأم سلمة - رضي الله عنها - هي سبب نزول الحقوق العشرة. وأم سلمة هي سبب نزول الحقوق الثلاثة بعد تلك. وحتى لا يزعم أحد نسخها، ننقل له كذلك رأي أم سلمة في نزول هذه الآية، فعنها - رضي الله عنها - قالت: آخر آية أنزلت هذه الآية: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِثُ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ إلى آخرها^(١).

هذا وقد ورد حق الهجرة في آية أخرى خاصًا بالنساء واللاتي أنزل بهن نص خاص من كتاب الله يستشنيهن من وثيقة صلح الحديبية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٍ فَاْمَحْضُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَا تَسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ذَلِكَ حَكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]^(٢).

١٢ - حق بيعة الإمام: وهو نص خاص بالنساء كذلك. أن يقمن ببيعة الإمام على الإسلام دون واسطة كما هو في كتاب الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

ونلاحظ أن هذا الحق يشتمل على حق أساسي هو حق البيعة على الإسلام، وحقوق فرعية تشعب منه وهي الامتناع عن السرقة والزنا وقتل الأولاد والبهتان والمعصية، وبالتعمق فيها نلاحظ أنها تتوزع على أمور شخصية كالسرقة وقتل الأولاد، وأمور اجتماعية وهي الزنا والبهتان، وأمور شرعية سياسية تتعلق بشخص الحاكم وهي الطاعة بالمعروف. فالأشمل أن يكون حق بيعة الإمام على ما يرتثيه الإمام من الأمور المهمة.

١٣ - حق الولاية وحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وسنعرضها هنا من باب

=ما لك من مترك. فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه.. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال: زوجك في هذه القرية، فادخلها على بركة الله. ثم انصرف راجعاً إلى مكة. فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة. وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة (السيرة النبوية (ص ٤٦٩، ٤٧٠).

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٨). وقال: روى ابن نجيج عن مجاهد عن أم سلمة قالت: آخر آية.. إلى آخرها، رواه ابن مردويه.

(٢) وهذه الآية نزلت في أم كلثوم بنت عقبة، وهي التي هاجرت وحدها كذلك فارةً بدينها من مكة إلى المدينة.

الحق، ونحدث عنها فيما بعد من باب الواجبات، فالله تعالى نصّ باللفظ الصريح للمؤمنين والمؤمنات على الولاية، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله كما يقول ﷺ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

والذي حدا بنا إلى التركيز على هذين الحقيقتين؛ حق الولاية، وحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الصورة الخاطئة التي تصور المرأة جزءاً من أثاث بيتها، ولا علاقة لها بمجتمعها. أما الأمور الثلاثة الأخرى فهي واجبات داخلية ضمن إطار العمل الصالح، وإبرازها هو لأهميتها الكبرى من بين العمل الصالح.

فالولاية بين المؤمنين والمؤمنات تناصّر وتحزّب وانتخاب وتأييد وتلاحم أمام حزب المنافقين والمنافقات الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

فالمرأة المسلمة عند الزوج المنافق ذات علاقة وثيقة بجماعة المؤمنين، وتكشف تأمر زوجها على الإسلام إن رأت شيئاً من ذلك، وتعلن البراءة من تصرفاته، أو حتى تصرفات ابنها أو أخيها المنافق وتتولى الله ورسوله وجماعة المؤمنين.

١٤ - حق الحماية والتنظيم في المجتمع الجاهلي: ونفقه هذا الحق من قوله ﷺ في سورة الفتح: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنْصَبُوكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَّةً يَغَيِّرُ عَلَى لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

فقد شاءت إرادة الله تعالى أن يتأخر فتح مكة لإنقاذ المؤمنين والمؤمنات في مكة من الإبادة بيد الكفار انتقاماً من غزو مكة من المسلمين. والجانب التنظيمي في الموضوع يظهر قبيل هجرة المدينة من قول عثمان ؓ: (ثم كنت أدخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين، فأقول: إن رسول الله ﷺ يبشركم بالفتح ويقول: «أظلكم حتى لا يستخفي بمكة الإيمان» فكنت أرى الرجل منهم والمرأة تتحب حتى يظن أنه يموت فرحاً بما خبرته) (١).

١٥ - حق التعلم: مصدر العلم عند المسلمين كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ فأعلم أهل الأرض هو أعلمهم بهذين المصدرين. وهما اللذان كُلفت نساء رسول الله ﷺ بهما حيث كان مركز أعظم هذه الجامعات بيت رسول الله ﷺ والمسجد. فقال الله تعالى لهم: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْسِكُنَّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤] وآيات الله تعالى هي القرآن، والحكمة هي حديث رسول الله ﷺ.

وحين لا يكون العلم متوفرًا في البيوت كما هو في بيوت أمهات المؤمنين، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وهذا ما أكدته رسول الله ﷺ عن العلم فقال: « العلم ثلاثة، فما وراء ذلك فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة »^(١).

وما وراء الآية الكريمة والسنة القائمة والفريضة العادلة هو حق للمرأة يجوز لها أن تتعلمه وليس فرضًا عليها.

١٦ - حق العمل الصالح: والعمل الصالح أول ما يتبادر على أنواع الطاعات والقربات والعبادات، لكن ليس هناك ما يفرض هذا الفهم، إنه صحيح ولا شك لكن الآية تتسع لأكثر من ذلك لكل عمل صالح من أعمال الدنيا والآخرة؛ في الوظيفة وفي المتجر وفي المدرسة وفي المستشفى وفي الشارع وفي مصنع التطريز وفي مختبر الصيدلية. كل عمل صالح توافق مع روح الإسلام، ولم ينفر الإسلام من مثله هو عمل صالح بهذا الشمول نفهم قول الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والذي يرجح هذا الفهم الشامل هو انعكاس آثار هذا العمل على الدنيا قبل الآخرة حيث تكون ثماره الحياة الطيبة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، والآيات متعددة ومتنوعة بهذا المعنى، وعمل المرأة ضمن هذا النطاق، نطاق العمل الصالح يدخل في هذا السياق لتحقيق نعيم الدارين.

١٧ - حق التملك: حيث إن المرأة ذمة مالية كاملة، تستطيع أن تتصرف بمالها كما تشاء دون تدخل من أحد يبيعًا وشراءً ورهنًا وإجارة وكل ما يدخل تحت إطار المصطلح الفقهي - المعاملات - يمثل ذلك كله قول الله ﷻ:

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١/١)، (ح ٥٤).

﴿ وَلَا تَنْمَتُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى الْبَعْضِ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٢].

١٨ - حق الميراث: وهو نصف حق الرجل على العموم، إلا في حالات استثنائية، وآياته مفصلة في ذلك لكن يجمعها قول الله ﷻ: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ [النساء: ٧].

١٩ - حق المهر: وإذا كان ميراث المرأة نصف ميراث الرجل فالمهر كله نحلة وهدية من الرجل للمرأة دون أن تقدم شيئاً للرجل، قال تعالى: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَسًا مَرِيئًا ﴾ [النساء: ٤].

ويحظر الإسلام استرجاع أي شيء من المهر عند الطلاق، ولو كان قنطاراً من الذهب أو الفضة: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ أَحَدَنْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبْدَا ۖ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

٢٠ - حق العودة إلى الزوج: فالمرأة كما في نص الحديث « البكر تُستأذن، وإذنها صماتها، والأيم تُستأمر »^(١). ولو طلقها زوجها وأحبت أن تعود إليه فلا حق لأحد من منعها من ذلك: ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا فَكَّ عَنْ أَجَلِهِنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

٢١ - حق اختيار الزوج الجديد: فإن طُلقت أو تُوفِّي عنها زوجها وأنهت عدتها فهي صاحبة القرار باختيار الزوج الجديد: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

٢٢ - حق المخالعة من الزوج: وذلك حين تُساء معاملتها فيمكن لها أن تتفق مع الزوج على المفارقة مقابل مبلغ من المال تفتدي به نفسها ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٧٠)، ومسلم رقم (٣٥٤١).

شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ [البقرة: ٢٢٩].

٢٣ - حق نصف المهر: وذلك حين يقع الطلاق قبل الدخول، فلا بد من تعويض على هذه الإساءة التي نزلت بالزوجة: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَيَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَوْ تَعْفُوا أَوْ تَعْفُوا أَوْ تَعْفُوا أَوْ تَعْفُوا وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٢٤ - حق متعة الطلاق: وذلك جبراً للخاطر الكسير الذي أنزل به هذا الفراق، لعله يمسح شيئاً من الحقد والغضب الذي يملأ كيان الأثنى العاطفية: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرَبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَعُوهُنَّ عَلَى الْمُسَعَّرِ قَدَرَهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ، مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ويبقى هذا الحق قائماً حتى ولو وقع الطلاق بعد المباشرة والعشرة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

٢٥ - حق الحضانة والإرضاع: فالمرأة بعد فراق زوجها ليست مكلفة بإرضاع طفله ولو كان ولدها، إنما على الأب أن يتحمل نفقة هذا الإرضاع: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وفي ظل زوجها فلا بد من نفقة خاصة للولد رضاعة وطعاماً، لتحقيق حاجتها من الطعام والكسوة، والرجل هو المكلف بذلك فهو المولود له:

﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ...﴾ [البقرة: ٢٣٣].

٢٦ - حق السكنى والنفقة في العدة: فالعدة تابعة للزواج في أحكامها؛ لأنها موقفة على زوجها يستطيع أن يراجعها خلالها، فلا بد أن يتحمل تبعاتها ومسؤوليتها: ﴿أَسْكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ مِنْ وُجُوْهُكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِنُضَيْفُو عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ رَبُّنَّكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهَا أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

٢٧ - حق التحكيم على قدم المساواة مع الرجل: وذلك حين ينشب الخلاف بين الزوجين، فليس رأي الزوج هو المرجح إنما يتساويان في عرض مواطن الخلاف

والحكمان اللذان يتم اختيار كل واحدٍ منهما من طرف هما صاحبا القرار دون أي تمييز لأي طرف على آخر: ﴿ وَإِنْ حَفِظْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء: ٣٥].

(ب) واجبات المرأة المسلمة في القرآن:

أولاً: واجبات متساوية مع الرجال:

وهي:

١ - إطاعة الله ورسوله بالنص: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٢ - الدعوة إلى الله ﷻ: من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه واجب إسلامي كما في الحديث: « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم »^(١). والآية التي نصت على ذلك: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [التوبة: ٧١].

٣ - غض البصر وحفظ الفرج: وذلك مع الخلاف في عورة المرأة وعورة الرجل: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣١].

٤ - عدم الظن السيئ بالصالحين والصالحات في الأمة: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١٢].

٥ - و ٦ - و ٧ - عدم السخرية من المؤمنين وعدم اللمز وعدم التنازب بالألقاب: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

ثانيًا: واجبات خاصة بالنساء:

٨ - الخمار: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

٩ - عدم إبداء الزينة إلا لمن استثنى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعَاتِ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

١٠ - ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

١١ - الحجاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيزَةٍ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

١٢ - القول بالمعروف: وإن كانت خاصة بنساء النبي ﷺ. فجمهور المفسرين على أنها عامة لنساء المؤمنين: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ قُلُوبَكُمْ وَلَا تَقُولْنَ بِمَا يَكْفِي هُنَّ حَتَّى يَسْمَعُوا كَلِمَ الْوَعْدِ فَإِنَّ هُنَّ لَغَافِلَاتٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

١٣ - الوقوف في البيوت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

١٤ - عدم التبرج: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

١٥ - إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

١٦ - العلم: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

الحقوق والواجبات الزوجية:

وجاء اللفظ القرآني في التعبير عنها بأبدع وأروع إيجاز في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهذا الذي نعينه بالتكافؤ بين الرجل والمرأة لا التساوي، وإذا أخذنا بتفسير ترجمان القرآن ابن عباس للدرجة، وهي تسامح الرجل مع زوجته في واجباتها، وتأدية واجباته نحوها، يبقى التكافؤ قائمًا دون خلل؛ لأن ابن عباس - رضي الله عنهما - يرى واجبات

المرأة أكثر من واجبات الرجل فهذه الدرجة تتعادل الكفتان. ومن يرى أن القوامة هي الدرجة. فالقوامة مرتبطة بالإنفاق كما هو الرأي الراجح عند جمهور المفسرين كما سبق وذكرنا من قبل.

هذه الحقوق والواجبات ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِلَّا فَضَّلَتْ لَخُنَّ فَإِذَا طَعْنْتُمْ فَطَعْنُوا وَكُنَّ كَالْغُلَامِ الْفَاسِقِينَ﴾ (النساء: ٣٤، ٣٥).
 هذه الحقوق والواجبات ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِلَّا فَضَّلَتْ لَخُنَّ فَإِذَا طَعْنْتُمْ فَطَعْنُوا وَكُنَّ كَالْغُلَامِ الْفَاسِقِينَ﴾ (النساء: ٣٤، ٣٥).

فالآية الأولى تنص على المشاركة في الحياة الزوجية ابتداءً دون خلل، وانتهاءً باستعمال الأساليب التربوية المذكورة عند خلل الزوجة لتقويمه، بينما تتحدث الآية الثانية عن خلل من الطرفين في واجباتهما فلا يُترك للرجل حقه في القوامة، إنما يسوى بينهما في الحكمين اللذين يقرران استمرار الحياة أو تعذرهما. وذلك حين يكون الخلل من الطرفين.

وقد حرص رسول الله ﷺ على شرحها في اجتماع المائة ألف في حجة الوداع ليلغوها للأجيال اللاحقة: «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، اللهم قد بلغت، اللهم اشهد»، «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن: أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(١).

فأهم الواجبات على المرأة أن تحفظ بيتها في غياب زوجها ولا تدخل عليه أحدًا يكرهه (...) وهذا حكم المسألة عند الفقهاء أنها لا يحل لها أن تأذن لرجل ولا امرأة ولا محرم ولا غيره في دخول منزل الزوج إلا من علمت أو ظنت أن الزوج لا يكرهه^(٢).

ولا نرى في أهم هذه القضايا الحقوق والواجبات - أي ذكر للخدمة والعبودية والانصهار في البيت وعن حكيم بن معاوية عن أبيه: (أن رجلاً سأل النبي ﷺ ما حق

(١) صحيح مسلم (ص ٨٨٩، ٨٩٠)، (ح ١٢١٨).

(٢) من شرح صحيح مسلم للنووي على هامش الصحيح (ص ٨٩٠).

المرأة على الزوج؟ قال: « أن يطعمها إذا طعم، وأن يكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه ولا يقبّح ولا يهجر إلا في البيت »^(١).

فهما جانبان؛ الجانب المادي من الطعام والكساء، والجانب التربوي في أقصى حدوده بحيث لا يهينها ولا يضربها على وجهها، ولا يهجرها إلا داخل بيتها، فهو شريك لزوجته في البيت بشكل كامل، وفي رواية بهز: « حرثك، ائت حرثك أنى شئت »، وبالصورة المقابلة، فالمرأة الصالحة التي هي أعظم كنز بعد تقوى الله هي الزوجة الصالحة، فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: « ما استفاد مؤمن بعد تقوى الله ﷻ خيراً له من زوجة صالحة؛ إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله »^(٢).

ف (عقد النكاح وضعه الشارع ليرتب عليه انتفاع الزوج ببضع الزوجة وسائر بدنها من حيث التلذذ)^(٣)، وهذا هو معنى « .. استحللتم فروجهن بكلمة الله .. ».

فالجانب الشرعي المحدد هو استحلال الفرج بعقد النكاح، وعليها أن تلبيه كلما طلب ذلك، والجانب الأدبي يدخل فيه كل ما دُكر حول الزوجة الصالحة.

رسالة المرأة في المجتمع:

ونقول سلفاً: إن رسالة المرأة في المجتمع هي نفسها رسالة الرجل، ما عدا الجهاد الذي هو فرض عين وواجب على الرجل، ومباح وحق للمرأة، إلا عندما يغزو العدو بلداً من بلدان المسلمين، فتشترك بفرض العين مع الرجل، أما ما دون الجهاد: فالمرأة والرجل متساويان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومتساويان في فرضية طلب العلم، ومتساويان في النصيحة للحاكم، ومتساويان في العمل والوظيفة أيّاً كان العمل والوظيفة ضمن شروط الإسلام المعهودة من إذن الرجل والبعد عن الأجواء المريية، ومتساويان في حق التملك وفي الذمة المالية وجميع أنواع العقود كما أسلفنا، وأهلية الرجل كأهلية المرأة سواء بسواء. والرجل والمرأة متساويان في حق الولاية ما عدا

(١) أخرجه أحمد (٤٤٧/٤)، وأبو داود وابن ماجه وغيرهما.

(٢) سنن ابن ماجه (١٨٥٧/٢).

(٣) الفقه الإسلامي على المذاهب الأربعة (٢/٤).

الولاية الكبرى وهي الإمامة، والتي ورد نص غير مباشر باستثنائها « ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »^(١).

وسنعرض بعد هذا الإجمال للتفصيل في بعض القضايا المعاصرة مما يطلق عليه حقوق المرأة:

(أ) عمل المرأة بين الحق والواجب:

انتقل عمل المرأة في الغرب من الحق إلى الواجب فمن يعمل يأكل، وليس عندهم اليوم نظام نفقات كما هو الحال في الإسلام، ففي القرن التاسع عشر قبل حصول المرأة على كثير من الحقوق مثل التعليم والعمل والتصويت وحق الملكية. كان من الممكن أن تقع المرأة في مصيدة الزواج برجل مستبد وليس لها من مخرج آخر تلوذ به، والآن نسمي مثل هذه المرأة مظلومة، وبعد أن حصلت المرأة على حق التصويت، وخرجت لتتلقى العلم وتشارك في الحياة العملية وتطالب بالطلاق.. تجدها عندما يبيء زواجها بالفشل تعيش نمطاً من الحياة يتسم بأنه يفتقد إلى المساواة في الاستقلالية والحرية.. وهناك ثلاثة عوامل تسحب البساط من تحت أقدام النساء المطلقات، وهي الاعتقاد بأن رعاية الأطفال من صميم عمل المرأة في كل الأحوال وفشل الأزواج السابقين أو بالأحرى تقاعسهم عن دعم أطفالهم مادياً، ثم حصول الرجل على أجر مرتفع من عمله على حين ينخفض مستوى معيشة المطلقة.. ومن هنا نرى أن الاضطهاد والحديث الذي ينتظر المرأة خارج دائرة الزواج، خلق لها تحديداً محكماً داخله.. (وبالرغم من تزايد مرتبات النساء عن ذي قبل حيث أصبحن يحصلن على (٧٠٪) مما يحصل عليه الرجال، بعد أن كن يحصلن على (٦٠٪) فقط منذ مائة عام إلا أن لديهن احتياجاً اقتصادياً أكثر من الرجال)^(٢).

لقد غدا هذا العمل المفروض على المرأة مهدداً الحياة الأسرية، (وطبقاً لإحصائية قام بها عالم الاجتماع ويليام جود، نجد أن نسبة المطلقات في الاتحاد السوفيتي وألمانيا وفرنسا والسويد تزيد بين النساء العاملات عنها في ربات البيوت، بل إنها تتضاعف في فرنسا مما يجعل الباحثين يستتجون أن عمل المرأة يؤدي إلى وقوع الطلاق)^(٣).

(١) رواه البخاري (٤/ ١٦١٠) رقم (٤١٦٣).

(٢) الوردية الثانية في حياة المرأة العاملة لآرلي هوكشايلد مع آن ماشنج، ط. الأولى (١٩٩٤م)، (ص ٣٤٦).

(٣) المصدر نفسه (ص ٣٠٠).

وتعكس هذه الأمور على الأطفال وحرمانهم من حنان الأبوة ورعايتها (ففي بحث لعالمة الاجتماع تيري أرنديل عن المرأة المطلقة أظهر أنه نحو نصف أطفال الأزواج المطلقين لم يحظوا بأي زيارة أو مكالمة من آبائهم في العام الأخير، وأن نحو (٣٠٪) من هؤلاء الأطفال لم يروا آباءهم في الخمس سنوات الأخيرة، ومهما كان العمل الذي تتقلده المرأة.. فإنها يجب عليها أن تكون الشخص المحوري في حياة أطفالها)^(١).

وتخلص آربي إلى القول: (ومن هنا نجد أن الرجل في الماضي كان يسيطر على المرأة من داخل مظلة الزواج. والآن وبالرغم من خروج المرأة إلى العمل إلا أن الرجل لا يزال يسيطر عليها خارج مظلة الزواج. فالمرأة في النظام القديم كانت مرغمة على طاعة الزوج المستبد، أما في النظام الحديث فإن المرأة المطلقة تعاني من إهمال الزوج السابق لها اقتصادياً، ومن إهمال المجتمع لها ككل.

كانت المرأة في الماضي ملازمة للمنزل، ولكنها اقتصادياً كانت تتمتع بالاكتماء وبالإنفاق عليها. على حين أن المرأة المطلقة في الوقت الحاضر تقوم بعمل البيت بلا مقابل مادي.

إن الاضطهاد والحديث للمرأة خارج نطاق الزواج خفف أيضاً من قوتها داخله، وأصبحت المتزوجات أكثر حذراً.. وتقول في نفسها: (فلأصبرن على عمل شهر إضافي أفضل من الطلاق)^(٢).

أما في الإسلام فنظام النفقات فيه لا يمكن أن يدع المرأة دون إنفاق ورعاية من الرجل في أي حالة من حالاتها بنتاً أو أختاً أو زوجاً أو أمّاً، وقضى على حالة الضرورة التي تفرض عليها أن تجهد وتكافح وتصارع للحصول على لقمة عيشها. وحين لا يكون لها معيل، فالدولة هي المسؤولة عن إعالتها. وهذه هي فلسفة نظام النفقات في الإسلام. وهي أنه لا يوجب عليها العمل لكسب رزقها، إنما تتفرغ لمهامها في البيت والمجتمع بينما يوجب الإسلام على الرجل المعيل ذلك.

والبطالة التي تعاني منها اليوم أكثر أمم الأرض حين تكون الأولوية للرجال في العمل والوظيفة يخفف البطالة من جهة، ويضمن إعالة النساء غير العاملات من جهة ثانية. وفقه الأولويات يوجب ذلك.

(١) الوردية الثانية في حياة المرأة العاملة لآربي هوكشايلد مع آن ماشنغ، ط. الأولى (١٩٩٤م)، (ص ٣٤٧).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٤٩).

وإذا كان الإسلام لا يفرض عليها أن تعمل لكسب رزقها كما هو الحال في الأنظمة الجاهلية: من يعمل يأكل. لكن هذا لا يعني حرمانها من حق العمل إذا توفرت شروطه الشرعية، وأذن لها معيها بذلك. إن الحق في المفهوم الشرعي يعني الإباحة والجواز فهي تعمل تفضلاً وتضحية لا واجباً واضطراراً أيّاً كان نوع العمل، يدوياً أو ذهنياً إذا كانت تملك مؤهلاته. وليس بالضرورة أن يكون الرجل أقدر، خاصة حين يكون العمل ذهنياً أو علمياً، فالذي يحكم التمايز هنا الكفاءة والخبرة، وهما أمران مكتسبان، إنما الفرق الخلقي بين الرجل والمرأة؛ فالمرأة أضعف جسدياً من الرجل؛ لأنها قد أعدت لوظيفة تربوية في البيت هي وظيفة الأمومة. فالعادة الشهرية والحمل وآلامه وآلام المخاض والنفاس تنهك الجسد وتهلكه ويقامها في العمل المباح والجائز يضاعف عليها المسؤولية، فهي صاحبة القرار في استعمال هذا الحق مع زوجها أو أبيها. وتستطيع أن ترقى في السلم الوظيفي إلى أعلى مراتبه، وتخوض المسابقات التي تؤهلها لهذا الرقي، وتقدم الإنجازات التي ترفعها في هذا السلم.

ونشير هنا إلى قضية مهمة كثيراً ما تجعل الالتباس في هذا الأمر:

كثيراً ما يُسارع المتحمسون للقول: إن هذا يصرفها عن وظيفتها الرئيسية في البيت وتربية الأولاد وغير ذلك ونحن حين نصصح هذه الفكرة لا ندعو المرأة إلى الخروج من بيتها بمقدار ما نزيل الالتباس فيها.

إذا أخذنا متوسط عمر المرأة على أنه ستون عاماً؛ حيث تُحال بعدها على التقاعد إن كانت عاملة أو موظفة وأخذنا تقديرًا وسطيًا لها يمكننا أن نقسم عمرها إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: حتى سن العشرين، وغالبًا ما تشترك مع الرجل في التحصيل العلمي والحصول على الشهادة الثانوية، والدخول في التحصيل الجامعي.

المرحلة الثانية: من العشرين للأربعين من العمر، وهي التي تؤدي فيها وظيفتها الرئيسية في الأمومة والتربية ورعاية البيت، فالإنجاب يكون خلال هذه الفترة، والمسؤولية البيئية هي الأهم. ومع نهاية هذه المرحلة يكون الأولاد قد انتظموا في دراستهم، وكبروا فراحوا يحملون مسؤولية البيت والعمل مع أمهم.

المرحلة الثالثة: من الأربعين للستين، وتكون متفرغة من المسؤولية، تستطيع أن تشارك في كل المجالات المطلوبة منها إذا كانت راغبة في ذلك، ولا شك أن المرحلة الثانية هي أصعب المراحل في الجمع بين العمل والوظيفة البيئية.

(ب) العمل فرض كفاية:

وإذا كان العمل في الإسلام - كما ذكرنا - حقاً وليس واجباً، لكنه قد يتحول إلى واجب أو فرض كفائي إذا قام به البعض سقط عن الباقيين، فهناك مجالات لا بد من عمل المرأة فيها فيما لا بد من وجود المرأة فيه وأهمها التعليم. فظاهرة التعليم في مجتمعنا للفتاة في جميع المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية والعالية، الأصل فيها أن يكون المعلم فيها امرأة بعيداً عن الاختلاط، ومحافظة على الأخلاق والآداب الإسلامية. فإذا كان الطلاب بعدد الطالبات فهذا يعني أننا بحاجة إلى معلمات بعدد المعلمين في كل قطر. وكذلك الأمر في مجال الطب. وحين تحرص الدولة الإسلامية على الابتعاد عن الاختلاط ففي كل مرافق الخدمات العامة التي ترتادها المرأة يحسن أن يكون فيها نساء. فالذي يهمنا من هذا الأمر هو كيف يمكن الجمع بين العمل الواجب ومسؤولية البيت ورعاية الأطفال. بحيث لا يكون تضحية للبيت على حساب العمل. إن الأمة الحريصة على تطبيق الإسلام في هذه المجالات تتخذ من التشريعات المعنية للمرأة ما يحقق المهمة الرئيسية لها دون أن تضحي بأي من المهمتين. وهذه دول جاهلية معاصرة أحست بأهمية تربية الطفل، وخطورة العمل على هذه المهمة فراحت تشريع كل ما يحقق هذه المهمة على خير وجه، حتى أن العالمة الأمريكية تحلم بهذا التخطيط في المجتمع الأمريكي؛ إذ تقول:

(إن ما نحلم به حقاً هو ما أطلق عليه فرانك فير سنبرج بالخطة الرائدة للأسرة، وهي تدعو إلى الاقتداء بالأمم الصناعية الأخرى، واستقاء خبراتها، ففي السويد مثلاً إثر مولد أي طفل يُمنح كلا الأبوين إجازة مدفوعة الأجر لمدة عام، بالإضافة إلى الحصول على راتب تسعة أشهر يوازي (٩٠٪) من دخل الفرد، ومبلغ (٣٠٠) دولار شهرياً لمدة ثلاثة شهور، وأي زوجين لديهما طفل دون الثامنة من العمر لديهما الحق في أن يعملوا بما لا يزيد عن ست ساعات في اليوم. أما التأمينات الاجتماعية فتقدم للوالدين تعويضاً عن الوقت الذي يقضيه أحدهما في مدرسة طفله للاطمئنان عليه أو رعايته إن كان مريضاً. إن هذا هو ما يمكن بالفعل أن نسميه التخطيط من أجل الأسرة.

إن الخطط من أجل الأسرة في الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تخفّض الضرائب عن الشركات التي تشجع على منح إجازات لرعاية الطفولة للأزواج الجدد على وجه

الخصوص.. كما أن الحكومة بوسعها منح تسهيلات ضريبية للمستثمرين الذين يسعون إلى بناء وحدات سكنية قريبة من مواقع العمل، وتشمل مطاعم ومراكز للتسوق ومراكز لرعاية الأطفال يوميًا، يعمل بها الطلبة والجندات من المناطق المجاورة كما تصف ذلك دولوريس هايدن في كتابها « إعادة تصميم الحلم الأمريكي »، وبهذه الطرق تستطيع الحكومة الأمريكية خلق بيئة أكثر أمانًا للأسرة العاملة^(١).

لقد كان عمر ﷺ هو رائد التخطيط لحماية الأسرة وتشجيع الإنجاب يوم فرض راتبًا شهريًا لكل مولود في الإسلام بعد فطامه، وعندما نمت الخبر إليه أن كثيرًا من الأمهات يسرعن في فطام أطفالهن من أجل الراتب؛ جزع جزعًا شديدًا وعدل قراره بأن يكون الراتب منذ أن يرى الطفل النور على الأرض.

والدولة المسلمة التي تعرف فقه الأولويات، وتوازن بين التنمية والتعليم والتربية ورعاية الطفولة والأمومة تستطيع أن تخطط بحيث تعين المسلمة العاملة على مهمتها دون أي إخلال بتربية أطفالها.

(ج) الدعوة إلى الله فرض كفاية:

وهي من المهام الكبرى التي ذكرناها في باب الحقوق وفي باب الواجبات والتي مثلتها آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للمؤمنين والمؤمنات. وقد كان الإمام الشهيد حسن البنا - رحمه الله - رائد العمل الإسلامي المعاصر هو الذي دعا إلى تكوين تنظيم متكامل للأخوات المسلمات مكافئ لتنظيم الإخوان المسلمين. حتى تبلغ الدعوة كل بيت وكل فتاة وكل فتى، وإذن فمرحلة العبور من المشاركة في مؤسسات العمل الإسلامي للرجال لم تتم لتنتقل بها إلى الضفة الأخرى من الاستقلال في تنظيم إسلامي نسائي مستقل.

(من الإصابات الخطيرة التي لحقت بالتنظيمات والحركات الإسلامية - إن لم تكن أخطرها - أن شخصية المرأة المسلمة بأبعادها التي رسمتها مرحلة السيرة والخلافة الراشدة فترة القدوة لم تتكامل ولم تأخذ موقعها في مؤسسات العمل الإسلامي. وبقيت تعيش ضمن إطار هوامش ضيقة ومعزولة عن المجرى العام للحركة الإسلامية. لقد

(١) الوردية الثانية في حياة المرأة العاملة لأرلي هوكستشايلد (ص ٣٧٢).

اشتغلت تنظيمات العمل الإسلامي بالدفاع عن المرأة أكثر من اشتغالها بإخراج المرأة المسلمة بأبعادها المطلوبة إلى حيز الواقع، ولم تستطع أن تجعل الإسلام خيارًا للمرأة، وتقيم لذلك المؤسسات والروابط والاتحادات والمؤتمرات والمجالات الميدانية التي تبرز من خلالها المرأة المستقلة ذات الحقوق والواجبات. وبقيت معارك الحجاب وتعدد الزوجات والطلاق، ونصيب الإرث والشهادة هي الخارطة المفروضة التي تستنفد الطاقة، وتحدد النشاط، وتتحكم بالتفكير حيث لا تزال نبدي ونعيد في هذه الساحات، ولم نستطع أن نغادرها إلى المواقع الفاعلة في بناء المرأة البناء السليم؛ لذلك كانت المرأة ولا تزال من الثغور المفتوحة والأعضاء المعطلة في الجسم الإسلامي، يتسلل من خلالها دعاة التحلل والفساد في الأرض باسم تحرير المرأة. وكان الأولى أن يحمل لواء حركة التحرير الإسلاميون ويكسروا القيود التي فرضتها التقاليد الجاهلية والوراثات الثقافية المغشوشة^(١).

(ولا بد من الإشارة هنا إلى التجارب الحديثة لمشاركة المرأة المسلمة في بعض الحركات الإسلامية مثل السودان وتونس وفلسطين.. لكننا نلاحظ القصور في تفعيل دور النساء في الحركة الإسلامية في سورية بشكل أوضح وجلي^(٢)).

والعجيب حقًا أن تشارك الأخت الداعية المسلمة في أخطر الأمور، في حرب الدفاع عن النفس التي خاضتها في حماة وغيرها. وتُقتل وتستشهد أو تؤسر أو تُنفى، وتضع حياتها في سبيل الله، وتبقى مؤسسات الحركة الإسلامية في سورية تناقش مشاركة الأخت في انتخاب المراقب العام، أو عضوية مجلس الشورى وغيره من المؤسسات الفاعلة في التنظيم. وهو قصور غير معذور أمام الحركات الإسلامية الأخرى، فحزب الرفاه في تركيا يبلغ تعداد تنظيمه النسائي ما يفوق المليون امرأة، وحركة الإصلاح في اليمن أدخلت ما لا يقل عن سبعة أخوات منتخبات في مجلس شوراها، ولا تزال الأخت في سورية تراوح مكانها دون مشاركة^(٣).

إن حق الدعوة إلى الله، الذي هو واجب من جهة ثانية يضع المرأة المسلمة أمام

(١) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة للأستاذ عمر عبيد حسنة (ص ١٢٠، ١٢١).

(٢) بحث: دور المرأة في العمل الإسلامي.

(٣) اتخذت الخطوة الأولى في هذا المجال بتعيين ما لا يقل عن (١٠٪) من مجلس الشورى من الأخوات تمهيدًا لخطوات لاحقة.

مسؤولياتها في أن تكون قادرة على إبلاغ الدعوة إلى كل موقع وبكافة الوسائل المتاحة ضمن تخطيط محكم يحافظ على سلامة الأسرة من جهة، وسلامة المجتمع من جهة ثانية.

ولا يجوز أن يكون التنظيم الإسلامي النسائي الدعوي على الساحة متوقفاً على نفسه لا يقصده إلا الصالحات، إنما على هذا التنظيم أن يغزو المجتمع كله، فيكرن للإسلاميات في الاتحادات النسائية المحلية والعالمية الأغلبية الساحقة. وكما هو الحال في النقابات الكبرى في المجتمع، حيث أصبح الإسلاميون هم أصحاب القرار في أغلبها. فما الاتحاد النسائي إلا كبرى هذه النقابات التي يجب أن يكون القرار فيها للإسلاميات، ويستلزم زمام المبادرة، ولعل النقطة الأولى في الانطلاق هو تأسيس الاتحاد الإسلامي العالمي الذي يرعى وينمي هذه الطاقات، ويربي هذه القيادات، ويستفيد من الخبرات السابقة التي تنقل للأخوات الشابات، ونحمد الله أنه قد تم هذا الأمر، وعقد أكثر من مؤتمر لهذا الاتحاد كان آخره في اليمن، وأضيفت طاقات شابة للفتيات المسلمات أذنين دورهن، ودرسن القضايا الملحة التي تمس المرأة وغيرها.

ونقل لهن هذه الساحة الفارغة التي تنتظرهن ليملائها كما هي بلسان أحد دعائها يقول: في حفلة عشاء حضرتها مجموعة من رجال الأعمال، ما من أحد منهم أتى بزوجه، بل كانت ترافق كلاً منهم صديقتة الحسنة أو سكرتيرته، معها هاتفها المحمول، وتكثر من الضحك والهذر، وتأتي أثناء الرقص الذي تبع العشاء بحركات من الردفين والكتفين لا تصدر في العادة من السيدات المتزوجات ربات البيوت.

... لنقض أسبوعاً على شاطئ مارينا على الساحل الشرقي لمصر، أو لنبحر في باخرة سياحية تطوف بموانئ البحر المتوسط، أو نخرج ساعة للتنزه في شارع الحمراء في بيروت، أو نرافق السياح في زيارتهم لآثار الأقصر. سيراودنا وقتئذ الظن بأن المرأة لا شك قد تحررت ونالت ما كانت ترنو إليه دوماً من مساواة بالرجل. ثم إذا بظننا تعززه معرفة لحقيقة أن ثمة ملايين النساء يعملن سكرتيرات أو عاملات على الهواتف، أو بائعات في المحلات أو مضيفات أو مدرسات وناظرات، أو عاملات في المصانع. وأن ثمة كاتبات وممثلات وراقصات مشهورات، ونائبات في البرلمان، ووزيرات وصحفيات. ثم إذا بالحيرة تدركنا حين نسمع من غالبيةهن أنهن غير راضيات عن أوضاعهن، ويشعرن

بأن هذه الحقوق والحريات الجديدة أشبه ما تكون بجمع من الفراشات تعصف به الريح في أية لحظة^(١).

ومن الظريف حقاً أن نجد في أعلى الصفحة نفسها حديثاً مع وزيرة العدل الألمانية التي تقول للبنانيات المطالبات بحقوقهن: إقرار الدستور بالمساواة لا يعطي المرأة حقوقها، إنما الإمكان المتاح للمرأة لاستخدام هذا الحق لكنها تشير في بداية حديثها إلى حق لم تحصل عليه حتى اليوم. وفي الوقت الذي حصلت عليه المرأة المسلمة قبل خمسة عشر قرناً من الزمان. تقول ناجية الحصري: قالت الوزيرة الألمانية: اسمي طويل ومعقد وصعب على اللفظ لأنني منذ تزوجت قبل ثلاثين عاماً لم أتنازل عن اسم عائلتي لأحمل اسم عائلة زوجي، وهو ما تقره القوانين التي كانت سارية في ذلك الوقت، بل اتفقت مع زوجي على حمل الاثنين معاً، أما اليوم فقد أصبحت المحكمة الدستورية العليا تقر مثل هذا الأمر بموافقة الزوجين، في حين كان الأمر يتطلب رفع شكاوى لإقرارها^(٢).

حق المشاركة في السلطة التشريعية:

(أ) حق الانتخاب:

والانتخاب هو اختيار الأكفأ والأصلح لتمثيل الأمة، وهو حق كامل للمرأة لا يتعارض أبداً مع وظيفتها الأساسية^(٣). ويتغير إلى فرض عيني في مجتمعاتنا الإسلامية حين يشارك الإسلاميون في دخول المعترك السياسي، وتقوم النساء المنحرفات بتأييد المحادين للإسلام، فيترتب ترتب الوجوب العيني على كل امرأة مسلمة أن تساهم في انتخاب النواب المسلمين الملتزمين بدينهم والداعين لدينهم إلى هذه المواقع. وقد يكون الفارق بين دخول الفاجر أو المسلم للبرلمان صوت واحد. وفي المدى الأبعد عند اتخاذ القرارات قد يكون هذا الصوت الذي للمرأة المسلمة عن تأديته، فأدت إلى خسارة هذا المقعد أن يكون هذا النائب بصوته الواحد ينقل القرارات من قرارات إسلامية إلى

(١) للصحفي المصري حسين أحمد أمين، الحياة (٢٧/١١/١٩٩٩م)، العدد (١٣٤١٢).

(٢) الحياة، العدد (١٣٤١٢)، (٢٧/١١/١٩٩٩م).

(٣) نستأنس بنقل الأمر من الإباحة إلى التنب من خلال النص المروي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عند استشارة الناس في الخليفة الأعظم علي أو عثمان بالقول: (حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن) البداية والنهاية لابن كثير (٤/٧/١٥١).

قرارات علمانية في مجتمع الواحد والخمسين بالمائة. وأكثرية العلماء والمعاصرين المجتهدين الساحقة على هذا الرأي في جواز المشاركة الانتخابية، إلا الذين لا يقرون ابتداءً دخول البرلمانات المعاصرة.

(ب) حق الترشيح:

وهو موطن اختلاف في الاجتهاد، نعرض فيه وجهات النظر المختلفة:

أولاً: حجج المعارضين لحق المرأة في الترشيح:

- ١ - ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ وهذه قوامة للرجل على المرأة فهي تشريع له.
- ٢ - المرأة النائبة، إنما تخرج على رسالتها التي خلقها الله لها وهي تربية الأطفال ورعاية الزوج.

٣ - المرأة النائبة التي تجلس مع الرجال مخالفة لقول الله ﷻ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

- ٤ - قال رسول الله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(١)، والمجلس النيابي يمثل أهل الحل والعقد، وأهل الحل والعقد هم أولو الأمر في الأمة.
- ٥ - ضعف المرأة الجسدي وتعرضها للعادة الشهرية وأحوال الولادة والنفاس تحول دون قدرتها على المشاركة في حضور جلسات المجلس والمشاركة فيه.

ثانياً: حجج المؤيدين للترشيح:

- ١ - النائب في المجلس هو وكيل عن الأمة وللمرأة حق الوكالة مثل الرجل سواء بسواء.
- ٢ - النائب في المجلس هو أمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في المجتمع الإسلامي، وهذه مما كُلفت المرأة المسلمة به بنص القرآن.
- ٣ - النائب ناصح للحاكم ومسدد له، والدين النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، فهو نص شامل يشمل الرجال والنساء في التكليف بتأدية النصيحة.
- ٤ - النائب مشرع في الأمور العامة وغيرها، وإذا كان للمرأة العاملة حق الفتوى فلها حق الاجتهاد مثل الرجل.

٥ - وهناك فرق بين إلزام المرأة بالترشيح وعضويتها في مجلس الشعب وبين جواز ذلك لها، فلكل امرأة ظروفها. وهي المسؤولة حين تتقدم للنيابة أن ترتب أموراً شرعية بحيث لا تخرج عن حدود الله في ذلك.

ونرى من خلال استعراض حجج الفريقين ما يلي:

- ١ - لا موطن للاحتجاج بالقوامة هنا حيث رأينا أنها مرتبطة بالحياة الزوجية.
- ٢ - وكونها نائبة في المجلس لا يعني أنها من أولي الأمر، وخاصة قد تكون معارضة للحاكم فلا صلة لها بالسلطة التنفيذية إلا من حيث التوجيه والتسييد.
- ٣ - لا يعني قول الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ عدم الخروج من البيت؛ لأن رسول الله ﷺ قال لسودة: « إن الله أذن لكُنَّ أن تخرجن لحاجتكن » وقد خرجت المرأة المسلمة الأولى مع الجيش للجهاد في سبيل الله. وهذا أكبر من الخروج للمشاركة في الإصلاح.

٤ - ونضيف إلى هذه التوجيهات ما يجعل المشاركة في الإصلاح أمراً مندوباً إليه، بل واجباً ممن عنده الأهلية لذلك.

فأم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها - قامت بواجب النصح لأمر المؤمنين عثمان رضي الله عنه في أحداث الفتنة. رغم اعتراضها على خروج أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - مع الجيش إلى البصرة.

قالت - رضي الله عنها - : « يا بني ما لي أرى رعيك عنك مُزَوَّرِينَ^(١)، وعن ناحيتك نافرين، لا تَعَفُ^(٢) سبيلاً كان رسول الله ﷺ لَحَبَهَا^(٣)، ولا تقدح زنداً كان أكباها^(٤)، تَوْخُ^(٥) حيث توخى صاحبك فإنهما ثَكَمَا^(٦) الأمر ثَكَمًا ولم يظلماه. لست بغفل فتعذر، ولا بحلو^(٧) فتعزل، ولا تقول ولا يقال إلا لمظن، ولا تختلف في ظنين، فهذه وصيتي إليك بحق بنوتك لي قضيتها إليك، ولله عليك حق الطاعة، وللرعية حق الميثاق^(٨) .. »^(٩).

(٢) لا تعف: لا تترك.

(٤) أكباها: تركها رحمة بالأمة.

(٦) ثكماً الأمر: نظماه.

(٨) حق الميثاق: حق النصح لأئمة المسلمين وعامتهم.

(١) مزورين: منصرفين.

(٣) لحبها: شرعها وسلوكها.

(٥) تَوْخُ: اختر.

(٧) الحلو: الضعيف.

(٩) بلاغات النساء لابن طيفور (ص ١٤).

فهي تدعوه - رضي الله عنها - إلى الاقتداء برسول الله ﷺ اقتداء تاماً في كل شيء والتمسك بسيرة صاحبيه طيلة حكمه؛ أبي بكر وعمر لأنهما مهذا السبيل وأعطيا كل شيء حقه. فهي من جهة ثانية تطالبه بالإصلاح لا بالاعتزال، وتعتبر هذا واجباً وميثاقاً أخذته الله على أهل العلم أن يؤدوه، وهو واجب الرعية، وحق الطاعة لهم مقابل ذلك.

ثانياً: ونراها عند عائشة أم المؤمنين تنص عليها نصاً لا استنتاجاً، فقد روى الطبري عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة^(١) قالوا.. قالت: خرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم (قتلة عثمان) وما فيه الناس وراءنا. وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا. وقرأت ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّبَؤِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ يَبْتَغِ النَّاسُ﴾ [النساء: ١١٤]. تنهض في الإصلاح ممن أمر الله ﷻ، وأمر رسوله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره^(٢).

فهي ترى فرضية هذا الأمر على الصغير والكبير والذكر والأنثى، هذا الأمر هو النهوض في الإصلاح بما أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ فيه مع الحاكمين والأمة. وهذه هي أهم خصائص ومسؤوليات أهل الحل والعقد في الإسلام.

حق المشاركة في السلطة التنفيذية:

الذين يحرّجون على المرأة المشاركة في هذه السلطة إنما يعطون لقوله ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ تعميماً مطلقاً في كل شيء، في الأسرة وفي غير الأسرة. ويعتبرون أي موطن يلتقي رجل وامرأة فالإمرة للرجل. مع أن نص الآية مرتبط بالتعليل الذي تلاه مباشرة ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ لنفترض أن امرأة استأجرت أجيراً في تجارة لها. فهل يكون له حق القوامة عليها، أم أن لها حق القوامة عليه بما أنفقت من مالها؟! ونسأل كذلك: أليس للأم حق الطاعة على أولادها ولو كانوا رجالاً؟ فكيف تكون القوامة هنا؟ ونسأل كذلك أليس للمرأة أن تأمر زوجها أو غيره بخير وتنهيه عن شر؟ هل هذا خاص بنات جنسها أم عام لهن ولغيرهن؟

(١) هذا أكثر الأسانيد قبولاً عند الطبري وهو صحيح بالمصطلح التاريخي.

(٢) تاريخ الطبري (١٤/٣).

إننا حين نضع القوامة في موضعها الصحيح، وبسببها المرتبط بها بالإتفاق بالمال، تنتهي هذه الإشكالات كلها، وتستطيع المرأة بمؤهلاتها وخبراتها وإمكاناتها أن تكون في الموقع الذي يناسبها؛ أمرة أو مأمورة.

وما قيل عن القوامة يُقال عن الولاية، فليس عندنا نص ينهي عن ولاية المرأة سلطة أو حكمًا أو مسؤولية، إنما عندنا ذلك النص الذي ورد مع ولاية بوران ابنة كسرى لأمر الفرس بقوله ﷺ: « ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »^(١).

وفهمه جمهور المفسرين والفقهاء على أنه يخص الولاية العظمى، وما يُطلق عليه في العصر الحديث رئاسة الدولة أو الجمهورية، أو موقع - أمير المؤمنين - أو (الخليفة) وما دون ذلك لا نص فيه.

فابن كثير - رحمه الله - وهو ممن يرى تفضيل الرجل على المرأة منفصلاً عن قضية الإنفاق، يقول: « ﴿ يَمَّا فَضَلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »^(٢)... وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ «، فمع أنه مع الرأي الذي يجعل القوامة لفضل جنس الرجل على المرأة بجانب الإنفاق يرى خطر هذا الأمر يمتد إلى الملك الأعظم فقط. ولا يشمل أنواع الولايات والوزارات الأخرى.

وحين نتحدث عن الجيل الأول، جيل الصحابة، خيرة أجيال الأرض، وجيل القدوة، نرى أن هذا الجيل قد شهد عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قائدة للجيش الإسلامي الذي خرج لقتال قتلة عثمان والقضاء عليهم. ولا بد أن نفرق ابتداء بين نقطتين:

- بين موقف سياسي ظهر لعائشة - رضي الله عنها - خطأه فندمت عليه كثيرًا.
- وبين موقف شرعي لم يقل عنها أحد من كبار الصحابة أنها خالفت شرع الله في ذلك حتى عليّ ؓ.

وقد سار في إمرتها ومشاركتها القيادة نصف المتبقين من العشرة المبشرين بالجنة طلحة والزبير، وهم الذين رشحهم عمر ؓ للخلافة العظمى. إضافة إلى ألوف الصحابة الذين مضوا تحت إمرتها أو خالفوها.

فهذان ممثلاً علي أمير المؤمنين يستمعان إليها تعليل خروجها من مكة إلى البصرة...

(وفي رواية ثانية قال لها الزبير: ترجعين؟ عسى الله أن يصلح بك بين الناس، واستمرت - رضي الله عنها - في الطريق إلى البصرة من أجل الإصلاح بعد أن عزمت على الرجوع، وقبل أن تصل البصرة لقيها رسولان أرسلهما عثمان بن حنيف - والي البصرة من قبل علي - وهما الصحابي عمران بن حصين والتابعي أبو الأسود الدؤلي. فاستأذنا عليها، فأذنت لهما فسلما وقالوا:

إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك، فهل أنت مخبرتنا؟ فقالت: والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم، ولا يعطي لبنيه الخبر، إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ، وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر. فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا في دار قوم كارهين لمقامهم، ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين. لا يقدر على امتناع ولا يأمنون. فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراعاة. وما ينبغي أن يأتوا من إصلاح هذا، وقرأت: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾. ننهض في الإصلاح من أمر الله ﷻ، وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى. فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه، ونحثكم على تغييره ^(١).

وانتقل الأمر من تغيير المنكر بالكلام إلى تغيير المنكر بالقوة، والذي هو مسؤولية الحاكم. وكانت هي قائدة هذا التغيير، فقد خرجت للإصلاح ابتداءً، وحين فرضت المعركة خاضتها للهدف نفسه الذي خرجت من أجله ^(٢). وذلك حين أشعلها قتلة عثمان سراً بين الفريقين:

يقول الإمام الطبري فيما يرويه عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالوا:

(١) تاريخ الطبري (١٦/٣).

(٢) المرجع السابق (٣/٢٩، ٣٠).

(.. فحين اقترب علي عليه السلام من البصرة، أرسل القعقاع بن عمرو عليه السلام وأوصاه قائلاً: الق هذين الرجلين طلحة والزبير، فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظم عليهما الفرقة. فخرج القعقاع حتى قدم البصرة، فبدأ بعائشة - رضي الله عنها - وقال: أي أمه، ما أقدمك؟ وأشخصك هذه البلدة؟ قالت: أي بني، إصلاح بين الناس. قال: فابعثني إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما. فبعثت إليهما فجاءا فقال:

إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد؟ فقالت: إصلاح بين الناس. فأنتما ماذا تقولان، أمتابعان أم مخالفتان؟ قالوا: متابعان. قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح. فوالله لئن عرفنا لنصلحن، ولئن أنكرنا لا نصلح. قالوا: قتلة عثمان عليه السلام. فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن، وإن عمل به كان إحياءً للقرآن. فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب للاستقامة منكم اليوم. قتلتم ستمائة إلا رجلاً. فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم الذي أفلت - يعني حرقوص بن زهير - فمنعه ستة آلاف وهم على رجل. فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون. وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوهم عليكم. فالذي حذرتم وفرقتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون.. فقالت أم المؤمنين: فتقول أنت: ماذا؟ قال: أقول هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا - تفرقوا - فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتبشير رحمة بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر.. فقالوا: نعم إذاً، أحسنت وأصبت المقالة. فارجع، فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر.

فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح كره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه).

إرادة قادة المسلمين: وحتى عندما انتهت المعركة لم يتعرض أحد للموقف الشرعي لعائشة - رضي الله عنها -.

(وجهز علي عائشة بكل شيء لها من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام. واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات وقال لأخيها: تجهز يا محمد فبلغها. فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس فخرجت على الناس، وودَّعوها وودَّعتهم وقالت: يا بني

تعتب بعضنا على بعض استبطاءً أو استزادة فلا يعتدّن أحد منكم على شيء بلغه من ذلك، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي على معتبتي من الأخيار. وقال علي: صدقت والله وبرت ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة^(١).

أما كفاءتها القيادية، فقد أثبتت عظمة هذه الكفاءة حين سقط القائدان شهيدين طلحة والزبير، وبقيت وحدها في الساحة، وأصبحت الهدف المقصود للقتل. يسقط الأبطال صرعى بين يديها، وهي رابطة الجأش، قوية العصب، أشجع من عليها، تخطب على ظهر هودجها وتحث الناس على القتال، حتى عُقر الجمل، وأخذها أخوها محمد ابن أبي بكر.

فعن محمد ابن الحنفية قال: (إني على يمين علي يوم الجمل وابن عباس عن يساره إذ سمع صوتاً فقال: من هذا؟ قالوا: عائشة تلعن قتلة عثمان. فقال علي: لعن الله قتلة عثمان في السهل والجبل والبر والبحر)^(٢).

ويصف ابن الزبير المعركة بقوله: (ما رأيت مثل يوم الجمل قط، ما يهزم منا أحد، وما نحن إلا كالجبل الأسود، وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قُتل)^(٣).

وتصف هي المعركة بقولها للمغيرة: (يا أبا عبد الله، لو رأيته يوم الجمل وقد نفذت النصال إلى هودجي حتى وصل بعضها إلى جلدي)^(٤).

وعن عيسى بن حطان قال: (حاص الناس حيصة ثم رجعنا وعائشة على جمل أحمر في هودج أحمر ما شبهته إلا بالقنفذ من النبل)^(٥).

لقد سقنا هذه الأقوال لنؤكد أن هذه الحرب الضروس التي قادتها عائشة، وأثبتت فيها عظمة كفاءتها فلم تنثن ولم تتراجع ولم يصبها الخَوْرُ ولا الفزع وهي الهدف في القتل من النبال التي جاءت منها من كل مكان.

ونؤكد أنها أحد المجتهدين السبعة الذين انتهى لهم العلم في المدينة، فأبي سلطة تنفيذية تفوق قيادة الجيش الإسلامي؟

(٢) العقد الفريد (٥٣/٥).

(٤) العقد الفريد (٤٤/٥).

(١) الطبري، التاريخ (٦١، ٦٠/٣).

(٣) تاريخ الطبري (٤٦/٣).

(٥) تاريخ الطبري (٥٤/٣).

إن الشيء الوحيد الذي أجمع الفقهاء عليه دون استثناء في عدم أحقية المرأة فيه هو الإمامة العظمى أو الخلافة، وما دون ذلك فقد اختلفت الاجتهادات فيه. فقد ذكر الإمام القلعي الصفات السبع اللازم توفرها في الإمام (الشرط الثالث منها الذكورية):

(٣ - الذكورية مما أجمعت عليه الأمة على أن المرأة لا يجوز لها أن تلي رئاسة الدولة لقوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» (رواه البخاري) ..) (١).

بينما اعتبر الذكورية من الشروط المختلف عليها بالنسبة لأهل الحل والعقد. (ومنهم من اشترط الذكورية في أهل الحل والعقد لأن النساء مأمورات بملازمة الخدور منهيات عن مباشرة الأمور ومزاحمة الخطوب فهن قليلات الخبرة في هذه الأمور..) (٢).

والعجيب أن الماوردي في الأحكام السلطانية: لم يذكر الذكورية شرطاً من شروط الإمامة، والماوردي حجة كبرى في هذا المجال، فلم يذكره إلا عن قناعة بعدم لزوم هذا الشرط؛ إذ يقول:

(فصل: وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة أحدها: العدالة على شروطها الجامعة، والثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد وفي النوازل والأحكام، والثالث: سلامة الحواس. والرابع: سلامة الأعضاء.. والخامس: الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، السادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو، والسابع: النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه ولا اعتبار بضرار حين شدّ فجورُها في جميع الناس) (٣).

وإذا اعتبرنا ما ذكره الماوردي حجة في السياسة الشرعية فهو يمثل الفقه الشافعي. ومن أهم الكتب في السياسة الشرعية. نرى أن الذكورية ليست شرطاً مجمعاً عليه عند أهل السنة للإمام الأعظم، ومناطق الشاهد في هذا الاتجاه هو حديث رسول الله ﷺ «ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة». ندع لأستاذنا القرضاوي يحدثنا عن فقه لهذا الحديث فيقول:

(١) تهذيب الحريات وتحقيق السياسة للإمام القلعي، تحقيق مصطفى عجو (ص ٨١، ٨٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٧).

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي (ص ٦).

« صحيح أن أغلب الأصوليين قالوا: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولكن هذا غير مجمع عليه، وقد روي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما ضرورة رعاية أسباب النزول، وإلا حدث التخطي في الفهم.. يؤكد هذا في هذا الحديث خاصة: أنه لو أخذ على عمومه لعارض ظاهر القرآن. فقد قصّ علينا القرآن قصة امرأة قادت قومها أفضل ما تكون القيادة، وحكمتهم أعدل ما يكون الحكم، وتصرفت بحكمة ورشد أحسن ما يكون التصرف. ونجوا بحسن رأيها من التورط في معركة خاسرة، يهلك فيها الرجال، وتذهب الأموال، ولا ينجون من ورائها شيئاً. وكان حكمها يقوم على الشورى ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ومع هذا فوضوا إليها الأمر ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] تلك هي بلقيس ملكة سبأ الذي ذكر الله قصتها في سورة النمل مع نبي الله سليمان، وانتهى بها المطاف إلى أن قالت ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. فقادت قومها إلى خيري الدنيا والآخرة. كما يؤكد صرف الحديث عن العموم: الواقع الذي نشهده، وهو أن كثيراً من النساء قد كن لأوطانهن خيراً من كثير من الرجال. وإن بعض هؤلاء النساء لهنَّ أرجح في ميزان الكفاية والمقدرة السياسية والإدارية من كثير من حكام العرب والمسلمين (الذكور) ولا أقول الرجال»^(١).

وإذا كان هذا الأمر خلافاً بين العلماء، والرأي الأرجح فيه هو العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن الحجة الثانية التي ساقها أستاذنا القرضاوي لا يكاد ينازعها فيها أحد والتي تقوم على أن هذا اللفظ في عمومه لو أخذ على ظاهره قد فهمه الفقهاء جميعاً في (الخلافة العظمى) وليس في الإمارة. وكل حكام الدول والمناصب لا يملكون أبداً مؤهلات الخليفة ومواصفاته. يقول حفظه الله:

« الثانية: أن علماء الأمة قد اتفقوا على منع المرأة من الولاية الكبرى أو الإمامة العظمى وهي التي ورد في شأنها الحديث، ودل عليها سبب ورودها كما دل عليها لفظه: «ولوا امرأة» وفي رواية «تملكهم امرأة» فهذا إنما ينطبق على المرأة إذا صارت خليفة لعموم المسلمين. وهو ما لا يوجد اليوم بعد أن هُدمت قلعة الخلافة على يد أتاتورك سنة (١٩٢٤م). وقد يرى بعض العلماء أن يقيس على ذلك ما إذا أصبحت ملكة أو رئيسة دولة ذات إرادة نافذة

(١) من « فقه الدولة في الإسلام » للدكتور يوسف القرضاوي (ص ١٧٥).

في قومها لا يرد لها حكم، ولا يبرم دونها أمر. وبذلك يكونون قد ولّوها أمرهم حقيقة، أي أن أمرهم العام قد أصبح بيدها وتحت تصرفها ورهن إشارتها. وقد يخالفهم آخرون بأن رئاسة (الدولة القطرية) في عصرنا أشبه بولاية الولاية قديماً على أحد الأقاليم كما كان الولاية على مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها. أما ما عدا الإمامة والخلافة وما في معناه من رئاسة الدولة فهو مما اختلف فيه وامتسح للاجتهاد والنظر. فيمكن بهذا أن تكون وزيرة، ويمكن أن تكون قاضية، ويمكن أن تكون محتسبة احتساباً عاماً^(١).

ونضيف إلى أن الأنظمة الديمقراطية - وخاصة النيابية - لا يملك رئيس الدولة من السلطان إلا أن يملك ولا يحكم. وولاية الأمر الحقيقية بيد رئيس وزرائه ووزارته، ولا سلطة مطلقة لأحد في الأنظمة الديمقراطية.

وهو المعنى الذي أشار إليه القرضاوي في الوقفة الثالثة.

حق المرأة في السلطة القضائية:

هناك شروط أجمع عليها الفقهاء لصحة تولي القضاء، وشروط اختلفوا فيها، وشروط هي من باب الآداب أقرب منها إلى باب الشروط. أما الشروط التي أجمع عليها الفقهاء فهي:

- ١ - أن يكون القاضي مسلماً.
- ٢ - أن يكون بالغاً عاقلاً.
- ٣ - أن يكون حرّاً.
- ٤ - أن يكون سليم الحواس.
- ٥ - أن يكون عالمّاً بالأحكام الشرعية.
- ٦ - أن يكون عدلاً.

أما الشروط المختلف فيها فأولها شرط الذكورة:

وقد اختلفت المذاهب في كون الذكورة شرطاً في القضاء نتيجة لاختلافهم في حكم قضاء المرأة. (فذهب قوم إلى منع قضاء المرأة مطلقاً، وقال بعضهم بجوازه مطلقاً،

(١) من فقه الدولة في الإسلام (ص ١٧٩).

وتوسط آخرون فقالوا: يُمنع في حالات ويجوز في حالات. وفيما يلي أدلتهم وأقوالهم ووجهات أنظارهم:

أ - القائلون بالمنع:

وهم المالكية والشافعية والحنابلة، وأدلتهم على ذلك المنقول والمعقول - يعني في العقل والرأي -، أما المنقول فمن الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فلم يجوز أن يقمن على الرجال، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ واستدلوا من السنة بما رواه البخاري بسنده عن أبي بكرة قال: لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبي ﷺ أن فارساً ملأوا ابنة كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

ب - القائلون بالجواز مطلقاً:

وهما الحسن البصري والإمام الطبري، والذي يبدو أن هذا القول منقول عنهما وهو ظاهر عبارة المغني حيث يقول: وحكي عن ابن جرير أنه لا تُشترط الذكورية وحجة هذا القول: أن المرأة يجوز أن تكون فقيهة، فيجوز أن تكون قاضية^(١).

ج - القائلون بالمنع في حالات وبالجواز في حالات:

وهم الأحناف ودليلهم أن المرأة من أهل الشهادة، قال تعالى: ﴿وَأَسْشَهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قالوا: وأما الذكورة فليست من شرط جواز التقليد في الجملة؛ لأن المرأة من أهل الشهادات في الجملة، إلا أنها لا تقضي في الحدود والقصاص؛ لأنها لا شهادة لها في ذلك وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة^(٢).

ونحن مع الرأي القائل بالجواز مطلقاً، فليس هناك نص يمنعها من ذلك. ومن يحق له الفتوى والاجتهاد يحق له القضاء^(٣).

(١) المغني لابن قدامة (١١/ ٣٨٠).

(٢) بدائع الصنائع (١/ ٤٠٧٩).

(٣) القضاء ونظامه في الكتاب والسنة للدكتور عبد الرحمن الحمضي (ص ١٢٢ - ١٢٦).

ماذا يريدون للمرأة؟

نجيب ببساطة: يريدون أمرين فقط، ويستعملون شتى أنواع التعبير عنها لتحقيقها:

- الأمر الأول: الحرية الجنسية، ورفع مفهوم الأخلاق والشرعية عنها.

- الأمر الثاني: المساواة التامة بين الجنسين في كل شيء.

(أ) مجال الحرية الجنسية، ورفع مفهوم الأخلاق والشرعية عنها:

ولتحقيق ذلك الأمر الأول، نقرأ في مقررات المؤتمر الدولي للسكان والتنمية ما يلي:

(د - النشاط البشري والعلاقات بين الجنسين:

٣ - ٢٢: توجد صلات وثيقة بين النشاط الجنسي البشري والعلاقات بين الجنسين، ويؤثران معاً في قدرة الرجال والنساء على بلوغ الصحة الجنسية والحفاظ عليها والتحكم في حياتهم التناسلية وتتطلب العلاقات المتساويات بين الرجال والنساء في مسألتها العلاقات الجنسية والإنجاب احتراماً متبادلاً ورغبة في قبول المسؤولية عن نتائج السلوك الجنسي. فالسلوك الجنسي المسؤول والحساسية في العلاقات بين الجنسين - لا سيما عندما تغرس خلال سنوات تكوّن الشخصية - يعززان ويشجعان الشراكة بين الرجل والمرأة على أساس الاحترام والانسجام^(١).

وإذن فليس الزواج هو الطريق لممارسة النشاط الجنسي البشري، وليس هناك حلال وحرام في هذه العلاقات، أما الحرام فهو في الفقرة الثانية:

(٧ - ٢٣: وينتشر العنف الموجه ضد المرأة ولا سيما العنف المنزلي والاغتصاب على نطاق واسع، وتزايد أعداد النساء اللاتي يتعرضن لخطر الإيدز وغيره من الأمراض المنقولة بالاتصال الجنسي نتيجة للسلوك الجنسي الشديد الخطر من جانب شركائهن. وفي عدد من البلدان أدت الممارسات التقليدية التي يُقصد منها التحكم في نشاط المرأة الجنسي إلى حدوث قدر كبير من المعاناة، من هذه الممارسات بتر أجزاء من العضو التناسلي للأثني مما يشكل انتهاكاً للحقوق الأساسية، وخطرًا يستمر طوال العمر على الصحة التناسلية للمرأة^(٢).

(١، ٢) المؤتمر الدولي للسكان والتنمية (ص ٥٠). والذي انعقد في القاهرة (٥ - ١٣ سبتمبر ١٩٩٤ م).

فالحرام إذن:

١ - العنف ضد المرأة لا سيما العنف المنزلي.

٢ - الاغتصاب.

٣ - بتر أجزاء من العضو التناسلي للمرأة.

ومهمة الدول حماية هذه الحريات. وتثقيف الأطفال والمراهقين والشباب بالسلوك الجنسي الراقي.

ونقدم ثمرة هذه السياسة وهذه الحرية بلسان جيمس بيكر وزير خارجية أمريكا الأسبق بقوله: (أشار استفتاء حديث إلى أن (٧٣٪) من الأمريكيين قلقون من أن الأمة تعاني من انحدار أخلاقي.. فقد أقحم الفساد الانفجاري منذ عام (١٩٦٠م) الملايين في الفقر المادي والالتكالية الأخلاقية وخلق انتشار الجريمة مناخاً من الرعب لدى الكثير من الجيران وفي المدارس. والكثير من ثقافتنا الشعبية تسوده الصلات الجنسية غير الشرعية أو العنف أو كلا الأمرين، والأنكر من ذلك أن نظمنا القضائية والتربوية تبدو في الغالب عاجزة عن الوقوف بوجه المد المتعاضم للتدهور الاجتماعي)^(١).

ويقصد بالفساد الانفجاري منذ عام (١٩٦٠م) ما جَلَّاه بقوله: (لقد بدأت أمريكا تجربتها المشؤومة في الإباحية الاجتماعية قبل ثلاثين عاماً. وقد يتطلب نقص هذه العملية ثلاثة عقود أخرى)^(٢).

وإلى أن تنقض هذه الإباحية الاجتماعية، (فإن محاولات الهروب من الأزمة الأخلاقية التي تواجه أمريكا ستكون مع ذلك محاولات لا طائل تحتها، فالتدهور الاجتماعي يدخل عنوة إلى شوارعنا ومدارسنا وشاشات تلفزيوناتنا)^(٣).

ويُنذر بقوله: (إن المسؤولية الشخصية هي ما جعلنا شعباً قوياً، أما الاستمرار في أزمة القيم فستحولنا إلى شعب ضعيف)^(٤).

وصورة هذا الضعف في مقاله الآخر تحت عنوان: (بلغ السيل الزبى): «إن أمريكا

(١، ٢) مقتطفات من مقال لجيمس بيكر وزير الخارجية الأسبق في جريدة الشرق الأوسط في العدد (٥٠٧٣) تاريخ

(١٠/٧/١٩٩٤م).

(٤) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

تواجه انتشاراً مرعباً للجريمة حيث يقع ثلاث جرائم كل ثانية في المجتمع الأمريكي بين قتل واعتداء واغتصاب»^(١).

هذه هي الثمار المرة للإباحية الاجتماعية منذ ثلاثين عاماً. والتي لخصها بقوله: (فرفض المسؤولية لوّث كل مستويات المجتمع الأمريكي، وخصوصاً الشباب، ويُعتبر انتشار المخدرات وتعاطي الكحول بين أوساط المراهقين من المشكلات الرئيسية في أكثر الضواحي تمييزاً والصلوات الجنسية غير الشرعية ليست محددة داخل المدن؛ وكذلك الحال مع الأمراض والإنجاب غير الشرعي الذي يرافق تلك الصلوات)^(٢). وهو يدعو إلى العودة عن هذه الإباحية في تاريخ (١٠ / ٧ / ١٩٩٤ م). ثم انعقد مؤتمر السكان في (٥ - ١٣ / ١٠ / ١٩٩٤ م) - أي بعد شهرين - ليضيفي صفة الشرعية على هذه الصلوات وهذا الإنجاب ويؤكد تصميم البشرية على تدمير نفسها، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾^(٣) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿ [النساء: ٢٧، ٢٨].

(ب) مجال المساواة التامة بين الجنسين في كل شيء:

وفي مجال المساواة بين الجنسين يقول المؤتمر:

(الفصل الرابع: المساواة بين الجنسين والإنصاف وتمكين المرأة:

أساس العمل: إن تمكين المرأة واستقلالها وتحسين مركزها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والصحي هو هدف بالغ الأهمية بحد ذاته.. والشراكة الكاملة بينهما أمر مطلوب على صعيدي الإنتاج والإنجاب بما في ذلك تقاسم المسؤوليات المتعلقة برعاية الطفل وتربيته والحفاظ على الأسرة المعيشية.. وهذا يتطلب اتخاذ إجراءات على صعيدي السياسات والبرامج يكون من شأنها تحسين إمكانية وصول المرأة إلى وسائل تأمين الرزق والموارد الاقتصادية، والتخفيف من مسؤولياتها المفرطة فيما يتعلق بالعمل المنزلي.. وتمثل الأهداف فيما يلي:

١ - تحقيق المساواة والإنصاف بناءً على الشراكة المتوافقة بين الرجل والمرأة وتمكين المرأة من تحقيق كامل إمكاناتها.

(١) مقتطفات من مقال لجيمس بيكر وزير الخارجية الأسبق في جريدة الشرق الأوسط في العدد (٥٠٧٣) تاريخ (١٠ / ٧ / ١٩٩٤ م).

(٢) مقال في الجريدة نفسها قبل ثلاثة أشهر كما ذكر د. حامد الرفاعي في كلمته: من المسؤول تزايد السكان أم تزايد الفساد.

٢ - كفالة تعزيز مهمات المرأة في التنمية المستدامة عن طريق مشاركتها الكاملة في عمليات تقرير السياسات. ووضع القرارات في جميع المراحل، والاشتراك في جميع جوانب الإنتاج والعمالة والأنشطة المدرة للدخل، والتعليم والصحة والعلم والتكنولوجيا والألعاب الرياضية والثقافة والأنشطة المتصلة بالسكان ومجالات أخرى بصفتها شريكاً نشطاً في صنع القرار ومشاركة مستديمة.

٣ - كفالة توفير ما يلزم من التعليم لجميع النساء، فضلاً عن الرجال، لتلبية حاجاتهم الإنسانية الأساسية وممارسة حقوق الإنسان الخاصة بهم.

ومن الإجراءات: اتخاذ التدابير اللازمة لتحسين قدرة المرأة على الكسب بغير الحرّف التقليدية وتحقيق الاعتماد على الذات اقتصادياً، وكفالة إمكانية وصول المرأة على قدم المساواة إلى سوق العمالة ونظم الضمان الاجتماعي.

٤ - تمكين المرأة عن طريق القوانين والأنظمة وغيرها من التدابير الملائمة من الجمع بين أدوار الحمل والرضاعة الثديية وتربية الأطفال مع المشاركة في القوة العاملة^(١).

وخلاصة هذه الأهداف والإجراءات أن تكون المرأة مسؤولة اقتصادياً عن ذاتها والجمع بين وظيفتها في البيت والعمل ومطالبة الرجل بالمشاركة في الأعباء البيتية.

وأكثر من أصابه الهوس والجنون بهذا الاتجاه هو النظام الشيوعي الذي قال: من لا يعمل لا يأكل، وفرض العمل على الرجل والمرأة، وحطم الأسرة. فماذا كانت حصيلة هذه السياسات بعد تجربة سبعين عاماً من الثورة الشيوعية وتحرير المرأة؟ نسمع الجواب من ميخائيل غورباتشوف آخر رئيس للاتحاد السوفييتي المنهار الذي جاء للإصلاح بعد فوات الأوان:

(ولكن طوال سنوات تاريخنا المتألق عجزنا أن نولي اهتماماً لحقوق المرأة الخاصة، واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربة منزل، ووظيفتها التعليمية التي لا غنى عنها بالنسبة للأطفال.. إن المرأة؛ إذ تعمل في مجال البحث العلمي وفي مواقع البناء وفي الإنتاج والخدمات، وتشارك في النشاط الإبداعي لم يعد لديها وقت للقيام بواجباتها اليومية في المنزل - العمل المنزلي - وتربية الأطفال، وإقامة جو أسري طيب.

لقد اكتشفنا أن كثيراً من مشاكلنا في سلوك الأطفال والشباب وفي معنوياتنا وثقافتنا، في الإنتاج تعود جزئياً إلى تدهور العلاقات الأسرية. والموقف المترخي من المسؤوليات الأسرية. وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمبررة سياسياً لمساواة المرأة بالرجل في كل شيء. والآن في مجرى البيروستورिका بدأنا نتغلب على هذا الوضع؛ ولهذا السبب فإننا نجري الآن مناقشات حادة في الصحافة وفي المنظمات العامة، وفي العمل والمنزل بخصوص مسألة ما يجب أن نعمله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة... وهناك مشكلة أخرى وهي استخدام المرأة في الوظائف الشاقة الضارة بصحتها.. وهذا هو تراث الحرب الذي فقدنا فيها أعداداً ضخمة من الرجال، والتي خلقت لنا نقصاً حاداً في اليد العاملة في كل مكان في كافة مجالات الإنتاج. لقد بدأنا الآن نعالج هذه المشكلة بشكل جاد، وإحدى المهام الاجتماعية والأكثر إلحاحاً بالنسبة لنا.. هي مهمة هامة كذلك في الحملة ضد المسكرات تتمثل في تحسين صحة الأسرة وتعزيز دورها في المجتمع^(١).

هذا ما قاله شاهد عصره من قومه غورباتشوف بالعمل لتسهيل عودة المرأة إلى رسالتها النسائية البحتة فماذا قالت زوجته عن ذلك:

(تربية الأطفال: في اعتقادي أن خبرتنا تشير على نحو مقنع كل الإقناع إلى أنه مع كل الإمكانيات الحديثة الهائلة في التربية الاجتماعية فإنه من الضروري للغاية ربطها بالتربية البيئية الصحيحة.

- نعم ضروري جداً، فلا شيء يمكن أن يحل محل العلاقة العاطفية - علاقة الحب - بين الطفل وأبويه لا دور الحضانة ولا المدارس ولا روضة الأطفال، ولا المدارس الداخلية ولا بيوت الأطفال.

- إن تجربتي الشخصية في المدارس الداخلية تؤكد ما تقولين، فالأطفال الذين حُرِّموا حب الأبوين، لا سيما أولئك الذين عهد بهم إلى مؤسسات الدولة غالباً ما يتقنون حين يصبحون راشدين من المجتمع بالطريقة التي عوملوا بها وهم أطفال^(٢).

وتكفي هاتان الشهاداتتان من أساطين الشيوعية الهالكة لتبرز آثار الجريمة المدمرة في

(١) البيروستوریکا لغورباتشوف (ص ١٣٨، ١٣٩).

(٢) مذكرات رايسا زوجة غورباتشوف (ص ٩٢، ٩٣).

فرض إخراج المرأة من البيت، والذي يصبر مؤتمراً السكان على تقنينها واستمرارها ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

ملخص البحث:

ونخلص من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

١ - أكد الإسلام على وحدة الأصل البشري بين الذكر والأنثى، وأنهى الأساطير الجاهلية عنها.

٢ - التكريم الرباني عند الله تعالى بالتقوى ويتساوى فيه الذكر والأنثى.

٣ - الذكر والأنثى يتكاملان كل في شخصية مستقلة، والاختلاف بينهما اختلاف وظيفة لا اختلاف تفضيل.

٤ - الخلل في فهم الوظائف هو اعتبار وظيفة الرجل للمجتمع والمرأة للبيت، والحقيقة أن لكليهما وظيفة في البيت والمجتمع تختلف في حجمها لا في أصلها.

٥ - القوامة عند جمهور المفسرين لا علاقة لها بجنس الذكر والأنثى إنما علاقتها ﴿ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

٦ - وللرجال عليهن درجة: هي الصفح من الرجل لامراته عن بعض الواجب عليها، وهو تفسير ابن عباس.

٧ - الحقوق التي أنزل الله بها قرآناً وتبلغ اثنين وعشرين حقاً. ذكر فيها الطرفان الذكر والأنثى أو الأنثى فقط.

٨ - الحقوق العشرة ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِثِينَ وَالْقَانِثَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٩ - (١١ و ١٢ و ١٣) حق الهجرة والمحنة والجهاد ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا

فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ جَنَّةٍ يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٥].

١٠ - (١٤) حق بيعة الإمام ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ...﴾ [المنححة: ١٢].

١١ - (١٦، ١٥) حق الولاية وحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

١٢ - (١٧) حق الحماية والتنظيم في المجتمع الجاهلي ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ

مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

١٣ - (١٨) حق التعلم: ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يُتْلَى فِي يَوْمَيْكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

[الأحزاب: ٣٤].

١٤ - (١٩) حق العمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْشِئَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

١٥ - (٢٠) حق التملك ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ

مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

١٦ - (٢١) حق المهر ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ فُلَّةً...﴾ [النساء: ٤].

١٧ - (٢٢) حق الميراث ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ

الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

١٨ - (٢٣) حق العودة إلى الزوج ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْجِدُوا آيَاتِ

اللَّهِ هُزُواً وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظِمُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عِلِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ

إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣١، ٢٣٢].

١٩ - (٢٤) حق اختيار الزوج الجديد ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ

أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا

مَعْرُوفًا﴾ [البقرة: ٢٣٥].

- ٢٠ - (٢٥) حق المخالعة من الزوج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَفَدَتْ بِهٖ﴾ [البقرة: ٢٢٩].
- ٢١ - (٢٦) حق نصف المهر ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].
- ٢٢ - (٢٧) حق متعة الطلاق ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْأَوْسَعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْأَقْصَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].
- ٢٣ - (٢٨، ٢٩) حق الحضانة والإرضاع ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ ...﴾ [البقرة: ٢٣٣].
- ٢٤ - حق السكنى والنفقة في العدة ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ...﴾ [الطلاق: ٦].
- ٢٥ - حق التحكيم على قدم المساواة مع الرجل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْشِرُوا كَلِمًا مِنْ أَهْلِيهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٣٥].
- ٢٦ - الواجبات نصف الحقوق على المرأة المسلمة في القرآن وهي ستة عشر واجباً مرت في مظانها.
- ٢٧ - الحقوق والواجبات الزوجية حددها القرآن الكريم بقوله ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].
- ٢٨ - رسالة المرأة في المجتمع مثل رسالة الرجل ما عدا الإمامة العظمى، وفرضية الجهاد.
- ٢٩ - عمل المرأة حق لها وليس واجباً عليها إلا عندما يتعين امرأة لهذا العمل فيصبح فرضاً عينياً أو كفاًئياً.
- ٣٠ - تعليم المرأة للمرأة من فروض الكفاية، والدعوة إلى الله فرض كفاية.
- ٣١ - حق المرأة في المشاركة في السلطة التشريعية حجج المانعين والمبيحين وترجيح الإباحة.
- ٣٢ - حق المرأة في المشاركة في السلطة التنفيذية حجج المانعين والمبيحين وترجيح الإباحة.

٣٣ - رئاسة الدولة تبقى ضمن الإباحة المشروطة لأنها ليست الخلافة العظمى، والمجمع عليه هو عدم جواز استلامها الإمامة العظمى أو الخلافة.

٣٤ - حق المرأة في المشاركة في السلطة القضائية حجج المانعين والمجيزين وترجيح الإباحة.

٣٥ - ماذا يريدون للمرأة: المساواة التامة بين الجنسين في كل شيء، ودحض هذه المساواة وأخطارها من أكبر دعائها الشيوعيين.

٣٦ - الحرية الجنسية ورفع مفهوم الأخلاق والحل والحرمة فيها، دحض هذا الاتجاه وأخطاره بلسان أكبر دعائه الأمريكيين.

٣٧ - النتائج المستخلصة.



(٢)

الإرهابماهية الإرهاب:

الإرهاب: لفظاً هو التخويف وبث الرعب عند الآخرين، وقد استعمله القرآن الكريم بهذا المعنى في موقعين اثنين.

قال عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال ﷺ من قائل: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنْتُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣].

فمهمة قوة الدولة المسلمة أن تملك القوة الرادعة التي ترهب العدو أن يعتدي عليها أو أن ينكث وعده معها أو يتجرأ عليها، وهذا المعنى هو الذي تتبناه الدولة الكبرى في العالم اليوم (أمريكا) كما يقول أنطوني ليك مستشار الرئيس - السابق - كلينتون للأمن القومي:

(أولاً، دعوني أذكر مبدأً أساسياً دائماً، وهو أننا سنكون دائماً على استعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن مصالحنا القومية، إلى أن تتغير طبيعة البشر، ستبقى القوة في صلب العلاقات الدولية)^(١).

وتكون ثمرة هذا التفوق المادي في القوة أن يرهب العدو المسلمين في أي مكان في الأرض، وهو المعنى الذي أقرته الآية كمعنى واقع لا معنى صحيح.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾؛ لأن الحق أن تكون رهبة العدو من الله أشد من رهبة من المسلمين، لكن لأنه لا يفقه معنى الألوهية ولا يؤمن بها، فتكون رهبة من القوة المسلمة تفوق رهبة من الله.

خطأ جسيم: ويقرأ بعض المسلمين هذه الآية ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ فيسارع بحماس ليقول إذن نحن إرهابيون، وذلك في أسلوب من التحدي والاستفزاز في غير

(١) أعضاء على الأنباء، العدد (٤) السنة (١١)، (١١/٣/١٩٩٦م).

محلّه، وعلى غير هدى من الله، فمع أن الله ﷻ قال: ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ﴾ فلم يسمنا القرآن ولا الإسلام إرهابيين، ولم ترد في أي آية من كتاب الله ولا حديث من أحاديث رسول الله ﷺ، فلا يحق لنا إذن أن نطلق على أنفسنا اسمًا لم يسمه الله لنا، إنما نبحت عن الاسم الذي اختاره الله لنا لتتقدم به إلى البشرية فنجده: (المسلمون).

كما يقول ﷻ: ﴿ هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾.

وشتان بين اسم المسلمين وبين اسم الإرهابيين.

وحتى قتال الكفار لم يطلق الإسلام عليه إرهابًا، إنما سماه جهادًا، والجهاد في سبيل الله أوسع مدى بكثير من الإرهاب الذي نترامى على تسميته به.

تعريف الإرهاب: لغةً واصطلاحًا:

سبق أن تحدثنا عن معنى الإرهاب في اللغة، وستناول الحديث عن مصطلح الإرهاب في المراجع العلمية والسياسية:

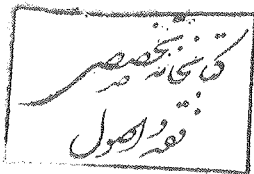
١ - في المعجم الوسيط^(١):

أرهب فلانًا: خوّفه وفزّعه، رهّب فلانًا: خوّفه وفزّعه، استرهبه: رهّبه.

الإرهابيون: وصف يطلق على الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية^(٢).

٢ - في الموسوعة السياسية المعاصرة:

الإرهاب: هو الاستخدام غير المشروع وغير القانوني للقوة يأخذ شكلًا عدوانيًا، وهو اصطلاح قصد به استخدام القوة الإجرامية ضد الأبرياء أو ضد حكومات شرعية منتخبة للاستيلاء على السلطة بالقوة، وهذا يختلف جذريًا عن اصطلاح المقاومة الذي يُقصد به استخدام أبناء أرض محتلة للقوة المسلحة لإخراج المحتلين منها، وبذلك نرى أن الإرهاب استخدام غير مشروع للقوة، بينما المقاومة استخدام مشروع للقوة^(٣).



(١) المعجم الوسيط هو الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(٢) المصدر المذكور (١/٣٧٦).

(٣) عن الموسوعة السياسية المعاصرة لنبيلة داود (ص ١١٠).

٣ - عند وزراء الداخلية والعدل العرب:

(نصت المادة الأولى في بندها الأول على تعريف الإرهاب بأنه:

كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أيًا كانت بواعثه وأغراضه، يقع تنفيذًا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها، أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر.

وعرفت في بندها الثالث الجريمة الإرهابية بأنها:

أي جريمة أو شروع فيها ترتكب تنفيذًا لغرض إرهابي في أي من الدول المتعاقدة أو على رعاياها أو ممتلكاتها أو مصالحها يعاقب عليها قانونها الداخلي، كما تعد من الجرائم الإرهابية المنصوص عليها في الاتفاقيات التالية، عدا ما استثنت منها تشريعات الدول المتعاقدة أو التي لم تصادق عليها.

(أ) اتفاقية طوكيو الخاصة بالجرائم والأفعال التي ترتكب على متن الطائرات والموقعة بتاريخ (١٤/٩/١٩٦٣ م).

(ب) اتفاقية لاهاي بشأن مكافحة الاستيلاء غير المشروع على الطائرات والموقعة بتاريخ (١٦/٢/١٩٧٠ م).

(ج) اتفاقية مونتريال الخاصة بقمع الأعمال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الطيران المدني والموقعة في (٢٣/٩/١٩٧١ م).

والبروتوكول الملحق بها الموقع في مونتريال في (١٠/٥/١٩٨٤ م).

(د) اتفاقية نيويورك الخاصة بمنع ومعاقة الجرائم المرتكبة ضد الأشخاص المشمولين بالحماية الدولية بمن فيهم الممثلون الدبلوماسيون والموقعة في (١٤/١٢/١٩٧٣ م).

(هـ) اتفاقية اختطاف واحتجاز الرهائن والموقعة في (١٧/٢/١٩٧٩ م).

(و) اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لسنة (١٩٨٣ م) ما تعلق منها بالقرصنة البحرية.

ونصت المادة الثانية من اتفاقية مكافحة الإرهاب العربية على ما لا يعد جريمة إرهابية،

وعلى أن الجرائم الإرهابية ولو ارتكبت بدافع سياسي لا تعد من الجرائم السياسية، وبالتالي يجوز تسليم مرتكبيها وهذا متفق مع اتفاقية تسليم المجرمين العربية لسنة (١٩٥٢ م).

- لا تعد جريمة، حالات الكفاح بمختلف الوسائل بما في ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبي والعدوان من أجل التحرر وتقرير المصير، وفقاً لمبادئ القانون الدولي، ولا يُعتبر من هذه الحالات كل ما يمس بالوحدة الترابية لأي من الدول العربية.

وفي تطبيق أحكام هذه الاتفاقية لا تعد من الجرائم السياسية ولو كانت بدافع سياسي الجرائم الآتية:

١ - التعدي على ملوك ورؤساء الدول المتعاقدة والحكام وزوجاتهم أو أصولهم أو فروعهم.

٢ - التعدي على أولياء العهد أو نواب رؤساء الدول أو رؤساء الحكومات أو الوزراء في أي من الدول المتعاقدة.

٣ - التعدي على الأشخاص المتمتعين بحماية دولية بمن فيهم السفراء والدبلوماسيون في الدول المتعاقدة أو المعتمدون لديها.

٤ - القتل العمد والسرقة المصحوبة بإكراه ضد الأفراد والسلطات أو وسائل النقل والمواصلات.

٥ - أعمال التخريب والإتلاف للممتلكات العامة والممتلكات المتخصصة لخدمة عامة حتى ولو كانت مملوكة لدولة أخرى من الدول المتعاقدة.

٦ - جرائم تصنيع أو تهريب أو حيازة الأسلحة أو الذخائر أو المتفجرات أو غيرها من المواد التي تعد لارتكاب جرائم إرهابية^(١).

وبهذه الاستثناءات لم يعد هناك جرائم لا يسلم أصحابها عليها، وأن كل ثورة على النظام المستبد واستعمال القوة لمواجهته تعني أن هذا إجرام غير سياسي يسلم صاحبه للدولة المستبدة، والكفاح السلمي وحده في الرأي هو الذي لا يسلم صاحبه، وهذا في الأصل لا يدخل في عداد الجرائم، وانتهت الاتفاقيات الأمنية في الدول العربية إلى أن الإرهاب هو استعمال القوة ضد الأنظمة مهما كانت الدوافع، ولو كانت الأنظمة تذبج شعوبها وتكتم أنفاسهم إلى الأبد.

(١) تشريعات مكافحة الإرهاب في الوطن العربي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الندوة العلمية الخمسون.

أمريكا بين المصالح والمبادئ:

وهو موضوع شائك قد يبدو لأول وهلة بعيد الصلة عن موضوع الإرهاب بشكل مباشر لكنه في حقيقة الأمر جزء لا يتجزأ من موضوع الإرهاب، فأمريكا تعلن للعالم أن الإرهابي هو الذي يتعرض لمصالحها الاستراتيجية بالخطر، وحين نتحدث عن المبادئ تُشعر العالم بأنها حماسة السلام في الأرض وأن كل ما تفعله من مواقف هو الحفاظ على السلام، كما ذكر الرئيس الأمريكي في مجلس النواب الأردني:

(إن أمريكا ترفض القبول بحقيقة أن حضاراتنا يجب أن تصادم، إننا نحترم الإسلام، لكن في الشرق الأوسط وفي مناطق أخرى في شتى أرجاء العالم تلمس الولايات المتحدة تنافساً بين القوى التي تتجاوز الحضارات تنافساً بين الاستبداد والحرية، وبين الإرهاب والأمن، وبين التفرقة والتسامح، وبين الانعزال والانفتاح، إنه الكفاح القديم العهد بين الخوف والأمل، إنه الصراع الذي يمسك بخناق الشرق الأوسط اليوم).

ونلاحظ كيف تضغط قضايا الإرهاب والسلام على ذهن الرئيس الأمريكي، بحيث ينتقل من الحديث عن الحضارات والإسلام إلى حديث الصراع الذي يمسك بخناق الشرق الأوسط اليوم، وهو الحل السلمي للقضية الفلسطينية، وحرب كل من تسوّل له نفسه أن يقف في وجهه.

إننا بحاجة أن ندرس - بهدوء وعناية - المصالح الأمريكية، وارتباط الإرهاب بالتعرض لها، وأن نفرّق بينها وبين المبادئ الأمريكية التي تعلنها للعالم.

وبمقدار ما تختلف المواقف بين الحركة الإسلامية العالمية وبين أمريكا في النظر إلى (المصالح الأمريكية) بمقدار ما تلتقي حول المبادئ المعلنة.

وحتى المصالح ليس بالضرورة أن يكون الخلاف أساسياً فيها بين الإسلاميين والولايات المتحدة، فهناك كثير من المصالح لا تمس المسلمين وسيادتهم على أرضهم ودولهم لا تعارض بينها وبين مصالح الحركة الإسلامية ومبادئها، وليست نقاط تماس أو خلاف، بل يمكن القول بأنه قد يكون هناك تطابق بين (المصالح الأمريكية) (والمصالح الإسلامية) ونحن بحاجة إلى أن نوظفها في فهمنا للتعامل مع أمريكا.

ويمكن القول: إن الإرهاب من أهم القضايا ذات الحساسية المفرطة، والتي يسودها

كذلك سوء الفهم بين الفريقين نعرض له بتفصيل في هذا البحث، لننتقل إلى الحديث عن المبادئ، وضرورة الحوار حول الحقائق الكبرى المسلمة بها عند الأمريكيين، وستكون الدراسة من خلال الخطاب الذي ألقاه مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى (روبرت بيليترو) في (٨ / ٥ / ١٩٩٦ م) أمام مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك عن الإسلام في تحديده للسياسة الأمريكية من الإسلام.

وقد اعتمدنا النص الرسمي لكلمة بيليترو كما أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية، ونشر في مجلة أضواء على الأنباء الصادرة عن وكالة إعلام الولايات المتحدة ومركز جدة في (١٠ / ٦ / ١٩٩٦ م) العدد رقم (١٣) السنة الحادية عشرة.

أولاً: المصالح.. الإرهاب والموقف منه:

(أ) مصطلح الإرهاب الجديد:

عندما وضعت أمريكا نفسها في أن أكبر مهماتها محاربة الإرهاب في العالم، لم تكن قد حددت بعد معنى « الإرهاب » وإن كانت قد طرحت مجموعة تعاريف يمكن أن تحدده، نستعرضها كما وردت في القانون (٢٢) من مجموعة قوانين الولايات المتحدة القسم (٢٦٥٦) أف / د؛ حيث يتضمن هذا القانون التعريفات التالية:

(- يعني اصطلاح « إرهاب » : أعمال عنف مدبرة متعمدة يتم القيام بها بدافع سياسي ضد أهداف غير معينة بالحرب من جانب جماعات في البلاد.

- يعني اصطلاح « إرهاب دولي » : أعمال إرهاب تتناول مواطني أو أراضي أكثر من دولة واحدة.

- يعني اصطلاح « جماعة إرهابية » : أي جماعة تمارس أو لديها جماعات فرعية مهمة تمارس أعمال إرهاب دولية، وقد استخدمت حكومة الولايات المتحدة هذا التعريف للإرهاب منذ عام (١٩٨٣ م) لأغراض إحصائية وتحليلية ^(١).

فالعناصر الأساسية في تعريف الإرهاب هي أعمال العنف، والدافع السياسي والأهداف غير المعنية بالحرب، من جانب جماعات في البلاد، ويخرج ابتداءً بهذا التعريف من الإرهاب:

- أعمال احتجاج سلمية من مظاهرات، واعتصام، وإضراب عن الطعام وغير ذلك.

(١) أضواء على الأنباء، العدد (١٢) السنة (١٣)، (٤ / ٥ / ١٩٩٨ م).

- ما كان في غير دوافع سياسية، مثل هدف الابتزاز المادي.
- الأهداف المعنية بالحرب، فالإرهاب منصبٌ على الأهداف المدنية.
- أن تكون من دولة ذات سلطان متمكن وليست من جماعات أو أحزاب غير حاكمة.

(ب) الدول الراحية للإرهاب:

ولا يعني إخراج الدول من الإرهاب براءتها، فهناك دول تسميها الولايات المتحدة راحية للإرهاب وتخرج من تشاء وتدخل من تشاء في هذه القائمة.

(وقد حددت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السابقة (الأمريكية) سبع دول على أنها دول ترعى الإرهاب وهي: كوبا، وإيران، والعراق، وليبيا، وكوريا الشمالية، والسودان، وسورية، وتساند تلك الحكومات الإرهاب الدولي، إما من خلال القيام بنفسها بأعمال إرهابية، أو من خلال توفير أسلحة وأماكن للتدريب وملاذات آمنة، وتسهيلات دبلوماسية، ودعم مالي، وإمدادات أو نوع آخر من الدعم للإرهابيين^(١).

والعجيب أن أربع دول من السبع هي دول عربية والخامسة في قائمة الدول الإسلامية، وبقيت دولتان هما كوبا وكوريا الشمالية، ومن بين هذه الدول السبع هناك دولتان تنطلقان من الإسلام هما السودان وإيران.

(ج) المنظمات الإرهابية:

ولم يتم تحديد المنظمات الإرهابية بالضبط لكن حيث إن أكثر الإرهاب في الشرق الأوسط، فقد ذكرت العديد من المنظمات تحت هذا الاسم وهي تتحدث عن إيران:

(وتواصل إيران توفير دعم في شكل تدريب وأموال أو أسلحة لمختلف الجماعات الإرهابية، مثل حزب الله اللبناني، وحماس، ومنظمة الجهاد الإسلامي الفلسطيني، كما تواصل الحكومة الإيرانية معارضة الاعتراف بإسرائيل، وتشجع الرفض العنيف لعملية إحلال السلام في الشرق الأوسط، وفي خريف عام (١٩٩٧ م) استضافت طهران ممثلي عدة منظمات إرهابية تشمل حماس وحزب الله اللبناني، ومنظمة الجهاد الإسلامي، والجماعة الإسلامية في مصر في مؤتمر حركات التحرير.. وما زالت إيران توفر ملاذًا آمنًا لعناصر من حزب العمال الكردستاني^(٢).

(١، ٢) أعضاء على الأنباء، العدد (١٢)، (ص ٤٤) السنة (١٣)، (٤/٥/١٩٩٨ م).

(د) دور أمريكا في العالم:

إن انفراد دولة في العالم تصدر الحكم عليه؛ من يستحق الحياة، ومن يستحق الموت، من هو الإرهابي، ومن هو غير الإرهابي، هو إرهاب دولي يتعامل العالم معه بخوف وحذر، لقد كان الأمر من قبل يعود إلى مجلس الأمن، وإلى الأمم المتحدة، فكان هذا أخف وطأة من انفراد دولة في الأرض بهذا الأمر هي تقرر المبادئ، وهي تقرر المصالح، وهي تقرر المخاوف، وهي تقرر الأمن.. شيء مظلم في تاريخ البشرية، وهو مؤقت ولن يدوم، مهما كانت موضوعية هذه الدولة وسموها، هذا يعني أن ثلاثمائة مليون في الأرض يتحكمون بمصير ستة مليارات من البشر بصفتهن القوامين عليهم، وكل سندها الشرعي في ذلك هو القوة التي تملكها، ولا بد أن نشرح بوضوح هذا الاتجاه.

في خطاب ألقاه المسؤول الكبير^(١) في جامعة جورج واشنطن يوم السادس من شهر آذار عام (١٩٩٦ م). عرض فيه عددًا من المبادئ التي تحكم استخدام الولايات المتحدة للقوة قال:

(دعوني أذكر مبدأً أساسياً دائماً، وهو أننا سنكون دائماً على استعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن مصالحنا القومية إلى أن تتغير طبيعة البشر، ستبقى القوة في صلب العلاقات الدولية، هذا يستدعي السؤال عن ماهية مصالحنا بالضبط، وأريد أن أذكر سبع حالات قد تستدعي منفردة أو لدى اجتماع بعض منها استخدام القوة العسكرية:

١ - التصدي لهجمات مباشرة على الولايات المتحدة أو مواطنيها أو حلفائها.

٢ - التصدي للعدوان.

٣ - الدفاع عن مصالحنا الاقتصادية الرئيسية، وهو المجال الذي يرى معظم الأمريكيين أن لنا فيه مصلحة مباشرة في التعاطي بالشؤون الدولية.

٤ - الحفاظ على الديمقراطية، وتعزيزها ونشرها والدفاع عنها، فالديمقراطية تعزز أمتنا، وانتشار قيمنا.

٥ - منع انتشار أسلحة الدمار الشامل والإرهاب، والجريمة الدولية، وتهريب المخدرات.

(١) هو أنطوني ليك مستشار كلينتون لشؤون الأمن القومي.

٦ - الحفاظ على كوننا ممن يمكن التعويل عليه؛ لأنه عندما تكون شراكاتنا قوية، والثقة بقياداتنا كبيرة من الأسهل جعل الآخرين يعملون معنا.

٧ - لغايات إنسانية مثل مكافحة المجاعة والإغاثة من الكوارث الطبيعية والتصدي لانتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان^(١).

(هـ) المصالح الأمريكية:

ولعل الفقرة الغامضة في هذه المبادئ السبعة هي:

(الدفاع عن مصالحنا الاقتصادية الرئيسية: وهو المجال الذي يرى معظم الأمريكيين أن لنا فيه مصلحة مباشرة في التعاطي بالشؤون الدولية).

بينما كانت المبادئ الستة المتبقية واضحة، بغض النظر عن الرأي فيها، وسنحاول أن نستجلي هذه المصالح من نصوص أخرى وردت على لسان المسؤولين الأمريكيين. يقول روبرت بيليترو مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى^(٢):

هناك مناطق قليلة في عالم اليوم مثل الشرق الأوسط تتواجد فيه كثير من المصالح الأمريكية المهمة، ودعوني أتعرض لبعض هذه القضايا والمصالح التي تبقينا منشغلين:

١ - تأمين عربي - إسرائيلي (السلام).

٢ - الحفاظ على أمن إسرائيل ورفاهيتها.

٣ - ضمان التدفق الحر للنفط من الخليج.

٤ - احتواء التهديدات التي تشكلها بعض الدول الإسلامية.

٥ - مكافحة الإرهاب.

٦ - كبح انتشار أسلحة الدمار الشامل.

٧ - تأمين وصول الشركات الأمريكية إلى أسواق المنطقة.

٨ - الترويج لأنظمة سياسية واقتصادية أكثر انفتاحاً لاحترام حقوق الإنسان.

ونظراً لأهمية هذه المصالح فإن السياسة الأمريكية الوحيدة التي تتم عن حس سليم تجاه هذه المنطقة الحيوية، بل في الواقع السياسة الوحيدة الممكنة^(٣).

(١) أعضاء على الأنباء، العدد (٩) السنة (١١)، (١١/٣/١٩٩٦م).

(٢) المقال مقتبس من خطاب ألقاه في النادي الديمقراطي القومي النسائي في عام (١٩٩٦م) بواشنطن.

(٣) أعضاء على الأنباء، العدد (١١)، السنة (١١)، (٢١/٥/١٩٩٦م)، (ص ١٤).

فكل من يتعرض لأي من المصالح المذكورة هو إرهابي لا بد من مواجهته والقضاء عليه، وأكد هذا المسؤول هذا الفهم فقال:

(ودعوني أركز على أكبر مبادرتين لنا: عملية السلام العربي الإسرائيلي، وأمن منطقة الخليج.

١ - عملية السلام: إن تأمين سلام عادل ودائم وشامل هو حجر الزاوية للسياسة الخارجية العامة لهذه الحكومة والاتفاقات التي أنجزناها على مدة العامين المنصرمين، وما أعقبها من توسيع الاتصالات السياسية والاقتصادية تشكل أساس تسوية شاملة للصراع العربي الإسرائيلي^(١).

(... إن الولايات المتحدة تنظر إلى ما وراء النجاحات في العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية، وإلى هدفنا البعيد المتمثل في سلام شامل يغطي الشرق الأوسط بكامله، ومن شأنه تعزيز السلام الإقليمي أن يخدم طائفة من المصالح الأمريكية، وفي الوقت نفسه يؤكد التزامنا الذي لا يتزعزع تجاه أمن إسرائيل ورفاهيتها)^(٢).

٢ - أمن منطقة الخليج: (... فمن الأهمية بمكان لفت الانتباه لمصلحتنا الحيوية في تعزيز الاستقرار والأمن في منطقة الخليج، وهذا لا يعد مجرد اختيار بل مطلب، إن أمن ازدهار الاقتصاد الأمريكي، وفي الحقيقة أمن وازدهار العالم أجمع في هذه المرحلة من الزمن يعتمدان على التدفق الحر للنفط بأسعار معقولة من الاحتياطات الهائلة للجزيرة العربية، وهذا معناه أننا بحاجة لاحتواء بلدان خارجة على القانون مثل إيران والعراق، وكلاهما خارج عن الأعراف الدولية للسلوك، ويسعى للهيمنة على هذه المنطقة الاستراتيجية البالغة الثراء^(٣).

(وقد مضى خمس سنوات على إطلاق الولايات المتحدة وحوالي عشر دول أخرى عملية عاصفة الصحراء؛ التي كانت عملية متعددة الجنسيات أدت إلى طرد قوات صدام حسين من الكويت، وما كانت هذه ممكنة بدون الزعامة المصممة للولايات المتحدة، وكانت مشاركتنا ضرورية لدحر عمل القرصنة الدولي للعراق وإحباط دكتاتور لا يرحم من السيطرة على حصّة رئيسية من نفط العالم، وممارسة نفوذ سياسي ابتزازي على المنطقة بأكملها)^(٤).

(١) أعضاء على الأنباء، العدد (١١)، السنة (١١)، (٢١/٥/١٩٩٦م)، (ص ١٥).

(٢) المصدر السابق (ص ١٧).

(٣، ٢) المصدر نفسه (ص ١٦).

(.. وقد تعهدت هذه الحكومة بصنع السلام، واحتواء أولئك الذين يهددون استقرار المنطقة، ومن خلال زعامتنا فإننا نستجيب لأسمى تقاليد أمتنا وشعبنا، وعلينا أن نواصل العمل من أجل مستقبل أكثر إشراقاً للشرق الأوسط ولنا مستقبل يتسم بتوسيع السلام والتعاون، وزيادة الأمن والرخاء)^(١).

١ - السلام بين اليهود والعرب.

٢ - أمن إسرائيل وسلامتها ورفاهيتها.

٣ - تدفق النفط في الخليج إلى أمريكا بدون أي سلطان عليه إلا سلطانها.

وأي مصلحة من هذه المصالح تُمسّ يعني أن أصحابها إرهابيون لا بد من كفاحهم والقضاء عليهم باسم المبادئ الأمريكية.

الانحياز الأمريكي: ونهمس قليلاً هنا أن الولايات المتحدة التي تعلن أنها مسؤولة عن أمن إسرائيل ورفاهيتها، وهذه رسالة عظمى من مبدئها، هذه الدولة تعلن وزيرة خارجيتها أعظم سعادتها يوم ولدت إسرائيل، وهو أسوأ يوم مر على العرب والمسلمين في تاريخهم المعاصر، فكيف تكون هذه الدولة ووزيرتها حكماً بين الفريقين. (وأذكر كيف انتابني شعور بأن شيئاً عظيماً حقاً قد حدث، في اليوم الذي سبق بلوغي سن الحادية عشرة عندما ولدت دولة إسرائيل الحديثة).

هذا المَعْلَم البارز في التاريخ - تلك الولادة المعجزة - كانت نتاج التزاوج بين التضحية الأليمة والعقيدة الصُّلبة، ومنذ ذلك الربيع قبل نحو خمسين عاماً، أصبح الحلم المحفز على قيام دولة إسرائيل المستقلة، المزدهرة الآمنة، يتحرك بثبات نحو الواقع.

ومن بقاع العالم المختلفة جاء الأشخاص الموهوبون وذوو الشخصيات المميزة للمساهمة بطاقتهم في اقتصادكم، وللمساهمة بمعرفتهم في ثقافتكم، وببسالتهن من أجل الدفاع عنكم.

ومن الصحراء، أخرجت الأسر الإسرائيلية بلداً من المزارع والعمال المهرة، وأعمالاً حرة نشطة وأستطيع أن أقول لكم من خلال النظر إلى وجوهكم، ومن خلال معرفتي بمدى تميز هذه الأكاديمية أن كلاً منكم ستكون له مساهماته لبلدكم ولعالمنا، وبالنسبة

(١) أعضاء على الأنباء، العدد (١١)، السنة (١١)، (٢١/٥/١٩٩٦م)، (ص ١٨).

إلى الولايات المتحدة، إن إسرائيل صديق موضع ثقة وموضع تقدير، إن شعبينا تربطهما ببعضهما قيمنا المشتركة، فكلانا أمة من المهاجرين، وأمة عاقدة العزم على تحقيق الأحلام النهضوية التي حملها مؤسسونا، وكلانا أمة تدفعها الأفكار، وفي مقدمتها فكرة الحرية.

هذه الروابط توفر أساساً راسخاً للتحالف، إن إسرائيل لا تزال شريك أمريكا الاستراتيجي، ولا يزال التزام أمريكا أمن إسرائيل بصلابة الصخر، وسيبقى كذلك، وإذا كان هناك أدنى شك دعوني أبدده الآن، ستقف أمريكا وإسرائيل جنباً إلى جنب وكتفاً إلى كتف، اليوم وفي العام القادم، وخلال القرن القادم، وطالما أشرقت الشمس^(١).

هذه وزيرة الخارجية التي تريد أن تُقيم سلاماً عادلاً وشاملاً في الشرق الأوسط بين العرب ودولة إسرائيل ومن أجل هذا كانت الاتفاقات جميعاً على حساب العرب، والتنازلات من قبلهم لصالح الحليف الاستراتيجي لأمريكا كلما أشرقت الشمس، ومن أجل مقتل ستين يهودياً تدعو أمريكا تسعة وعشرين زعيماً من زعماء دول العالم لإدانة هذا الإرهاب، أما الملايين التي سقطت قتلى وجرحى والملايين التي شردت في العراء، والشعب الذي يعيش أكثر من نصفه خارج وطنه، وفي المخيمات، هذا كله لا يستدعي مثل هذا المؤتمر.

ولا بد أن نوضح هذه النظرة عند الرئيس الأمريكي الذي عقد قمة شرم الشيخ لمكافحة إرهاب حماس التي قتل بعض مجاهديها ستين مدنياً في عملية الباصات.

(إن العبرة المستقاة من الاجتماع الذي عقد يوم أمس في شرم الشيخ كانت هي أن إسرائيل ليست وحيدة، وكان حدثاً لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه المنطقة، وبناءً على حث جيران إسرائيل - مصر والأردن والفلسطينيين - والولايات المتحدة جاء تسعة وعشرون زعيماً ثلاثة عشر منهم من بلدان عربية لإظهار دعمهم للسلام، ومحاربتهم للإرهاب الرامي إلى تخريب السلام، ولقد كان أكبر اجتماع من هذا القبيل ونحن عاهدنا أنفسنا مجدداً على محاربة التطرف، وبدأنا العمل بصورة وثيقة معاً للتخلص من كل أولئك المسؤولين عن سفك الدماء.

إن اجتماعاً مثل ذلك لم يكن ليتخيله المرء قبل بضع سنوات، فللمرة الأولى أقرت بلدان عربية، وأعلنت على الملأ أن الألم الذي يتم إيقاعه في إسرائيل هو خطر عليها

أيضاً، وهي تعرف أن القضاء على الأمل والأحلام والحياة البريئة في إسرائيل هو تهديد للمستقبل الذي تريده لنفسها ولأبنائها، وهذا بحد ذاته مدعاة للأمل..

قبل تسعة وعشرين عاماً حينما أغلقت مضائق تيران مثلت شرم الشيخ رمزاً لغزلة إسرائيل عن العالم، لكن في عام (١٩٩٦م) أصبحت شرم الشيخ رمزاً لقبول إسرائيل في هذه المنطقة وفي العالم، إن الخلاف في الشرق الأوسط اليوم ليس هو بين عربي ويهودي، بل بين أولئك الذين يرنون لمستقبل أفضل، وأولئك الذين انكفأوا إلى عداوة الأمس الدموية..^(١)

(و) الحركة الإسلامية والإرهاب:

لا بد أن نشير ابتداءً أن حجر الزاوية في الإرهاب كله هو قضية فلسطين، فجميع المنظمات الإرهابية التي ذكرت على سبيل المثال تقاتل لتحرير فلسطين، أما الجماعة الإسلامية في مصر فقد تخلت عن العنف، وتحولت إلى حزب سياسي والإخوان المسلمون، وهم أساس الحركة الإسلامية المعاصرة قد تحولت هي الأخرى إلى حزب سياسي.

١ - قيام إسرائيل: (بهذا التخطيط المحكم من جميع نواحيه قامت الدولة اليهودية عام (١٩٤٨م) بعد خمسين عاماً من مؤتمر هرتزل عام (١٨٩٧م)، واعترفت بها أمريكا في منتصف الليل بتوقيتنا المحلي، وبعد عشر دقائق أعلنت روسيا اعترافها بالدولة اليهودية. وكانت قد جرت قبل الإعلان الرسمي للدولة مسرحية الحرب بين الجيوش العربية والعصابات اليهودية خلال عام (١٩٤٨م) لتستقر القوات كلها على خط التقسيم المعد من قبل.. وفي أثناء ذلك وقعت المفاجأة المذهلة التي لم تكن لأحد على بال؛ دخل الفدائيون من الإخوان المسلمين ساحة المعركة بعزيمة المسلم المجاهد في سبيل الله، وبنية الشهادة في سبيل الله، وأحس اليهود بالفرق الهائل الخطير بين القتال مع أولئك المجاهدين والقتال مع الجيوش المسرحية التي شاركت في المسرحية المعدة من قبل، والمتفق عليها من قبل)^(٢).

٢ - قرار حل الإخوان المسلمين: (لذلك التقت الصليبية والصهيونية العالمية في هدف

(١) أضواء على الأنباء، العدد (٥)، السنة (١١)، (٢٤/٣/١٩٩٦م)، الصفحات (٢٥، ٢٦) من خطاب ألقاه الرئيس كليتون في (١٥ آذار) في حشد من الطلاب اليهود.

(٢) واقعنا المعاصر، للأستاذ محمد قطب (ص ٣٨٦، ٣٨٧)، الطبعة الأولى.

واحد مشترك: أنه لا بد من إبادة هذه الجماعة المسلمة ليستتب الأمر للدولة اليهودية والصليبية في ذات الوقت.. وتوالى الأحداث من اعتقال وتعذيب وتشريد بعد أن اجتمع سفراء الدول الأجنبية مع قواد القوات البريطانية في مدينة فايد بالإسماعيلية، وأرسلوا إنذارًا إلى الحكومة المصرية بضرورة حل جماعة الإخوان المسلمين، ووقف نشاطها، وبلغت الأحداث ذروتها بمقتل الإمام الشهيد البنا عام ١٩٤٩ م^(١).

٣ - أمريكا تمسك المقود: كانت أمريكا قد برزت إلى الوجود بوصفها زعيمة العالم الحر.. وصاحب ذلك وترتب عليه أمران مهمان بالنسبة للمنطقة الإسلامية وسير الأحداث فيها، الأول هو انتقال زعامة الصليبية إلى أمريكا.. والأمر الثاني أن اليهودية العالمية نقلت نقطة ارتكازها من بريطانيا إلى أمريكا.. وقررت الصليبية الصهيونية أنه لا بد من توجيه ضربة ثانية حاسمة للحركة الإسلامية تقضي عليها القضاء الأخير، ومن ثم تعاونت الصهيونية مع أمريكا حسب مقتضيات الوضع الجديد وكانت الأداة التي اختيرت لذلك هي جمال عبد الناصر والانقلابات العسكرية.. واستغرق الأمر عامين كاملين في التحضير والترتيب من عام (١٩٥٠ م إلى عام ١٩٥٢ م) ... وقام جمال عبد الناصر بالدور المطلوب على الوجه الأكمل، فأقام للمسلمين مذبحتين من أبشع مذابح التاريخ، الأولى عام (١٩٥٤ - ١٩٥٥ م) والثانية عام (١٩٦٥ - ١٩٦٦ م)^(٢).

٤ - الإخوان إرهابيون: في (٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ م) افتعلت مسرحية الإسكندرية التي قال عنها حسن التهامي:

(عقد اجتماع ضم بول لينيارجر مسؤول الدعاية السوداء (الأمريكي) والذي قام من قبل بتخطيط إعلامي لتصعيد نجومية عبد الناصر، وضم الاجتماع عبد الحكيم عامر، وزكريا محيي الدين، وحسن التهامي، وعبد القادر حاتم، وجمال عبد الناصر، وفي هذا الاجتماع - كما يروي حسن التهامي - اقترح بول لينيارجر افتعال محاولة للاعتداء على عبد الناصر تكون سليمة التدبير، وتقوم بها عناصر مختارة في هذا الصدد فتكون عملية إطلاق الرصاص على عبد الناصر عملية تمثيلية صورية محكمة وذات تأمين كافٍ لتنفيذها، وسيجذب الحادث مشاعر الشعب نحوه لما يراه فيه من مظاهر الشجاعة وثباته، وعدم خوفه واهتزازة، واعترض البعض لأن ذلك مجازفة لا طاقة لهم بتحملها

(١) واقعنا المعاصر، للأستاذ محمد قطب (ص ٣٩١)، الطبعة الأولى.

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦).

إلا أن بول لينارجر كان على يقين واقتناع تام به، وانفرد بالاجتماع بعبد الناصر شخصيًا، وبعد ثلاثة أشهر تمت عملية المنشية تمامًا كما وضع خططها بول لينارجر بإحكام، وتم فيها تنحية محمد نجيب والقبض على الجناة المزعومين واعتقال الآلاف من الإخوان والزج بهم في السجن الحربي^(١).

وينقل لنا حسن العشماوي الصديق الحميم لعبد الناصر:
حسن: لقد عرفتك يا جمال عن طريق الإخوان، ولولاهم ما عرفتك، وأنت تنوي حربهم..

جمال: (بعد لحظة) أتعلم يا حسن أنني جاد في حربي للإخوان؟
حسن: نعم؛ أعلم.

جمال: أتعلم أنني سأنتصر عليهم وإن كانوا نصف البلد عددًا؟
حسن: أعلم.

جمال: ومع ذلك تقول إنك ترفض عرضي وفاءً لهم، ليس هذا بالوفاء، إنه التهور والغفلة.

حسن: ... العبرة بالمسميات لا بالأسماء يا جمال، فما قد تسميه أنت غفلة لأنه يخالف المصلحة الشخصية أسميه أنا وفاءً.

جمال: فكر يا حسن ولا تتعجل الرد فأني سأقضي على الإخوان، لن أسمح للعصاة بالبقاء^(٢).

وفي ختام المباحثات..

عبد الحكيم عامر: فكر في الأمر وقابلنا مرة أخرى، تعقل قبل أن تتخذ قرارًا.

حسن: لقد فكرت وقررت، ولا أعتقد أنني سأراكما بعد اليوم (عبد الحكيم عامر وجمال عبد الناصر) إلا أن تطلباني أو يرسلني المستشار (حسن الهضيبي) وأرجو أن لا يفعل، وما دام الأمر قد انتهى بيننا فأرجو أن تستلما ما لكم من أسلحة ومتفجرات في العزبة، لم تعد لها محل الآن، فهي لكم، لا يعلم بها حتى الإخوان.

(١) من كتاب الأمم وعبد الناصر، لمحمد الطويل (ص ٩٤، ٩٦) بتصرف.

(٢) الأيام الحاسمة وتاريخها لحسن العشماوي (ص ١٢١، ١٢٢)، من محادثات (ظهر ٥ مايو ١٩٥٣ م).

جمال: لا، بل دعها عندك، ليست لنا مائة مخزن مثل الذي عندك، ومن يدري، لعل الظروف تتغير ونحتاجها.

حسن: أرجوك يا عبد الحكيم، أرسل من يتسلمها، فأنا لا أريدها عندي.
عبد الحكيم: لا داعي للعجلة سنفعل ذلك فيما بعد، ولكن دعها عندك الآن أرجوك.

حسن: إلى حين، وأستودعكما الله، وأسأله أن يهديكما الرشاد، وأنا بانتظار من يتصل بي لاستلام ما عندي لكم من أسلحة، (يخرج حسن عازماً أن لا يعود، ينظر جمال وعبد الحكيم كل منهما إلى الآخر ويقول عبد الحكيم قبل أن يغادر حسن الغرفة).
عبد الحكيم: خسارة هذا الشاب، كنت أريده معنا.

جمال: سنستفيد بذلك يوماً^(١).

واستفاد من ذلك يوماً حيث تحدث عن إرهاب الإخوان المسلمين ومؤامراتهم لقلب النظام باغتيال عبد الناصر، وكشف الأسلحة والمتفجرات المعدة للانقلاب في العزة لحسن العشماوي.

هؤلاء إرهابيو عام (١٩٥٤م)، حيث تم إعدام ستة من قياداتهم عبد القادر عودة وإخوانه، ومن بينهم عميلهم محمود عبد اللطيف، وتم اعتقال أكثر من عشرين ألفاً من شباب الإخوان وشيوخهم في السجن الحربي وغيره من السجون.

٥ - تقرير جونستون: كان ما حدث للإخوان المسلمين في عام (١٩٥٤م) وثيق الصلة بأمر آخر غير مسرحية الإسكندرية، كان وثيق الصلة بتقرير جونستون المندوب الخاص للرئيس إيزنهاور في الشرق الأوسط المكلف ببحث القضية الفلسطينية، وتقديم تقرير للرئيس إيزنهاور عن الحل الأمثل للقضية، وقد قام جونستون بالمهمة التي كُلف بها فجال خلال المنطقة وقابل العرب واليهود ثم قدم تقريراً معضلاً مبنياً على ثلاث نقاط رئيسية.

- النقطة الأولى: تقسيم مياه نهر الأردن بين العرب واليهود..

- النقطة الثانية: تحديد حدود مؤقتة بين إسرائيل والعرب..

(١) الأيام الحاسمة وحصادها لحسن العشماوي (ص ١٢٥، ١٢٦).

- النقطة الثالثة: إذا بقيت أمور مختلف عليها بين العرب واليهود، فيجلس العرب واليهود على مائدة مستديرة لحل الخلافات...

وكانت الجملة الختامية على هذا النحو: ولكن طالما أن جماعة الإخوان المسلمين، وهي جماعة قوية مسلحة يبلغ تعدادها حوالي المليون في مصر والبلاد العربية الأخرى، طالما أن هذه الجماعة باقية بقوتها فلن يمكن تنفيذ هذا الحل، ولن تستقر الأمور في الشرق الأوسط.

ورفع التقرير في يونيو (١٩٥٤م) إلى الرئيس إيزنهاور فوافق عليه، وأعطيت الإشارة لجمال عبد الناصر للتنفيذ^(١).

وهكذا تمت تصفية الإخوان المسلمين (الإرهابيين) لأنهم يعيقون السلام بين العرب وإسرائيل، وهو أول مصالح أمريكا الحيوية في المنطقة، وكل من يقف في وجه هذا السلام إرهابي.

٦ - محنة (١٩٦٥م) واستشهاد سيد قطب: كثيراً ما يُتهم فكر سيد قطب - رحمة الله عليه - بأنه منبع الإرهاب، ومن عباءته انطلقت الحركات التي تتبنى العنف في العالم الإسلامي، ولا يبعد أن يكون بعض قادة هذه الفصائل قد فهم هذا الفكر خطأ، أما سيد فهو الذي يشرح في أكثر من موقع حديثه عن الجهاد بأنه كان ممنوعاً ثم مأذوناً ثم مأموراً به، وذلك في الظلال والمعالم وخاصة في تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧].

ونتساءل: هل كان يؤمن بالعنف والثورة على الأنظمة؟ نجد الجواب عند أحد قادة التنظيم الذين كانوا معه وصدر عليه حكم الإعدام شنقاً ثم خفف بعد ذلك.

٧ - فكرة اغتيال عبد الناصر: (عرضنا عليه (أي سيد قطب) فكرة اغتيال جمال عبد الناصر، وأن لدينا أخاً في حرسه يستطيع أداء ذلك بسهولة ويلج بإصرار في ذلك فأجاب:

لا أريد أن تشغلوا أنفسكم بهذه القضايا، حتى لو كان الاستيلاء على الحكم وتطبيق الشريعة الإسلامية ولا القضايا السياسية والوطنية، والإصلاحات الجزئية.

(١) واقعا المعاصر للأستاذ محمد قطب، مقتطفات من (ص ٣٩٤ - ٤٠٠).

نحن نريد الإسلام في نفوس وقلوب الناس قبل أي إجراء آخر، نريد تربية إسلامية قائمة أصلاً على أساس العقيدة، والأخلاق الإسلامية، ويجب عدم إضاعة الوقت في فرض التشريع الإسلامي بالقوة، قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات والتي تسعى لإقامة النظام الذي عاشت به وتعرفه.

وهكذا فعل رسول الله ﷺ مع أصحابه حتى تربت وتكونت القاعدة الصلبة القوية التي قام على أكتافها النظام بعد ذلك في المدينة، وكان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يكلف أحد أصحابه بقتل أبي جهل أو غيره الذين يقفون في طريق الدعوة والتخلص منهم، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك رغم سهولة تنفيذه، وسرعة استجابة الصحابة رضوان الله عليهم؛ لذلك لو أمرهم الرسول ﷺ بذلك، ولكنه لم يفعل لأن هذا ليس هو الطريق^(١).

٨ - روح سيد ثمن الصلح مع إسرائيل: نشرت إحدى المجلات اللبنانية أنه اجتمع سفراء الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط، الأربعة عشر سفيراً لبحث موضوع عبد الناصر، وطالب أربعة منهم الإطاحة بعبد الناصر واستبداله لهبوط شعبيته، وممكن عمل بعض الإصلاحات مع مجيء الوضع الجديد للسلطة، أما الثمانية الآخرون فقد طالبوا بالإبقاء عليه لأنه لا زال الشخصية المرموقة على مستوى العالم العربي، ويتفهم دوره جيداً في اللعبة، ورفعت الدراسة من السفراء للإدارة الأمريكية، فأخذت بالرأي الثاني، وهو الإبقاء عليه في السلطة، وطالبت الإدارة الأمريكية عبد الناصر سرعة اتخاذ خطوات نحو الصلح مع إسرائيل، فأجابهم: بأن أجهزة الاستخبارات عنده تقول: الظروف النفسية للناس لا تتقبل هذا الأمر الآن، والسبب الثاني والعقبه في ذلك الإخوان المسلمون^(٢).

فبدأت الاعتقالات في شهر يوليو (١٩٦٥ م) بالأستاذ محمد قطب، ومجموعات الإخوان الذين سبق الحكم عليهم سنة (١٩٥٤ م)، وأفرج عنهم وعن غيرهم، وأودعوا سجن القلعة الرهيب، وشمل الاعتقال كذلك الشهيد سيد قطب يوم (٩ أغسطس ١٩٦٥ م) باعتباره أحد المفرج عنهم في قضايا (١٩٥٤ م) وأودع معهم سجن القلعة.

٩ - إرهابيو ١٩٦٥ م: (نحن صلاح نصر رئيس نيابة أمن الدولة العليا، بعد الاطلاع على القضية وما تم فيها من تحقيقات نتهم: سيد قطب إبراهيم (٦٠) سنة، كاتب ...

(١) الإخوان وعبد الناصر، القصة الكاملة لتنظيم (١٩٦٥ م) لأحمد عبد المجيد، الزهراء للإعلام العربي ط أولى (١٤١٢ هـ).

- مصطفى العالم مقيم بالخارج وغير معلوم محل إقامته لأنهم في الفترة من سنة (١٩٥٩م) حتى آخر سبتمبر بالجمهورية العربية المتحدة وبالخارج، حاولوا تغيير دستور الدولة وشكل الحكومة فيها بالقوة، بأن ألفوا من بينهم وآخرين تجمعاً حركياً وتنظيماً سرياً مسلحاً لحزب الإخوان المسلمين المنحل يهدف إلى تغيير نظام الحكم القائم بالقوة باغتيال السيد رئيس الجمهورية، والقائمين على الحكم في البلاد، وتخريب المنشآت العامة، وإثارة الفتنة في البلاد، وتزودوا في سبيل ذلك بالمال اللازم، وأحرزوا مفرقات وأسلحة وذخائر، وقاموا بتدريب أعضاء التنظيم على استعمال الأسلحة والمفرقات، وحددوا الأشخاص المسؤولين الذين سيجري اغتيالهم وعينوا محطات توليد الكهرباء، والمنشآت العامة التي سيخربونها، ورسموا طريقة تنفيذ ذلك، وتهيأوا للتنفيذ الفعلي، وعينوا الأفراد الذين سيقومون به، وحال ضبطهم دون تمام مؤامراتهم وكان المتهمون السبعة الأوائل هم المتولين زعامات التنظيم^(١).

وكان هذا القرار نفسه هو قرار الإدانة في (٢٢ أغسطس ١٩٦٦م) إضافة إلى الفقرة. (- السبعة المتهمون الأوائل هم الذين كانوا يتزعمون التنظيم كله، ويقودون حركته، ولهذا فقد حكمت المحكمة عليهم طبقاً لنص المادة (٨٧) عقوبات التي تقضي بالإعدام على كل من ألف عصابة مسلحة لقلب نظام الحكم بالقوة أو تزعمها وتولى القيادة فيها)^(٢).

ثم صدر عفو رئاسي عن أربعة من السبعة ونفذ حكم الإعدام شقاً على كل من سيد قطب ويوسف هواش وعبد الفتاح إسماعيل وذلك يوم (٢٩/٨/١٩٦٦م).

وبعد ثلاثين عاماً حين برزت حماس إلى الساحة تريد أمريكا ربطها بالإخوان المسلمين.

(ز) حماس:

(برزت حركة المقاومة الإسلامية (أي حماس) كمبعث قلق رئيسي بسبب تحديدها المتسم بالعنف لعملية المصالحة الإسرائيلية - الفلسطينية، بل عملية السلام برمتها في الواقع، وقد تشكلت حماس في أواخر الثمانينيات في غزة بعد فورة الانتفاضة،

(١) الإخوان وعبد الناصر لأحمد عبد المجيد (ص ١٧٥، ١٨١).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٩٦).

والجماعتان اللتان سبقتاها هما الإخوان المسلمون والجماعة الإسلامية، وهما وليدتا فترة كانت غرة خلالها واقعة تحت السيطرة المصرية، وتشير وثائق تأسيس حماس إلى حسن البناء، وفي عام (١٩٨٩م) أصدرت إسرائيل حكمًا بالسجن المؤبد على الشيخ أحمد ياسين زعيم حماس بعد قتل جنديين إسرائيليين مختطفين.. وعلى الرغم من جميع دعاواها بالشرعية الدينية أصبحت حماس معزولة على نحو متزايد، فقد تمادى الدعم الشعبي للرافضين منذ عام (١٩٩٣م)، ومن المحتمل أن يواصل دعم حماس اضمحلاله فيما تتواصل عملية السلام^(١).

١ - وحماس اليوم في ظل الهيمنة الأمريكية: (فمع اقتراب الحل النهائي أصبح تصفية حركة المقاومة الإسلامية (حماس) هدفًا مطلوبًا تحقيقه على المدى القريب باعتبارها القوة الجماهيرية الأولى في الشارع الفلسطيني التي تعارض اتفاقات أوسلو وإفرازاته المختلفة، وقد زاد من شعبية حركة حماس ونفوذها في الأرض الفلسطينية المحتلة امتلاكها لجهازين فاعلين سياسي وعسكري، وامتداداتها العربية والإسلامية، وعلى الرغم من أن سلطة الحكم الذاتي قد دقت على صدرها متعهدة بتغيب حماس عن الشارع الفلسطيني قبل دخولها إلى مناطق الحكم الذاتي (١٩٩٤م)، وعملت منذ ذلك الوقت على تحقيق الهدف، إلا أن فشلها الذريع في ذلك استوجب دخول لاعبين جدد على خط محاربة حماس والقضاء عليها تمهيدًا للشروع في مفاوضات التسوية النهائية، فلأول مرة تتدخل الـ (سي، آي، إيه) لحماية اتفاق أوسلو تدخلًا مباشرًا من خلال اللجنة الأمنية الثلاثية التي تضم أيضًا الـ (شين، بيت) الإسرائيلي وأمن السلطة الفلسطينية، وهي اللجنة التي تشكلت بموجب اتفاق واي ريفر الموقع في أكتوبر في العام الماضي.

وقد أعطى اتفاق واي ريفر الأصلي صلاحيات فوق العادة لجهاز الاستخبارات الأمريكية جعلها توجه أجهزة أمن السلطة في اعتقال من تريد من أبناء الشعب الفلسطيني، كما جعلها تسلب حق السلطة الفلسطينية في الإفراج عمن تريد منهم، وهو ما يفسر بطبيعة الحال استمرار السلطة في اعتقال المئات من نشيطي حركة حماس وقادتها دون تهمة ودون محاكمة، وقد صرَّح مسؤولو السلطة في أكثر من مناسبة بعدم امتلاك سلطتهم لصلاحية إطلاق سراح أي معتقل أمني من حركة حماس وأن هذه الصلاحية فقط بيد

(١) من كلمة بيليترو أمام مجلس العلاقات الخارجية في (٨/٥/١٩٩٦م).

ممثل الـ (سي آي إيه) في اللجنة الأمنية المشتركة، والتساؤل الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو إذا كانت سلطة ياسر عرفات عاجزة عن إطلاق سجين واحد في سجونها، فأى مصيبة وأي كارثة ستنتهي إليها مفاوضات الوضع النهائي وكيف ستستطيع استرداد حقوق الشعب الفلسطيني أو الدفاع عنها...

الحملة على حركة حماس جاءت شرسة وشاملة في أهدافها دون أن يعني ذلك نجاحها بالضرورة، فقد خرجت حماس من حملات مشابهة في السابق أكثر صلابة وتجرُّدًا في الشارع الفلسطيني، والانتخابات التي جرت هذا العام في جامعات وكليات الضفة الغربية وقطاع غزة في عدد من النقابات المهنية خير دليل على تزايد شعبية حركة المقاومة الإسلامية حماس وهي التي دلت أيضًا على عزلة السلطة الفلسطينية، والتنظيمات التي تقف من ورائها والتي تحالفت معها لخوض انتخابات في قوائم مشتركة ضد حماس، فشلت فيها كلها، كما أن الحملة على حماس لم تقف مانعًا أمام استئناف كتائب القسام لعملياتها الجهادية، وهو الذي بدا واضحًا في العمليات العسكرية ضد جنود إسرائيليين ومستوطنين يهود والتي تبنتها الكتائب خلال الشهرين الماضيين في الضفة الغربية المحتلة خصوصًا في الخليل وجنين...

وإضافة إلى الحملة التي تستهدف حماس نجحت السلطة الفلسطينية في تدجين أكبر فصليين، معارضين داخل منظمة التحرير الفلسطينية، وهما الجبهتان الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين، واللذان وافق قادتهما على القبول تحت عباءة سلطة الحكم الذاتي والعودة إلى بيت طاعة السلطة بعد محادثات جرت في القاهرة بينهم وبين رئيس السلطة الفلسطينية، وقيادة فتح كبرى فصائل منظمة التحرير^(١).

ولم تعد هناك عقبة إذن، إلا الحركة الإسلامية بعد أن انضوت الجبهتان تحت لواء السلطة الفلسطينية واعترفوا بإسرائيل وسيادتها، واشترطوا أن يشاركوا في مفاوضات الحل النهائي.

٢ - إرهاب أم جهاد: (تجيب حماس قائلة: حركة المقاومة الإسلامية حلقة من حلقات الجهاد في مواجهة الغزو الصهيونية، تتصل وترتبط بانطلاقة الشهيد عز الدين القسام وإخوانه المجاهدين من الإخوان المسلمين عام (١٩٣٦ م)، وتمضي لتتصل

(١) المجتمع الكويتية، العدد (١٣٦٨)، (١١ - ١٧ جمادى الآخر ١٤٢٠ هـ، ٢١ - ٢٩ سبتمبر ١٩٩٩ م)، السنة (٣).

وترتبط بحلقة أخرى تضم جهاد الفلسطينيين وجهود و جهاد الإخوان المسلمين في حرب (١٩٤٨م) والعمليات الجهادية للإخوان المسلمين عام (١٩٦٨م) أو ما بعده، هذا وإن تباعدت الحلقات وحالت دون مواصلة الجهاد العقبات التي يضعها الدائرون في فلك الصهيونية في وجه المجاهدين، فإن حركة المقاومة الإسلامية تتطلع إلى تحقيق وعد الله مهما طال الزمن والرسول ﷺ يقول:

« لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرق فإنه من شجر اليهود »^(١) (٢).

٣ - خلاف استراتيجي بين أمريكا والمسلمين: (أمريكا أول من اعترف بإسرائيل دولة على الأرض، وإسرائيل الدولة الأولى الحليفة لها في الأرض ولا تزال تعمل منذ سبعين عامًا معًا حتى أخضعت التيار القومي والوطني دولًا ومنظمات، وأُعترف بإسرائيل وأُعتبر السلام بين العرب ودولة إسرائيل هو الخيار الوحيد على الساحة للأمة العربية.

أما حماس، والجهاد، والمسلمون من وراء حركة المقاومة الإسلامية يشاركون حماس في قناعاتها لأنها عقيدة كل مسلم فيما تقوله في المادة الحادية عشرة:

تعتقد حركة المقاومة الإسلامية أن أرض فلسطين أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة لا يصح التفريط بها أو بجزء منها أو التنازل عنها أو عن جزء منها، ولا تملك ذلك دولة عربية أو كل الدول العربية، ولا يملك ذلك ملك أو رئيس أو كل الملوك والرؤساء، ولا تملك ذلك منظمة أو كل المنظمات سواء كانت فلسطينية أو عربية؛ لأن فلسطين أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة، ومن يملك النيابة الحقنة عن أجيال المسلمين إلى يوم القيامة؟ هذا حكمها في الشريعة الإسلامية)^(٣).

ثانيًا: أمريكا والمبادئ:

(أ) كيف نتعامل مع أمريكا:

بعد أن وضع لنا جليًا موقف الولايات المتحدة من الإرهاب، ومن الإسلام، ومن

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) من المادة السابعة من ميثاق حماس (ص ١٢٠)، كتاب الجذور التاريخية والميثاق لعبد الله عزام - رحمه الله -.

(٣) من المادة الحادية عشرة لميثاق حماس (ص ١٢٣).

قضية فلسطين يحسن أن نتحدث عن الموقف المناسب للحركة الإسلامية من هذا الواقع، هل نعلن الحرب ضد أمريكا؟ وهل ندفعها إلى أن تكون وإسرائيل شيئاً واحداً؟ هذا ما لا يقره الفهم الإسلامي، والواقع العملي، ولنعرض كيف نتعامل مع هذه المواقف الثلاثة:

(ب) موقف أمريكا من الإرهاب من الناحية النظرية:

هذا وإن كانت الولايات المتحدة لم تعط تعريفاً محدداً للإرهاب، وجعلته عائماً في تعريفات مختلفة (وهي حريصة على ذلك) وأهم هذه التعاريف ما يلي:

- يعني اصطلاح إرهاب، أعمال عنف مدبرة متعمدة يتم القيام بها بدافع سياسي ضد أهداف غير معنية بالحرب من جانب جماعات في البلاد.

(ج) تطابق وجهة النظر بين الإسلاميين وأمريكا نظرياً:

ونقول سلفاً: إن وجهة النظر من العنف متطابقة بين الحركة الإسلامية المعاصرة وبين الولايات المتحدة الأمريكية، (فقد تعددت البيانات الصادرة عن الجماعة والتي تدّين العنف وتعبّر فيها عن رأيها في هذا الخصوص... وكان من أبرز البيانات التي صدرت ذلك البيان الجامع الصادر في (٢٠ من ذي القعدة ١٤١٥ هـ الموافق ٣٠ من أبريل ١٩٩٥ م) والذي جاء فيه:

لقد أعلن الإخوان المسلمون عشرات المرات خلال السنوات الماضية أنهم يخوضون الحياة السياسية ملتزمين بالوسائل الشرعية، والأساليب السلمية وحدها، مسلمين بالكلمة الحرة الصادقة، والبذل السخي في جميع ميادين العمل الاجتماعي، مؤمنين بأن ضمير الأمة ووعي أبنائها هما في نهاية الأمر الحكم العادل بين التيارات الفكرية والسياسية التي تتنافس تنافساً شريفاً في ظل الدستور والقانون، وهم لذلك يجددون الإعلان عن رفضهم لأساليب العنف والقسر، ولجميع صور العمل الانقلابي الذي يمزق وحدة الأمة، والذي قد يتيح لأصحابه فرصة القفز على الحقائق السياسية والمجتمعية، ولكنه لا يتيح لهم أبداً فرصة التوافق مع الإرادة الحرة لجماهير الأمة، كما أنه يمثل شرخاً هائلاً في جدار الاستقرار السياسي، وانقضاضاً غير مقبول على الشرعية الحقيقية في المجتمع، وإذا كان جو الكبت والقلق والاضطراب الذي يسيطر على الأمة قد ورط فريقاً من أبنائها في ممارسات إرهابية روّعت الأبرياء، وهزت أمن البلاد، وهددت مسيرتها الاقتصادية والسلمية، فإن الإخوان

المسلمين يعلنون في غير تردد ولا مداراة، أنهم برآء من شتى أشكال ومصادر العنف مستكرين لشتى أشكال ومصادر الإرهاب، وإن الذين يسفكون الدم الحرام أو يعينون على سفكه شركاء في الإثم، واقعون في المعصية، وأنهم مطالبون في غير حزم وبغير إبطاء أن يفيئوا إلى الحق، فإن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، وليذكروا وهم في غمرة ما هم فيه وصية رسول الله ﷺ في حجة وداعه: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى يوم القيامة كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

أما الذين يخلطون الأوراق عامدين، ويتهمون الإخوان ظالمين بالمشاركة في هذا العنف، والتورط في ذلك الإرهاب، متعللين في ذلك بإصرار الإخوان على مطالبة الحكومة بالألتقاء بالعنف بالعنف، وأن تلتزم بأحكام القانون والقضاء، وأن تستوعب في دراستها ومعالجتها لظاهرة العنف جميع الأسباب والملاسات، ولا تكتفي بالمواجهة الأمنية، فإن ادعاءاتهم مردودة عليهم بسجل الإخوان الناصع كرابعة النهار على امتداد سنين طويلة شارك الإخوان خلال بعضها بالانتخابات التشريعية والمجالس النيابية واستبعدوا خلال بعضها الآخر عن تلك المشاركة، ولكنهم ظلوا على الدوام ملتزمين بأحكام الدستور والقانون، حريصين على أن تظل الكلمة الحرة الصادقة سلاحهم الذي لا سلاح غيره يجاهدون به في سبيل الله (لا يخافون لومة لائم).

والأمر في ذلك كله ليس أمر سياسة أو مناورة، ولكنه أمر دين وعقيدة يلقي الإخوان المسلمون عليهما ربهم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿لَا مَنَاقِيَ اللَّهِ يَقْلِبُ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

الإخوان المسلمون (٣٠ من ذي القعدة ١٤١٥هـ / ٣٠ من أبريل ١٩٩٥م) (١).

الإخوان المسلمون في سورية والعنف: وإذا كان العنف في سورية قد ساد في مرحلة لبضع سنوات في تاريخ دعوة الإخوان المسلمين البالغ خمسين عامًا بين الحركة وبين السلطة، فهو موقف استثنائي خارج على القاعدة في تاريخ هذه الجماعة، وليس هو الأصل في مبادئها أو حركتها، فقد ابتدأ خارج الإطار التنظيمي للإخوان المسلمين، وحين قررت السلطة في سورية إبادة الجماعة رغم استنكارها للعنف (٢)، وأصدرت مرسومًا جمهوريًا بالحكم بالإعدام على كل من ينتمي للإخوان المسلمين، وبدأت

(١) الإخوان المسلمون: سبعون عامًا من الدعوة والتربية والجهاد، للدكتور يوسف القرضاوي (ص ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) وخاصة حادثة المدفعية التي كانت شرارة العنف الكبرى، وأصدر الإخوان المسلمون بيانًا في استنكارها.

تعتقل وتعذب وتقتل، اتخذت الجماعة موقف الدفاع عن النفس في وجه السلطة، وبلغ عنف الدولة ذروته في أحداث حماة، حيث قُتل قرابة ثلاثين ألفاً، وشُرد واعتقل قرابة مائة ألف من أبناء حماة الباسلة.

(د) فتح قناة للحوار مع أمريكا:

لقد مضى العهد الذي كانت الحركة الإسلامية العالمية تخشى أي اتصال أو حوار مع دولة أجنبية يعني لطخ الحركة بالخيانة، فالتنظيم العالمي للإخوان المسلمين أصبح بمثابة قوة ثالثة تمثل فريقاً من أكبر الفرقاء العاملين للإسلام في العالم، ولا يمكن تجاهل وجوده على كل ساحات الأرض الإسلامية، ومن صالح الحركة الإسلامية أن تعلن مواقفها، وتبلغها للولايات المتحدة التي لا يمكن تجاهلها أو تجاهل دورها في قيادة العالم، فالمسلمون في أمريكا هم طليعة هذه الحركة، وبهم غدا الرئيس الأمريكي يصول ويجول في مجال حديثه عن الإسلام يقول:

« إن المسلمين يعيدون صوغ شخصية بلادنا بالذات بسرعة، فالدين الإسلامي هو أسرع الديانات انتشاراً ونمواً في الولايات المتحدة، إذ يمارس معتقداته حوالي ستة ملايين أمريكي في أكثر من (١٢٠٠) مسجد ومركز إسلامي ».

فالشعب الأمريكي باعتراف رئيسه تعاد صياغته على يد المسلمين، هذه الحقيقة الأولى والدين الإسلامي أسرع الديانات انتشاراً في العالم، وهذه هي الحقيقة الثانية ويمارس معتقداته أكثر من ستة ملايين أمريكي في أكثر من (١٢٠٠) مسجد ومركز إسلامي، وهذه حقيقة ثالثة من خلال هذه الحقائق الثلاث التي يعترف بها الرئيس الأمريكي، لا بد من فتح قناة للحوار مع كبرى دول العالم لنعرفها على حقيقة فهم الحركة الإسلامية، ونعرفها على الإسلام كما أنزل الله بعيداً عن تقارير المخابرات الأمريكية، والدعايات الصهيونية والصليبية التي تريد أن تدمر الإسلام ودعائه، وتتخذ من أمريكا وسيلة لذلك.

إن بين يدينا منطلقات وتصريحات يمكن الاعتماد عليها أساساً لإزالة سوء الفهم لدى السلطة الأمريكية عن دعاة الإسلام، وعن الحركات الإسلامية خاصة وهم لا يدعون مناسبة ليعلنوا فيها أنهم ليسوا ضد الإسلام، ولكنهم ضد الإسلام السياسي الذي يتخذ الإرهاب والعنف سبيلاً إلى الوصول لمبادئه، وذلك كما يقول التقرير الصادر عن معهد الدفاع الاستراتيجي بواشنطن.

(فيوضح التقرير بأن أهم ما يهدد وجود الدولة في الشرق الأوسط هو التيار الإسلامي المتشدد الذي يستعين بالدين في استعمال وسائل عنيفة للتعبير عن رأيه، وفيما يؤكد أن أمريكا ليس لها مشكلة مع الدين الإسلامي في صورته المجردة إلا أنه يتوجب عليها أن تضغط على حكومات المنطقة بعدم التمييز بين المواطنين بحسب معتقداتهم الدينية وأفكارهم السياسية).

ومع أن أمريكا كانت تصنف السودان بأنها من الدول الراحية للإرهاب، لكن هذا لم يمنع من أن يقوم الكونجرس الأمريكي بدعوة الدكتور حسن الترابي الزعيم الإسلامي السوداني الذي أقام هذه الدولة إلى أن يستمعوا إلى آرائه، ويخطب عن الإسلام السياسي في الكونجرس الأمريكي، ويوضح بجلاء الفهم الإسلامي لدى أكبر المؤسسات السياسية الأمريكية، وعندما مضى إلى كندا ليتابع رسالته السلمية ذاتها تلقفه الإرهاب العالمي في المطار، ووظف أحد الرعايا السودانيين للقضاء عليه لولا إرادة الله تعالى أن تكتب له الحياة رغم أنف هذا الإرهاب.

ولا شك أن هذه المحاولات قد تجد عراقيل كثيرة وضغوطاً أكثر لرفض مثل هذا الحوار، إنما تبقى رسالة إسلامية للحركة الإسلامية أن يتجاوز هذه الضغوط وينتزع هذه العراقيل، ويحقق هذا الحوار.

(هـ) أمريكا وحركة الإخوان المسلمين:

في التصريحات العلنية أو الرسمية التي تصدر عن المسؤولين الأمريكيين بصدد مهاجمة الإرهاب بتجنب هؤلاء مهاجمة الإخوان المسلمين، وتصنيفها بالحركة الإرهابية، إنما يتركون لحكومات الدول المحلية أن تقوم بهذا التصنيف، أو تقوم بهذه التصنيفية المادية والمعنوية للحركة، تحت هذه العباءة، لكن تحاول بعض التصريحات أن تلمز من قناة الإخوان المسلمين حين يتحدثون عن تقويمهم لمنظمة حماس التي يصنفونها على رأس المنظمات الإرهابية إذ يقول:

(برزت حركة المقاومة الإسلامية - أي حماس - كمبعث قلق رئيسي بسبب تحديها المتسم بالعنف لعملية المصالحة الإسرائيلية - الفلسطينية، بل عملية السلام برمتها في الواقع، وقد تشكلت حماس في أواخر الثمانينيات في غزة بعد فورة الانتفاضة، والجماعتان اللتان سبقتاها هما الإخوان المسلمون والجماعة الإسلامية وهما وليدتا فترة كانت غزة

خلالها واقعة تحت السيطرة المصرية وتشير وثائق تأسيس حماس إلى حسن البناء^(١).
ومن جهة ثانية يشير الخطاب نفسه إلى إمكانية التعايش مع الإخوان المسلمين (بغير الاسم الصريح) إذ يقول:

(وما بين طرفي النقيض هناك مجموعة مختلفة من الأفراد والفئات والأحزاب السياسية التي تعمل في أطر سياسية واجتماعية متباينة، وفي بعض الحالات، فإنهم يُقبلون كمشاركين في الحياة السياسية وبالتالي يقبلون بالميثاق الاجتماعي أو القواعد السياسية (مثل الدستور) التي تحكم أسس عمل السلطة السياسية، وكيفية المشاركة فيها، وفي أوضاع أخرى يجري استبعادهم أو يعملون في ظل قيود كونهم غير شرعيين رسميًا، لكن يُسمح لهم بشكل غير رسمي بممارسة نشاط في حدود معينة)^(٢).

١ - أمريكا تحدد مبادئ موقفها من الإسلام والحوار مع الإسلاميين: (نحن لا نسعى تلقائيًا لإقصاء الإسلاميين المعتدلين والمتسامحين والمسالين الذين يسعون إلى تطبيق قيمهم الدينية على مشاكل سياسية داخلية، وعلى السياسة الخارجية، إلا أننا نعارض معارضة شديدة الإسلاميين الذين يدعون إلى التعصب ويتبنون العنف في المجالين المحلي والدولي، فالمتطرفون في الشرق الأوسط كما في مناطق أخرى من العالم يمكن أن يكونوا علمانيين ومتدينين)^(٣).

(... فإذا عاملنا النشاطية الإسلامية السياسية بصفقتها حركة سياسية موحدة واحدة تعارض الغرب بشكل عنيد لا يمكن الرجوع عنه، فإننا نجازف باستعداد العالم الإسلامي الأرحب.. ومثل هذا الموقف سيؤدي إلى بروز الكثير من الأعداء في حين ليس هناك في الواقع سوى حفنة منهم، كما أننا قد نشجع ضربًا من (صراع الحضارات) وهو ما سيخدم مصالح المتطرفين أكثر مما سيخدم مصالحنا)^(٤).

ويتحدث عن موقف أمريكا من الإسلام قائلاً:

(١) من خطاب مساعد وزير الخارجية الأمريكي بيليترو وفي مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية بنيويورك عن الإسلام (ص ١٠).

(٢) المصدر نفسه (ص ٦).

(٣) أعضاء على الأنباء، العدد (١٣)، (١٠/٦/٩٦)، (ص ٧).

(٤) المصدر نفسه (ص ٨، ٧).

(إن الإسلام ليس عاملاً حاسماً في سياستنا الخارجية حيال أية منطقة أو دولة أو جماعة، إننا نحترم الإسلام كونه إحدى الديانات العظمى في العالم، وقوة حضارية على مدى ما يزيد على (١٣٠٠) عام، فالعلماء المسلمون حافظوا على المعارف الكلاسيكية خلال العصور المظلمة، وأسهموا إسهاماً حيوياً في فجر عصر النهضة في مجالات العلوم والفلك والرياضيات والتجارة والقانون والتاريخ والطب، وفي يومنا الحالي فإننا نرى في القيم التقليدية للإسلام - بما في ذلك احترام المعرفة، والعدالة، وأعمال الخير والمشاريع الخاصة، وجني الربح النزيه، والتعاطف مع الفقراء - قيماً تتفق مع أفضل القيم الأمريكية ^(١).

٢ - بين المبادئ والمصالح: وهذه مسلمة كبرى من المسلمات التي تفرض الحوار بين الحركة الإسلامية العالمية والولايات المتحدة، إذ يرى الناطق باسمها اتفاق القيم بين الفريقين، ويؤكد أن الخلاف ليس بين المبادئ، إنما هو على المصالح، وليس الخلاف بين دعاة الإسلام والولايات المتحدة، إنما الخلاف مع الذين يؤمنون بالعنف والإرهاب سواء كانوا متدينين أو غير ذلك، وهم يعرضون مصالح أمريكا للخطر.

(ولقد أوضحت الولايات المتحدة من الرئيس فما دونه أن لا خلاف لدينا مع الإسلام بحد ذاته، بل ما يعنينا هو الأفعال التي تمارسها الحكومات والأفراد وليس الدين بالذات، إننا نتفحص بعناية كيف تؤثر بلدان أو جماعات معينة بما فيها تلك التي تربط هويتها السياسية بالإسلام على مسائل ذات أهمية للولايات المتحدة مثل عملية سلام الشرق الأوسط والإرهاب، وحرية الأسواق والاستقرار السياسي واحترام حقوق الإنسان، ثم نقوم برد الفعل وفقاً لذلك).

٣ - اعتراف بحق المسلمين بتبني الشريعة الإسلامية: وإذ تركنا المصالح جانباً، والتفسيرات جانباً كذلك، فتحدث عن جوهر رسالة الحركة الإسلامية الإعلامية وهي العودة بالأمة من جديد إلى أحضان الإسلام ديناً ودولة، ومصحفاً وسيفاً، وتشريعاً وقانوناً، يقول الخطاب:

(ويقوم المسلمون في الشرق الأوسط ومواقع أخرى في الآونة الأخيرة بمناقشة واختيار دور الإسلام في شؤون الدولة والمجتمع والاقتصاد، ونعتبر هذا النقاش جزءاً

(١) أضواء على الأنباء، العدد (١٣)، (١٠/٦/٩٦)، (ص ٨).

من بحث أوسع نطاقاً عن حكومة تستجيب لمطامح الشعوب، وعن التقدم المادي وحقوق الإنسان، إنه حوار يتزايد قوة منذ بعض الوقت في مناطق تشهد تحولاً واضطراباً مثل الشرق الأوسط وشمال أفريقيا^(١).

ولا يكتفي الخطاب بالاعتراف بهذا الحق، بل يعتبره واجباً على الشعوب المسلمة؛ لأن الإسلام يملك إجابات على تساؤلات وإشكالات الأمة.

(ومن الأمور المعروفة أن الإسلام يجب أن يوفر مصدراً غنياً للإلهام والإرشاد في هذا النقاش، وخاصة في وقت فقدت فيه مذاهب مثل الشيوعية والاشتراكية والقومية العربية موثوقيتها، ويلوذ من يتأهبهم اليأس بسبب الفقر والبطالة والكبت والفساد في مجتمعاتهم بجذورهم الحضارية والدينية تلمساً للسلوى والنصح، والقليل منهم يكتشف أن قدرته على الإيمان قد تحولت إلى عنف يحقق أهدافاً سياسية)^(٢).

٤ - الخوف من العنف: وهم لا يخشون تبني الإسلام في السياسة والحكم، إنما يخشون أن يكون العنف هو الطريق لذلك (وليس لنا سوى تأثير محدود على الطريقة التي يتم بها حسم هذا النقاش، ولا توجد أجوبة هي من صنع أمريكا لمشاكل بلدان الشرق الأوسط هذه، وعلى دول الشرق الأوسط أن تستلهم تراثها الحضاري والمجتمعي لإقامة مؤسسات حكومية نقي بطموحات شعوبها، وما يثير اهتمامنا فيما يتعلق بالحوار القائم حول دول الإسلام هو على جانب أكبر من التقييد والبرغماتية: هل سيوَلد هذا الحوار تغييراً سلمياً ومتسماً بالنظام؟ أم صراعاً مدمراً؟ هل تتوفر حماية لحقوق الإنسان الأساسية؟ هل بوسعنا أن نعمل بفاعلية مع دولة أو جماعة معينة لترويج السلام والازدهار؟ هل بوسعنا إقامة علاقات على أساس الثقة وحسن النية؟)^(٣).

(و) أمريكا تدعو إلى الحوار والتفاهم:

وهذا الخطاب يصلح أن يكون أساساً للتفاهم والحوار إذ يعلن قائلاً:

(أعتقد أن من المهم أن نحاول زيادة فهم الأمريكيين للإسلام، وفهم أهل الشرق الأوسط لأمريكا، وهنا في أمريكا وفي مواقع مثل مركز التفاهم الإسلامي - المسيحي في جامعة جورجتاون، ومركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد، وهنا في هذا المجلس وغير ذلك من الأماكن يأخذ الباحثون الغربيون والمسلمون في التآلف بين بعضهم

البعض للاستفادة المشتركة من اطلاع كل منهم على تاريخ الآخر وفلسفته وتشريعاته.
(ز) تزكية مرفوضة:

لكننا نجد الخطاب يزكي دعاة للإصلاح ظاهراً وحقيقة هم دعاة لنقض الإسلام من جذوره وإعادة النظر فيه، ومع ذلك فنقول: إن سوء الفهم للإسلام وللدعاة هو الذي حدا بصاحب هذا الخطاب إلى هذه التزكية، ونرجح أن الحوار ومحاولة الفهم لو تمت بين الحركة الإسلامية العالمية والولايات المتحدة لألغيت هذه التزكية، يقول الخطاب:

(وفيما يتزايد نوع التفاعل هذا أعتقد أن لا مناص من بدء بزوغ تفسيرات للإسلام تتسم بالحدثة، ومن شأن هذا أن يعزز الدعاوى التي تسمعها داخل المجتمعات الإسلامية نفسها إلى التفكير بشكل جديد في قيم الإسلام من قادة مثل السلطان قابوس سلطان عُمان إلى عاهل الأردن الملك حسين، ومن كتاب ومفكرين داعين للإصلاح مثل عبد الكريم سورش في إيران، ومحمد شحرور في سورية، ومحمد أركون في الجزائر ومحمد سعيد العشماوي في مصر)^(١).

١ - أركون في الجزائر: (والإسلام المتعارف عليه عند المسلمين ليس هو الإسلام الذي يفهمه أركون، فالإسلام عنده خلاصة اليهودية والمسيحية والإسلام وهو يجب على السؤال: ماذا تعني كلمتا (إسلام) و (مسلم) وعندما يقول القرآن: ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ فإنه لا يعني بالتأكيد كما جرى تعريفه فيما بعد من قبل الفقهاء، أن إبراهيم يجسد الموقف الديني للأديان التوحيدية الثلاث قبل فرض مسحات خاصة لكل من هذه الأديان، إن الإسلام الذي حُدِّد فيما بعد تلقى مضامين من فهم الفقهاء، وصاغوا فيها تركيبة عقائدية من الإيمان واللا إيمان)^(٢).

(١) الأضواء (ص ١٠)، وشيء مريب وعجيب حقاً أن ينتقي الخطاب هؤلاء المفكرين الأربعة على امتداد العالم الإسلامي، في الوقت الذي لا يطبع كتاب في الأرض إلا ويصل منه أربع نسخ إلى مكتبة الكونجرس، والمفكرون الإسلاميون والكتاب المصلحون بالملئات والكتاب العاديون بالآلاف، وهؤلاء جميعاً يرفضون منهج هؤلاء الأربعة الذي يشكك في القرآن والإسلام ويدعو إلى طرح تفسيرات جديدة له، فأركون مثلاً يشكك بسلامة القرآن حيث يقول: لم يجمع المصحف بالشكل النهائي الذي لا يقبل الإضافة ولا النقص إلا في عهد عثمان، وإذا كان المسلمون لا يقبلون أي بحث نقدي حول سلامة النص، فإن البحث التاريخي الحديث لا يسلم بذلك، حيث إن جميع القرآن تم في مناخ سياسي شديد الهيجان) من كتاب الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، وهو رد على السؤال السابع (ص ٢٧).

(٢) المصدر السابق (ص ١٥).

وعنده الوحي غير القرآن الموجود بين أيدينا، فهو يجيب على السؤال السادس:
(الإسلام يعتمد على كتابٍ موحى هو القرآن، ما المقصود بالوحي، وما معنى كلمة
قرآن؟)

ويجيب (في القرآن نستعمل هذه الكلمة (القرآن) بمعنى التلاوة، إنها مصدر كلمة
قرأ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ إن معنى القرآن هي التلاوة المطابقة للخطاب المسموع..
والنص القرآني المكتوب جاء فيما بعد في عهد عثمان ومنذ تم تدوين الوحي في كل من
الأديان الثلاثة لم يعد في أيدي المؤمنين إلا نص رسمي كامل وليس للمؤمن منفذ على
الوحي إلا من خلال النص.

إن حلول النص المكتوب محل النقل الشفهي ولّد ظاهرة خاصة وهي أن الأمة المؤمنة
عليها أن تقرأ النص المقدس من أجل استخراج المعنى منه.. كما أن البشر استخدموا
الكتاب الموحى باستمرار من أجل خلع التقديس والتعالي على تصرفاتهم وقيمهم
ورؤاهم المادية الدنيوية، هذه ظاهرة قد تزايدت في الآونة الأخيرة إلى حد لا يحتمل.

إن هذا لا يكفي في حل مشكلة الوحي، فالوحي يعني حدوث معنى جديد في الفضاء
الداخلي للإنسان (القلب بلغة القرآن) وهذا يفتح إمكانيات لا نهائية من المعاني بالنسبة
لوجود البشري ويمثل الوحي تراثاً حياً تعود إليه الأمة كلما راح التقديس والتعالي يفسدان
المقصد التحريري للوحي أو تجميده، وتعبّر كلمة الهجرة عن هذه العودة التحريرية نحو
السلطة الكاشفة والتغييرية للوحي، وهذا بخلاف التقاليد المكرورة الجامدة، ومحاولتنا
هذه لإيجاد تعميمات تشمل الأديان الثلاثة بل تشمل أدياناً أخرى^(١).

فالقرآن الذي بين أيدينا - كما يدعى أركون - ليس هذا الوحي الذي أنزله الله،
والوحي مستمر في التجديد في القلب البشري، وتعبّر كلمة الهجرة عن هذه العودة
التحريرية نحو السلطة الكاشفة والتغييرية للوحي.

(١) الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد لمحمد أركون ترجمة هاشم صالح، دار الساقي (١٩٩٠م)، لندن، وهذا الكتاب
لم يرقم المؤلف بتأليفه بالمعنى المعروف، وإنما هو أجوبة المؤلف على مجموعة من الأسئلة طرحها صحفيان فرنسيان
وهذه الأجوبة تغطي ثلثي الكتاب، وبعد ذلك توجد ثلاثة حوارات مطولة بين هاشم صالح وبين محمد أركون،
والصفحات الأخيرة هي عبارة عن محاضرة ألقاها محمد أركون في معهد فرنس وهو أكاديمية العلوم الأخلاقية
والسياسة، وعنوان هذه المحاضرة: الأصول الإسلامية لحقوق الإنسان، وهاشم صالح سوري نذر نفسه لخدمة
فكر أركون وتقديمه إلى قراء العربية، وإجابات هذه الأسئلة من عرض تفصيلي للكتاب.

٢ - محمد شحرور: وإذا كان أركون هو واضع النظرية في الوحي والقرآن والإسلام، فشحرور هو أكبر المجتهدين فيها، وحين دعا أركون إلى دراسة نقدية للمصحف المكتوب الذي هو غير الوحي المسموع قام شحرور بهذه الدراسة وطلع علينا بالجنون التالي:

(قَسَمَ الكتاب - المصحف - إلى كتب كما يقول حسب تعريفه للكتاب:

١ - كتاب القرآن + السبع المثاني + تفصيل الكتاب، واعتبر أن ما أسماه القرآن والسبع المثاني وهي حسب تعريفه سبع فواتح للسور، وتفصيل الكتاب قصص الأنبياء والرسول، وهي الآيات التي وقع فيها الإعجاز القرآني فقط ووصف آيات القرآن والسبع المثاني بالمتشابهات وآيات تفصيل الكتاب بالآيات التي ليست مُحْكَمَةً ولا متشابهة ولكنها من النبوة حيث تحتوي على معلومات إلا أنها جميعاً معجزة وحصر نبوة محمد ﷺ بهذه الآيات فقط، وجعل النبوة علوماً وحصرها بنظرية الوجود الكوني والإنساني وتفسير التاريخ...

٢ - الرسالة: وهي آيات التشريع، وهي الآيات المحكمات وهي أيضاً أم الكتاب، أي هي الآيات التي تعالج مشاكل الناس، وتعطي الحلول لأعمال العباد وسلوكهم اليومي حسب الحاجة والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولقد أطلق عليها رسالة؛ لأنها قواعد سلوك إنساني ذاتي وليست قوانين وجود (موضوعي).. وآيات أم الكتاب ليست من القرآن وتخضع للتبديل والاجتهاد وهي قابلة للتزوير وقابلة للتقليد ولا يوجد فيها أي إعجاز.

٣ - يقرر الكاتب أن السنة النبوية ليست وحياً من الله سبحانه.. وما فعله النبي في القرن السابع في جزيرة العرب هو الاحتمال الأول لتفاعل الإسلام مع مرحلة تاريخية معينة، وبما أن رسالته تقوم على الحدود فهو الرسول الوحيد الذي سُمح له بالاجتهاد لأنه الخاتم ولكي يعلم الناس أن يجتهدوا - وحدهم - من بعده حيث إن الإسلام هو تشريع إنساني من حدود الله... وقرر نظرية جديدة فيما أسماه حدود الله وتطبيق الحدود ومن خلال تقريره مبدأ أن الرسالة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، فحتى تكون صالحة لكل زمان ومكان فلا بد لها من التطور لتلائم كل عصر.. وبناءً على ذلك قامت نظريته في الحدود على أساس أمرين: الاستقامة والحنيفية، والجزء الآخر تعليمات؛ فالتعليمات يجوز الفعل بخلافها؛ لأنها مجرد إرشادات ونصائح.

٤ - وهذا مثال على فقه الكاتب المعاصر في موضوع لباس المرأة والرجل وسلوكهما

الاجتماعي، فهو يرى أن الله خلق الرجل والمرأة عريانين، وهذا شيء طبيعي ثم قيدهما بحدود نصحهما بتعليمات، فكان للمرأة عورة في الحياة العامة والمجتمع، وعورة أمام المحارم والزوج، فأمام غير المحارم (الأجانب) للمرأة أن تظهر كل جسدها باستثناء الجيوب، وجيوب المرأة حسب فهمه كل ما له طبقتان، أو طبقتان مع خرق وهي (ما بين الثديين وتحت الثديين وتحت الإبطين، والفرج، والإليتين، وما عدا ذلك فليس بعورة علمًا بأن الآية الكريمة التي استدلت بها على ذلك كما يقول هي للتعليم لا للتشريع، أي أنه يرى أن آية: ﴿يُدْرِيكَ عَلَيْكَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] آية تعليمية لا تشريعية (يمكن أن تبدل وتغير) يقول: إن الجلباب - الحماية - وهو اللباس الخارجي، وفسر الحماية بأنه الحماية من الأذى الخارجي، والأذى بعرفه نوعان: طبيعي واجتماعي، فالأذى الطبيعي هو المرتبط بالبيئة الطبيعية من درجات الحرارة والرطوبة فالمؤمنة تلبس كما يقول حسب الشروط الجوية الخارجية، أما الأذى الاجتماعي ففسره بأن على المؤمنة أن تلبس لباسًا خارجيًا وتخرج إلى المجتمع حسب الأعراف السائدة في مجتمعاتها بحيث لا تكون عرضة للسخرية وأذى الناس، أما أمام المحارم فالمرأة ليس لها عورة على الإطلاق فهي تجلس معهم كما خلقها الله عارية من كل شيء، وإن الأب والأخ مثلاً إذا جلست ابنته أو أخته عارية أمامه في البيت فلا يجوز له أن يقول لها اذهبي والبسي ثيابك فإن ظهورك أمامي على هذا الشكل حرام، بل يقول لها هذا عيب.. وبذلك يقرر أن المرأة إذا خرجت عارية في حياتها العادية أمام الناس وفي المجتمع فقد خرجت عن حدود الله لأن عليها من باب التعليمات أن تستر الجيوب، وإذا خرجت دون أن يظهر منها شيء حتى وجهها وكفيها فقد خرجت عن حدود الله لأن عليها أن تظهر الوجه والكفين، وهكذا يقرر أن لباس معظم نساء الأرض يقع بين حدود الله ورسوله في اللباس، وهذه هي فطرة الناس في اللباس^(١).

(ح) لماذا يجب الحوار مع أمريكا؟

والجواب ينحصر في النقاط التالية:

١ - الله تعالى فرض علينا أن ننقل الإسلام للعالم، وأمريكا أكبر دول هذا العالم، والذي آلت إليها قيادته في هذا العصر.

(١) تهافت القراءة المعاصرة للدكتور محمد طاهر الشواف وهي مناقشة لكتاب: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، للدكتور المهندس محمد بن ديب شحرور، الصفحات (١٧ - ٢٦)، مقتطفات.

٢ - رسول الله ﷺ هو الذي أمرنا أن نعرض الإسلام على أمم الأرض قبل حربها ومواجهتها.

٣ - رسول الله ﷺ هو الذي سن لنا مخاطبة الحكام والملوك والدول في رسائله الخالدة إلى قادة البشرية آنذاك وعلى رأسهم كسرى وقيصر.

٤ - أمريكا تدعو إلى الحوار والتفاهم، وإزالة سوء الفهم القائم بينها وبين المسلمين (أعتقد أن من المهم أن نحاول زيادة فهم الأمريكيين للإسلام وفهم أهل الشرق الأوسط لأمريكا).

٥ - وحين تم الحوار بين بعض فصائل الحركة الإسلامية وبين أمريكا، اعتبرت هذه الفصائل ضد الإرهاب حيث ذكر الخطاب بصدد حديثه عن الجزائر (من أجل هذا دأبنا بثبات على تشجيع عملية إصلاح سياسي واقتصادي تؤدي إلى المصالحة الوطنية بين جميع الجزائريين الذين يندون العنف والإرهاب، ويتضمن هذا العناصر البراغمية من الجبهة الإسلامية للإنقاذ... وقد اجتمعت أيضًا مع قادة حزبي النهضة وحماس المسلمين المشروعيين اللذين يرفضان العنف، إن الفئة الإسلامية من الطيف السياسي في الجزائر الآن منقسمة على نفسها بين معتدل ومتطرف، بين العناصر البراغمية، والعناصر العنيفة المتطرفة الممثلة بالجماعة الإسلامية المسلحة.

٦ - وهناك مبادئ أساسية تؤمن بها الخارجية الأمريكية تفرض على المسلمين ودعاة الإسلام أن يتحاور مع أمريكا، من الثوابت عندهم وهي:

أ - لا خلاف إطلاقًا بينهم وبين الإسلام (كما أوضحت الولايات المتحدة من الرئيس فما دون.

ب - كما يقول كلينتون الرئيس الأمريكي السابق: إن المسلمين يعيدون صوغ شخصية بلادنا بالذات بسرعة، فالدين الإسلامي هو أسرع الديانات نموًا وانتشارًا في الولايات المتحدة.

ج - إننا نحترم الإسلام كونه إحدى الديانات العظمى في العالم وقوة حضارية على ما يزيد على ١٣٠٠ عام.

د - إننا نرى في القيم التقليدية للإسلام بما في ذلك احترام المعرفة والعدالة وأعمال

الخير والمشاريع الخاصة وجني الربح النزيه والتعاطف مع الفقراء قيمًا تتفق مع أفضل المثل الأمريكية.

هـ - ومن حق المسلمين مناقشة دور الإسلام في شؤون الدولة والمجتمع والاقتصاد.

و - إن الإسلام يجب أن يوفر مصدرًا غنيًا للإلهام والإرشاد في هذا النقاش وخاصة في وقت فقدت فيه مذاهب مثل الشيوعية والاشتراكية والقومية العربية موثوقيتها.

ز - على دول الشرق الأوسط أن تستلهم تراثها الحضاري والمجتمعي لإقامة مؤسسات حكومية تفي بطموحات شعوبها.

ولهذا كله نؤمن بضرورة الحوار مع أمريكا من الناحية النظرية، والتفريق بين (المبادئ) و (المصالح) من الناحية الواقعية.

الإسلام والإرهاب:

واختلاف النظريتين والاستراتيجيتين جعل قاموس الإرهاب عند أمريكا يكاد يكون منصبًا على أن الإرهاب هو قتل المدنيين الآمنين، وتتغافل أن حركة المقاومة في العالم حين تُحتل أرضها، يكون المحتل هدفًا رئيسيًا لها ما دام غاصبًا لأرضها، وبمقدار ما يحرص الإسلام على أرواح الآمنين ويحافظ على حياتهم، ويصب كل اهتمامه في حربه على المحاربين من القيم الإسلامية في عدم قتل غير المقاتلين - يجعل الغاصبين هدفًا لمقاومته، ويمنع عنهم الأمن حتى يتراجعوا عن ظلمهم واحتلالهم (ديار المسلمين).

(أ) رأي ابن تيمية:

(وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب، والشيخ الكبير والأعمى والزمن ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء، إلا أن يقاتل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان، والأول هو الصواب؛ لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا أن نظهر دين الله.. وذلك أن الله أباح قتل النفوس بما يُحتاج إليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] أي أن القتل وإن

كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه؛ ولذلك قال الفقهاء: إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة يُعاقب بما لا يُعاقب به الساکت، وجاء في الحديث: «إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا ظهرت ولم تُنكر ضرت العامة»؛ ولهذا أوجبت الشريعة قتل الكفار، ولم توجب قتل المقدور عليهم منهم، بل إذا أُسر الرجل منهم في القتال، أو في غير القتال، مثل أن تلقيه السفينة إلينا، أو يضل الطريق، أو يؤخذ بحيلة، فإنه يفعل فيه الإمام الأصلح من قتله، أو استعباده، أو المن عليه أو مفاداته^(١).

وقد رجح أستاذنا الدكتور وهبة الزحيلي هذا المعنى الواسع جدًا لمفهوم غير المقاتلين من بلاد الحرب قال: (المحاربون: هم كل من نصب نفسه للقتال بطريق مباشر أو غير مباشر، وذلك كالجنود الإجباريين والمتطوعين.. أما المدنيون الذين ألقوا السلاح وانصرفوا إلى أعمالهم، وكل من له صفة حيادية فضلًا عن معاونو العدو كالمحققين العسكريين الأجانب، ومراسلي الصحف، ورجال الدين التابعين للقوات الحربية، فهؤلاء لا يعتبرون محاربين يهدر دمهم)^(٢).

(ب) رفع الحصانة الشرعية عن غير المقاتلين متى تكون؟

(بصرف النظر عن تحديد من الذين يحرم قتلهم من الأعداء أثناء الحرب.. فإن هؤلاء الذين يحرم قتلهم ترفع عنهم الحصانة الشرعية، ويجوز توجيه السلاح نحوهم في الحالات التالية:

الحالة الأولى: إذا حمل من يحرم قتلهم من الأعداء السلاح على المسلمين، أو قاموا بأعمال تعتبر من الأعمال القتالية، أو ما يساعد الأعداء على قتال المسلمين، أو قاموا بأعمال تعتبر من الأعمال القتالية أو ما يساعد الأعداء على قتال المسلمين.. وهذا واضح من تعليل النبي ﷺ إنكاره لقتل المرأة من الأعداء بأنها لا تقاتل، أو كما جاء في النص «ما كانت هذه لتقاتل»^(٣).

يقول ابن حجر: مفهومه أنها لو قاتلت لقتلت، ويقول الإمام النووي: وقوله: نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان، أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث، وتحريم

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية (ص ١٣٢، ١٣٣).

(٢) آثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي (ص ٤٨٠).

(٣) سنن أبي داود (ح ٢٦٦٩).

قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا، قال جماهير العلماء: يُقتلون^(١). وكذلك كل من لم يكن من أهل القتال لا يحل قتله إلا إذا قاتل حقيقة أو معنى بالرأي، والطاعة، والتخريض وأشباه ذلك.

الحالة الثانية: (حين شن الغارات على الأعداء في الليل أو في النهار واستخدم ما تقتضيه الحرب ضدهم من إشعال الحرائق في بلادهم، واستعمال الأسلحة الثقيلة، والقذائف المتفجرة، وما يُسمى بأسلحة التدمير الشامل، ففي هذه الحال، لا يمكن التمييز بين من يجوز قتله، ومن لا يجوز قتله من أهل الحرب في تلك البلاد المعادية، ومن أجل هذا، فقد جاءت النصوص الشرعية بمشروعية هذا النوع من القتال، وإن ترتب عليه ذلك القتل الجماعي الذي يذهب ضحية - تبعًا لا قصدًا - قليل أو كثير من الأرواح التي يحرم في الأصل قصدها بالإرهاب من صفوف الأعداء، هذا وقد تنوعت النصوص الشرعية في هذا الصدد^(٢).

والنشاطات الفدائية ضد الأعداء داخل الأرض المحتلة، هذا النشاط الذي يضرب العدو أيضًا في عمق الأراضي المحتلة هو من الجهاد الشرعي كذلك؛ لأنه قتال لكفار اعتدوا على المسلمين ودخلوا بلادهم، بل هذا القتال هو من ألزم أنواع الجهاد^(٣). جاء في المنهاج للنووي وشرحه مغني المحتاج:

(ثم قال: والثاني من حالي الكفار: يدخلون بلدة لنا فيلزم أهلها الدفع بالممكن منهم، ويكون الجهاد حينئذ فرض عين.. وقيل كفاية^(٤)...) وعلى هذا فدفع المسلمين للعدو الذي دخل بلادهم واحتل أرضهم بالممكن منهم والمتيسر لديهم، حتى ولو كان هذا الدفع المتيسر لهم هو رمي العدو بالحجارة..^(٥).

هذا وليس الجهاد مقصورًا على مقاومة العدو، أو ضربه في بلاد المسلمين التي يحتلها ويستعمرها فقط، بل يدخل في باب الجهاد أيضًا ذلك النشاط الذي يقوم على ضرب العدو حتى في بلاده ذاتها من خارج بلاد المسلمين؛ وذلك لأن الجهاد يصدق على قتال الكفار في أي مكان، ولو في أن تقتحم عليهم بلادهم لهذا الغرض ما دام ليس

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٨/٦).

(٢) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية للدكتور محمد خير هيك (١٢٦٤/٢).

(٣) المصدر نفسه (١٦٩٣/٣).

(٤) مغني المحتاج (٢١٩/٤).

(٥) مغني المحتاج (٢٢٥/٤).

بينهم وبين المسلمين معاهدة سلمية مشروعة، فكيف إذا كانوا مع ذلك من المعتدين والمستعمرين^(١).

أما في غير حال الحرب، فأمر الآمنين يختلف كثيرًا عنه في حالة السلم، وذلك حين يكون بين المسلمين وبين غيرهم عهود ومواثيق داخل دولة الإسلام أو خارجها.

فحرمة دماء المسلمين وحرمة دماء المعاهدين في أرض الإسلام واحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

وقتل النفس العمد من أكبر الكبائر، وقد وعد الله فاعلها بالخلود في جهنم.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدًّا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظُمَ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

أما المعاهدون بكل أنواعهم سواء كانوا أهل ذمة أو موادعين أو مستأمنين فحصانة دمائهم كحصانة دم المسلم، فأهل الذمة حين دفعوا الجزية إنما دفعوها لحماية أرواحهم ودمائهم وأموالهم.

(أما الدفاع عنهم بسبب عقد الذمة لهم على أساس دفع الجزية، فيدل عليه قول على ابن أبي طالب عليه السلام: إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودمائهم كدمائنا)^(٢)، أي كما يجب الدفاع عن المسلمين في أموالهم ودمائهم، فكذلك يجب الدفاع عن أهل الذمة أيضًا في دمائهم وأموالهم^(٣).

والدفاع عن المستأمنين ولو كانوا من غير أهل الذمة: (فيعامل المستأمنون ما داموا في دار الإسلام معاملة أهل الذمة في وجوب الدفاع عنهم لأنهم وهم في دار الإسلام يكونون تحت ولاية الإمام، فعليه الدفاع عن جميع من كان تحت ولايته)^(٤).

والدفاع عن رعايا الدول المعاهدة في دار الإسلام ضد العدوان الخارجي هو من واجبات الإمام كذلك..

(فيعامل هؤلاء الرعايا أيضًا معاملة أهل الذمة في وجوب الدفاع عنهم لأنهم في

(١) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية للدكتور محمد خير هيكل (٣/ ١٦٩٤).

(٢) المغني لابن قدامة (١٠/ ٦٢٣).

(٣) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٦٩٦).

(٤) المصدر نفسه (ص ٧٠٠).

الحقيقة مستأمنون بمقتضى معاهدة السلام المعقودة مع دولهم، وما داموا قد دخلوا دار الإسلام بموجب تلك المعاهدة القاضية بذلك، فهم إذن تحت ولاية الإمام، فعليه في هذا الحال الدفاع عنهم كما يدافع عن كل من كان تحت ولايته^(١).

فكر متطرف:

هذا الفكر المتطرف هو: الذي يرى الجهاد هو السبيل الوحيد لإقامة دولة الإسلام، كما أن أصحاب هذا الفكر يقولون: (إن الدولة الوحيدة التي تملك الشرعية وتمثل صورة الإسلام الصحيح وتنطوي على جوهره هي الدولة التي تقوم عن طريق الجهاد (القتال)). نعم إن القوة هي التي تكتب التاريخ والحياة.. فإذا قامت دولة الإسلام عن طريق الجهاد، ولن تقوم بالجهاد حتى تحرق كل الرذائل في طريقها، فالجهاد هو النار التي ستقضي على كل بذور الشر في مجتمعنا، فإذا قامت الدولة بالحرب والقتال فليس من حق أحد أن يطالب في رسم معالم دولتنا ومجتمعنا، وحينئذ سيحكم الإسلام الذي نعرفه لا الإسلام الهجين الدخيل.

خلال مرحلة الجهاد ستطهر الأرض من غربان الشر، وأبوام الرذيلة، ستلاحق هذه المسوخ التي تسمى كذباً وزوراً بالمفكرين، وسيصفى الرتل تلو الرتل، العلمانيون والشيوعيون، والبعثيون والقوميون وتجار الأفكار الوافدة، نعم نحن نعرف أننا لن نصل حتى نعبّد الطريق بجماجم هؤلاء النوكى، وليقل العالم أننا برابرة فنحن كذلك لأن البربر في عرف هذا العصر هم الذين يدافعون عن حقوقهم، ويطالبون بحقوقهم في الحياة.. وسيقولون عنا أنتم أعداء الحضارة، نعم نحن أعداء حضارة الشيطان، وقتلة رموزها ورجالها، وسيقولون عنا إرهابيون، نعم نحن كذلك لأن الشر لا يخنس إلا بالسيف والنار، أما هؤلاء المشايخ الذين يتحللون من كل فضيلة مخافة الاتهام بالعنف والإرهاب والدكتاتورية فلن يرضى عنهم اليهود ولا النصارى حتى يخلعوا اسم الإسلام كذلك.. خلال مرحلة الجهاد سنقطف رؤوس الصحفيين المفسدين في الأرض، فنحن لسنا بحاجة إلى سحرة فرعون وليسمينا الناس أعداء الفكر والرأي، فنحن رأينا من حرية قوانينهم ما تشيب منه العثاين^(٢).

(١) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (ص ٧٠١).

(٢) الجهاد والاجتهاد، تأملات في المنهج، لعمر بن محمود أبو عمر (ص ٩٨، ٩٩)، ط دار البيارق (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩ م).

وأصحاب هذا الفكر يحكمون حتى على المجتمعات الإسلامية والحكومات كلها بالكفر والردة وتوجب قتالهم.

(وجود هذه الحركات الجهادية القتالية المنبثقة من تصورات ومفاهيم السلف الصالح يجعلها أحق الناس دخولاً في مفهوم الطائفة المنصورة لأن من شروط هذه الطائفة التواصل وعدم الانقطاع « لا تزال طائفة من أمتي .. » .

وإذا أردنا - وهو مطلوب واجب - أن نبحث عن الأسس الشرعية التي تدفع هذه الحركات للنشوء والعمل في داخل مجتمعات الإسلام قبل غيرها لوجدنا أن هذه الحركات تعتمد على القاعدتين التاليتين:

القاعدة الأولى: إن الديار التي يعيشها المسلمون وكانت قبل دار إسلام وأمان، قد انقلبت إلى دار كفر وردة، لأنها حُكِمَتْ من قبل المرتدين، ولأن الكفر قد بسط سلطانه عليها من خلال أحكامه وديساتيره وأدلة كفر هذه الطوائف وردتها هو الذي سنبحث عنه فيما يأتي من مقالات....

القاعدة الثانية: وجوب جهاد هذه الطوائف، وعدم موالاتها ونصرتها، فإذا تبين لنا أن هذه الطوائف هي طوائف ردة وكفر وجب على المسلمين جميعاً - وجوب جهاد الدفع - أن يقاتلوا هذه الطوائف حتى تزول أو تعود على الإسلام، وحكم قتال هذه الطوائف هو حكم قتال الدفع وهو فرض عين ولا شرط لوجوبه سوى القدرة، فإذا عذمت القدرة وجب الإعداد، فإن عذمت القدرة على الإعداد وجبت الهجرة، فإن عذمت القدرة عليها وجبت العزلة..^(١)

الحركات المتطرفة:

الحركات المتطرفة هي التي كانت تحمل هذا الفكر، وكانت ذات أثر على الساحة، وقامت بالعديد من الأعمال ضد السلطات في بعض الدول الإسلامية، أما حركات مثل حماس، والجهاد، وحزب الله، فنرفض تسميتها بحركات إرهابية؛ لأنها تناضل لتحرير فلسطين المغتصبة من اليهود الدخلاء، وكل دفاع عن الأرض أو جهاد لتحريرها هو خارج عن نطاق الإرهاب، وحين ينطلق من الإسلام فهو جهاد في سبيل

(١) الجهاد والاجتهاد، تأملات في المنهج، لعمر بن محمود أبو عمر (ص ٧٢، ٧٣، ٧٥)، ط دار البيارق (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

الله، ولن نخوض في مناقشات مع فكر هذه الجماعات؛ لأن الكثير منها قد تراجع عن فكره المتطرف وأعلن هذا التراجع.

١ - الجماعة الإسلامية في مصر:

تحت عنوان « الجماعة الإسلامية تودع العنف وتسعى لتشكيل حزب سياسي » كتبت مجلة المجتمع تقول:

شهدت الساحة السياسية المصرية في الفترة الأخيرة تفاقماً حذرًا باحتمال حدوث مصالحة بين السلطة والإسلاميين وذلك في أعقاب مبادرة وقف العنف التي أعلنها من جانب واحد قادة الجماعة الإسلامية المحبوسون بسجن ليمان طرة، ثم أيدهم فيها الدكتور عمر عبد الرحمن ومعظم قيادات الداخل والخارج، وكان آخر بيان لدعائها صدر يوم (الخميس ١٩ من نوفمبر الماضي ١٩٩٨ م)، جاء البيان الجديد ليؤكد الدعم الكامل لمبادرة القادة التاريخيين للجماعة ويدعو بقية الجماعات المسلحة للانضمام إلى الركب وبند العنف، كما يناشد القوى السياسية دعم هذه المبادرة التي جاءت من منطلق شرعي وعملي تحقيقاً لمصلحة الإسلام والوطن.. وتكتسب مع الأيام أنصاراً جددًا فقد انضم إليها عدد من قادة (الجهاد) إضافة إلى قادة الجماعة في الداخل والخارج كما انضمت إليها جماعات أخرى مثل (الناجون من النار) بحيث لم تعد المبادرة تعبر فقط عن الجماعة الإسلامية بل عن الغالبية من جماعات العنف^(١)... ولم يعد يعترض عليها سوى الدكتور أيمن الظواهري مسؤول تنظيم الجهاد في الخارج^(٢).

واتبعت هذه المواقف دراسات فكرية لمنظرها الشيخ مصطفى مقررٍ إذ يقول: (إن الحركة الإسلامية مطالبة أن تنقذ ذاتها وأن تقوم انحرافات.. إن معالجتنا للسرطان الفكري الذي أصاب الجهاد الجزائري بتورماته الخبيثة فأودى بحياته لم تزل سطحية فاترة.. ونحن نريد هنا أن تأتي على منهج الجماعة المسلحة مفردة فلا ندع باطلاً إلا اجتثاثه).

.. ثم يتعرض لحادثة باص السياح الأجانب قائلًا:.... إذا عرفت ذلك فقد تبين لك أن إهدار دم السياح الأجانب القادمين إلى بلاد المسلمين تأسيساً على بطلان أمان الحكام المعاصرين وعدم اعتباره شرعاً تأسيساً غير صحيح.

الخطوة الأجرأ: لقد أصبحت هناك بيئة فكرية ونفسية تقبل بفكرة الانخراط في العمل

السلمي خصوصاً أن حادث الأقصر الذي قُتل فيه (٦٨) سائحاً أجنبياً أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن القيمة الحدية للعنف قد بلغت متنهاها، وأن تكلفة باهظة على المستوى السلمي في جميع الجوانب ومن هنا جاءت خطورة فكرة عسكرية الجماعة، والاتجاه بدلاً من ذلك للعمل السلمي.

وتوج هذا الاتجاه بالإعلان عن تشكيل حزب سياسي يحمل هذه المبادئ كان اسمه أولاً الحزب الاجتماعي الإسلامي ثم تحول اسمه بعد ذلك لحزب الشريعة، ونشرت الحياة (اللندنية) في عددها الصادر في (١٣ جمادى الثانية ١٤٢١ هـ) أن أحد مؤسسي حزب الشريعة المصري يشرح نفسه للانتخابات مخالفاً قرار المقاطعة وفتوى الشيخ عمر عبد الرحمن وهو الشيخ محمد علي الذي برّر هذا الترشيح بقوله: إنه لا ينتمي للجماعة الإسلامية، كما أن حزب الشريعة لم يشهر بعد فإن من حق أي من مؤسسيه اتخاذ أي قرار خاص به من دون أن يعد ذلك خروجاً على مبادئ الحزب وأهدافه، وأعرب عن أمله في أن توقف الحكومات الإجراءات التي تستهدف إبعاد الإسلاميين عن اللعبة السياسية معتبراً أن توقف العنف لا بد أن تتبعه إجراءات لاستيعاب الإسلاميين بمختلف تياراتهم وإدماجهم في نسيج المجتمع^(١).

والأسس التي يقوم عليها الحزب، ويحمل فكر الجماعة الإسلامية كما صرح بذلك مفكر الحزب ومنظره والذي التقته المجتمع الكويتية هي أسس ثلاثة:

(الأول: استبعاد فكرة المطلق في التعامل مع الواقع، والتمييز بين ما هو مجمع عليه وما هو اجتهاد ويجوز الاختلاف والنقاش حوله مثل فكرة دخول الانتخابات.. ولو رأينا دخول الانتخابات مثلاً وجاء من يقول: إن دخول الانتخابات منافٍ للتوحيد بمعنى أن البرلمان ينازع الله حاكميته وحقه في التشريع، هنا نقول: إن مسألة التوحيد مختلفة عن اتخاذ قرار سياسي بدخول الانتخابات؛ لأن التوحيد يدخل في الجانب المطلق والمجمع عليه، بينما اتخاذ قرار سياسي يتصل بالجانب المتغير.

الثاني: التمييز بين الوسائل والغايات، فالحركات الراديكالية اعتادت أن تقول: إن الله تعبدنا بالوسائل كما تعبدنا بالغايات ونحن نصوغ هذه العبارة بشكل جديد فنقول: إن الله تعبد المسلم بالإبداع في الوسائل كما تعبد بالالتزام بالغايات.

الثالث: إعمال فقه المقاصد الشرعية، وتفعيل القيم الإسلامية الحاكمة في التعامل مع القضايا الإسلامية حيث إن الواقع بجزئياته لا يتناهى، بينما النصوص والقواعد الحاكمة متناهية، وحتى يحكم المتناهي اللامتناهي فلا بد من إحداث اجتهاد بكل واقعة، وهذا الاجتهاد يتطلب التحرك في إطار المقاصد الشرعية^(١).

٢ - جماعة الجهاد:

وقد سارت جماعة (الجهاد) المصرية على خطا (الجماعة الإسلامية) وراجعت فكرها السابق، وانتهت إلى التراجع عنه والانخراط في العمل السياسي، والذي برز في حزب (الإصلاح) الذي تقدّم بطلب ترخيص له من السلطات المصرية، ووقفت السلطات من الحزبين (الإصلاح) و (الشرعية) موقف الرفض والحظر أسوة برفض الترخيص للإخوان المسلمين^(٢)، ولم يغير هذا الموقف السلبي من موقف قيادات (الجهاد) و (الجماعة الإسلامية) من العنف، فهو قرار مبدئي فكري وليس قراراً سياسياً يعتمد على رد الفعل، إنما تم تبنيه بعد دراسة متأنية للواقع القائم، ودراسة متأنية للأحكام الإسلامية التي تنطبق عليه.

٣ - جبهة الإنقاذ في الجزائر:

(قبل عام ١٩٨٨م واندلاع الاضطرابات الشعبية لم تكن هناك أي حركات سياسية معارضة في الجزائر سواء كانت حركات إسلامية أو غير إسلامية تعمل من أجل قلب نظام الحكم، وفي الشهور التالية لتشكيل جبهة الإنقاذ الجزائرية لم يكن أحد من قادتها يفكر بجدية بإسقاط النظام الحاكم، والاستيلاء على السلطة بالقوة المسلحة؛ ولذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: من أين جاء العنف؟ ولماذا تحولت الجبهة إلى جيش إسلامي يهاجم الأجانب، ويفجر المطارات، ويقوم بأعمال عنف متعددة؟ لماذا حدث كل هذا؟

من وجهة نظرنا فإن الجيش الجزائري هو الذي بدأ سلسلة العنف عندما رفض التسليم بنتائج الانتخابات المحلية وانهال على أعضاء وأنصار الجبهة قتلاً واعتقالاً، فقد قاد هذا القمع الشديد الذي تعامل به الجيش مع الجبهة إلى اتجاه بعض فصائلها إلى تكوين

(١) المجتمع، العدد (١٣٢٨)، (١٢ شعبان ١٤١٩هـ).

(٢) وقد تحققت فكرة تكوين أحزاب إسلامية مثل (الحرية والعدالة، والنور، والوسط، والبناء والتنمية...)، وذلك بعد قيام ثورة ٢٥ يناير المباركة.

جيش جبهة الإنقاذ، ثم الجيش الإسلامي فيما بعد، اللذين عملا بطريقة انتقامية وانخرطا في المواجهة الدموية العنيفة في البلاد^(١).

كان قرار الجيش الإسلامي للإنقاذ في إيقاف العنف المسلح جاء في إطار صفقة سياسية بين قياداته وقيادات الجيش الجزائري، ويبدو المشهد في الحالة الجزائرية حواراً بين ندين، وتم الإعلان عن هدنة بين الجيشين خفّت بعدها حدة التوتر كثيراً بين الطرفين أوائل عام (١٩٩٧ م)، بل إن فصائل جيش الإنقاذ بدأت تخوض عمليات مشتركة مع الجيش ضد الجماعات المسلحة الأخرى، وبإعلان الجيش الإسلامي للإنقاذ هدنة خرج من ساحة القتال فريق مهم وبقي فيها ما تُطلق على نفسها الجماعة الإسلامية المسلحة التي ما زالت تعلن عن عملياتها البشعة ضد الأطفال والنساء والمدنيين.

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى فارق جوهري في المنطلقات الفكرية والفقهية لدى جيش الإنقاذ والجماعات المسلحة، فجيش الإنقاذ منذ أعلن تشكيله وانطلاق عملياته عام (١٩٩٢ م) دأب على التأكيد أن قتاله ضد الجيش الجزائري، ومع تأكيد الجبهة للقتال كان تأكيدها على رفض المساس بالمدنيين والشعب، وإعلانها إدانة عمليات القتل الإجرامي المرتكبة بحق المدنيين وبينما تستمر الجماعة المسلحة في حربها ضد الجزائر دولة ونظاماً وشعباً، استمرت جبهة الإنقاذ من خلال قيادات جيشها في مفاوضات مع قيادات الجيش لتقوية الهدنة والوصول إلى اتفاق شامل ببند واضحة تحقق مصلحة الطرفين وتعالج عودة الجبهة الإسلامية للإنقاذ للعمل السياسي، ودراسة أوضاع السجناء، واندماج جيش الإنقاذ بالجيش الجزائري^(٢).

- من الهدنة إلى الإلغاء: وكانت هذه الخطوة بعد أن أصدر رئيس الجمهورية الجزائرية قانون الوثام وتم الاستفتاء عليه من الشعب الجزائري، فقد قامت اجتماعات شارك فيها قائد الجيش الإسلامي للإنقاذ مدني مرزاق وممثلون عن الرئيس بوتفليقة وقيادة الجيش الجزائري واستمرت طيلة الأيام القليلة الماضية أسفرت عن تسليم مرزاق قوائم بأسماء عشرة آلاف مقاتل تمهيداً لإعلان عفورئاسي شامل عنهم، وأبلغت المصادر (المجتمع) أن هؤلاء المقاتلين سينخرطون ضمن تشكيلات خاصة للدفاع عن مؤسسات الدولة ومحاربة

(١) المجتمع (الكويتية) من خلال حوار مع د. ستيفن بيلليري، العدد (١٢٦٣)، (١٩/٨/١٩٩٧ م).

(٢) المصدر نفسه (١٣٢٨)، (١/١٢/١٩٩٨ م).

الجماعات المسلحة الرافضة إلقاء السلاح بعد المهلة التي حددها قانون الوثام الجزائري (بالثالث عشر من يناير ٢٠٠٠م)، وأشارت (هذه المصادر) إلى أن قائد الجيش الإسلامي للإنقاذ أعد قوائم نهائية للمسلمين المنضوين تحت إمرته إضافة إلى أعضاء الجماعات المسلحة الأخرى الملتزمة بالهدنة، سواء المرابطون بالجبال أو المعتقلون بالسجون والمحكوم عليهم من قبل المحاكم، وتضم هذه القوائم أكثر من عشرة آلاف مقاتل مسلح إضافة إلى العشرات من أعضاء الجماعات المسلحة الأخرى الملتزمة بالهدنة^(١).

إرهاب الدولة:

تحدثنا عن الإرهاب الدولي، والحركات المتطرفة التي تؤمن بالعنف، ولا بد من الإشارة إلى أن هذا العنف في كثير من الأحيان هو طارئ عليها، تفرضه عليها الدول ذات الأنظمة الشمولية التي تلغي الإنسان وتحوله إلى رقم في عجلتها، وتمارس كافة أصناف الطغيان ضد الإنسان، وتود أن تسحقه فلا ينسحق معها ويتمرد ويثور ويقتل شهيداً أهون عليه من أن يقتل ويثدأ. إن العنف الذي تستعمله السلطات الحاكمة ضد شعوبها يجعل العنف طارئاً على الحركات الدعوية ذات الطابع السلمي، ولعل هذا الرأي يكون أكثر موضوعية حين يشهد به العدو.

يقول د. بلليتری: (لم يعد بحث الظاهرة الإسلامية في الغرب عمومًا وفي الولايات المتحدة على وجه التحديد يقتصر على مشروعات الكتب والبحوث المتعلقة بالندوات والمؤتمرات، وإنما امتد إلى السياسيين وصناع القرار ورجال المخابرات الذين شعروا بمدى الحاجة إلى معرفة شاملة بالظاهرة الإسلامية وتأثيراتها على العالم ككل ومستقبلها.. في هذا الإطار من الاهتمام الغربي بالظاهرة الإسلامية أو الأصولية الإسلامية - مع تحفظنا على هذا المصطلح - تأتي شهادة الدراسات الاستراتيجية بوزارة الدفاع الأمريكية والتي أدلى بها في الندوة التي عقدتها بواشنطن مجلة المجتمع بالاشتراك مع المؤسسة المتحدة للدراسات والبحوث تحت عنوان: نظرية الأصولية..

وقد بنى د. بلليتری تحليله على فرضية أساسية تقول: إن الأصولية كحركة راديكالية لم تبدأ من فراغ، وإنما بدأت كحركة إصلاحية، وقد حاول الإصلاحيون الإسلاميون العمل

(١) المجتمع، العدد (١٣٧٠)، (٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ).

من داخل الأنظمة الحاكمة بالطرق السلمية، إلا أن القمع الذي تعرضوا له من جانب الحكومات التي حاولوا الإصلاح من خلالها أدى إلى انسحاب القادة الأصليين لهذه الحركات ودخول عناصر جديدة من الشباب بصفة أساسية قادت ما يمكن اعتباره بدايات الثورة الشعبية الشاملة، وبالتالي يجب التركيز على ظاهرة صعود الشباب إلى المراكز القيادية في الجماعات باعتبارها تمثل نقطة البداية فيما تطورت إليه هذه الجماعات، فقد أدى صعود الشباب إلى خروج القيادات الأصلية من الساحة وانتقالهم إلى الصفوف الخلفية غير قادرين على التأثير في مجرى الأحداث بما فيها أحداث العنف.

ولاختبار هذه الفرضية تناول د. بلليثري أوضاع ثلاثة من الجماعات الرئيسية في منطقة الشرق الأوسط وهي جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر، وجماعة الإخوان المسلمين في مصر وحركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الأراضي العربية المحتلة نظراً للتشابه الكبير بين هذه الجماعات فيما يتعلق بالنشأة واستراتيجية العمل، بالإضافة إلى هذه الجماعات الثلاث تناول أيضاً أصول نشأة جماعتين أخريين هما حزب الله في لبنان وجماعة - جوش أمونهم - اليهودية المتطرفة في إسرائيل، وقدم مراجعة منهجية متعمقة لتاريخ هذه الجماعات والشكوك التي تحيط بها، حتى يمكن استخلاص وبناء نظرية خاصة بالأصولية في منطقة الشرق الأوسط وأخيراً تقديم بعض اقتراحات لصناع القرار السياسي في هذا الشأن^(١).

ولخص نظرتة بالنسبة لجبهة الإنقاذ الجزائرية بقوله:

(من وجهة نظرنا فإن الجيش الجزائري هو الذي بدأ سلسلة العنف عندما رفض التسليم بنتائج الانتخابات المحلية، وانهال على أعضاء الجبهة قتلاً واعتقالاً، فقد قاد هذا القمع الشديد الذي تعامل به الجيش مع الجبهة إلى اتجاه بعض فصائلها إلى تكوين جيش جبهة الإنقاذ ثم الجيش الإسلامي فيما بعد اللذين عملا بطريقة انتقامية وانخرطا في المواجهة الدموية العنيفة في البلاد)^(٢).

وكان مما شاهدناه على سبيل المثال في مصر، وموقفها من مرشحي الإخوان المسلمين للانتخابات فقد كان هدف النظام المصري السابق تحويل الإخوان المسلمين للعنف

(١) المجتمع، العدد (١٢٦٣)، (١٩/٨/١٩٩٧م، ١٥ ربيع الآخر ١٤١٨هـ)، (٤٢، ٤٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٤٤).

ليتم مبرر تصفياتهم وإبادتهم، والإخوان يدركون ذلك، ويصرون على رفضهم للعنف بكل أشكاله، (فمنذ الانتخابات البرلمانية التي جرت عام ١٩٩٥ م) ومنذ شهره الأول بدأت حملة أمنية واسعة ضد التيار الإسلامي، ولم يحل موعد الانتخابات العامة حتى كانت قد نصبت أربع محاكم عسكرية لمحاكمة العشرات من أبناء التيار الإسلامي أكثرهم من الرموز السياسية والاجتماعية المعروفة التي كانت ستخوض الانتخابات وتكون من بين ممثلي الشعب، ومن أفلت من المحاكمة من المرشحين لم يفلت من التدخل السافر ضده..^(١).

والمشهد يتكرر هذه المرة، ففي أكتوبر من عام (١٩٩٩ م) ألقت قوات الأمن القبض على عشرين من أبرز الشخصيات النقابية في مصر، وأحالتهم إلى المحاكمة العسكرية.. وبعد المظاهرات التي خرجت في القاهرة للاحتجاج على نشر وزارة الثقافة رواية تمس الذات الإلهية والرسول والقرآن الكريم، أعطت الجهات الأمنية إشارة البدء في حملة اعتقالات طالت قرابة ستمائة شخص ما بين مرشح محتمل في الانتخابات المقبلة أو مساعد لأنشطة أحد المرشحين... ولم تقف الحملة الإرهابية عند هذا الحد، فقد نشر أن مسؤولي الأمن في محافظات عدة طلبوا من عدد من القيادات في الحركة الإسلامية عدم الترشح للانتخابات، وإلا سيتم القبض عليهم قبل تقديم أوراق ترشيحهم، ومن يخالف ذلك فلن يمكن من الفوز في الانتخابات، بل وصل الحد إلى تهديد بعض أكبر قيادات الحركة بالضرب إذا أصر على ترشحه..^(٢).

الإرهاب الدولي:

(أ) المافيا القديمة:

ربما جاءت كلمة المافيا من الكلمة العربية التي تعني (المخفية أو المخبأ أو المأوى، ولما فتح النورمانديون صقلية في القرن الحادي عشر استولى السادة الإقطاعيون على الأرض وأداروها بنفس الطريقة التي تدار بها مزارع العبيد الرومانية، ففر الكثير ممن نُزعت ملكياتهم إلى مأوى من التلال بدلاً من أن يصبحوا عبيداً في الأرض، وحين فتح

(١) المجتمع، العدد (١٤١٧)، (١٤ جادى الآخر ١٤٢١ هـ)، (١٢/٦/٢٠٠٠ م).

(٢) المجتمع (١٤١٧)، (جادى الآخر ١٤٢١ هـ/١٢/٦/٢٠٠٠ م).

الإسبان البلاد في القرن الخامس عشر استخدمت محاكم التفتيش محاكما الهرطقة لتعذيب كل من الأغنياء والفقراء وإلحاق الأذى بهم على حد سواء، فكانت المقاومة الوحيدة ضد الحكومة المستبدة تتمثل في الخارجين على القانون، وبذا أصبح قطاع الطرق في المدن الإيطالية هم أبطال الفقراء والمقهورين^(١).

(ب) المافيا الحديثة:

وازدهرت المافيا في أمريكا؛ لأنها وفّت باحتياجات المهاجرين للحصول على المكانة، غير أن تراث المافيا الذي يرجع إلى القرن التاسع عشر والذي يحض على جمع المال بالقوة والسطو يُعد غير متمشٍ تاريخياً مع مجتمع تفوقت فيه الأعمال الكبيرة على ما في المافيا من قسوة، ومع ثراء الكثير من الصقليين بالوسائل المشروعة، ماتت المافيا القديمة، وقامت المافيا الأمريكية الجديدة التي تمتلك شركات لعربات النقل والمطاعم ومنتجاتها بأكملها، بل إنها تنظم الدعارة وهو ما لم يكن يخطر على بال الصقليين القدامى أن يفعلوه^(٢).

ولقد تعلمت المافيا من واقع تجربتها تحت الفاشية وفي أمريكا أن أفضل مناخ لانتزاع الأموال هو النظام الرأسمالي، وأن أضعف نظام قانوني هو الذي يوجد في ظل الديمقراطية.. كما اكتسبت المافيا الجديدة إذعان المجتمع الأكثر اتساعاً، وهو الإذعان الذي ناضل زعماء المافيا القدامى كي يفوزوا فيه بشق الأنفس..

(ج) الإرهاب المعاصر:

وعلى الرغم من انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، والتي كان يستخدم قطباها الإرهاب ضد مصالح كل منهما، إلا أنه ليس هناك ما يدل على استئصال جذور الإرهاب الديني والسياسي والإيديولوجي ولا على استئصال الأسباب الاستراتيجية التي تغذيه.. ولم تسلم الدول الغربية الديمقراطية من الأحداث والأعمال الإرهابية الموجهة ضد أمنها وسيادة القانون فيها فقد:

١ - ظهر التيار النازي في ألمانيا ثانياً وبقوة منذ (١٩٨٦م).

٢ - وظهرت حركة لوبيين القومية المتطرفة في فرنسا.

(١) الجمعيات السرية المافيا، ديفيد أنان (ص ٢٣٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٤٥).

٣ - وظهرت حركة الباسك الإسبانية إذ قام الجناح العسكري للباسك بهجمات في إسبانيا نجم عنها مئات القتلى وآلاف الإصابات، وما قيمته آلاف الملايين من الدولارات من التلفيات، وضرب الباسك مطارًا للسياح بالقنابل (١٩٩٦م)، ولكنها هجمات كانت أقل خطورة من سابقتها...

٤ - ودخلت بريطانيا في سلسلة من الأعمال الإرهابية الخطيرة من جانب ما يُسمى بجيش أيرلندا الجمهوري منذ (٢٨ عامًا) وحتى (١٩٧٠م) على الرغم من اتفاق الجهات المتصارعة من الكاثوليك والبروتستانت على وقف إطلاق النار.. وقد ترتب على هجمتين فقط من هجمات الجيش الجمهوري الأيرلندي في (أبريل ١٩٩٢م و ١٩٩٣م) بالقنابل في مدينة لندن - تلفياتٌ تقدَّر قيمتها بـ ٦٠٠ مليون جنيه إسترليني (ما يوازي مليار دولار) فضلًا عن القتلى، وكان الجيش الجمهوري قد أعلن وقف إطلاق النار في (سبتمبر ١٩٩٤م) ولكنه استأنف أعماله الإرهابية في (فبراير ١٩٩٦م).. وعلى الرغم من أن الجيش الجمهوري الأيرلندي قد أعلن وقفًا جديدًا لإطلاق النار وقَبِلَ (الشين فين) الانضمام إلى المحادثات إلا أن الهوة بين طلبات الجيش الأيرلندي ورؤية الأحزاب الوحشية التي تمثل غالبًا سكان أيرلندا لا تزال واسعة.

٥ - وقد ظهرت في أوروبا خلال الربع الأخير من القرن العشرين مشكلة العنف الإرهابي المتطرف للجماعات اليمينية الذي وصل إلى درجة من التهديد والجسامة أكبر من العنف الإرهابي المتطرف اليساري، ففي ألمانيا مثلًا تسببت القيود الاقتصادية التي أعقبت توحيد ألمانيا وزيادة حجم البطالة.. في خلق جو من الاضطراب جعل العنف الإرهابي ينتعش من جانب جناح اليمين المتطرف ففي عام (١٩٩٢م) حدثت أكثر من ألفي هجمة من جانب جماعات اليمين المتطرف خلفت ١٧ قتيلاً وأكثر من ألفي مصاب..

٦ - وظهرت الأنشطة الإرهابية للأجنحة العسكرية اليسارية في كل من فرنسا وبلجيكا وإن كانت قد قلَّت بفضل نشاط الشرطة في كلتا الدولتين.

٧ - وظهرت الفيالق الحمراء الإيطالية (الألوية الحمراء) التي خطفت رئيس الحكومة آلدومورو في مارس عام (١٩٧٨م) واغتالته، وقد اتخذت الشرطة تدابير فعّالة لمكافحة مهاجمة هذه الفيالق فضلًا عما تقوم به أجهزة العدالة الجنائية والأجهزة التشريعية من تدابير.

٨ - وظهر الجيش الأحمر الألماني ومجموعة أندرياس ماينهوف في ألمانيا التي خطفت هانز مارتن شلوبر رئيس اتحاد المقاولين سنة (١٩٧٧ م) واغتالته، وكانت هذه المجموعات قد أرعجت ألمانيا الغربية في السبعينيات إلا أنها لم تلق تأييداً شعبياً وبالتالي أصبحت معزولة ولا تمثل نضالاً ثورياً.

٩ - وظهر الجناح اليساري الإرهابي في اليونان والذي مثّل لوقت طويل مشكلة للسلطة هناك^(١).

والملاحظ في كل هذه النماذج أنها تحمل طابعاً سياسياً أو طابعاً دينياً، وليست إرهاباً رغبة في الإرهاب فقط، حتى أن كارلوس الذي كان يُعتبر من أكبر إرهابيي العالم نقل نص الرسالة التي أرسلها من سجنه لمؤتمر الوحدة الأفريقية والتي يقول فيها: نداء إلى الضمير الأفريقي.. إن هيئة الدفاع عن (كارلوس) تدعو رؤساء الدول الأفريقية لاتخاذ موقف سياسي يدافع عن كارلوس باعتبار أنه كان أحد أكبر رموز حركات التحرر الوطني في العالم الثالث خلال فترة الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، ومن غير المعقول - أضاف البيان - : أن يدفع كارلوس وحده (الفاتورة) بعد انهيار المعسكر الذي كان ينتمي إليه، وبالتالي فإن قضيته تعد سياسية لا غير حيث يتابع معاناته بسبب الأفكار والقناعات التي دافع عنها وما يزال يتمسك بها بكثير من الصبر والتفاني والشجاعة^(٢).

غير أن بعض هذه الحركات الإرهابية لا تضع أعمالها على الأهداف السياسية فقط، بل كانت تنال من الأبرياء أحياناً بلا مبرر، ولعل ما حدث في الجزائر يمثل أسوأ هذه النماذج بدون أن ننسى دور الدولة في ذلك (فتقدر إدارة المباحث الجنائية الفدرالية الأمريكية عدد القتلى في الفترة من (١٩٩٢ م حتى ١٩٩٦ م) بحوالي (٦٠٠٠٠) شخص من المسلمين والمواطنين وقوات مكافحة الإرهاب، لكن الرقم المعلن رسمياً من جانب السلطات الجزائرية عن الفترة من (١٩٩٢ - ١٩٩٧ م) لا يتجاوز نصف هذا العدد (٢٧٠٠٠) شخص بينهم (١٨٩ رضيعاً) و (٤٢٢ طفلاً) لقوا مصرعهم في التفجيرات العشوائية^(٣).

أما الإرهاب الحقيقي الذي لا يحمل لوناً سياسياً فهو جرائم العنف والاعتصاب التي

(١) تشريعات مكافحة الإرهاب في الوطن العربي، للدكتور محيي الدين عوض.

(٢) المجلة، العدد (١٠١٥)، (٢٥/٧/١٩٩٩ م).

(٣) واقع الإرهاب في الوطن العربي، للدكتور محمد فتحي عيد.

تملاً فجاج الأرض وخاصة عواصم الدول الكبرى في العالم، والتي تقع أحياناً بمعدل جريمة كل دقيقة (وفي أمريكا حوالي ٥ ملايين شخص من المجرمين بمعدل ٣٪ من السكان)^(١).

ملخص البحث:

وَنُخَلِّصُ بعد هذا العرض إلى النتائج التالية:

- ١ - الإرهاب لفظاً هو التخويف وبث الرعب في الآخرين، والإسلام دعانا لتملك القوة المادية التي ترهب أعداءنا ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].
- ٢ - وهذا المبدأ هو الذي تأخذ أمريكا به كما يقول أنطوني ليك مستشار الرئيس السابق كليتون للأمن القومي: دعوني أذكر مبدءاً أساسياً دائماً، وهو أننا سنكون على استعداد لاستعمال القوة دفاعاً عن مصالحنا القومية إلى أن تتغير طبيعة البشر، ستبقى القوة في صلب العلاقات الدولية.
- ٣ - ومع هذا فقد سمّانا الإسلام (مسلمين) ولم يسمّنا (إرهابيين)، وشتان بين الاسمين، وسمي حربنا (جهاداً).
- ٤ - وأمريكا التي تتحكم بمصير العالم اليوم موزعة بين المبادئ التي تعلنها، والمصالح التي تحكمها، كما برز ذلك جلياً في الخطاب الرسمي الذي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية، وحددت فيه موقفها من الإسلام والمسلمين.
- ٥ - وقد عرفت الإرهاب بقولها: يعني اصطلاح إرهاب أعمال عنف مدبرة يتم القيام بها بدافع سياسي ضد أهداف غير معنية بالحرب من جانب جماعات في البلاد.
- ٦ - الدول الراحية للإرهاب كما حددتها أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية هي سبع دول: (كوبا، إيران، العراق، ليبيا، كوريا الشمالية، السودان، سورية).
- ٧ - أربع دول من السبع دول عربية إسلامية، والخامسة إسلامية، وبقيت دولتان هما كوريا الشمالية وكوبا.
- ٨ - المنظمات الإرهابية لم يجر تحديدها، لكن أكثريتها الساحقة من المنظمات الفلسطينية التي تقاوم الاحتلال اليهودي في فلسطين.

(١) التعاون الأمني العربي والتحديات الأمنية، للدكتور محسن عبد الحميد أحمد.

٩ - المصالح الأمريكية التي تستدعي استعمال القوة هي سبع حالات عامة، أما في أرض الإسلام فهي ثمانية حالات:

- (١) تأمين عربي إسرائيلي (سلام).
 - (٢) الحفاظ على أمن إسرائيل ورفاهيتها.
 - (٣) ضمان التدفق الحر للنفط من الخليج.
 - (٤) احتواء التهديدات التي تشكلها بعض الدول الإسلامية.
 - (٥) مكافحة الإرهاب.
 - (٦) كبح انتشار أسلحة الدمار الشامل.
 - (٧) تأمين وصول الشركات الأمريكية إلى أسواق المنطقة.
 - (٨) الترويج لأنظمة سياسية واقتصادية أكثر انفتاحًا لاحترام حقوق الإنسان.
- ١٠ - أكبر مبادرتين أمريكيتين لا بد من رعايتهما الدائمة: عملية السلام العربي الإسرائيلي، وأمن منطقة الخليج، فأهم المصالح الأمريكية في أرضنا الإسلامية:

(١) السلام بين اليهود والعرب.

(٢) أمن إسرائيل ورفاهها.

(٣) تدفق نفط الخليج لها.

١١ - وراعية السلام بين البلدين تتحدث وزيرة خارجيتها (السابقة) عن أسعد أيام حياتها بولادة إسرائيل (وأذكر كيف انتابني شعور بأن شيئاً عظيماً حقاً قد حدث في اليوم الذي سبق بلوغي سن الحادية عشرة، عندما ولدت دولة إسرائيل الحديثة).

١٢ - من أجل مقتل ستين يهودي تدعو أمريكا تسعة وعشرين زعيمًا لعقد مؤتمر في شرم الشيخ لإدانة هذا الإرهاب، أما الملايين التي سقطت قتلى وجرحى، والملايين التي شردت في العراء والشعب الذي يعيش أكثر من نصفه خارج وطن لا يستدعي ولا يستحق مثل هذا المؤتمر، وثلاثة عشر زعيمًا من هؤلاء الزعماء من بلدان عربية، شاركوا في إدانة الإرهاب الفلسطيني.

١٣ - لا بد أن نشير ابتداءً أن حجر الزاوية في الإرهاب كله هو قضية فلسطين، فجميع

المنظمات الإرهابية التي ذكرت على سبيل المثال تقاتل لتحرير فلسطين، أما الجماعة الإسلامية في مصر فقد تخلت عن العنف، وتحولت إلى حزب سياسي.

١٤ - لقد اتهمت الحركة الإسلامية (الإخوان المسلمون) بالإرهاب منذ عام (١٩٤٨م)؛ لأنها حاربت ضد اليهود (في ١٩٥٤م، وفي ١٩٦٦م)، وكانت الفقرة الأخيرة في تقرير جونستون عام ١٩٥٤ الذي طرح الحل السلمي بين العرب واليهود (ولكن طالما أن جماعة الإخوان المسلمين وهي جماعة قوية ومسلحة يبلغ تعدادها حوالي المليون في مصر والبلاد العربية الأخرى، طالما أن هذه الجماعة باقية بقوتها فلن يمكن تنفيذ هذا الحل، ولن تستقر الأمور في الشرق الأوسط) وأعطيت الإشارة لعبد الناصر بالتصفية.

١٥ - حماس (الإرهابية الأولى) اليوم في التقييم الأمريكي لأنها تقول في المادة الحادية عشرة من تأسيسها: تعتقد حركة المقاومة الإسلامية أن أرض فلسطين وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة، لا يصح التفريط بها أو بجزء منها أو التنازل عنها أو عن جزء منها ولا تملك ذلك دولة عربية أو كل الدول العربية...

١٦ - أما الحديث عن أمريكا المبادئ، والموقف من الإرهاب والعنف من الناحية النظرية، فلا نرى فرقاً بينها وبين موقف الحركة الإسلامية (الإخوان المسلمين) منه، فالحركة الإسلامية تعلن رفضها لجميع أساليب العنف والقسر، ولجميع صور العمل الانقلابي الذي يمزق وحدة الأمة، وهم برآء من شتى أشكال ومصادر العنف وشتى أشكال ومصادر الإهمال.

١٧ - وإذا كان (الإخوان المسلمون في سورية) وهم فصيل من التنظيم العالمي قد ألحق بهم ذلك، فإنما فرض العنف عليهم فرضاً حين اتخذت الدولة قرارها بإعدام كل من ينتمي للإخوان المسلمين رغم إدانتهم للعنف الذي وقع في حادثة المدفعية.

١٨ - ومن خلال هذه المبادئ نرى أنه لا بد للتنظيم العالمي أن يفتح قناة للحوار مع أمريكا، خاصة بعد اعتراف الرئيس الأمريكي السابق بالإسلام والمسلمين بقوله: إن المسلمين يعيدون صوغ شخصية بلادنا بالذات بسرعة، فالدين الإسلامي هو أسرع الديانات انتشاراً في العالم، ويمارس معتقداته أكثر من ستة ملايين أمريكي في أكثر من (١٢٠٠) مسجد ومركز إسلامي.

١٩ - في التصريحات العلنية التي تصدر عن المسؤولين الأمريكيين يتجنبون النيل من الحركة الإسلامية بشكل مباشر، ومن جهة أخرى يصفون تصرفاتهم بالاعتدال دون إعلان ذلك مباشرة كذلك.

٢٠ - لكن الشيء المريب هو تزكية أشخاص مثل سورش في إيران ومحمد شحرور في سورية ومحمد أركون في الجزائر ومحمد سعيد العشماوي في مصر، وهؤلاء يريدون أن يطرحو دينًا جديدًا غير الإسلام باسم الإسلام، ويتركون آلاف المفكرين والمصلحين الإسلاميين.

٢١ - والمبادئ الأساسية التي تفض الحوار مع أمريكا هي المبادئ الستة التالية:

- (١) زعمهم أن لا خلاف إطلاقًا بينهم وبين الإسلام.
- (٢) المسلمون يعيدون صوغ شخصية أمريكا وهو أسرع الديانات انتشارًا فيها.
- (٣) الإسلام إحدى الديانات العظمى في العالم وقوة حضارية على ما يزيد على ١٣٠٠ عام.

(٤) القيم الإسلامية تتفق مع أفضل القيم الأمريكية.

(٥) من حق المسلمين مناقشة دور الإسلام في شؤون الدولة والمجتمع والاقتصاد.

(٦) وللإسلام دوره بعد أن فقدت مذاهب مثل الشيوعية والاشتراكية والقومية موثوقيتها.

(٧) على دول الشرق الأوسط أن تستلهم تراثها الحضاري.

(٨) دعوة أمريكا للحوار.

٢٢ - للإسلام فلسفته في حرب الإرهاب، ففي قتال الكفار لا يقتل إلا المقاتلون، أما النساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن فلا يقتلون عند جمهور العلماء، لكن من يشارك في القتال يُقتل.

٢٣ - لكن إذا احتل العدو أرض المسلمين فيغدو قتال الدفع فرض عين، ويجوز قتالهم في أي مكان في أرضهم وأرض المسلمين.

٢٤ - أما في حالة السلم فقتل العمد جزاؤه الخلود في جهنم، وحكم المعاهدين المستأمنين هو حكم المسلمين.

٢٥ - الفكر المتطرف هو الذي يرى الجهاد هو السبيل الوحيد لإقامة دولة الإسلام، وخلال مرحلة الجهاد ستطهر الأرض من غربان الشر وأبوام الرذيلة، ولا يجد حرجاً أن يعلن عن نفسه أنه إرهابي وعدو للحضارة.

٢٦ - وهذا الفكر يحكم على المجتمعات والحكومات الإسلامية كلها بالكفر والردة، ويوجب قتالها، والديار ديار كفر، والواجب جهاد هذه الطوائف وهو فرض عين حتى تعود إلى الإسلام.

٢٧ - الجماعة الإسلامية في مصر وجماعة الجهاد أعلنتا رسمياً تخليهما عن العنف، وطرحا مفاهيمهما عن الجهاد السلمي وصاغاً أفكارهما من خلال حزبي الشريعة والإصلاح، لا تخلياً عن الجهاد، ولكن لتعذر ظروفه وعدته.

٢٨ - ولحقت جبهة الإنقاذ في الجزائر بهما؛ حيث ابتدأت بهدنة مع الدولة، وانتهت بإعلان حلّ جيش الإنقاذ الجزائري وانخراطه في صف الجيش الرسمي للدولة، وتسليم أسماء عشرة آلاف مقاتل ليأخذوا مواقعهم في الجيش الرسمي للدولة.

٢٩ - إرهاب الدولة هو الذي يلجئ في كثير من الأحيان الجماعات السلمية إلى العنف، والعنف ليس من منهجها، وقد اعترف بذلك رجل المخابرات الأمريكي (ستيفن بيليتري) وقدم نموذجاً درسه على ضوء هذه النظرية عن الحركات الإسلامية الثلاث (جبهة الإنقاذ في الجزائر، والإخوان المسلمين في مصر، وحركة حماس في الأرض المحتلة).

٣٠ - الإرهاب الدولي معظمه إرهاب سياسي مرتبط بمواقف سياسية أو مواقف دينية متطرفة وهو موزع على أنحاء العالم.

٣١ - الإرهاب الحقيقي اليوم هو ما يُسمى بجرائم العنف الذي يملأ عواصم العالم الكبرى، ويقض مضجع أمن الأفراد والدول والجماعات.



(٣)

الحوار

تعريف الحوار:

الحوار في اللغة:

« الحَوْرُ في اللغة: الرجوع، وتجاوزوا: تراجعوا الكلام فيما بينهم، وما أحرار جواباً: مارداً، والتجاوز: التجاوب، واستحاره: استنطقه »^(١).

وفي الاصطلاح:

« مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين »^(٢)، وعرفه بعضهم بأنه: « نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب »^(٣).

الحوار في القرآن:

ورد في ثلاثة مواضع:

(أ) بين صاحبي الجنتين؛ الأول: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤].

(ب) الثاني: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧].

(ج) في سورة المجادلة: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

وهذه المواضع الثلاثة تتناسب مع تعريف الحوار الاصطلاحي.

الحوار في السنة:

ورد بالمعنى الاصطلاحي في حديث البخاري عن أبي الدرداء قوله: « كانت بين أبي

(١) القاموس المحيط: مادة حَوْر.

(٢) الحوار: آدابه وضوابطه، للدكتور يحيى الزمزمي، دار التربية والتراث، مكة المكرمة (ط ١)، (ص ٢٢).

(٣) أصول الحوار، إصدار الندوة العالمية للشباب (ص ٦).

بكر وعمر محاوره فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً..»^(١).

كلمات عامة في الحوار:

لسنا بحاجة للوقوف كثيراً أمام هذه التعريفات السابقة؛ لأن مصطلح الحوار قد أصبح واضحاً في ذهن الطبقة المثقفة من كل فئات الأمة والتي يعنىها هذا الموضوع، خاصة في مجال الصراعات أو الخصومات السياسية. وهل يكون حلها عن طريق الحوار أو طريق القوة، ومن أجل ذلك نجدنا مضطرين لتوضيح هذه الكليات الخمس في الحوار الإسلامي:

١ - الإسلام سطر وجوده على الأرض ب: ﴿أَقْرَأْ﴾.

٢ - معجزة الإسلام الكبرى إلى قيام الساعة: القرآن.

٣ - أكثر من نصف القرآن حوار بين الإسلام وخصومه.

٤ - لا إكراه في الدين.

٥ - أعظم شيء في الإسلام الدعوة إلى الله.

١ - الإسلام سطر وجوده على الأرض ب: ﴿أَقْرَأْ﴾:

«.. حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»،

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارئ»،

فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③﴾^(٢).

فرسالة الله تعالى إلى خلقه والتي اختار ﷺ قلب رسوله الكريم لحملها هي قراءة

وعلم وفكرة وليست قتالاً وسيفاً ابتدأت بالقراءة، واختتمت بقول الله ﷻ: ﴿أَلْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والعلم لا يتلقى بالقوة والقسر إنما يتلقى بالقراءة والفهم والتدبر.

ورسول الله ﷺ وهو يودع الدنيا قبيل وفاته بشهرين ونيف كان أكثر ما يشغله هو

(١) صحيح البخاري (٤٣٦٤).

(٢) صحيح البخاري (٣).

تبليغ هذه الرسالة للأمة وإيصالها لهم، كما ذكر في حجة الوداع: «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يُبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه»^(١)، وفي رواية «.. فلا تظلمن أنفسكم: اللهم هل بلغت» فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد»^(٢).

ونبحث عن أهم شيء في هذا الدين حرص رسول الله ﷺ على تبليغه في يوم النحر، حيث اجتمع مائة وثلاثون ألفاً من المسلمين فيكون الجواب:

عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: «الزمان قد استدار كهيئة، يوم خلق السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات؛ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى - قال: «فأي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس البلدة؟» قلنا: بلى، قال: «فأي يوم هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم - قال محمد: أحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه»^(٣). فإذن أهم ما في وصايا سيد البشرية لها حرمة الدماء والأعراض والأموال، وأهم من ذلك كله أن الضلال كل الضلال هو حل المشاكل بالقوة، وضرب بعضكم رقاب بعض.

٢ - معجزة الإسلام الكبرى إلى قيام الساعة: القرآن:

وحين تكون الآية العظمى للإسلام هي آية فكرية لا آية مادية فهذا يعني أن الحوار هو أساس الحياة الإسلامية في نقل هذا الوحي وتفهمه وتدبر آياته وتعليمه للآخرين، في الدفاع عن مبادئه وإيضاح عظمتها المتجلية للبشرية، وهي المهمة الكبرى لهذه الأمة.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا رَتَابَ الْمُبْتَلُونَ﴾ (١٨) بَلْ هُوَ

(١) صحيح البخاري (ح ٤١٤٤).

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام (٦٠٤/٢).

(٣) صحيح البخاري (ح ٤١٤٤).

ءَايَاتُ بَيِّنَاتٍ فِي سُورِ الذِّكْرِ أَوْثَرُ الْعِلْمِ وَمَا يَحْكُدُ بِعَيْنِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٢﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾ [العنكبوت: ٤٨ - ٥١].

وهي الآية الخالدة الباقية، أما الآيات الأخرى، والمعجزات الأخرى فقد كانت وقتية مرهونة بزمناها وبالمشركين أيام النبي ﷺ، وهو الرسالة العظمى التي ارتبط وجودنا بها. ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

والمهمة الرئيسية لرسول الله ﷺ العبادة والتلاوة والتبليغ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَمَّا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

ورسالته ﷺ منبثقة من القرآن كما انبثق هو منه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذِّكْرِ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ يَشْعُرَانِ غَيْرَ هَٰذَا أَوْ يَدَّيْهِ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَسَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

والأمة كلها مهمتها أن تبين الآيات، وتوضحها للناس، وتحاورهم حتى تظهر لهم عظمة هذا الكتاب المبين: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

٣ - أكثر من نصف القرآن حوار بين الإسلام وخصومه:

فمن المعروف في علوم القرآن، أن القرآن المكي أكثر من القرآن المدني، ولو أمعنا النظر في القرآن المكي لوجدناه كله حوارًا خالصًا بين المسلمين والمشركين، وعرصًا لعقائد الإسلام، وتفنيدها لعقائد الشرك، وعرصًا لدعوات الأنبياء، وحواراتهم مع أعدائهم من شياطين الإنس والجن.

ولا داعي لأن نستعرض ذلك، وإلا سنعرض أكثر من نصف كتاب الله شواهد على ذلك. والجدير بالإشارة نقطتان:

النقطة الأولى: أن القرآن لم يطلق عليه حوارًا، وإنما ذكر الجدل والمجادلة أكثر مما هو سبب ذلك؟

حقيقة الأمر أن أعداء الحق في هذا الوجود من لدن آدم إلى قيام الساعة، يعتمدون ابتداءً الجدل السيئ، وشرط الحوار ليكون حوارًا أن يكون من طرفين، أما الجدل فغالبًا ما يرتبط باللد والخصومة والتعجيز أكثر مما يعتمد الحجة والمنطق، ومن أجل ذلك حين دعانا الإسلام إلى الجدل دعانا إليه بأن يكون بالحسنى أو بالتي هي أحسن، فهذا واجب الطرف الرباني، ﴿وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

النقطة الثانية: وكثيرًا ما يتجاوز الأعداء حتى حدود الجدل العقيم ليهددوا بالإبادة أو التهجير. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ يَاجُدُّوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وإذا أردنا أن نفقه طبيعة هذا الدين وأهمية الحوار فيه، فعلينا أن نتلمذ دارسين على كتاب الله ﷻ وندرس المنهج الذي يريده الله تعالى منا في هذا المجال، ونتأدب به.

وتكفي هذه الأساسية لمن أراد حقًا أن يعلم أهمية الحوار في الإسلام، وماذا يقيم عليه من شأن، وما له في الدين من أهمية، ونشهد من طرف آخر موقف الخصوم القائم على الجدل بالباطل أولاً، والجدال بغير علم ثانيًا. والجدال العقيم ثالثًا، والتهديد رابعًا، والتنفيذ خامسًا حين يُتاح لهم ذلك: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ آدُنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

٤ - لا إكراه في الدين:

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

«وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه، فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحمله تبعه عمله وحساب

نفسه، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني، التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب متعسفة، ونظم مذلة، لا تسمح لهذا الكائن الذي كرمه الله باختياره لعقيدته، أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما تمليه عليه الدولة..

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان، الذي يثبت له بها وصف إنسان، فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة.. وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة.

والإسلام.. وهو أرقى تصور للوجود والحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مرأى هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، وهو الذي يبين لأصحابه دون سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين.. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية المتعسفة وهي تعرض فرضاً سلطان الدولة، ولا يُسمح لمن يخالفها بالحياة.

والتعبير هنا بصورة النفي المطلق ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نفي الجنس كما يقول النحويون، أي نفي جنس الإكراه كونه ابتداءً فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع، وليس مجرد نهى عن مزاولته، والنهي في صورة النفي - والنفي للجنس - أعمق إيقاعاً.

ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشري لمسة توقظه، وتشوقه إلى الهدى، وتهديه إلى الطريق وتبين حقيقة الإيمان التي أعلن أنها أصبحت وهو يقول: ﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾.

فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه، ويحرص عليه، والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه، ويتقي أن يوصم به ^(١).

ومن جهة أخرى فلقوله ﴿لَا مَدْلُولَ آخِرَ﴾ ﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾، فعندما يتبين الكفر على حقيقته أنه غيٌّ وضلال، ويتبين الإيمان أنه رشد وهدى عندئذ لا يجبر أحد على الإيمان أبداً، أما قبل هذا التبين فلا بد من إزاحة كل الوسائل والقضاء على كل الضغوط التي تحول دون إيصال هذا الدين للناس وجهاد الإسلام ليس لفرض هذا الدين بالقوة، فلا إكراه في الدين، إنما هي لإيصال هذا الهدى للقلوب والناس أحرار بعد ذلك ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ [الكهف: ٢٩].

٥ - الدعوة إلى الله:

لقد جاء رسول الله ﷺ للبشرية ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿[الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُ ﴿[المؤمنون: ٧٣، ٧٤].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠]، ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِلَاقِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

والأنبياء من لدن آدم عليه الصلاة والسلام حتى خاتمهم محمد ﷺ هم دعاة إلى الله.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (١٧) ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٩، ١٠].

والمؤمنون إلى قيام الساعة دعاة إلى الله ﷻ: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وحين ترفض الدعوة ويتم الحوار الكامل بين الفريقين، فلا إكراه في الدين:

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلَغَ فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِهِمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١٨) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿(١٩) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٠) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿[الغاشية: ٢١ - ٢٤].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولا بد أن تكون الدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، والحسنى والتي هي أحسن، مهما كان موقف الكافرين المتعنتين والطغاة الجبارين.

﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]

﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

العهد المكي والدعوة إلى الصبر:

وإذا كان الحوار هو سمة القرآن المكي الذي يتجاوز نصف القرآن، فكذلك هو سمة العهد المكي الذي يتجاوز نصف عمر الرسالة، فثلاثة وعشرون عامًا انقضى منها ثلاثة عشر عامًا والرسول ﷺ مدعو إلى متابعة الحوار، والصبر على متاعبه ولأوائه ومرارته. والجهد ممنوع مهما كان موقف الطغاة والجبارين، وأقصى ما يُسمح به هو صد العدوان لمن يقدر على صده.

جاء في تفسير الطبري: « عن ابن عباس قوله: ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] فهذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل، وليس لهم سلطانٌ يقهر المشركين، وكان المشركون يتعاطونهم بالشتيم والأذى، فأمر الله المسلمين من يجازي منهم أن يجازي بمثل ما أوتي إليه أو يصبر أو يعفو فهو أمثل، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأعز سلطانه أمر المسلمين أن يتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم وأن لا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية ^(١) .

ويلخص الإمام ابن العربي في « أحكام القرآن » تلك الحال بقوله: « كان الكفار يتعمدون النبي ﷺ والمؤمنين بالإذاية، لقد خنقه المشركون حتى كادت نفسه تذهب، فتداركه أبو بكر، وقد بلغ بأصحابه إلى الموت، فقد قتل أبو جهل سمية أم عمار بن ياسر، وقد عذب بلال وما بعد هذا إلا الانتصار بالقتال.

إن النبي بعد وقوع العفو والصفح عما فعلوا أذن الله له في القتال عند استقراره في المدينة فأخرج البعوث ^(٢) ويتابع ابن العربي فيقول:

« وقال علمائنا - رحمهم الله -: كان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في

(١) تفسير الطبري (١١٦/٢).

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي (٣/١٢٨٥).

الحرب، ولم تحل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم عن بلادهم، فهم بين مفتون عن دينه ومعذب، وبين هارب في البلاد مغرب، فمنهم من فر إلى الحبشة.. ومنهم من صبر على الأذى، فلما عنت قريش على الله.. وعذبوا من آمن بالله أذن الله لرسوله في القتال»^(١).

« هذا ما كان عليه حال النبي ﷺ، وحال المسلمين بمكة قبل الهجرة، وقبل نزول الإذن بالقتال»^(٢)، والمسلمون على مدار القرون إذا كانوا في حالة استضعاف ولم يكن لهم دولة، فلا سبيل لهم إلا الحوار والصبر على كل تعنت العدو وعدوانه أو صد الأذى بمثل ما اعتدي عليه في أحسن الأحوال.

ويوضح الدكتور هيكल هذا المعنى بصورة أكثر جلاءً فيقول:

« أما ما هو مدلول منع الإذن في القتال؟

- وهل يشمل الاستسلام للتعذيب، والكف عن الدفاع عن النفس، مهما نزل بالمسلم من محن ونكبات على يد أهل الشرك من مكة؟
- وهل يشمل الامتناع عن قتل المشرك الذي يرفع السلاح على المسلم قاصداً إنزال الموت به؟

- أم أن المراد بالقتال غير المأذون فيه هو أن يتداعى المسلمون في مكة، ويؤلفوا من أنفسهم صفًا قتاليًا، ويناجزوا كفار مكة في صراع مسلح، وحرب دموية حتى يحكم الله بين الفريقين؟

- أم أن المراد بالقتال غير المأذون فيه هو: شن حملات من الاغتيالات لقيادات الكفر في مكة ممن يتناولون المسلمين بالتعذيب بقصد الانتقام والانتصاف؟

والجواب عن ذلك.. أن المسلمين إزاء ما كان يصيبهم من كفار قريش كان موقفهم منوعاً بين الصبر والصفح وبين الانتصاف والانتصار، ومقابلة الضرب بالضرب، والدفاع عن النفس، بما في ذلك الاستعداد لقتل المشرك فيما لو رفع السلاح على المسلم يريد قتله به..

(١) القرآن، لابن العربي (ص ١٢٨٥، ١٢٨٦).

(٢) النص مأخوذ من: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، للدكتور محمد خير هيكل (١/ ٤٥٦).

إذن يبقى معنى القتال الذي كان محظورًا غير مأذون به في مكة قبل الهجرة إنما هو القتال بالمعنيين الآخرين وهما: تداعي المسلمين بعضهم بعضًا لمنازلة قريش في ميدان القتال، وشن حملات من التصفية الجسدية لصناديد قريش، عن طريق الاعتقالات يقوم بها المغامرون من المسلمين بدافع الانتقام من الاضطهاد الذي يلحقونه بهم..»^(١).

وروى النسائي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة، فقال: «إني أُمّرت بالعفو، فلا تقاتلوا»، فلما حوَّله الله إلى المدينة أمر بالقتال فكفوا، وأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَطْلُمُونَا﴾ فيلًا ﴿[النساء: ٧٧]»^(٢).

والإضافة الجديدة للمسلمين في حالة الاستضعاف إذا كانوا في ظل حكم ديمقراطي ينتصف للمظلوم، فالأصل أن يلجؤوا إلى السلطة القائمة لترفع عنهم الظلم حسب قوانين هذه الدولة التي تمنع الاعتداء، وتبيح حرية الاعتقاد، وحرية الدعوة إليه، ولا يثاروا لأنفسهم ممن اعتدى عليهم، وإن كانوا في ظل حكم قمعي استبدادي دكتاتوري يمنع حرية الاعتقاد، وحرية الدعوة إليه، أن يدافعوا عن أنفسهم ما وجدوا سبيلًا إلى ذلك، فإن كانوا عاجزين عنه فالصبر هو المطلوب منهم حتى يأذن الله بفرج من عنده، كما قال ﷺ لخباب، عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(٣).

وأما الفكرة السابقة في اللجوء إلى القوانين التي تحكم المجتمع الديمقراطي، فلنا في قوانين الإجارة في المجتمع المكي والاحتكام إليها خير دليل على ذلك، وأوضح دليل عليه ما أورده البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - في حوار ابن الدغنة لأبي بكر ﷺ حين أعاده من مهجره إلى الحبشة إلى مكة.

(١) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، للدكتور محمد خير هيكال (١/٤٥٨، ٤٥٩) مقتطفات.

(٢) سنن النسائي (ح ٤٢٩٣)، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

(٣) صحيح البخاري (ح ٦٥٤٤).

« فرجع مع أبي بكر فطاف في أشراف كفار قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وآمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإننا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا. قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن للصلاة، ولا القراءة في غير داره... »^(١).

والإضافة الثالثة في هذا الصدد: هي أن الجماعة الإسلامية في ظل دولة ديمقراطية تتيح تعدد الأحزاب، لا تملك سلطة على أي حزب مهما كانت دعوته مع الإسلام أو ضده أن يقول ما شاء ضمن إطار الدستور الذي يحكمها، فرسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاثة عشر عامًا، وثلاثمائة وستون صنمًا تعبد في الكعبة، والشرك ضارب أطنابه فيها، والخمر والزنا والربا وكل الجرائم الأخلاقية تسود المجتمع المكي، فلم يستعمل السلطة أو العدوان أو الضرب لأحد من أبناء المشركين أو أفرادهم، إنما كان الحوار هو الأسلوب الوحيد الذي يملكه معهم...

« ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا شرفاً فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم »^(٢).

الحوار في ظل الدولة الإسلامية:

ونناقشه في بندين مستقلين:

(أ) الحوار داخل الدولة الإسلامية.

(ب) الحوار بين الدولة وخصومها.

(أ) الحوار داخل الدولة الإسلامية:

لقد قامت الدولة النبوية الإسلامية الأولى ومواطنوها ذوو أديان ثلاثة، مسلمون

(١) صحيح البخاري (ح ٢١٧٥).

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام (٢٩٦/١).

ويهود ومشركون، وتمت صياغة الدستور الذي يحدد حقوق وواجبات كل فريق منهم تجاه الدولة، وتجاه بعضهم بعضاً مع ملاحظة أن المشركين لم يقرروا كحزب أو تجمع ديني، إنما كان وجودهم كأفراد منتشرين في الوطن الإسلامي. وبقي الحوار هو الذي يحكم أبناء هذه العقائد المختلفة، وخاصة في بداية العهد المدني، وبالعودة إلى آيات القرآن الكريم نلاحظ أن السبع الطوال، البقرة وآل عمران والنساء والمائدة؛ أي: السور المدنية منها، ثم الأنفال والتوبة كلها تقدم الحوار الفكري بين المؤمنين وأهل الكتاب وبين المسلمين والمشركين، والقرآن الكريم حافل بهذا الحوار وكل العقائد المختلفة وعرضها والردود عليها مع الإشارة إلى الحديث عن جهاد المشركين خارج دولة الإسلام ضمن هذه السور.

وهذه بعض نماذج هذا الحوار التي هي غيض من فيض:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٥، ١٣٦].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَإِيَّانَهُ بُرُوجَ الْقُدْسِ أَفْكُلْمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكَبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَأَوْهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١].

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ

وَيَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ [المائدة: ١٧ - ٢٠].

فأي حوار في هذه الدنيا يعدل هذا الحوار، يسوق حجة الخصم، ويردها عليه، ويعطيه ما له من إيجابيات ولا ينكرها عليه. وإذا أردنا أن نتعلم أدب الحوار مع الخصم، فلنقف على كتاب الله ﷻ يعلمنا كيف يتم الحوار مع الخصم سواء كان قويا حاكما أو ضعيفا مغلوبا، فحقه في الحياة مصون، وحقه في الاعتقاد مصون، وحقه في المواطنة مصون، والنقاش والحوار هو سبيل التفاهم في ما اختلف فيه.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا الوضع مع اليهود والذين تمتعوا بكامل حقهم في الرأي والعقيدة والمناظرة والمحاورة، هذا الوضع قد تغير حين نكثوا العهد، وتعاملوا مع العدو، وأعلنوا الحرب العسكرية على المسلمين وتبرؤوا من عهودهم ومواثيقهم التي تحكمهم مع محمد ﷺ.

فبنو قينقاع فقدوا حق المواطنة وتم تهجيرهم دون قتلهم لوساطة عبد الله بن أبي، بعد أن أعلنوا حربهم على المسلمين، وحاولوا اغتيال رسول الله ﷺ.

« وقالوا: يا محمد إنك ترى أنا قومك؟ لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس »^(١). « وعن عمرو ابن قتادة: أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد »^(٢).

وبنو النضير بعد أحد « خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة.. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة.. فأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم »^(٣).

(٢، ١) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٤٧).

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ١٩٠).

ولم تنعكس خيانة أي قبيلة على الأخرى، وتحمل جريرتها، فبنو قريظة مكثوا حتى السنة الخامسة للهجرة وهم على أحسن ما يكون وفاء بمواثيقهم وأمنًا في حياتهم وعقائدهم وأهلهم كما قال سيد بني قريظة لحبي بن أخطب سيد بني النضير:

« ويحك يا حبي دعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقًا »^(١)، فلم يزل حبي بكعب « سيد بني قريظة، فنقض كعب عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟! لا عهد بينها وبين محمد ولا عقد، فشاتهم سعد بن معاذ وشاتموا »^(٢) وانضموا إلى قريش في حربها ضد رسول الله ﷺ فجاء حكم سعد بن معاذ بهم، وهم حلفاؤه، « أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء »^(٣). كما قال ﷺ ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۖ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْغُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

ونخلص بعد هذا إلى أن الحوار هو الخط الإسلامي الأصيل في ظل الدولة الإسلامية مع الأحزاب الكافرة، إلا إذا حاربت هذه الأحزاب أو تعاونت مع العدو، وخانت بلدها، ونقضت عهودها ومواثيقها.

(ب) الحوار بين الدولة وخصومها:

وهذا المناطق فيه عند قيام الحرب بين المسلمين وغيرهم، فهل هناك فسحة كافية للحوار قبل الحرب، هذا ما سنجيب عليه في هذه الفقرة.

الخيارات الثلاثة التي حدثنا رسول الله ﷺ عنها بقوله:

« اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.. فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم... »^(٤).

(١) انظر غزوة الأحزاب وبني قريظة في السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٢٢١).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٢٢).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٤٠).

(٤) صحيح مسلم (ح ٤٦١٩).

قال: لا بد أن يسبقها الحوار بين الفريقين الذي قد ينتهي بإسلامهم، وهذا نموذج من هذا الحوار، وخرج جرجة^(١) حتى كان بين الصفين ونادى ليخرج إلى خالد، فخرج إليه خالد فواقفه بين الصفين، حتى اختلفت أعناق دوابهما، وقد أمّن أحدهما صاحبه فقال جرجة: يا خالد، اصدقني ولا تكذبنني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ قال: لا، قال: فبم سُميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبيه ﷺ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه، فقال: «أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين»، ودعا لي بالنصر، فسُميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين، قال: صدقتني، ثم أعاد عليه جرجة: يا خالد، أخبرني إلام تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله، قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نوذنه بحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا. أعاد عليه جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم، وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ قال: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل منكم في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا. قال جرجة: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني؟ قال: بالله لقد صدقتك، وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة، وإن الله لولي ما سألت عنه. فقال: صدقتني.

ثم قلب الترس ومال مع خالد، وقال: علّمني الإسلام. فمال به خالد إلى الفسطاط، فشن عليه قرية من ماء، ثم صلى ركعتين وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد، وهم يرون أنها حملة.. وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين، فتنادى الناس، فتابوا،

(١) هو قائد مقدمة جيش الروم في اليرموك.

وتراجعت الروم إلى مواقفهم فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف فضرب بهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب، ثم أصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها لله إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما..»^(١).

ثم ماذا عن الجزية؟

يقول الإمام السرخسي في السير الكبير:

« فإن أبوا الإسلام، فدعاهم المسلمون إلى إعطاء الجزية فأجابوا إلى ذلك. فإذا كان المسلمون إذا أقاموا معهم يقوون على أهل الحرب فلا بأس أن يجعلهم الأمير ذمة، ويجعل عليهم أميراً من المسلمين يحكم بحكم المسلمين ويجعل مع الأمير من المسلمين من يقوى على المقام معهم في دارهم لأن قبول الذمة واجب، قال الله تعالى: ﴿ حَقٌّ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] وهذه ذمة منهم لأن الأمير يجري عليهم حكم الإسلام، وبإجراء الحكم يصيرون ذمة »^(٢).

فالجزية تمهيد لدخول الإسلام في صفوفهم، وفتح الطريق أمام المسلمين لدعوتهم إلى دين الله. فلا يجوز لطاغوت في الأرض أن يحول بين عباد الله ودينه الذي ارتضاه لهم، أو يحول بين خلق الله وفهمهم للشريعة التي أنزلها الله عليهم، ﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ آيَاتِنُ لِلَّذِينَ لَا يَنْهَوْنَ عَنْ عُذُونِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فالقتال إذن مفروض، بحيث لا يفتن مؤمن عن دينه، ولا يمنع عنه، ودين الله يبلغ مسامع أهل الأرض، فلا حاجة للقتال عندئذ، وتبقى الجزية هي عربون السلام والأمر بين المسلمين والمشركين.

معاهدة سلام، حل رابع:

فالأمور بأهدافها ومقاصدها، فإذا تحقق السماح لدين الله بوصوله إلى الناس جميعاً من خلال معاهدة سلام متكافئة بين دولتين فلا حرج في ذلك ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١].

فالأصل في عالم الأمس الصراع بين الحضارات، والحروب بين الدول، ففي حالة الحرب ترد الخيارات الثلاثة من باب المعاملة بالمثل، فإذا اجتمعت دول الشرك

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٣٧، ٢٣٨)، دار الكتب العلمية.

(٢) السير الكبير وشرحه للإمامين الشيباني والسرخسي.

على إيقاف الحرب، واعترفت بالدولة الإسلامية وحققها في تبليغ دعوة الله لرعاياهم، فلا داعي للجزية، إنما تحل القضية بمعاهدة سلام دائمة.

يقول الدكتور هيكل في كتابه الجهاد:

« إذا وجهت الدولة الإسلامية الدعوة إلى الدول والشعوب الأخرى من أجل الدخول في الإسلام فرفضت، ثم وجهت إليها الدعوة من أجل الدخول في ذمة المسلمين والانضمام إلى الدولة الإسلامية لتطبيق النظام الإسلامي عليها فكان الرد سلبياً أيضاً، فهل يجوز للدولة الإسلامية هنا أن تطلب إلى تلك الدول والشعوب عقد معاهدات السلام معها، أو أن تستجيب لتلك الدول والشعوب إذا طلبت عقد مثل تلك المعاهدات، مما يترتب عليه عدم مشروعية الحرب ضد تلك الدول (المعاهدة من أجل دعوتها إلى الإسلام أو الخضوع للحكم الإسلامي) هذا هو موضوع هذه المسألة.

والجواب... أن الرأي الراجح في هذا الخصوص هو رأي الجمهور وهو عدم اللجوء إلى معاهدات السلام، بل يجوز أن يلجأ إليها إذا اقتضتها مصلحة الدولة الإسلامية، ونقلنا عدداً من نصوص الفقهاء في هذا الصدد:

فمنها قول الإمام الجصاص: « لا نعلم أحداً من الفقهاء يحظر قتال من اعتزل قتالنا من المشركين وإنما الخلاف في جواز ترك قتالهم لا في حظره ».

هذا، وعلى القول بجواز ترك قتال المشركين، يصدق على ذلك ترك قتالهم بمعاهدة وبدون معاهدة، ومنها قول الإمام ابن كثير: « وإن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم... »^(١).

ومنها قول الإمام الزمخشري: والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس من المحتم أن يقاتلوا أبداً، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً^(٢).

ويقول الإمام ابن حجر في فتح الباري: « ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهُمَا ﴾ [الأنفال: ٦١]، هذه الآية دالة على مشروعية المصالحة مع المشركين.. ومعنى الشرط في الآية أن الأمر بالصلح مقيد بما إذا كان الأفضل للإسلام المصالحة، أما إذا كان الإسلام ظاهراً على الكفر ولم تظهر المصلحة في المصالحة فلا... »^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) تفسير الكشاف، للزمخشري (٢/ ١٨٢).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر (٦/ ٢٧٥، ٢٧٦).

وعند ابن تيمية أيضًا: « المعاهدة جائزة لا واجبة، وإذا عقدتها الدولة الإسلامية عقدًا مطلقًا دون تحديد مدة معينة كان يعني ذلك عنده أن الدولة غير ملزمة بها فلها إنهاء المعاهدة في أي وقت تبعًا للمصلحة، أما إذا عقدت على مدة معينة فيجب الوفاء بها طيلة تلك المدة ما دام العدو فيها ملتزمًا بالوفاء، وفي ذلك يقول ابن تيمية في الاختيارات العلمية، باب الهدنة، ويجوز عقدها مطلقًا ومؤقتًا، والموقف لازم من الطرفين يجب الوفاء به ما لم ينقضه العدو، وأما المطلق فهو عقدها جائز - أي غير ملزم - بعلم الإمام فيه بالمصلحة»^(١).

وعلى هذا فإذا رأت الدولة الإسلامية أن من المصلحة الراجحة أن تلجأ إلى عقد معاهدات السلام مع الدول الأخرى فإنها تلجأ إليها.. وهذه المعاهدات السلمية فيما يتصل بأمر الدعوة الإسلامية قد تتضمن شروطًا بحماية حملة الدعوة من أجل نشر الإسلام، ودعوة الناس في الدولة المعاهدة إلى الدخول فيه»^(٢).

ودول العالم اليوم الموقعة على ميثاق الأمم المتحدة، ومبادئها تنص على السلام بين جميع الدول، وتعتبر أي اعتداء على أي دولة من هذه الدول، هو اعتداء عليها تقوم كلها بدفعه وحربه.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فميثاق الأمم المتحدة ينص في مبادئ حقوق الإنسان التي تتبناها على حرية الاعتقاد للمواطنين.

ومن جهة ثالثة: ففي كل دولة وجود إسلامي، ولا خطر من الدعوة إلى الإسلام فيها، خاصة بعد سقوط دول المعسكر الشيوعي، بل وتقر الدول في كثير منها هذا الوجود الإسلامي وتحميه.

ومن جهة رابعة: فالتقنيات الفضائية غدت توصل الإسلام لكل طالب له، والإنترنت الذي يملأ الأرض يفتح كل آفاق الدعوة للإسلام في كل موقع على الأرض.

وهذا الحال من خلال هذه الوقائع الأربع، يجعل الحوار والدعوة هي الأصل لا الحرب، خاصة حين يعترف بذلك أعظم أكبر قادة الأرض من الدول التي تملك أكبر قوة فيها، يعترف بالحوار لا بالصراع.

(١) الاختيارات العلمية، لابن تيمية، الفتاوى الكبرى (٤/ ٦١٣).

(٢) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٨٠٧، ٨٠٨).

« قال بيرغر: إن احترام الرئيس (كليتون) للدين الإسلامي نابع من استيعابه لحقيقتين: أولاهما: أن المسلمين يمثلون ربع سكان العالم، ومن البديهي أنكم ستلعبون دورًا مهمًا في صوغ العالم في القرن القادم.

ثانيتهما: إن المسلمين يعيدون صوغ شخصية بلادنا بالذات بسرعة، فالدين الإسلامي هو أسرع الديانات انتشارًا ونموًا في الولايات المتحدة إذ يمارس معتقداته حوالي ستة ملايين أمريكي في أكثر من ١٢٠٠ مسجد ومركز إسلامي، وتم تبديده لفكرة تصادم الحضارات بين المسلمين وأمريكا.. فلا يوجد صدام بين الحضارات بل مجرد صدام قيم بين الذين يسعون لمستقبل من السلام والاستقرار من جهة، والذين يحتفظون بسلطتهم من خلال اللجوء إلى العنف والأحقاد من جهة ثانية»^(١).

وبغض النظر عن الصدق في هذا الأمر أو الخداع، فالقرآن يقول لنا: هَلُمَّ إِلَى السَّلَامِ، هَلُمَّ إِلَى الْحَوَارِ، وَكُونُوا يَقْظِينَ مِنَ الْخِدَاعِ، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بُصْرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنفال: ٦١، ٦٢].

وضع المرتد في ظل الدولة الإسلامية:

والمرتد الخارج عن الإسلام بعد إسلامه لا بد من الحوار معه لمدة ثلاثة أيام ليرجع عن رده، وإلا فحكمه القتل؛ لأنه خرج على دينه وخالف قوانينه التي تنص على قتل من يرتد عن دينه، ورضي أن يدخل في هذا الدين وهو يعلم ذلك.

« فالحرص على صلاحهم يقتضي بذل الجهد في إزالة شبهاتهم حتى يرجعوا إلى الإسلام، أو يظهر منهم الإباء والتعنت، وهذا يختلف فيه المرتدون بحسب ما ذكرنا، وتقدير ذلك يرجع إلى أصحاب الصلاحية ممن يتولون هذا الأمر، ولعل ما يؤيد هذا الترجيح ما روي عن علي بن أبي طالب أن المرتد يستتاب ثلاثة أيام^(٢)، كما روي عنه أيضًا أنه استتاب رجلًا من المرتدين شهرًا^(٣)، ثم إن حصلت منهم التوبة قبلت منهم، وعادوا

(١) أضواء على الأنباء، السنة (١٤)، عدد (٨)، (ص ١٦، ١٧)، (أيار ١٩٩٩م).

(٢) بدائع الصنائع، للكاساني (٧/ ١٣٥).

(٣) المغني (١٠/ ٧٧).

إلى حكم الإسلام، وإلا فجزاؤهم القتل وهم كفار، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١) ثم لا يُغسلون، ولا يُصلّى عليهم، ولا يُدفنون في مقابر المسلمين»^(٢). ولا يختلف الأمر فيما لو كانوا جماعة خارجة على الإسلام، فلا بد من عرض الإسلام عليهم كذلك:

«بدليل أن أبا بكر الصديق كتب إلى خالد بن الوليد وقد وجهه نحو مسيلمة الكذاب وقومه من بني حنيفة ممن ارتدوا عن الإسلام كتب إليه يقول:

فلا تبدأهم بقتال حتى تدعوهم إلى داعية الإسلام، واحرص على صلاحهم، فمن أجابك منهم فاقبل ذلك منه، ومن أبى فاستعمل فيه السيف»^(٣).

شبهة وردها:

كثيراً ما يشير أعداء الإسلام أن قتل المرتد هو حَجَر للرأي وكبت له، فإذا أراد امرؤ أن يغير عقيدته فما الذي يمنعه من ذلك، وحد قتل المرتد يعني الإرهاب الفكري.

وما نود أن نقوله ببساطة، لماذا لو خطر ببال مواطن في دولة أن يغير ولاءه لدولته ويتصل بأعدائها ويخون أمته ووطنه ويعمل جاسوساً لدولة عدوة لأنه اقتنع أن مصلحته مع تلك الدولة، لماذا نحكم بقتل الجاسوس والخائن ولا نعتبر هذا إرهاباً فكرياً أو كبتاً للرأي أو حجراً له، لماذا لا يحق للمراء أن يخون أمته ووطنه ونبيح له أن يخون دينه ويكفر بربه الذي أولاه من نعمه ووهبه الحياة والرزق وكل النعم الأخرى، ويرتد على دينه ويتبنى عقيدة مغايرة له.

فالإسلام ابتداءً لا يفرض على أحد أن يدخل فيه، لكنه عندما يختار هذه العقيدة يعرف كل مبادئ هذا الدين ويعرف أن من مبادئه القتل إذا ارتد عنه، فالظلم عندئذٍ لو طُبّق عليه المبدأ الذي خالفه تماماً مثل أي مواطن اختار جنسية الدولة التي ينتمي إليها وهو يخضع لقوانينها كاملة، ويتحمل كافة العقوبات المترتبة على مخالفتها.

إن أمر الدين أعظم بكثير من أمر الوطن، ومع هذا فلا إكراه في الدين، لكن لا بد أن يتبين الرشد من الغي، ويعرف الحق من الباطل، ومع هذا فأمام هذا المرتد فسحتان:

(١) البخاري.

(٢) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٥٧، ٥٨).

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله (ص ٣٤٨، ٣٤٩).

الفسحة الأولى: أن يغادر أرض الإسلام إلى أرض الكفر التي اختار عقيدتها، فلا تصل له يد الدولة ولا سلطان لها عليه في دولة عدوة.

الفسحة الثانية: أن تبقى عملية الاستتابة والحوار المفتوح لفترة شهر كامل، فإن أصر على قناعته فقد اختار مصير الموت في سبيل عقيدته الجديدة، وخالف قانون الدولة التي ينتمي إليها وتحدى دستورها، وخان مبادئها.

ونؤكد ثانية وثالثة أن هذا الحد إنما يطبق في ظل دولة إسلامية تنبثق من كتاب الله وسنة رسوله، وتُحكم بالإسلام الذي هو المصدر الوحيد للتشريع فيها، وبدون هذا الشرط، وفي ظل دولة لا تحتكم إلى كتاب الله وسنة رسوله في دستورها، فلا يمكن للأفراد المواطنين تطبيق هذا الحد، إنما يملكون الحوار والنقاش معه، والحدود مرهونة بوجود الدولة المسلمة والسلطة المسلمة.



(٤)

الأقليات والمواثيق الدولية

تعريف الأقلية:

كلّ ما ذكر في المعجم الوسيط في تعريفها:

الأقلية: خلاف الأكثرية، جمع أقليات.

لكن ورد الحديث عنها في تعريف الديمقراطية الحرة:

ديمقراطية حرة: الديمقراطية التي تحاول حلّ التعارض بين السلطة والحرية، والذي ينشأ عن وجود أغلبية يخضع لها الأقلية، وذلك عن طريق وسائل للتوفيق والتعادل، كالاعتراف للأفراد بالحقوق في مواجهة الدولة - بنوع خاص - حق المعارضة.

الأقلية في العهد النبوي:

عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة أسس أول حكومة إسلامية من اثني عشر وزيراً موزعين على قبائل المدينة كلها. فقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا منكم اثني عشر نقيباً». فأخرجهم، فكان نقيب بني النجار أسعد بن زرارة، وكان نقيب بني سلمة البراء بن معمر، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وكان نقيب بني ساعدة سعد بن عباد والمندر بن عمرو، وكان نقيب بني زريق رافع بن مالك بن العجلان، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة وسعد بن الربيع، وكان نقيب بني عوف بن الخزرج عباد بن الصامت، ونقيب بني عبد الأشهل أسيد بن حضير وأبو الهيثم بن التيهان، وكان نقيب بني عمرو ابن عوف سعد بن خيثمة.

هذه قبائل المدينة كاملة، وكلّ قياداتها مسلمة، ومعظم أبناء القبائل مسلمون. كان هناك في كلّ قبيلة من هذه القبائل عدد من الأفراد قد اعتنقوا الديانة اليهودية، وكان هناك في كلّ قبيلة من هذه القبائل عدد من الأفراد لا يزالون على شركهم، فجاءت الوثيقة النبوية خصيصاً لتحديد حقوق هذه الأقليات من هؤلاء الأفراد، دون ذكر حقوق المشركين؛ لأنّ الذين أسلموا كانوا مشركين كلهم، وكلّ يوم ينضمّ جديدٌ منهم لهذا الدين، أما اليهود فلم يُسلم منهم أحد، وبقوا على يهوديتهم.

فما هي الحقوق التي أعطيت لهم؟

- ١ - اعترف بهم جزء من المجتمع المدني: وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين..
 - ٢ - الاعتراف بدينهم واستقلالهم فيه: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.
 - ٣ - ومواليهم لهم مثل حقهم: مواليهم وأنفسهم.
 - ٤ - يحفظ لهم انتماءهم القبلي: وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل يهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل يهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن لبني الشظينة ما ليهود بني عوف.
 - ٥ - التعامل معهم بالبرّ والقسط: وإن البرّ دون الإثم.
 - ٦ - لأتباعهم حقّ مثل حقّ أسيادهم: وإن بطانة يهود كأنفسهم.
- الواجبات عليهم:**

١ - الاشتراك في الإنفاق عند الحرب: وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين دون المحاربين.

٢ - لا حماية لظالم: إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته.

٣ - الاستئذان عند مغادرة المدينة: وإنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ.

الحقوق والواجبات المشتركة لمواطني المدينة: مسلمين ويهود:

١ - خطأ الحليف لا يحمله المتحالف معه، فكلّ مخطئ يحاسب على تقصيره: وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٢ - والمظلوم أيّاً كان جنسه أو عقيدته فلا بدّ أن يُنصر: وإن النصر للمظلوم.

٣ - حدود الوطن واحدة للجميع، يحرم فيها الاعتداء: وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤ - معاملة الجار كالنفس (المستجير): وإن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم.

٥ - الحُرّمات مصونة، فلا يتدخل فيها أحد إلا بإذن أهلها: وأنه لا تجار حرمة بدون أهلها.

٦ - الحكم للإسلام دين الأكثرية: وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من اشتجار أو حدث يخاف فساده فإنّ مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله، وذلك في الخلافات بين اليهود والمسلمين.

٧ - أما خلافاتهم بينهم فيحكمون بديانتهم بينهم إلا إذا طلبوا حكم الدولة، ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٤٢].

٨ - جوار العدو ممنوع وجوار حلفائه: وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

٩ - ومسؤولية الدفاع عن الوطن مسؤولية شاملة لكل فرد: وإن بينهم النصر على من دهم يشرب.

١٠ - ما تقره الدولة من سلم أو حرب يسري على الجميع: وإذا دُعوا إلى صلح يبالحونه ويلبسونه فإنهم يبالحونه.

١١ - ومن حق غير المؤمنين على المؤمنين أن ينصروا حلفاءهم: وأنهم إذا دعوا لمثل ذلك فإنّ لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين إلا من حارب الدين.

١٢ - لا أمان لظالم أو آثم في الدولة المسلمة مهما كان جنسه أو عقيدته: وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

١٣ - وحق الأمن مصون للجميع في أموالهم وتحركهم وتعاملهم: وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.

١٤ - والدولة عون وكف ونصر لكل من برّ واتقى: وإن الله جار لكل من برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

وبتفحص الواجبات لا نجد إلا واجباً خاصاً على اليهود: هو الاستئذان إذا خرجوا من المدينة، وما تبقى فالمواطنون جميعاً شركاء فيه.

وعاش اليهود والأقلية في ظل الدولة المسلمة ينعمون بهذه الحقوق. ولم يمس أحد منهم بسوء. وكان التعامل قائماً بينهم وبين المسلمين، حتى ليستدين الرسول ﷺ منهم، ويرهن درعه عندهم، ويزورهم في بيوتهم، ويتزاوجون، ويستضيف بعضهم بعضاً كأنهم لُحمة واحدة، ولكل دينه.

الأقليات على امتداد التاريخ الإسلامي:

نعرض نموذجاً من وضع الأمم في ظل الإسلام، وهو نموذج مصر:

« فقال المقوقس عند ذلك لمن حوله: أطيعوني وأجيئوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم من طاقة، ولئن لم تجيئوا إليها طائعين لتجيبهم إلى ما هو أعظم كارهمين.

فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟ قال: إذن أخبركم: أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به. وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بدّ من الثالثة. قالوا: أفنكون لهم عبيداً أبداً؟

قال: نعم، تكونون عبيداً مسليطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم وذرائكم وأموالكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيداً تُباعوا وتُمزقوا في البلاد مستعبدين أنتم وأهلوكم وذرائكم...»^(١).

« فاجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كلّ نفس، شريفهم ووضيعهم، من بلغ الحُلم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحُلم ولا النساء شيء. وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء منها... فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستّة آلاف ألف نفس، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف دينار في كلّ سنة»^(٢).

لم يكن أهل البلاد الأصليون أقلية، لكنهم عندما دخلوا في الإسلام وانضموا إلى الفاتحين المسلمين، بقي الذين حافظوا على دينهم أقلية بالنسبة لكل قطر، وبقيت لهم حقوقهم كاملة كما هي من خلال الصورة السابقة.

(١) فتوح مصر، لابن عبد الحكم (ص ٧٠، ٧١).

(٢) المصدر نفسه.

يقول غوستاف لوبون بهذا الصدد ما يلي :

« وكان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقتربوا من المظالم ما يقتربه الفاتحون عادةً، ويسئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم. ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم بعد، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخرًا. ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، أنّ النظم والأديان ليست مما يُفرض قسرًا، فعاملوا - كما رأينا - أهل سورية ومصر وأسبانية وكلّ قطر استولوا عليه بلطفٍ عظيم، تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب إذا قيست بما كانوا يدفعونه سابقًا في مقابل حفظ الأمن بينهم. فالحق أنّ الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم.

وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد أن توارى سلطان العرب عن مسرح العالم. ونعُدّ من الواضح خاصة أمر مصر التي لم يوفق فاتحوها من الفرس والأغارقة والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها، وأن يقيموا حضارتهم مقامها»^(١).

« ويمكن القول بأنّ التسامح الديني كان مطلقًا في دور ازدهار حضارة العرب، وقد أوردنا على هذا غير دليل، ولا نسهب فيه، وإنما نشير إلى ما ترجم مسيودوزي من قصة أحد علماء الكلام الذي كان يحضر ببغداد دروسًا كثيرة في الفلسفة، يشترك فيها أناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى، فيستمع إلى كلّ واحد منهم باحترام عظيم، ولا يطلب منه إلا الأدلة الصادرة عن الفعل، لا إلى الأدلة المأخوذة من أيّ كتاب ديني كان، فتسامح مثل هذا هو ما لم تصل إليه أوروبا بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانت من الأحقاد المتأصلة، وما مُنيت به من المذابح الدامية»^(٢).

ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ فكرة الاعتراف بالآخر أو الاعتراف بالأقليات وحقوقها لم توجد

(١) حضارة العرب، لغوستاف لوبون، ت: عادل زعير (ص ٦٠٥).

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٧٠).

في تاريخ البشرية إلا في ظلّ الإسلام. وقد يكون كثير من الظلم قد وقع على المسلمين أنفسهم من خلال صراعاتهم السياسية، لكن الشيء الثابت الذي لم يتغير على الإطلاق، والعدل الذي استمرّ طيلة القرون هو تعامل الإسلام ودولة الإسلام مع غيرهم، حيث لم تمس حريتهم بسوء، وعاشوا أربعة عشر قرنًا في ظلّ الخلافة الإسلامية آمينين مطمئنين، حتى كان القرن الأخير والذي قبله، حيث قامت الفتن الطائفية، وأصبحت سمة العصر.

الإسلام ينقذ النصارى من ظلم النصارى: نموذج مصر:

« ولما لم يكن للحكام الجدد من المسلمين اهتمام بالمنازعات المذهبية وأحزاب المجامع الكنسية، رأى عمرو أنّ من حُسن السياسة ألا يفرق بين الملكانية (مذهب الدولة) واليعقوبية (مذهب القبط شعب مصر)، فلم يتحيز لأحد من الطرفين، بل أقرّ الحرية الدينية، ورفع الاضطهاد عن القبط، وأطلّ الفريقين بعدله، وحماهما بحسن تديره، فنادت الحياة إلى المذهب اليعقوبي في هذا الجوّ الجديد، جوّ الحرية الدينية، حتى صار المذهب السائر في مصر كلها.

ولما عرف رهبان القبط هذا الأمر من عمرو بن العاص وتيقنوه، خرج عدد عظيم منهم من الأديرة التي كانوا قد اعتصموا بها خوفًا من الاضطهاد والعسف، وساروا في نحو سبعين ألفًا كما يروي المقرئ في كلّ منهم يحمل في يده عصا إلى عمرو، ويعلنون له الطاعة، فأحسن لقاءهم ورحب بهم.

وكان عمرو بن العاص من جهة أخرى حريصًا على أن يعود البطريق بنيامين إلى رئاسته الدينية لما عُرفَ من محبة القبط له، وتعلّقهم به؛ لذلك أرسل عمرو كتابًا إلى بنيامين يقول فيه:

« أينما يكون بطريق القبط بنيامين نعهده بالأمان والحماية في عهد الله، فليأت البطريق إلى هنا في أمانٍ واطمئنانٍ ليكي أمر ديانته، ويرعى أهل ملّته - أو كما جاء في عهد الأمان هذا في كتاب أبي صالح الأرمني - فليأت الشيخ البطريق آمنًا على نفسه، وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها لا ينالهم أذى، ولا تخفر لهم ذمة.

ولم يلبث الأمان الذي كتبه عمرو بن العاص أن بلغ البطريق بنيامين، فخرج من مخبئه، ودخل الإسكندرية دخول الظافرين، وفرح الناس برجوعه فرحًا شديدًا بعد غياب بلغت مدّته ثلاثة عشر عامًا.

وأخذ بنيامين يقول لأتباعه: عدت إلى بلدي الإسكندرية، فوجدتُ بها أمناً بعد الخوف، واطمئناناً بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم..

وقد بلغ من ابتهاج القبط بعودة الحرية الدينية إليهم مبلغاً عبّر عنه ساويرس بقوله: إنهم فرحوا كما تفرح الأسخال (صغار المعز) إذا حُلَّت قيودها، وأطلقت لترتشف من لبن أمهاتها » ... وكان من أثر هذه الحرية الدينية التي أطلق عمرو بن العاص عقالها أن أقبل كثير من عقلاء الروم والمصريين الأقباط على النظر في المذاهب المختلفة، ثم انتهى أكثر هؤلاء إلى قبول الإسلام والدخول فيه ^(١).

الأقليات في العالم وكيف عوملت:

خضع الشرق لكثير من الشعوب، كالفرس والأغارقة والرومان، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسي إذا كان عظيماً دائماً فإن تأثيرها المدني كان ضعيفاً عموماً، ولم توفق لفرض دينها ولغتها وفنونها، ومن ذلك أن ظلت مصر الثابتة في زمن البطالمة وفي زمن الرومان وفيه لماضيها..

ولم يغير المصريون دينهم سوى مرة واحدة قبل العرب، وذلك حين خرب قياصرة القسطنطينية بلاد مصر بتخطيطهم جميع آثارها أو تشويهها، وجعلهم القتل عقوبة من يخالف حظر عبادة آلهتها الأقدمين. وهكذا عانى المصريون ديناً جديداً فرض عليهم بالقوة أكثر من اعتناقهم له، وما كان من تهافت المصريين على نبذ النصرانية ودخولهم في الإسلام يثبت درجة ضعف تأثير النصرانية فيهم.

في الحروب الصليبية:

ويدل على سلوك الصليبيين في جميع المعابد - لأتّهم أشد من الوحوش حماقة - أنهم كانوا لا يفرّقون بين الحلفاء والأعداء والأهلين العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والأطفال.. ونرى في كلّ صفحة من الكتب التي ألفها مؤرّخو النصراني في ذلك الزمن براهين على توحش الصليبيين. ويكفي لبيان ذلك أن ننقل الخبر الآتي الذي كان الراهب روبرت شاهداً على سلوك الصليبيين. قال المؤرخ التقى:

(١) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبي رابية (ص ٢٤٩) وما بعدها، أخذاً من مراجعة فتح مصر، وحسن المحاضرة، للسيوطي، والخطوط، للمقرئزي، وكتاب الجناح، لأبي صالح الأرمني، وساويرس الكتاب الأول.

« وكان قوما يجوبون الشوارع والبيادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيخوخة ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستبقون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة.. فيا للعجب، ويا للغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأَمْضى سلاح من غير أن تقاوم، وكان قوما يقبضون على كل شيء يجدونه فيلقون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجنث.. فيا لتلك الشعوب المعدة للقتل، ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية ديناً.

ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم ببرج القصر، وأمر بضرب رقابهم؛ عجائزهم وشيوخهم وضعافهم، ويسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لبياعوا فيها.

وحدث قتل الترك في يوم (الأحد الموافق ١٢ من ديسمبر)، وإذ لم يمكن إنجاز كل شيء في ذلك اليوم، قتل قوما ما بقي من أولئك في اليوم التالي^(١).

وكانت القدس في ذلك الحين تابعة لسلطان مصر الذي استردها من الترك، فاستولى عليها الصليبيون في (١٥ من يوليو سنة ١٠٩٩ م).. وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصاري حين دخلها منذ بضعة قرون.

قال كاهن مدينة لوبري ريموند داجيل: « حدث ما هو عجيب بين العرب حين استولى قوما على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرقت بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداش من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جنث قتلاهم...

لقد أفرط قوما في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جنث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك.. ولم يكتفِ الفرسان الصليبيون الأنقياء بذلك، ففقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصاري،

(١) حضارة العرب، للوبون (ص ٣٢٧).

الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً، فأفنؤهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً»^(١).

في الأندلس ومع محاكم التفتيش:

« وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة، ولكن سنة (١٤٩٩ م) لم تكد تحلّ حتى حلّ بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قروناً، والذي لم يتتبه إلا بطرد العرب من إسبانية، وكان تعميم العرب كرهاً فاتحة ذلك الدور، ثمّ صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى، ولم تتمّ عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج؛ لتقدر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة. ونصح كردينال طليطلة التقي - الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش - بقطع رؤوس جميع من لم يتنصّر من العرب رجالاً ونساءً وشيوخاً وولداناً، وأمرت الحكومة الأسبانية في سنة (١٦١٠ م) بإجلاء العرب عن أسبانيا، فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق. وأبدى الراهب البار (بليدا) ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين في أثناء هجرتهم، وهو الذي قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من (١٤٠,٠٠٠) مهاجر مسلم كانت متّجهة إلى أفريقيا.

وخسرت أسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها في بضعة أشهر، ويقدر كثير من العلماء - ومنهم سيديو - عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير بثلاثة ملايين، ولا تعد ملحمة بارتلمي إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل، كتلك التي اقترفت ضدّ المسلمين.

ومما يُرثى له أن حُرمت أسبانيا عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية.

ثم رأت محاكم التفتيش أن تبيد كلّ نصراني ترى فيه شيئاً من النباهة والفضل، فكان من نتائج هذه المظالم المزدوجة أن هبطت أسبانيا إلى أسفل دركات الانحطاط بعد أن بلغت قمة المجد، وأن انهارَ معها كلّ ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان»^(٢).

(١) حضارة العرب، للوبون (ص ٣٢٨، ٣٢٩)، باختصار.

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٧٠ - ٣٧٢)، باختصار.

الحرب العثمانية على الدولة العثمانية:

كان السلطان عبد المجيد قتي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره بعد وفاة والده السلطان محمود الثاني، وقد هزم الجيش العثماني أمام قوات محمد علي باشا في نصيبين شمالي سورية، وكاد السلطان ومحمد علي أن يتفقا على حل سياسي خلاصته أن تبقى الشام ومصر لمحمد علي باشا وراثية، كما صرح محمد علي باشا للقنصل البريطاني أنه واثق بأن كل الاختلافات سوف تحسم دون تدخل القوى الكبرى؛ لأنه يعترف باحترام الكبير والخضوع للسلطان، وهذا ما رفضته الدول الأوروبية أن يقوم حكم قوي في مصر والشام، لذلك أرسلت إلى السلطان العثماني مذكرة مشتركة من سفراء كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسية تنص على عدم اتخاذ قرار فيما بين السلطان العثماني ومحمد علي إلا بموافقتها وتحت علمها، وعرضت الدول الأوروبية استعدادها للتوسط بين الفريقين.

فقبلت الدولة بهذا لحين استرجاعها ما فقدته من جيشها وأسطولها بعد مواجهة محمد علي، وتحت وطأة هذه الأزمة أصدر السلطان عبد المجيد أول مرسوم من مراسيم التنظيمات في أول سنة من تولي العرش، وبعد أربعة أشهر من ذلك استدعي رشيد باشا السفير العثماني في لندن ليعين وزيراً للخارجية، وأقنع السلطان بهذا التنظيم - وهو الماسوني العريق - بحجة أن هذا البرنامج التغريبي يجعل الدول الغربية تساند الدولة في أزمته، وأنها جديرة أن تعامل معاملة الدول المتحضرة الحديثة، وذلك بتطوير النظم وجعلها شبيهة بالنمط الأوروبي الدستوري على أن تكون بداية الانطلاق هي مصلحة الرعايا المسيحيين وتحسين أحوالهم»^(١).

الحرب مع أوروبا:

« وكما تمخضت أزمة محمد علي (١٢٥٥ - ١٢٥٦ هـ / ١٨٣٩ - ١٨٤٠ م) عن صدور خط شريف كولخانة، فقد تمخضت حرب القرم في سنة (١٢٧٠ - ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٣ - ١٨٥٦ م) عن صدور خط إصلاحي جديد هو الخط الهمايوني، حيث اشتعلت

(١) الدولة العثمانية والغزو الفكري، للدكتور خلف الوديناني (ص ٣٣٩، ٣٤٠).

الحرب بين روسيا والدولة العثمانية والحلفاء قرابة ثلاثة أعوام كان لا بد من وضع حدٍّ حاسم لها، فاتفق على عقد مؤتمر باريس للسلم وعقد المؤتمر في (١١ جمادى الثانية ١٢٧٣ هـ، الموافق ٢٥ شباط ١٨٥٦ م)، وذلك بعد الإنذار الذي وجهته النمسا لروسيا، وذلك بانضمامها إلى الحلفاء في حالة رفض روسيا هذه الشروط.

وقد صيغت هذه الشروط في اتفاقية باريس التي وقع عليها كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وتركيا في البنود التالية:

- ١ - تعهد الجميع بحفظ استقلال الدولة العثمانية الإسلامية.
- ٢ - المصالحة بين الفريقين المتحاربين، وإخلاء ما احتلَّ من أراضي كل فريق.
- ٣ - إعادة المواقع العثمانية التي احتلتها روسيا إلى العثمانيين.
- ٤ - إعلان العفو العام وإعادة الأسرى.
- ٥ - اعتراف الدول الأوروبية باشتراك الباب العالي معهم في الاستفادة من المنافع الأوروبية، واحترام استقلاله والمحافظة عليه.
- ٦ - تعهد الدول المتعاهدة بالتوسط لمنع الحرب بين الباب العالي العثماني والدول الأخرى.

٧ - إصدار منشور عثماني لصالح النصارى القاطنين في الدولة العثمانية. واتفق لقبول العثمانيين ضمن المجموعة الأوروبية أن تنفذ البند السابع من المعاهدة، وتصدر خطأً جديداً يضع برنامجاً للإصلاح أكثر اتساعاً ودقة من خط شريف كولخانة^(١).

والملاحظ أنّ كل تلك البنود في ظاهرها لصالح الدولة العثمانية، واستعدت الدول الأوروبية لإعطاء هذه الميزات كلها للدولة الإسلامية مقابل إصدار هذا المنشور العثماني للأقليات النصرانية في أرضها، وكان التنفيذ على يد ماسونى علماني أصيل.

فقد « ابتدأت التنظيمات الإدارية منذ عهد السلطان عبد المجيد، وكان وزير عبد المجيد: رشيد باشا يرى في الغرب مثله الأعلى، وفي الماسونية فلسفته المثلى، وهو الذي أعد الجيل التالي له في الوزارة ورجال الدولة، وبمساعده أسهم هؤلاء بعده

(١) الشعوب الإسلامية، لعبد العزيز نوار (ص ١٩٣).

في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو أولاً، والذي صار سقوط السلطان عبد الحميد الثاني بعد ذلك وخروج الدولة عن الخط الإسلامي امتداداً طبيعياً لفكرة التغريب فيها، وقد أصدر مرسومين كانا بداية الانحراف عن الخط الإسلامي في التشريع الأول منهما في سنة (١٨٣٩ م)، وعرف باسم منشور كلخانة، وصدر الآخر في (١٨٥٦ م)، وعرف باسم الخط الهمايوني^(١).

لقد ارتبطت الأقليات في الدولة العثمانية ارتباطاً دينياً ومذهبياً بوجه عام، وفرنسا اعتبرت نفسها حامية للمذهب الكاثوليكي، وروسيا جعلت نفسها حامية للمذهب الأرثوذكسي في ممتلكات الدولة العثمانية، وإنجلترا جعلت نفسها حامية للمذهب البروتستانتي، وتدخل عوامل الغزو الفكري والعسكري في شؤون الدولة العثمانية جنباً إلى جنب، لحماية الأقليات ظاهراً، والقضاء على الإسلام في الحقيقة.

الأقليات في خط شريف كولخانة، والخط الهمايوني:

(أ) خط شريف كولخانة:

وهو الذي صدر بعد أزمة الدولة العثمانية مع محمد علي باشا.

« ونصّ الخط على تساوي رعايا الدولة أمام القانون، المسلمين منهم وغير المسلمين، ولكن مع المحافظة على الشريعة الإسلامية أو الإطار الإسلامي، وتوفير الإخاء بين كلّ رعايا الدولة العثمانية بهدف تقوية الدولة، كما أكد على إيجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على أموالهم وأموالهم وأرواحهم، وهذا يعني وجوب إعلان المحاكمات ومطابقتها للوائح، وإلغاء نظام مصادرة الأملاك، وإيجاد نظام ثابت للضرائب، وتحديد نظام ثابت للجندية، بحيث لا تستمرّ مدى الحياة، ودعا الخط إلى الحرية الشخصية، والتملك الشخصي بحرية، وأعيد تنظيم الإدارة المحلية والمركزية.

الموقف من هذا الخط:

وبالرغم من موافقة هذا الخط لأهداف الدول الأوروبية، فقد رفضه النصارى بدعوى أنه يجردّهم من الامتيازات التي كانوا ينعمون بها عدّة قرون، والتي توفر لهم الحماية الأجنبية...

(١) الدولة العثمانية والغزو الفكري، للدكتور خلف الوديني (ص ٣٣٩، ٣٤٠).

لقد كانت الامتيازات التي نالتها الأقليات في الدولة العثمانية تفوق حقوق المسلمين العاديين؛ ولذلك تأذوا من المساواة معهم، فهناك ما اختصاصهم به الإسلام ابتداءً من توفير حياتهم وأرواحهم وحماية ممتلكاتهم، وهناك الضغوط من الدول الأجنبية لإعطائهم حقوقاً جديدة فوق الحقوق التي ضمنها لهم الإسلام. ولم تكن المساواة من الناحية العملية إلا إعلاناً للخروج عن المنهج الإسلامي الذي يخرجهم من ذمة المسلمين وحمايتهم إلى إعطائهم المساواة التامة مع المسلمين.

لقد انتقلت المواطنة في الدولة العثمانية من الفقه الإسلامي إلى القانون العلماني، وهذا كله لم يرضِ الدول الأوروبية وأعداء الإسلام، إنما كانوا يريدون هذا الأمر مع الامتيازات التي أعطاهها الإسلام لأهل الذمة، والامتيازات التي فرضوها بضغوطهم على الدولة العثمانية. وتعبير آخر: يريدون المواطن النصراني واليهودي مواطن الدرجة الأولى، والمواطن المسلم هو مواطن الدرجة الثانية.

وقد وجد آنذاك من أسخِ الشرعية الإسلامية على خط كولخانة، فعندما ثار المسلمون وقالوا عنه: هذا شرع مخالف للإسلام، « اضطرت الدولة إلى إرسال شيخ الإسلام عارف حكمت إلى جهات الاضطراب لوعظ الناس وأمرهم بالطاعة والامتنال، فخطب بذلك على المنابر، وبين للناس أن تلك التنظيمات ليست خارجة على المنهج الشرعي »^(١).

هذا ويمكن أن نعتبر المواطنة أساساً إسلامياً طالما تبنّتها تشريعات الدولة وأقرها شيخ الإسلام، واعتبار المساواة بين المواطنين مما لا يتناقض مع الإسلام بعد تغير الأوضاع العالمية والدولية؛ إذ لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان، واعتبار هذا الخطّ هو المنطلق الأساسي لفكرة المواطنة في الدولة الإسلامية.

(ب) الخطّ الهمايوني :

بناءً على المادة السابقة من قرارات مؤتمر باريس، صدر خط همايون، وهو تأكيد على ما جاء في خط كولخانة مع إضافة جديدة تتعلق بحقوق النصارى والتنظيمات الإدارية الجديدة، فكان أكثر دقة من الخط الأول^(٢).

وبالرغم من أن الخط الهمايوني جاء نتيجة للضغط الخارجي ومن ضمن شروط

(١) تاريخ الدولة الإسلامية، لعلي حسون (ص ١٥٢).

(٢) العلمانية وأثرها على الأوضاع الإسلامية في تركيا، للدكتور عبد الكريم مشيداني (ص ٧٥).

الصلح على عكس خط كولخانة، فقد تشابه الخطان في كثير من النقاط، إلا أن صيغة الخط الهمايوني كانت أكثر عصرية، وأكثر اقتباساً عن الغرب بصورة لم تُعهد من قبل في الوثائق العثمانية، فهو لم يستشهد بآية قرآنية واحدة، أو بقوانين الدولة العثمانية القديمة وأمجادها.

مضامين هذا الخط:

« يتّضح من هذا الخطّ التركيز على المساواة الدينية، وفصل حقوق معينة للنصارى، منها: أن المسائل المدنية تكون العهدة في إدارتها على مجلس مختلط بين المدنيين ورجال الدين النصارى ينتخبه الشعب بنفسه، ومنها عدم إكراه المسلم الذي يعتنق النصرانية على الرجوع إلى الإسلام، بل يُسمح له بالردة عن الإسلام واعتناق النصرانية»^(١).

ثم فتحت أبواب معاهد التعليم الرسمية، وبالتالي وظائف الدولة المدنية أمام المسيحيين الذين فرضت عليهم الخدمة الإلزامية رسمياً، ووعدوا بزيادة تمثيلهم في مجالس الولايات والمجالس المحلية، ووعده السلطان بإيجاد نظام ضريبي أكثر عدالة، كما وعد بتحديد ميزانية سنوية وإنشاء البنوك، والاستعانة برأس المال والخبرات الأوربية (اليهودية) بهدف تطوير اقتصاد الدولة، وتبويب القانون الجنائي والقانون التجاري، وإصلاح نظام السجون، وإنشاء محاكم مختلطة في القضايا الخاصة بالمسلمين وغير المسلمين. وقد وعدت الدول الأوربية مساندتها التامة لهذا الخط؛ لضمان تنفيذ العثمانيين لوعودهم»^(٢).

وقد أعقب صدور خطّ كولخانة والخط الهمايوني مجموعة من القوانين التنظيمية التي مست المجتمع العثماني، وقد صدرت هذه القوانين في أوقات متفاوتة، كان أولها صدور القانون التجاري (١٨٥٠م)، وكان معظمه مأخوذاً من القانون الفرنسي، ثم القانون الجنائي الصادر سنة (١٨٥٨م)..^(٣)

الموقف من الخط:

على عكس الموقف من خط شريف كولخانة، حيث حاولوا أن يلبسوه اللباس

(١) تاريخ الدولة العثمانية، للدكتور علي حسون (ص ١٦١).

(٢) في أصول التاريخ العثماني (ص ٢١١).

(٣) الدولة العثمانية والغزو الفكري (ص ٣٦٥).

الإسلامي، ويتبناه شيخ الإسلام، ويمضي في الولايات مبشراً به، ومعلنًا أنه منبثق من الإسلام، فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة للخطّ الهمايوني، لقد صدر عاريًا مدنيًا علمانيًا دون أية إشارة إلى ارتباطه بالإسلام.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد انتقده شيخ الإسلام، كما انتقده رجل الإصلاح رشيد باشا بطل الخط - كولخانة -، وتبع هذه الانتقادات انتقادات أخرى من كبار رجال الدولة العثمانية. وقال رشيد باشا: إنه سار أشواطًا إلى الأمام لأنّه جاء كقفزة بدلًا من النص على تنفيذ الإصلاح بالتدريج، وإن إلحاقه بصلح باريس يشكل خطرًا على السلطان والدولة.

تحويل الأقلية إلى أكثرية:

عندما كانت الدولة العثمانية في أوج قوّتها وانتصاراتها كانت الأكثرية الإسلامية تاركة الحكم الذاتي للأقلية، ومفسحة لها المجال في المشاركة في الحياة السياسية العامة حسب الكفاءات الموجودة فيها، وعندما ضعفت الدولة العثمانية وبقيت محاولة على أملاكها تحول الأمر من أهل ذمة إلى أقلية، فاستفادت من حقوق أهل الذمة ومن الامتيازات التي فرضتها الدول الأجنبية، وبقيت هذه الدول تتباكى على حقوق الأقليات الدينية ثمّ الأقليات القومية إلى أن طردت الدولة العثمانية من أوروبا، فصار المسلمون في أوروبا (أقليات) في كلّ دولة يقيمون فيها، فلم يعد أحد يتباكى على الأقليات، ولا على حقوقها، وأصبح همّ كلّ دولة أوربية فيها أقلية مسلمة أن تستأصل هذه الأقليات وتقضي عليها، وبرز الحقد الصليبي ثم الشيوعي على أشدهما في التعامل مع هذه الأقليات ابتداءً من حرمانها حقوقها وعدم الاعتراف بوجودها، وانتهاءً بالعمل على استئصالها وإبادتها. إنّ ظهور الدولة القومية في أوروبا والتي انطلق شظاها ونارها فأحرق الأتراك والعرب، إنما تجسد في انفصال هذه القوميات العرقية عن الدولة العثمانية، وانتهى بإلغاء الخلافة، وتبرز الروح العلمانية في هذه الدول كلها على السواء بإبعاد الدين عن الدولة، وجعل حقّ التشريع للشعب وممثليه فقط، وإنهاء الأقلية من خلال حكم الأكثرية الديمقراطي.

الأقليات الإسلامية في العالم:

يختلف تقدير أعداد الأقليات المسلمة في العالم بين الباحثين لعوامل متعدّدة، وإذا أردنا أن نصل إلى تقديرات أقرب للواقع، فأفضل الأساليب هو توثيق العلاقات

بالأقليات المسلمة في العالم، والاستعانة برأيها وخبرتها في هذا المجال، إضافة إلى الاستعانة بالمراكز الإسلامية المبنوثة في العالم.

وهذه التقديرات التقريبية إنما قدمها الباحث د. محمد محمود محمددين^(١) على ضوء بعض الأسس المتاحة التي اقترحها الباحث.

« تناول البحث تقدير أعداد الأقليات المسلمة في العالم بأكثر من (٣٧١) مليون، أي (٣٥ ٪) من مجموع المسلمين في العالم الذين قدرهم الباحث بأكثر من (١٠٦٦) مليون سنة ١٩٨٥ م »^(٢).

م	القارة	عدد السكان المسلمين في الدول الإسلامية	الأقليات المسلمة بالمليون	المجموع
١	آسيا	٤٧٠ مليون	٢٨٢ مليون	٧٥٢ مليون
٢	أفريقيا	٢٢٣ مليون	٧٠ مليون	٢٩٣ مليون
٣	أوروبا	٢ مليون	١٥ مليون	١٧ مليون
٤	الأمريكتان	-	٤ مليون	٤ مليون
٥	أستراليا	-	٠,٣	٠,٣
٦	المجموع	٦٩٥ مليون	٣٧١,٣ مليون	١٠٦٦,٣ مليار
٧	النسبة	٦٥ ٪	٣٥ ٪	١٠٠ ٪

وتتزايد أعداد المسلمين في العالم ما بين ٢١ - ٢٥ مليون في السنة.

(أ) الأقليات المسلمة في آسيا:

تقدر أعداد المسلمين في أهم أقطار آسيا غير الإسلامية على النحو التالي:

م	الدولة	عدد المسلمين بالمليون	نسبتهم المئوية من مجموع السكان
١	الهند	١٠٠ مليون	١٥ ٪
٢	الصين الشعبية	٩٥ مليون	١٠ ٪
٣	الاتحاد السوفيتي ^(١)	٦٥ مليون	٢٥ ٪

(١) وقد ذكر هذا البحث في كتاب الأقليات المسلمة في العالم، الصادر عن الندوة العالمية للشباب المسلم، (٢) / -

(٤١٠)، وسنقله بنصّه ما عدا المقدمات غير الضرورية، ومع الاختصار.

(٢) فقرة من ملخص البحث (ص ٤٠٣).

(٣) وذلك قبل انهيار الاتحاد السوفيتي عام (١٩٩١ م) ليتحول بعد ذلك إلى عدة دول مستقلة.

٤	سريلانكا	١,٢ مليون	٨٪
٥	تايلاند	٦,١ مليون	١٢٪
٦	بورما	٢,٧ مليون	٧٪
٧	الفلبين	٥,٧ مليون	١١٪
٨	دول آسيوية أخرى	٢,٤ مليون	---

ومما تجب الإشارة إليه أنّ مسلمي آسيا يلقون اضطهادًا، ويتعرضون للمذابح في بعض المناطق، كما هو الحال في الاتحاد السوفيتي وفي الفلبين، وفي تايلند، وفي الهند... وما حدث في أسام دليلٌ على ذلك، حيث دمرت قرى المسلمين، وذبح الرجال والنساء والأطفال.

(ب) الأقليات الإسلامية في أفريقيا:

يقدر عدد المسلمين في أفريقيا بأكثر من (٢٩٣) مليون، منهم (٢٢٣) مليون مسلم يعيشون في الأقطار الإسلامية بنسبة (٧٦ ٪)، ويعيش أكثر من (٧٠) مليون (٢٤ ٪) في أقطار غير إسلامية.

ويقدر عدد المسلمين في بعض الدول الأفريقية غير الإسلامية على النحو التالي:

م	الدولة	عدد المسلمين بالمليون	الدولة	عدد المسلمين بالمليون
١	أثيوبية	١٧ مليون	ملاوي	٢,٨ مليون
٢	تنزانيا	١٢ مليون	مدغشقر	٢ مليون
٣	أوغندا	٥ ملايين	موزنبيق	٢ مليون
٤	كينيا	٤ ملايين	زامبيا	١,٢ مليون
٥	غانا	٣,٩ ملايين	---	---

وجدير بالذكر أن مسلمي أثيوبيا ظلوا لوقت طويل يلقون معاملات سيئة، ويتعرضون للاضطهادات الدينية.

وما فعله أقطاب الشيوعية في تلك الأقطار الإسلامية يفوق الخيال. في تركستان (مجموعة الجمهوريات) قتل (٦) ملايين مسلم سنة (١٩١٩ م)، هرب منهم مليونان ونصف. في سنة (١٩٣٣ م) قتلوا (١٠٠,٠٠٠) مسلم. هذا وقد ثبت بالإحصائيات أنّ ستالين قد قتل (١١) مليون مسلم.. أما في القرم فيقول الشيخ الغزالي في كتابه:

(الإسلام في وجه الزحف الأحمر): كان سكان القرم (٥) ملايين مسلم سنة (١٩١٧م)، فأمسوا سنة (١٩٤٠م) (٤٠٠,٠٠٠) فقط، أي أقل من عُشر السكان. أين ذهب أولئك المسلمون؟. أمسوا عمالاً هائمين في فيافي سيبيريا وغيرها. وكان في المناطق الإسلامية (٦٠٠) مدرسة لتعليم القرآن والدين الإسلامي قبل الثورة الشيوعية، و (٢٤) ألف مسجد، لم يبقَ منها حتى الآن سوى عدد قليل جداً. وحوّل الكثير منها إلى ملاهٍ ودور سينما ومستودعات ومتاحف.. وغير ذلك^(١).

وأما الشيشان، ذلك الشعب المسلم الذي لا يتجاوز المليون ونصف المليون، فقد وجهت له قنابل الطائرات وقذائف المدافع وصنوف العذاب، فقتل منه مئات الألوف، وشرد الشعب بأكمله، ودُمّرت المدن، وأُحرقت القرى، وانتهكت أعراض، وبيّمت أطفال. فما وهن ولا استكان، وما زاده ذلك إلا صموداً وتمسكاً بدينه..

والهمجية التي يمارسها الروس على الشيشان تفوق الوصف، ولولا أن شبكات التلفزة تنقل صور الحرق والدمار الذي تقوم به الطائرات وراجمات الصواريخ دون تمييز، كما صدّق أحدُ صدورها من الحيوانات، بل الإنسان^(٢).

هذا وقد استقلّت الجمهوريات الإسلامية عن روسيا، وشكلت دولاً مستقلة هي بتاريخ ٢/١٩٩٢م.

م	الجمهورية	العاصمة	عدد السكان	المسلمين
١	أوزبكستان	طشقند	٢٢,٠٠٠,٠٠٠ مليون	٨٨٪
٢	قازاقستان	ألماتا	١٦,٧٨٢,٠٠٠ مليون	٥٢٪
٣	قرغيستان	بيشكيك	٤,٥٩٠,٠٠٠ ملايين	٧٣٪
٤	طاجيكستان	دوشنبه	٥,٥٠٠,٠٠٠ ملايين	٩٠٪
٥	تركمانستان	عشق آباد	٣,٧٨٩,٠٠٠ ملايين	٨٦٪
٦	أذربيجان	باكو	٧,٢٧٠,٠٠٠ ملايين	٨٢٪

ويقدر عدد المسلمين في هذه الجمهوريات بـ (٥٣) مليون مسلم.

(١) انظر: الجمهوريات الإسلامية من الظلمات إلى النور (ص ٤٠).

(٢) انظر: المصدر نفسه (ص ١٨٢).

(ج) الأقليات المسلمة في أوروبا:

لا توجد في أوروبا إلا دولة إسلامية واحدة، هي ألبانيا، وتقع جنوب شرقي أوروبا، ويصل عدد المسلمين فيها إلى مليوني نسمة. أما بالنسبة للأقليات المسلمة في أوروبا فيصل عددها إلى (١٥) مليون، ويعيش في يوغسلافيا وحدها أكثر من خمسة ملايين مسلم.

« وقد بدأت مأساة المسلمين في البوسنة والهرسك في إبريل (١٩٩٢ م) بعد تفكك جمهورية الاتحاد اليوغسلافي أعلنت جمهوريتا صربيا والجبل الأسود اتحادهما، كما أعلنت جمهوريات كرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا استقلالها، ولكن ما إن أعلنت جمهورية البوسنة والهرسك ذات الغالبية المسلمة استقلالها حتى تكالبت عليها قوى الشر^(١) .

وسقط منهم (٢٥٠) ألف شهيد، من بينهم (٧٠) ألفاً قُضوا نحبهم في مجازر جماعية، ومثل الصربيون بأجسادهم. وجرحهم أكثر من عدد شهدائهم، ولم يهنوا، وأصبح من بينهم (١٥٠) ألف معاق، ولم يستسلموا. أما المعتقلون في معتقلات تقشعر لها أبدان أتباع هتلر، فقد وصل عددهم (٣٠٠) ألف، لكن المشردين بلا مسكن ولا مأوى عددهم مليون و (٨٠٠) ألف، هجروا في داخل البوسنة والهرسك، و (٣٧٥) ألف هجروا إلى خارج أراضي الدولة. أتعرف ما هو العدد الكلي للشعب المسلم في البوسنة والهرسك؟ إنه أكثر من (٣) مليون نسمة بقليل. إذن أعد الحساب لتعرف حجم الكارثة^(٢) .

وكان من مآسي المسلمين في أوروبا قرار منع الحجاب للمسلمات، الصادر عن الرئيس الفرنسي، بحجة تناقضه مع علمانية الدولة، وتبدأ مأساة ملايين المسلمين عند إقراره من مجلس النواب الفرنسي.

(د) الأقليات المسلمة في الأمريكتين:

يقدر عدد المسلمين في الأمريكتين بما يقرب من أربعة ملايين مسلم^(٣). وتضمّ الجالية الإسلامية في أمريكا الشمالية أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، منهم أكثر من مليونين من أصل أفريقي من المسلمين السود.

(١) البوسنة والهرسك: حقائق وأرقام (ص ١٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٧٩). للأستاذ خالد الأصدر، من سلسلة دعوة الحق التي تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، العدد (١٦٦).

(٣) يقدر عدد المسلمين اليوم بـ (١٢) مليون مسلم.

ويقدر عدد المسلمين في أمريكا الجنوبية والوسطى بـ (٤٠٠) ألف مسلم. وهناك منظمات إسلامية عديدة في الولايات المتحدة لها نشاط ملموس، مثل المجلس الإسلامي واتحاد الطلبة المسلمين، وله فروع في أكثر الولايات. وهناك مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية الذي يمثل المسلمين لدى الحكومة الأمريكية، غير أن الأوضاع اختلفت كثيرًا بعد أحداث (١١ سبتمبر)، وتحولت أمريكا بقوانينها الاحتياطية إلى دولة بوليسية، حتى ليقول نهاد عوض؛ المدير التنفيذي لمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية: لا نطالب بغير العدالة والمساواة، «ونحن كنا ولا نزال نعتقد بأنها سياسة تقوم على التمييز العنصري، ولم تكن مجربة، ولم توفر الأمان والحماية لأحد، بل استهدفت المسلمين والعرب كونهم مسلمين وعربًا، وكنا محقّين برفع دعوى قضائية ضدّ الحكومة. وعندما سئل: هل تمّ اعتقال أو اتهام أيّ شخص في إطار هذا الإجراء (تسجيل نفسه) خلال العام الماضي بتهم تتعلق بالإرهاب؟. فأجاب: المشكلة أنه تمّ اعتقال مجموعة كبيرة من العرب والمسلمين... وتمّ ترحيل مجموعة كبيرة من العرب والمسلمين، ولم نسمع أحدًا أدين بموجب هذه الاعتقالات بتهم تتعلق بالإرهاب...»

وما نطالب به هو ما طالبت به أقليات أخرى دفاعًا عن الدستور الأمريكي وعن الحريات، وهو أن تكون عدالة متساوية، وأن لا يستخدم القانون بانتقائية، فمن المعروف أن الحريات المدنية في الولايات المتحدة متدهورة، وهو أمر فرض نفسه على برامج المرشحين للانتخابات، حتى الجمهوريين منهم»^(١).

(هـ) الأقليات المسلمة في أستراليا:

عدد المسلمين في أستراليا (٣٠٠) ألف مسلم، ويوجد في أستراليا خمس وخمسون جمعية إسلامية، وأكثر من (٣٥) مسجدًا ومركزًا إسلاميًا.

والمطلوب من الدول الإسلامية أن تتخذ بعض الإجراءات ضدّ الدول التي تضطهد الأقليات المسلمة.

أما ما تعانيه الأقلية المسلمة عند اليهود في فلسطين فله حديث آخر، وبتفصيل في غير هذا المجال.

(١) الوسط، مقابلة مع: نهاد عوض، المدير التنفيذي لمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية، بتاريخ (١٥ / ١٢ / ٢٠٠٣ م).

الأقليات العرقية والدينية في الوطن الإسلامي:

لقد اختلف الأمر جذرياً بعد سقوط الخلافة الإسلامية عام (١٩٢٤ م). وفي نظرة شاملة إلى العالم الإسلامي في القرن العشرين وبعد سقوط الخلافة أنه تحوّل إلى دويلات وطنية وقومية علمانية أو اشتراكية أو ليبرالية:

فما هي الأقليات في الدولة الوطنية؟

الأقليات العرقية: ففي ظلّ الدولة القومية والوطنية تعتبر الأكثرية قومية عربية، والأقليات المهمّة والبارزة على ساحة الوطن العربي هم الأكراد بين أربع دول عربية وإسلامية والبربر في الشمال العربي الأفريقي.

فالدولة الوطنية التركية، والدولة الوطنية الإيرانية، والدولة القومية العراقية، والدولة القومية السورية، تريد أن تُذيب هذه الأقليات، وتقضي على وجودها وأصولها. وهذا من التخطيط الاستعماري لتوزيع أرض العرب والإسلام إلى دويلات متنازعة، ورفض الاعتراف بالقومية الكردية كأمة لها حق تقرير المصير، مثل سائر الأمم.

لم يكن هذا الأمر قائماً في ظلّ الدولة الإسلامية، فالقوميات كلّها معترف بها في ظلّ الراية الإسلامية العثمانية، ولها حقوقها الكاملة، أما وقد أصبحت الدول قومية أو وطنية، فكلّ أقلية عرقية تريد أن تحافظ على وجودها وكيانها وذاتيتها، وتقاوم عمليات الإبادة والتذويب وتغير الهوية.

وما يقال عن الأكراد يُقال عن البربر كذلك، ومعاناتهم وثوراتهم في الجزائر والمغرب أمام عمليات الصهر القومي العربي، وإلغاء التاريخ القومي العرقي لهم، والثورات والتظاهرات والمواجهات للدول الحاكمة.

وما هي الأقليات في ظلّ الدولة العلمانية؟

الأقلية الإسلامية: فبعد أن كان المسلمون يمثلون الأكثرية في كلّ قطر عربي أو إسلامي، أصبحوا في ظلّ الدولة العلمانية أقلية مرفوضة، وكانت القوانين في معظم هذه الدول تصرّ على عدم السماح لقيام حزب على أساس ديني، وصارت المواجهة مفروضة بين الإسلاميين الذين يريدون تحكيم الشريعة في حياتهم، وبين العلمانيين الذين يريدون إلغاء الشريعة الإسلامية. لقد صار الإسلام غريباً على الأمة، وأصبح

العلمانيون يتحكّمون في السّلطة ويتحكّمون في القرار، ويرفضون الاعتراف بالوجود الإسلامي في دولهم، ويلاحقون دعاة الإسلام في كلّ مكان، ويزجّونهم في غياهب السجون، ويقودونهم إلى المقاصل، وينفونهم عن أوطانهم، وينزعون عنهم جنسيتهم الوطنية، وينطلقون من الديمقراطية العلمانية.

هذا الواقع المأساوي الذي حوّل الأكرية الإسلامية إلى أقلية تسعى لتحكيم الإسلام وتلاحق في كلّ مكان، وحوّل الأقليات العرقية من الأكراد والبربر إلى غرباء عن أوطانهم وأجانب على بلدّهم. وعليهم إن أرادوا أن يدخلوا في نسيج بلدّهم أن يتخلّوا عن انتمائهم العرقي.

وهذا هو الهدف الرئيس وراء إلغاء الخلافة الإسلامية، بينما نجد أنّ دولاً قامت بمئات الأجناس والأعراق والأديان تحت الراية البوذية في الهند، والراية الشيوعية في الصين والاتحاد السوفيتي من قبل، والراية الليبرالية في الولايات المتحدة الأمريكية، والراية الأوروبية في دول الاتحاد الأوروبي، وكذلك كان الأمر تحت الراية العثمانية. بينما يحرم ذلك على العرب والمسلمين، بعد توزّعهم بدداً وتفرّقهم شتى.

المنطلق العلماني في حقوق الإنسان:

المواثيق الدولية:

١ - الارتباط وثيق جدّاً بين الحديث عن المواثيق الدولية والأقليات، فالمواثيق الدولية في القرن العشرين هي نتاج حربين عالميتين طاحنتين، أنتجت الأولى عصبة الأمم المتحدة، وأنتجت الثانية جمعية الأمم المتحدة، وانتهت الحرب الأولى باقتسام أملاك الدولة العثمانية والاتفاق على توزيعها، وخرجوا بفكرة الانتداب الذي برروا به احتلالهم لهذه الدول، وبعد أن كرسوا الإقليميّة بها، أعطوها الحرية ظاهراً بحيث تقوم كلّ دولة بكيانها وحدودها، وفسحوا لها المجال بالانضمام إلى الأمم المتحدة.

٢ - ربع دول الأمم المتحدة دول إسلامية، أي ما ينوف عن خمس وخمسين دولة، والأصل أن تكون هذه الدول الخمس والخمسون دولة واحدة، كما أنّ الهندوس دولة واحدة هي الهند، والبوذيين دولة واحدة هم الصين، والشيوعيين دول عدّة بينهما أكبر دولتين في العالم الاتحاد السوفيتي سابقاً، والصين الشيوعية، ولو أنّ المسلمين دولة

واحدة لكانوا على الأقل واحدة من الدول الكبرى في العالم، كما كانت تركيا في بداية القرن العشرين، وكان لوجودهم أثر حاسم في التحكم في مصير العالم، إنهم خمس سكّان العالم، ومع ذلك هم على هامش هذا العالم. فُرضت إسرائيل رغماً عنهم، حيث قامت دولة اليهود في فلسطين، وشرّد الشعب الفلسطيني في الأرض، وهم عاجزون عن اتّخاذ أيّ قرار يخصّهم إذا لم ترّض الدول الكبرى عنه، فقضية كشمير، وقضية فلسطين، وغيرها من القضايا الإسلامية العالقة منذ خمسين عاماً، وتلك قضية البوسنة والهرسك عجزوا عن فرض أيّ قرار فيها، إلا القرار الذي اتّخذته أمريكا، وهذه قضية الشيشان، حيث يُذبح شعبٌ بأكمله، ودول العالم الإسلامي تعجز حتى عن توحيد رأي، بل اتّخاذ قرار.

٣ - وحين نذكر الدول الإسلامية السبع والخمسين، نذكر أنّ قرابة نصفهم دول عربية، أي أنّ الدول العربية في الأمم المتحدة اثنان وعشرون دولة، والأصل أن يكونوا دولة واحدة، فهم جنس واحد، وأغلبية دينه الإسلام، وكلّ مقوّمات وحدته قائمة، ولو كانت هذه الدول الاثنان والعشرون دولة واحدة، لأمكن أن تكون عضواً في مجلس الأمن قادراً على أن يتحكّم في السياسة الدولية.

لقد نجحت المؤامرة أيّما نجاح، وهمّشت العرب والمسلمين، ولم تُعطِ لكتلتهم أيّ وزن أمام الدّول الكبرى أعضاء مجلس الأمن الذين يتحكّمون في مصير العالم.

٤ - ولكي تبقى الدّول الصليبية الأوربية والأمريكية صاحبة القرار الوحيد في العالم، أنشأت مجلس الأمن. فما هو مجلس الأمن؟

« ينصّ ميثاق الأمم المتحدة على أنّ مهمّة مجلس الأمن في اتّخاذ الإجراءات نيابة عن المنظمة للحفاظ على السلام والأمن في العالم، وإذا دعت الضرورة يمكن لمجلس الأمن أن يفرض عقوبات صارمة على أيّ دولة من الدول، بغضّ النظر عن أنّ تلك الدولة عضو في الأمم المتحدة أم لا، وللمجلس صلاحية البتّ في الإجراءات، مثل قطع العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية، وإذا لم تفِ هذه الإجراءات بالغرض، فمن حقّه أن يقوم بإجراء مسلح ضدّ الطرف المعتدي، إلا أنّ الأمور في الواقع تختلف، فأيّ إجراء من الأنواع المذكورة أعلاه يستلزم أن يتفق عليه الأعضاء الخمسة الدائمون في المجلس، وهم: بريطانيا، والصين، وفرنسا، وروسيا (الاتحاد السوفيتي سابقاً)،

والولايات المتحدة، ولكن أحداث الأربعين سنة الماضية من تاريخ الأمم أثبتت أن هذه الدول كثيراً ما تختلف إلى حد بعيد حول النزاعات العالمية»^(١).

٥ - وعندما عرف المعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفيتي بخوض الحرب الباردة ضد المعسكر الغربي بقيادة أمريكا، أمكن لكثير من الشعوب المقهورة أن تستفيد من هذا الخلاف، وتنازلت استقلالها من استعمار الدول الغربية.

لكن بعد انهيار المعسكر الشيوعي بقيت الصين وحدها غير قادرة على مواجهة المعسكر الغربي، وأصبحت أمريكا تتحكم في مصير العالم وفي قرارات مجلس الأمن، ومع هذا فما يسمى بحق الفيتو لهذه الدول الخمس يجعل مصير العالم كله بيدهم، ويعطّل أي قرار يمكن أن يتخذ بالأغلبية، خمس دول تتحكم بمصير مائة وثمانين دولة بما يسمى حقّ الفيتو، وهو حقّ الاعتراض، وعندما تستعمل واحدة من الدول الخمس هذا الحقّ يسقط القرار، وليس للمعسكر الإسلامي والعربي أي وجود في هذه الدول الدائمة العضوية بمجلس الأمن، فالعالم لا يزال حتى اليوم بيد القطب الأحادي الأمريكي بعد أن كان موزعاً بين القطبين؛ الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، وتحاول أوروبا أن تقف على قدميها في إيجاد كيان ثابت لها أمام الهيمنة الأمريكية، ولكنها لم تفلح بعد. وأكبر أسباب فشلها هو تخاذل بريطانيا وانسحاقها دائماً في فلك الولايات المتحدة.

٦ - وأما ما يسمى بمحكمة العدل الدولية، فلا تزال حتى الآن نظرية أكثر منها عملية، وهي « التي أنشئت في عام (١٩٤٥ م) في لاهاي في هولندا، وتتألف من خمسة عشر قاضياً مداومين، ينتخب كل قاضٍ منهم لمدة تسع سنوات، ويجوز إعادة انتخابه، غير أنه لا يجوز أن يكون اثنان منهم في دولة واحدة، ويتم الانتخاب من جانب الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي.

إن فكرة وجود قاضٍ لدولة معينة عضواً في المحكمة على الدوام أمر ليس مقبولاً رسمياً، ولكن على الصعيد العملي فإنّ أربعاً من الدول الأعضاء الخمسة الدائمة في مجلس الأمن الدولي لها دائماً قاضٍ من رعاياها في المحكمة، وهذه الدول هي: أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا، ومعظم النزاعات لا يمكن أن تحال إلى المحكمة إلا إذا وافق الفرقاء المعنيون على ذلك، وقرارات المحكمة تعدّ ملزمة للفرقاء، وفي حالة رفض أحد

(١) المعلومات، الآفاق العالمية المتحدة (١٩٩٠م)، (ص ٦٣٤، ٦٣٥).

الفريقين تنفيذ القرار يجوز للفريق الآخر أن يطلب المساعدة من مجلس الأمن الذي باستطاعته من الناحية النظرية أن يقرر الإجراءات التي يجب اتخاذها لإعطاء مفعول لقرار المحكمة، ولكن المجلس لم يتصرف قطّ على هذا النحو طيلة الفترة اللاحقة لإنشائه سوى أنه في عام (١٩٩٠ م) اتخذ قرار استخدام كلّ السبل المتاحة لإخراج العراق من الكويت بعد احتلاله لها في ٢ أغسطس ١٩٩٠ م^(١).

وبما أن الدّعى لا ترفع للمحكمة إلا بموافقة الطرفين المتنازعين فيبقى الطرف الأقوى رافضاً للموافقة ومعتمداً على قوّته دون أن توجد أيّ قوة تجبره على الالتجاء للتحكيم.

٧ - وبمقدار ضعف فاعلية محكمة العدل الدولية، وكونها على هامش الحياة العالمية السياسية بمقدار فاعلية صندوق النقد الدولي وتحكمه في مصير العالم الاقتصادي، « فقد تأسّس في أعقاب الحرب العالمية الثانية لمراقبة نظام النقد الدولي في عالم ما بعد الحرب، ومساعدة الدول الأعضاء التي تصادف مصاعب اقتصادية، وبعد الحرب العالمية الثانية تقرر أن أفضل وسيلة للعمل على تحقيق الرخاء الدولي هي تشكيل نظام نقد دولي يضمن استقرار تبادل العملة، وهذا ما حقّقه الاتّفاقيات التي وضعت في بريتون وودنر في الولايات المتحدة؛ إذ تمّ الاتفاق على أسعار تبادل العملات الدولية الهامة في العالم بالنسبة للعملات الأخرى، وكذلك بالنسبة للذهب، وكان من مهمّة صندوق النقد الدولي أن يضمن الحفاظ على أسعار تبادل العملات لأطول فترة ممكنة، وأنّ تخفيض قيمة العملة أو رفع قيمتها يجب أن يكون منظماً، وأن لا يحدث إلا إذا اقتضت الضرورة القصوى.

وفي بداية السبعينيات استبدل نظام السعر الثابت للعملات بتعويم العملات؛ لأنّ الدور الأمريكي أصبح مرتفعاً ارتفاعاً كبيراً مقابل الذهب، وكانت حكومة الولايات المتحدة قد أصدرت عدداً كبيراً من الدولارات، لدرجة أنّها لم تعد تستطيع مواجهة جميع المطالب الأجنبية مقابل من احتياطي للذهب؛ لذا أوقف العمل بتحويل الدولار إلى الذهب، وخفضت قيمة الدولار، وطبقاً للنظام الجديد فإنّ أسعار تبادل العملة تعوّم بصورة حرّة مقابل بعضها، ويتحدّد سعرها بعوامل العرض والطلب في أسواق العملات

(١) المعلومات، الآفاق العالمية المتحدة (١٩٩٠ م)، (ص ٦٣٥).

الدولية، ومن حين لآخر تتدخل الحكومات ببيع أو شراء عملتها أو عملات أخرى في محاولة للتأثير على قيمتها. ما زال الصندوق نشطاً كمصدر للمال للأقطار التي تواجه مشاكل تتعلق بالمدفوعات الدولية، وكثير من المصارف تنتظر حتى يوافق صندوق النقد الدولي على صفقة معونة لدولة ما قبل أن تبدي هذه المصارف استعداداً لإقراض المال، والتمويل من الصندوق يهدف إلى مساعدة الدول التي تواجه مشاكل مؤقتة في المدفوعات بتقديم القروض ذات الشروط المحددة، ومع أن الشروط ليست سياسية في حد ذاتها، ولكن قد تكون لها عواقب سياسية، وتعتبر مثل هذه الشروط في كثير من الأحيان مكروهة، وينظر إليها على أنها تدخل خارجي لا مبرر له، ولكن الصندوق يعتبرها ضرورية لضمان تنظيم الحسابات المالية للدولة المعنية»^(١).

والحقيقة المرة اليوم بالنسبة لصندوق النقد الدولي، أن على الدولة التي تريد الاستفادة من الصندوق أن تخضع خضوعاً كاملاً لشروطه، وعليها أن تتبنى النظام الاقتصادي الحر، وتصبح في تبعيتها مستعمرة اقتصادية للنظام العالمي الجديد، وإلا فالحرمان جزاؤها، وعليها أن تعاني من ذلك أصعب المعاناة، والكثير من الدول الفقيرة اضطرت أن ترفع أمام هذه الشروط، وأمام تبني هذا الاقتصاد حتى لا تنفذ شعوبها من الجوع القاتل. لقد بلغ الظلم مبلغه حتى لنجد جريدة الحياة في صفحتها الأولى تكتب: الشرطة الأمريكية تعتقل (٦٠٠) من أعداء البنك الدولي، وتكتب تحت هذا العنوان: عقد مندوبو البنك الدولي وصندوق النقد الدولي اجتماعهم الدوري أمس متجاهلين الاحتجاجات الصاخبة والاشتباكات بين الشرطة والمتظاهرين الذين توافدوا إلى وسط واشنطن محاولين عرقلة الاجتماع، رافعين شعارات ضد العولمة الأمريكية، واعتقلت الشرطة حوالي (٦٠٠) متظاهر تقدّموا مسيرة غير مرخص بها، واستخدمت القنابل المسيلة للدموع والهرات لفرق المتظاهرين، وحصلت معظم الاشتباكات في محيط البنك الدولي وجامعة جورج تاون، واعترف بعض منظمي التظاهرات أمس بفشلهم في عرقلة الاجتماعات، وفي توحيد شعاراتهم، فبالإضافة إلى دعوتهم إلى محاربة العولمة وانعكاساتها السلبية على العمال والمزارعين والبيئة، ظهرت شعارات جديدة تطالب بإلغاء أحكام الإعدام، والدفاع عن حقوق الإنسان والحيوان، ورفع بعض المشاركين شعارات تدعو إلى رفع

الحصار عن العراق، ووقف تدخّل الولايات المتحدة في شؤون العالم الثالث»^(١). وكان آخر مؤتمراته في دافوس، حيث يعقد (٢١٠٠) من كبار الشخصيات الدولية في مجالي السياسة والاقتصاد^(٢).

وقد قامت مؤتمرات ضدّ منتدى دافوس العالمي الذي يمثل تيار البنك الدولي والاقتصاد الدولي، كان آخرها المؤتمر الذي عقد في بومباي: «نحن هنا اليوم؛ لأنّ مهمّتنا هي الدعوة لحقوق الإنسان، ولنجعل حلم العالم الأفضل ممكناً». هكذا افتتحت الإيرانية (شيرين عبادي) - الفائزة بجائزة نوبل للسلام - جلسات المنتدى الاجتماعي العالمي أمس في بومباي؛ العاصمة المالية للهند، ويضمّ المنتدى عشرات الألوف من الناشطين المناهضين للعولمة من كافّة أنحاء العالم. وتجري جلسات المؤتمر الرابع الذي يعقده المنتدى على مدى ستّة أيام تجري خلالها مناقشات، وتتصدر معارضة الاحتلال الأمريكي للعراق القضايا التي سيبحثها المنتدى الذي سيحضر فعالياته نحو (٨٠) ألف شخص من (١٥٠) دولة.. واعتبر الناشط الفلسطيني مصطفى البرغوثي أن من الصعب فصل الديمقراطية الاجتماعية عن الديمقراطية السياسية في عالم اليوم، وأضاف أن الصراع الفلسطيني لا يختلف عن الهندي والجزائري والفيتنامي والجنوب أفريقي.

٨ - حقوق الإنسان:

«إنّ ميثاق الأمم المتحدة الذي يرجع تاريخه إلى عام (١٩٤٥م) هو دستور عالمي.. وكان الاعتقاد واضحاً بعد الحرب العالمية الثانية أن الاعتداءات النازية على الكائن البشري وضدّ النظام السياسي الدولي يجب أن لا يتكرر أبداً.. وأسفر ردّ الفعل ضدّ العدوان النازي وإبادة الجنس عن عدّة إشارات في ميثاق الأمم المتحدة، أكثرها أهمية هي المادة (٥٥): من أجل خلق ظروف من الاستقرار والرفاهية الضروريين للعلاقة السلمية والودية بين الأمم القائمة على احترام لمبدأ الحقوق المتساوية، وتقرير مصير الشعب، فإن الولايات المتحدة سوف تعزز:

(أ) مستويات أعلى من المعيشة والعمالة الكاملة وظروف التقدّم الاقتصادي والاجتماعي والتنمية.

(١) الحياة (١٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٠م)، العدد (١٣٥٥٠)، (ص ٦٠١).

(٢) الحياة (٢/٢٥).

(ب) حلول للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والصحية والدولية وما يتصل بها؛
التعاون الثقافي والتعليمي الدولي.

(ج) احترام عالمي لحقوق الإنسان ومراعاتها، وحريات أساسية للجميع بدون
تفرقة بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين.

وإن هذه المادة الواحدة والطويلة بشأن حقوق الإنسان هي التي تشكل حجر الزاوية
لجهود الأمم المتحدة التالية لحماية حقوق الإنسان على أساس عالمي، هذه القاعدة
القانونية في شكل معاهدة ملزمة قبلتها كل دول العالم تقريباً من حيث المبدأ... وبسبب
الأسلوب العام في المادة (٥٥) فإنّ الدول في الأمم المتحدة سرعان ما تحولت إلى بذل
جهود لتحديد معناها، وكانت النتيجة الأولى هي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي
يعترف به عالمياً، والذي يحتفل به غالباً، والذي قرره الجمعية العامة للأمم المتحدة عام
(١٩٤٨ م) بدون أي صوت سلبي .

٩ - الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

والملاحظ أن المسلمين في العالم هم المحرومون من هذه الحقوق، إما من الدول
الكبرى التي تظفي مصالحها وعصبيتها الدينية الحاكمة عليها، وإما من الحكومات
المستبدّة التي تذبح هذه الشعوب. والتمسك بهذا الميثاق الدولي مهمّ جداً؛ لأنّه جزء
من الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان الذي أعلنه رسول الله ﷺ للبشرية في كتاب الله
وسنة رسوله في حجة الوداع، والميثاق مكوّن من ثلاثين مادة..

ديباجة: حيث إنّ الاعتراف بأنّ الكرامة الفطرية، والحقوق المتساوية وغير القابلة
للاتنقاص منها لكلّ أعضاء الأسرة الإنسانية هي أساس الحرية والعدالة والسلام في
العالم، وحيث إنّ تجاهل وازدراء حقوق الإنسان قد أدى إلى أعمال همجية أثارت
غضب ضمير الجنس البشري، وحلول عالم سوف تتمتع فيه الكائنات البشرية بحرية
الكلام والعقيدة، والتحرر من الخوف والحاجة قد أعلن باعتباره أعلى مطمح لعامة
الشعب، وحيث إنّ من الضروري إذا لم يجبر الإنسان على اللجوء كملجأ أخير إلى
الثورة ضدّ الطغيان والقمع، فإنّ حقوق الإنسان يجب أن تحمي بحكم القانون، وحيث
إنّ من الضروري تعزيز نموّ العلاقات الودية بين الدول، وحيث إنّ شعوب الأمم
المتحدة قد أكدت مرة أخرى في الميثاق إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية، وفي كرامة

وقيمة الشخص البشري، وفي الحقوق المتساوية للرجال والنساء، وعقدت العزم على التقدم الاجتماعي ومستويات أفضل من الحياة في حرية أكبر، وحيث إن الدول الأعضاء تعهدت بنفسها بأن تعمل بالتعاون مع الأمم المتحدة على تعزيز الاحترام العالمي لحقوق الإنسان والحريات الأساسية والتقيدها، وحيث إن الفهم المشترك لهذه الحقوق والحريات على أعظم قدر من الأهمية من أجل التحقيق الكامل لهذا التعهد، ومن ثم فإن الجمعية العامة الآن تعلن هذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان باعتباره مستوى مشترك من الإنجاز لكل الشعوب وكل الأمم من أجل غاية أن يحتفظ كل فرد وكل عضو من المجتمع بهذا الإعلان في ذاكرته باستمرار، وسوف يجاهد بالتدريس والتعليم لتعزيز الاحترام لهذه الحقوق والحريات، بواسطة إجراءات تدريجية وطنية ودولية للتأكد من الاعتراف والتقيدها بصورة عالمية وفعالة، سواء بين شعوب الدول الأعضاء أنفسهم في الأمم المتحدة، أو بين شعوب الأراضي التي تقع تحت الاختصاص القضائي لهذه الدول، المادة (١) ولدت كل الكائنات...»^(١).

١٠ - ولنا هذه الملاحظات السريعة على هذا الإعلان وديباخته:

(أ) لقد انتقص هذا الإعلان حق الأمم والشعوب في الاحتكام إلى شريعة الله المنزل؛ وذلك لأن واضعي هذا القانون جميعاً علمانيون يؤمنون بفصل الدين عن الدولة، فذكروا قناعاتهم متجاهلين القناعات البشرية الأخرى التي تؤمن بأن الله أنزل شريعة يحتكم إليها البشر في حياتهم، واكتفوا بالتعامل مع الدين عقيدة في القلب وكلمة على اللسان، وعبادة في المعبد، وحتى يزال النقص في هذا الإعلان لا بد من المادة (٣١) من حق كل فرد وكل شعب أن يحتكم إلى الشريعة التي أنزلها الله تعالى في كتبه على أنبيائه، وأن تكون لهذه الشريعة الهيمنة العليا على كل قانون بشري طالما أن الفرد أو الشعب ارتضى ذلك.

(ب) هذه الحقوق أكبر المحرومين منها هم المسلمون ودعاة الإسلام في الأرض، إما من طغيان وتجبر الدول العظمى، أو طغيان وتجبر الأنظمة المستبدة.

(ج) يمكن أن يكون التحفظ - وهو رأي اجتهادي - على المساواة التامة بين المرأة والرجل، وعلى تفسير الدين، وما سوى ذلك منطلقات إسلامية خالصة^(٢).

(١) حقوق الإنسان والسياسة الدولية، لدايفد. ب. فورسايت، ترجمة: محمد مصطفى غنيم (ص ٣١٩ - ٣٢٧).

(٢) كثير من الدول وقعت على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، المعتمدة من الأمم المتحدة، =

(د) نتمسك بهذه المواثيق الدولية، ونعصّ عليها بالنواجز؛ لنصل إلى هذه الحقوق التي حرّمتها عملياً، وأعطيناها نظرياً على الأوراق.

(هـ) إلى أن تقوم دولة الإسلام العالمية باختيار شعوب الإسلام، وتكون أحد أعضاء مجلس الأمن الدائمين فيه يمكن أن تعيد النظر في هذا الإعلان، بحيث تكون منطلقاته قائمة على أسس إسلامية من الله سبحانه، لا من من البشر أو منعهم أو إعطائهم، الله تعالى الذي قال: «يا عبادي، إنّي حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظالموا، يا عبادي، كلّكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلّكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أشقى قلب رجل واحد ما نقص في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا على صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيت كلّ واحد شأنه ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر، فمن عمل صالحاً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١). من الله ربّ العباد العليم الخبير الخالق الحاكم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

تطورات خطيرة في حقوق الإنسان:

«والحقيقة التي لا بدّ من إبرازها هنا هي أن هذه المؤتمرات خاصة المؤتمرات المتعلقة بالمرأة، ابتداء من المؤتمر العالمي الأول للمرأة»، وكان شعاره (رفع التمييز

=بتحفظات على بعض بنودها، بما في ذلك سورية، كما ورد في صحيفة تشرين (٦/١٢/٢٠٠٣ م)، المرسوم رقم (٣٣٠): «رئيس الجمهورية وبناءً على أحكام الدستور يرسم ما يلي: المادة (١) يصدق على انضمام سورية إلى اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، المعتمدة من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة بموجب قرارها رقم (١٨٠/٣٤)، المؤرخ في (٢٨/٢/١٩٧٩ م)، وذلك مع التحفظ على المادة (٢) والمادة (٩) الفقرة الثانية بمنح الأطفال جنسية المرأة، والمادة (١٥) الفقرة الرابعة بحرية التنقل والسكن، والمادة (١٦) البند الأول الفقرات: ج. ذ. و. ز. والمتعلقة بالمساواة في الحقوق، والمادة (١٦) البند الثاني حول الأثر القانوني لخطوبة الطفل أو زواجه؛ لتعارضهما مع أحكام الشريعة الإسلامية، وكذلك على المادة (٢٩) الفقرة الأولى المتعلقة بالتحكيم بين الدول في حالة حصول تنازع بينها. المادة (٢) ينشر هذا المرسوم في الجريدة الرسمية، دمشق، في (١٩/٧/١٤٢٣ هـ/ ٢٥/٩/٢٠٠٢ م).

(١) صحيح مسلم (ح ٦٧٣٧).

ضدّ المرأة^(١)، الذي انعقد في مكسيكوستي عام (١٩٧٥م)، سرورًا بمؤتمر كوبنهاغن عام (١٩٨٠م)، ومؤتمر نيرديي (١٩٨٥م)، ومؤتمر السكان والتنمية في القاهرة عام (١٩٩٤م)، ومؤتمر بكين (١٩٩٥م)، ووصولًا إلى مؤتمر إستمبول للإسكان والإعمار (١٩٩٦م)، تنطلق من أهداف محددة وتحكمها فلسفة واحدة، وتلتزم إستراتيجية طويلة المدى في تطوير وسائلها، وتستظلّ بمظلة الأمم المتحدة، وحراسة النظام العالمي الجديد، بكلّ ما يمتلك من قدرات مالية وخبرات إعلامية، وسلطان سياسي قاهر، قادر على أن يفرض ما يريد من قيم ومبادئ تعمل على نسخ ثقافات الشعوب الأخرى وحضاراتها. وتهميشها لتصبح جزرًا صغيرة في المحيط الكبير القائم على التسلط والإغراق الثقافي باسم العالمية، دون أن يمثل هذا النظام الذي تدّعي له العالمية شيئًا من المشترك الإنساني^(٢).

« ولعلّ أهم قضايا وثيقة مؤتمر السكان هي الربط بين زيادة السكان وبين الفقر واستحالة التنمية، وأن الحدّ من النمو السكاني هو الطريق الأمثل للتنمية وتحقيق الرفاه الاجتماعي والقضاء على الفقر، لذلك ترى أن السبيل إلى ذلك يتركز في:

١ - إباحة الإجهاض بجعله قانونيًا معتمدًا.. وقد حاول واضعو الوثيقة استخدام تعابير متعددة لإباحة الإجهاض؛ مثل: الحمل غير المرغوب فيه.. إنهاء الحمل، وتخفيف عواقب الإجهاض، الإجهاض غير المأمون.

٢ - تقديم المعلومات والثقافة الجنسية للمراهقين، وإباحة الممارسات الجنسية.

٣ - التشجيع على الممارسات التي تقع خارج نطاق العلاقات الشرعية.

٤ - إلغاء القوانين التي تحدّ من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسي، واعتبار ممارسة الجنس والإنجاب حرية شخصية، وليست مسؤولية جماعية. (انظر: تقارير حول الوثيقة، لرابطة العالم الإسلامي) «^(٣).

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أن مؤتمر السكان والتنمية الذي عقد بالقاهرة..

(١) والتي نشأ عنها الوثيقة الأنفة الذكر، والتي تبنتها الأمم المتحدة عام (١٩٦٧م)، ودعت الدول للتوقيع عليها.

(٢) من مقدمة الأستاذ عمر عيد لكتاب وثيقة مؤتمر السكان والتنمية، للدكتور الحسيني (ص ١٨).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٧، ١٨).

(أيلول ١٩٩٤م)، يُعدّ حلقة من سلسلة متصلة من المؤتمرات التي اتخذت طابعاً عالمياً.. وهذه المؤتمرات على تنوع طروحاتها، وتعدد أساليبها ترمي إلى ابتداع أنماط وأشكال جديدة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، تُحطّم الحواجز الأخلاقية، وتعارض القيم الدينية، وتُنشر الإباحية باسم الحرية، وتشجع على التحلل باسم التحرر، حيث لم يكتفِ واضعو البرامج لهذه المؤتمرات عند حدّ التشكيك في اعتبار الأسرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع، ومطالبة الوالدين بالتغاضي عن النشاط الجنسي للمراهقين عن غير طريق الزواج، واعتبار ذلك من الشؤون الشخصية، أو من الحرية الشخصية التي لا يحقّ لأحد أن يتدخل فيها، ولكنهم قفزوا فوق الكثير من الضوابط والقيم الدينية الأخرى أيضاً، ليقرروا بأنّ مفهوم الأسرة بالمفهوم الذي يشرعه الدين ليس إلا مفهوماً عقيماً، وقيداً على الحرية الشخصية؛ لأنّه لا يتقبل العلاقات الجنسية الحرة بين مختلف الأعمار، ويشترط أن تكون بين أنثى وذكر فقط، وضمن الإطار الشرعي، ولأنّه لا يمنح الشواذ حقهم في تكوين أسر بينهم.. لذلك حاولوا الترويج والإقرار لأنماط أسرية بديلة دون أي اعتبار للنواحي الشرعية والقانونية والأخلاقية؛ مثل زواج الجنس الواحد، والمعاشرة بدون زواج، وإعطاء الجميع حقوقاً متساوية..»^(١).

الأقليات في سورية:

لا بدّ أن نلقي ضوءاً على تركيبة المجتمع السوري، وتنوّع الأقليات العرقية والمذهبية والدينية فيه.

(أ) القوميات:

« ١ - العرب:

ويمثلون الأكثرية الساحقة من سكان سورية، وأكثر العرب في سورية متحضرون، وقليل منهم بدو رُحّل، ويسكنون المدن الهامة في سورية: دمشق، حلب، حمص، حماة، إدلب، دير الزور.

٢ - الأكراد:

وتزيد نسبتهم عن (٩٪) من سكان سورية، وهم أهمّ العناصر غير العربية شأنًا؛ لكثرة

(١) من مقدمة الأستاذ عمر عيد لكتاب وثيقة مؤتمر السكان والتنمية، للدكتور الحسيني (ص ١٢)، بتصرف.

عددهم، وتجمعهم في مناطق معينة، ولا سيما في محافظة الجزيرة، على الحدود مع تركيا.

كما يوجدون في بعض أفضية حلب (عفرين، وعين العرب)، وفي حيّ كبير من أحياء دمشق. وهناك مناطق أخرى، كقضاء الحفة، وغيرها. وهم عنصر أصيل في الأرض السورية، ويمثلون مع إخوانهم الأكراد في العراق وتركيا وإيران، ما يسمى كردستان فيما مضى، وقبل توزيع العرب دويلات شتى، وتوزيع الأكراد بين هذه الدول الأربعة، والأكراد عموماً مسلمون سنيون.

٣ - الجركس والداغستان والشاشان:

وهم مهاجرون من قفقاسيا من أواسط القرن التاسع عشر إلى ما بعد الثورة الشيوعية، ويسكنون في جنوب سورية في منطقة القنيطرة قبل احتلالها عام (١٩٦٧)، وفي بعض قرى دمشق شرقاً، وبعض قرى حمص، وبعض أفضية حلب. وكلّهم مسلمون سنيون.

٤ - التركمان:

وقد وجدت هذه الأقلية في محافظة اللاذقية نتيجة تقسيم الأراضي وتحديد الحدود بين سورية وتركيا، ويتكلّمون التركية القديمة، وهناك أقلية تركية مبعثرة في الأراضي السورية، كالموجودين في حيّ الصالحية في سفح جبل قاسيون، وفي قرية قلدون، وفي الجزيرة، وهم مسلمون سنيون.

٥ - الأقليات غير العربية وغير المسلمة، وأهمّهم الأرمن:

وهي أقلية قومية كثيرة العدد نسبياً في سورية، وقد هاجروا إلى سورية على دفعات متتالية منذ أكثر من نصف قرن على وجه التقريب، وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى، نتيجة تهجير الأتراك لعناصرهم المناوئة، وإبعادهم عن مواطنهم الأصلية، وهم موزّعون في أنحاء البلاد السورية، ومتكثّرون في بعض المناطق، كالجزيرة، وبعض قرى اللاذقية على الحدود التركية وفي مدينة حلب ودمشق.. ويدين الأرمن بالمسيحية.

٦ - السريان:

وهم غير الطائفة المسيحية الشرقية، فهؤلاء من أقدم الطوائف الشرقية المسيحية في البلاد، إنما المقصود بالسريان أولئك الذين هاجروا من تركيا على إثر حوادث واصطدامات، وسكنوا في سورية في عهد الانتداب الفرنسي، ولهم لغة خاصة بهم،

وشعور قومي خاص، ويسكن هؤلاء في الجزيرة، وهم أكبر أقلية مسيحية فيها، ولهم حيّ في مدينة حلب، يقع في جنوبها الغربي، ويسمى باسمهم (حي السريان).

٧ - ويمكن أن يُلحق بالسريان طائفتان قليلتا العدد والأهمية، وهما الكلدان يون والآشوريون:

وقد هاجروا من العراق إثر الحرب العالمية الأولى، وهم مسيحيون من الطوائف الشرقية القديمة^(١).

(ب) الأديان والطوائف:

« ١ - المسلمون السنيون:

وهم الأكثرية الغالبة من السكان؛ إذ تبلغ نسبتهم (٧١٪) أو تزيد قليلاً، والإسلام الذي دخل سورية في عهد الخلفاء الراشدين، وانتشر في عهد الأمويين، قد طبع البلاد بطابع قوي ظاهر في جميع نواحي الحياة، في المدن والأرياف، وهم يمثلون الأكثرية في المدن والأرياف، وأكثر هؤلاء السنيين من العرب، والباقيون من غير العرب، كالأكراد والجركس والتركمان. والمذهب السني هو السائد في التعليم.

٢ - العلويون:

وهم فرقة من غلاة الشيعة، عقائدهم تقوم على أساس حلول الألوهية في الإمام علي بن أبي طالب، وأنه خلق محمداً، وخلق محمد سلمان الفارسي، وهذه هي الأقاليم الثلاثة التي يرمز إليها بـ (ع. م. س)، ولهم سور خاصة بهم من صنع بشري، ويسقطون التكاليف الشرعية من صلاة وصوم وحج، ولهم أعياد خاصة بهم؛ إسلامية وفارسية ومسيحية. وهذه العقائد مكتومة إلا عن أبنائهم. وتبلغ نسبتهم في المجتمع السوري (١٠٪)، ويسكن أكثرهم في محافظة اللاذقية، وفي محافظتي حمص وحماة عدد كبير منهم، وتليهما محافظة دمشق إن لم تكن تفوقهما.

٣ - الإسماعيليون:

الإسماعيليون في سورية فئتان مختلفتان اختلافاً كبيراً، أما إحداهما فهي من فئة

(١) أخذ البحث باختصار شديد من كتاب: تركيبة المجتمع السوري، للأستاذ محمد المبارك - رحمه الله - (ص ٣٠-٤٧).

الشيعة المعتدلة، كالإمامية، وقد افترقوا عنهم في الإمام السابع، وهم لا يخرجون عن تعاليم الإسلام وعقائده المعروفة، ويقيمون شعائره من صلاة وصوم وغيرهما، وتسكن هذه الفئة غرب حماة وفي بعض أفضية حمص، وفي محافظة اللاذقية (ناحية الخواي، وناحية القدموس). أما الفئة الثانية من الإسماعيلية فهم من غلاة الشيعة والباطنية، تحللوا من جميع تعاليم الإسلام وشرائعه، ويعتقدون بألوهية آغا خان ونبيه.. ونسبتهم إلى المجتمع السوري (١٠٪)، ويسكنون في شرقي حماة في قضاء السلمية في مركز القضاء وقراه.

٤ - الجعفرية:

وهي الفرقة الشيعية المعروفة، والمنتشرة في بلاد الإسلام، ويختلفون عن جمهرة المسلمين السنيين في موضوع الإمامة، فالإمام عندهم من الاثني عشر لم يصل إلى مرتبة ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا يأخذون بالحديث إلا إذا كان مروياً عن أهل البيت. ونسبتهم في المجتمع (٤، ٠٪)، ويسكنون في قرى مناطق حلب وحمص، وفي مدينة دمشق، حيث يقيم رئيسهم الديني.

٥ - الدرّوز:

ويعتبرون الأقلية الطائفية التي تأتي بالدرجة الثانية بعد العلويين، ونسبتهم إلى المجتمع السوري (٣٪)، وهم متكثرون في مناطق معينة تقع على حدود لبنان والأردن وفلسطين، ويسكنون في الجبل المعروف باسمهم (جبل الدرّوز) جنوبي سوريا، وفي سفوح جبل الشيخ أو حرمون المتصل بلبنان. وقد انشقوا عن المسلمين في زمن الحاكم بأمر الله، الذي يعتقدون أنه مظهر للذات الإلهية، ولا يؤمنون بالحياة الآخرة، ويؤمنون بتناسخ الأرواح والحلول، ولا يعتقدون مطلقاً بنبوة محمد ﷺ، ولا يعترفون بأيّ شعيعة من شعائر الإسلام، ولهم معابد تسمى مجالس. ولا يلقبون دينهم إلا لمن تجاوز الأربعين من أبنائهم.

٦ - اليزيدية:

وهم عبدة الشيطان في محافظتي الحسكة وحلب، وليس لهم شأن يُذكر في عداد المجتمع السوري^(١).

(١) أخذت باختصار عن كتاب: تركيبة المجتمع السوري، للأستاذ محمد المبارك، مع تعديل طفيف في العقائد والمفاهيم التي لم تكن معروفة في أيامه - رحمه الله -.

٧ - المسيحيون:

لما فتح المسلمون الأولون من العرب بلاد الشام، لم يكرهوا الناس على تغيير دينهم، فبقي فيها عدد كبير من المسيحيين على دينهم، سواء العرب الذين كانوا مستقرين قبل الإسلام في البلاد، أو غيرهم من الساميين من سكان البلاد، ومن أقام من الروم البيزنطيين، ويؤلف المسيحيون في سورية مجموعة تبلغ نسبتها الثمن من مجموع السكان، وهم موزعون في المدن والأرياف على السواء. وللمسيحيين في سورية طوائف كثيرة يمكننا أن نرجعها إلى ثلاث:

أ - الأرثوذكس والطوائف الشرقية عامة.

ب - الكاثوليك.

ج - البروتستانت.

أ - الأرثوذكس: وهم ثلاث طوائف: الروم الأرثوذكس، السريان الأرثوذكس، الأرمن الأرثوذكس.

- الروم الأرثوذكس: وهم الطائفة الأكثر عددًا من بين الطوائف المسيحية؛ إذ يؤلفون (٧٠ ٪) من مجموع المسيحيين، كما أنهم من أقدم هذه الطوائف منشأً وتاريخاً، وهي الطائفة المنتشرة في شرقي أوروبا؛ في اليونان، وروسيا، ويوغسلافيا (سابقاً) .. وغيرها.

- السريان الأرثوذكس: هم المسيحيون السوريون القدماء الذين رأوا أن يفصلوا عن كنيسة بيزنطة ويستقلوا عنها، وعرفوا في التاريخ باليعاقبة. وكان يقيم بطريرك السريان الأرثوذكس في ماردين ثم في الموصل، وأصبح مقره الآن في حمص، ويتبعه سائر السريان الأرثوذكس في سورية والعراق، ولغتهم السريانية.

- الأرمن الأرثوذكس: وهم لا يختلفون عن سائر الأرثوذكس؛ حيث إن الكنيسة الأرثوذكسية مستقلة بقوميتها، فانتقلت الكنيسة بانتقال الأرمن إليها، ثم حدث خلاف لا يزال مستمرًا بين رئيسين يدعي كل منهما أنه بطريرك الأرمن، أحدهما في دمشق، والآخر في بيروت، ويمكن أن نلحق بالكنيسة الأرثوذكسية سائر الطوائف الشرقية، كالنسطوريين المعروفين بالآشوريين.

ب - الكاثوليك: (الروم الكاثوليك، السريان الكاثوليك، المارونيون، الأرمن).

- الروم الكاثوليك: وقد انفصلوا عن الروم الأرثوذكس؛ منذ ثلاثة قرون، وهم أكثر الكاثوليك عددًا، وقيم بطريركهم في دمشق، وينتقل ما بينها وبين الإسكندرية.

- السريان الكاثوليك: وأصلهم من الأرثوذكس، وتقربوا من روما منذ الحروب الصليبية، وانضموا منذ القرن الثامن عشر إلى المذهب الكاثوليكي، ويستعملون السريانية والعربية في صلواتهم.

- الموارنة: ويرجع تاريخهم إلى القرن الخامس الميلادي، وينسبون إلى (مارمارون)، وقد ظهرت كنيستهم مستقلة منذ القرن السابع للميلاد، والتجأ أكثرهم إلى لبنان على إثر الفتح الإسلامي، وتقربوا من كنيسة روما وانضموا إليها، ولكن لغتهم الدينية بقيت الآرامية، وقيم بطريركهم في (بكر كي) لبنان.

- اللاتين: أنشأ الصليبيون كنيسة في سورية، واعتنق بعض السوريين مذهبهم، وبقيت بذلك الكنيسة اللاتينية بعد ذهاب الصليبيين، والرئيس الأعلى يقيم في بيروت.

هذا وقيم أكثرية الكاثوليك في المدن السورية، وقليل منهم في الأرياف، ولهم مؤسسات ومدارس وجمعيات ومستشفيات.

ج - البروتستانت: وهي أحدث الطوائف المسيحية وأقلها عددًا، وقد ظهرت نتيجة التبشير الذي قامت به بعض البعثات الأجنبية من دانمركية وإيرلندية وإنكليزية وأمريكية منذ قرن تقريبًا، وأغلب أبناء هذه الطائفة في الأصل من الأرثوذكس الذين اعتنقوا المذهب البروتستانتي بتأثير التبشير والتعليم. ويميل أبناء هذه الطائفة إلى الأمم التي تدين بالبروتستانتية، كالإنجليز والأمريكان^(١).

٨ - اليهود:

وعدهم قليل جدًا بالنسبة للسكان، لهم حيّ خاص بهم في دمشق، وفي بعض المدن السورية، ونسبتهم (٩,٠ ٪) من السكان.

(١) أخذ البحث باختصار من كتاب: تركيبة المجتمع السوري، للأستاذ محمد المبارك (ص ٦٩ - ٧٩).

كيف كانت تُعامل الأقليات في العهد الإسلامي في سورية؟

الأقليات الدينية (النصارى واليهود):

لقد ابتدأ التعامل معهم منذ الفتح الإسلامي لدمشق من خلال الكتاب الذي كتبه خالد بن الوليد رضي الله عنه لأهل دمشق: « هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق؛ إذ دخلها أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية »^(١).

أما بقية سورية فـ « لما افتتح أبو عبيدة بن الجراح دمشق استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وعمر بن العاص على فلسطين، وشرحيل على الأردن، وأتى حمص فصالحها على نحو صلح بعلبك، ثم خلف بحمص عبادة بن الصامت الأنصاري ومضى نحو أهلها، فتلقيها أهلها مدعنين، فصالحهم على الجزية في رؤوسهم والخراج في أرضهم. فمضى نحو شيزر، فخرجوا يكفرون^(٢) ومعهم المقلسون^(٣)، ورضوا بمثل ما رضى به أهل حماة، وبلغت خيله الزراعة والقسطل »^(٤).

ومرّ أبو عبيدة بمعرة حمص.. فخرجوا يقلسون بين يديه، ثم أتى فامية ففعل أهلها مثل ذلك وأذعنوا بالجزية والخراج، واستتمّ أمر حمص، فكانت حمص وقسرين شيئاً واحداً... »^(٥).

وحدثني أبو حفص الدمشقي عن أشياخه قالوا: « افتتح أبو عبيدة اللاذقية وجبله وانظر طوس على يدي عبادة بن الصامت »^(٦).

« قالوا: ورحل أبو عبيدة إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري، فوجد أهلها قد تحصنوا، فنزل عليها، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، فأعطوا ذلك، فاستثنى عليهم موضع

(١) فتوح البلدان، للبلاذري (ص ١٢٨).

(٢) يكفرون: التكفير هو: وضع اليدين على الصدر، والانحناء خضوعاً واستكانة.

(٣) المقلسون: الذين يلعبون بين يدي الأمير إذا دخل البلد.

(٤، ٥) فتوح البلدان، للبلاذري (ص ١٣٧).

(٦) المصدر نفسه (ص ١٣٩).

المسجد. وكان الذي صالحهم عليه عياض، فأنفذ أبو عبيدة صلحه... وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية.. وكانت أنطاكية عاصمة الذكر والأمر عند عمرو بن عثمان، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة أهل نيات وحسبة، واجعلهم بها مرابطة»^(١).

قالوا: ولما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وإيقاع المسلمين بجنده، هرب من أنطاكية إلى القسطنطينية، فلما جاوز الدرب قال: عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدد (يعني أرض الشام؛ لكثرة مراعيها)^(٢).

إعادة الجزية عند خطر العدد:

« وحدثني أبو حفص الدمشقي قال: حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال: بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولا يتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم. ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم.. ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد.

فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإننا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين، فتحوا مدنهم، وأخرجوا المقلسين فلعبوا، وأدوا الخراج. وسار أبو عبيدة إلى جند قنسرين وأنطاكية ففتحها»^(٣).

كيفية معاملة الأقليات على امتداد التاريخ:

أبدى العرب تسامحاً تجاه المدن السورية، ولم يلبث جميع سكانها أن رضوا بسيادة العرب، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية، وأقبلوا على تعلّم اللغة العربية، وظلّت سورية بلداً عربياً إسلامياً كما كانت في أوائل الفتح العربي مع تداول كثير من الفاتحين لسيادتها بعد ذلك... واستردّت سورية أيام الحكم العربي ما أضاعته من الرخاء منذ زمن طويل، وبلغت درجة رفيدة من الرقي في العهد الأموي، والصدر

(١) فتوح البلدان، للبلاذري (ص ١٥٢، ١٥٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٤٢).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٤٣).

الأول من العهد العباسي، وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي. وترك العرب الناس أحراراً في أمور دينهم، وأظل العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاتين لحمايتهم. فقال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة...»^(١).

في الحروب الصليبية:

« ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون، وأن صبغته بما لم تعرفه ديانة - خلا اليهودية - بصبغة القسوة والجور. أجل، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير من عدم التسامح، ولكنه ندر أن كان عدم التسامح هذا يصل إلى حدّ الجلف والطغيان.

وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغاً من الحميا الشديدة في الحروب الصليبية ما لا يزال العالم يقاسي أثره إلى زماننا هذا. فلم يلبث رجال الدين الذين تعودوا سفك الدماء أن صاروا ينشرون المعتقد، ويبيدون أصحاب البدع على الطريقة التي كانوا يبيدون بها الكافرين، ويرون أنه يجب إخمداد أقلّ انحراف بأفطع تعذيب.

ومن نتائج ما نما في الحروب الصليبية من روح عدم التسامح المشؤومة، ما حدث من ذبح اليهود والألبيجوا، وكلّ ذي بدعة، ومن إنشاء محاكم التفتيش، ومن الحروب الدينية، ومن الحروب الوحشية التي ضرجت أوربة بالدماء زمناً طويلاً»^(٢).

في ظلّ الدولة العثمانية:

كان انضمام الشام للدولة العثمانية عام (١٥١٨ م)، واستمرت تحت الحكم العثماني أربعة قرون حين دخل الجيش العربي الشام، وأسقط العلم العثماني عام (١٩١٨ م)، وكان وضع الأقليات في القرنين الأولين من الحكم، خاصة الأقليات الدينية من النصارى واليهود، لهم امتيازاتهم الخاصة بصفاتهم أهل الذمة، ويتمتعون بحرية تامة في أمورهم الدينية وأحوالهم الشخصية. أما الأقليات الطائفية فقد تعرّضت لمواجهات عنيفة مع الدولة ألجأتهم إلى السكن في الجبال التي عرفت باسمهم: جبال النصيرية وجبل الدروز. أما القرنان الأخيران من الحكم العثماني، فقد رافقهما تدخل الدول الأوربية في شؤون الأقليات.

(١) حضارة العرب، لغوستاف لوبون (ص ١٥٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٣٥).

وقامت الإرساليات التبشيرية بدورها في تعميق الهوة والخلاف بين أبناء الأمة، « وهكذا نلاحظ أن الجمعيات التبشيرية التي انتشرت في الدولة العثمانية معظمها إنجليزية وفرنسية وأمريكية، وتغلغل النفوذ الفرنسي والبريطاني عن طريقها، وأصبحت هي الموجهة للحركات القومية والمسيطرة على توجيه المتعلمين من المسلمين العرب والأتراك، وكانت تستهدف: ١/ فصل العرب عن الدولة العثمانية. ٢/ إبعاد المسلمين عن رابطة الإسلام. وجاء إنشاء هذه الجمعيات نتيجة لما عاناه الأوروبيون في الحروب الصليبية بعد أن خذلهم نصارى العالم الإسلامي. ولم تنفعهم قوة أوربة في مواجهة الإسلام والمسلمين، بل إن المستر بن روزا الذي تسلم رئاسة الجامعة الأمريكية عام (١٩٤٨ م) قال: لقد كشف الاختبار عن أن التعليم أقوى وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان»^(١).

« ثم بدأت الفتنة بين المسلمين والنصارى والدروز (١٨٤١ م) عقب انسحاب إبراهيم باشا بيوم واحد، وبضغط من أوربة وضع العثمانيون لجبل لبنان نظاماً خاصاً، وقُسم قسمين لمنع الاحتكاك بين الدروز والمسيحيين، واستمر إشعال الفتنة لانحياز الإنجليز لجانب الدروز، والفرنسيين لجانب المسيحيين الموارنة. وعادت الاضطرابات.. واتسعت الفتنة في تموز (١٨٦٠ م)؛ حيث هاجم مسلمو دمشق حيّ النصارى، وأوقف العثمانيون الفتنة بالقوة، لكنّ الغرب لم يشأ أن يضيع الفرصة، فنزلت حملة برية فرنسية في بيروت، ومنح لبنان على إثر ذلك امتيازات خاصة ونظام محلي للإدارة على رأسها حاكم مسيحي»^(٢).

- المشروطة العثمانية:

وهو الدستور العثماني الذي أعلن عام (١٨٧٦ م) قبل قرن وثلث من اليوم. وقد طبق على سوريا كما طبق على غيرها من الولايات. ومن أهم بنوده:

« المادة (٨): يطلق لقب عثماني على كلّ فرد من أفراد التبعة العثمانية بلا استثناء من أيّ دين أو مذهب كان، ويسوغ الحصول على الصفة العثمانية وفقدانها بحسب الأحوال المعنية في القانون.

(١) صحوة الرجل المريض، للدكتور موفق بني المرجة (ص ١٦٨).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٦٨، ١٦٩).

المادة (٩): إنّ جميع العثمانيين متمتعون بحريتهم الشخصية، وكلّ منهم مكلف بعدم تجاوزه حقوق غيره.

المادة (١٠): إنّ الحرية الشخصية هي مصنونة من جميع أنواع التعدي، ولا يجوز إجراء مجازاة أحد بأيّ وسيلة كانت إلاّ بالأسباب التي يعينها القانون.

المادة (١١): إنّ دين الدولة العثمانية هو الدين الإسلامي، ومع مراعاة هذا الأساس وعدم الإخلال براحة الخلق والآداب العمومية، تجري جميع الأديان المعروفة في الممالك العثمانية بحرية حماية الدولة، مع دوام الامتيازات المعطاة للجماعات المختلفة كما كانت عليه.

المادة (١٧): إنّ العثمانيين جميعهم متساوون أمام القانون، كما أنهم متساوون كذلك في حقوق ووظائف المملكة، ما عدا الأحوال الدينية والمذهبية.

المادة (١٨): يشترط على التبعة العثمانية معرفة التركية التي هي اللغة الرسمية؛ لأجل تقلد مأموريات الدولة.

المادة (١٩): إنّ تكاليف الدولة تطرح وتوزع بين جميع التبعة بحسب اقتدار كلّ منها وفقاً لنظوماتها المخصوصة.

المادة (٤٧): إنّ أعضاء المجلس العمومي (النيابي) أحرار يبرز آرائهم وأفكارهم، ولا يقيد أحد منهم بوعده أو تهديد ما، ولا يرتبط بتعليمات البتة، ولا يجوز إلقاء التهمة على أحد منهم بوجه من الوجوه بسبب إبراز آرائه أو بيان أفكاره بإثناء مفاوضات المجلس...»^(١).

لقد أعلنت الحرية والعدالة والمساواة في الدولة العثمانية، وتساوى الجميع في الحقوق والواجبات، وبقي لأهل الذمة امتيازاتهم السابقة، كما نصّت المادة (١١) على ذلك، والأصل أن تكون قضية الأقليات قد عولجت في الدولة الإسلامية العثمانية.

في الدولة الفيصلية:

وهي أول دولة سورية بعد الاستقلال عن الدولة العثمانية، تجاوزت موضوع الأقليات في الدستور من خلال النص على المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات:

(١) صحوة الرجل المريض، للدكتور: موفق بني المرجة، موادّ موزعة في الصفحات (٤٣٨ - ٤٤٠).

« المادة (٩) : يطلق لقب (سوري) على كل فرد من أهل المملكة السورية العربية، ويسوغ الحصول على الجنسية السورية وفقدانها بحسب الأحوال التي يعينها قانون التابعة.

المادة (١٠) : السوريون متساوون أمام القانون في الحقوق والواجبات.

المادة (١١) : الحرية الشخصية مصونة من كل تعدٍّ، ولا يجوز توقيف أحدٍ إلا بالأسباب والأوجه التي يعينها القانون.

المادة (١٣) : لا يجوز التعرض لحرية المعتقدات والديانات، ولا منع الحفلات الدينية لطائفة من الطوائف، على أن لا تخلّ بالأمن، أو تمسّ بشعائر الأديان والمذاهب الأخرى.. «^(١).

الأقليات في عهد الاحتلال:

كان دخول الفرنسيين إلى سورية فرصة للأقليات للتعبير عن رغبتها في الاستقلال والانفصال، وكان هذا يخدم الفرنسيين خدمة جليلة، فالتقت الأهداف، ومزقت سوريا إلى أربع دول:

١ - انفصال دولة حلب:

« جاء في العدد (١٥٥) من جريدة العاصمة؛ الجريدة الرسمية الصادرة في (١٦ أيلول سبتمبر سنة ١٩٢٠ م) بشأن فصل حلب عن دمشق، وجعلها حكومة مستقلة، ما يلي:

من القائد كاتر ورئيس البعثة الفرنسية إلى دولة رئيس الوزراء دمشق:

أتشرف بأن أحيطكم علماً بأن فخامة الجنرال غورو المندوب السامي قد اتخذ قراراً بتاريخ أول أيلول، بجعل ولاية حلب حكومة مستقلة مركزها حلب، تنفيذاً لأمني أهالي الولاية التي أيدوها بحرية، ولوضع حدٍّ لإدارة مركزية تعرقل إدارة حكومة دمشق. وقد ألحق سنجق إسكندرونة بهذه الحكومة الجديدة مع حفظ استقلاله الإداري. وتفضلوا يا دولة رئيس الوزراء بقبول فائق احترامي «^(٢).

(١) الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية، لرئيس وزراء سوريا الأسبق (حسن الحكيم)، (ص ١٩٥)، (١٩٦) .

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٥٣) .

٢ - دولة العلويين:

« إنَّ الجنرال غورو المندوب السامي للجمهورية الفرنسية في سورية... ولما كان العلويون ما بينهم من الأقليات قد صرّحوا جلياً ومراراً بآمالهم بأن تكون لهم إدارة قائمة بذاتها تحت رعاية فرنسوية، لأجل ذلك يجب أن تنشأ مقاطعة تجمع أكثرية هؤلاء الأهلين ليتيح لهم أن يواصلوا السعي في سبيل مصالحهم السياسية والاقتصادية تحقيقاً للأمان التي صرّحوا بها. من أجل تلك الأسباب قد قرر:

- المادة الأولى: أنشئت تحت اسم مقاطعة العلويين دائرة إدارية تتألف مما يلي:

- ١ - من سنجد اللاذقية ما عدا قضاء جسر الشغور ومديريات بو جالس وباهر.
- ٢ - من سنجد طرابلس ما عدا البقاع التي لحقت بلبنان الكبير، وذكرت في القرار رقم (٣١٨) المؤرخ (٣ آب - أغسطس سنة ١٩٢٠) الذي يعين حدود تلك الدولة.
- ٣ - قضاء مصيف (عمرانية) الذي ألحق بسنجد اللاذقية بموجب القرار رقم (٣١٧) المؤرخ في (٣١ آب أغسطس).

- المادة الثانية: عينت حدود مقاطعة العلويين كما يلي: شمالاً: حدود مديريات بوجاك وباهر.. شرقاً: حدود قضاء جسر الشغور.. جنوباً: حدود دولة لبنان الكبير. غرباً: البحر المتوسط.

- المادة الثالثة: يوضع هذا القرار موضع التنفيذ اعتباراً من (١ أيلول - سبتمبر ١٩٢٠م)»^(١).

٣ - دولة جبل الدروز:

استمال الفرنسيون في زمن الحكومة الفيصلية بما بذلوه لهم من أموال وافرة، وبعد أن احتلّوا البلاد وانصرفوا إلى تنظيم الحكم في سورية دارت بينهم وبين شيوخ الجبل مباحثات بالاتفاق على النظام الإداري الذي ينفذ في جبلهم. فعقد الدروز في (كانون الأول ١٩٢٠م) مؤتمراً اتخذوا فيه قرارات بشأن استقلال الجبل استقلالاً داخلياً، وقد حملها وفد إلى دمشق برئاسة سليم الأطرش لإبلاغها إلى السلطة الفرنسية، فدارت

(١) الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية، لرئيس وزراء سوريا الأسبق (حسن الحكيم)، (ص ٢٥٤، ٢٥٥).

بينهما مفاوضات انتهت باتفاق (٤ آذار ١٩٢١ م)، الذي تضمن إنشاء حكم وطني في الجبل، وفي (٢٥ نيسان ١٩٢٢ م) أعلن استقلال جبل الدروز رسمياً^(١):

٤ - دولة دمشق:

« بعد أن دخلت الجيوش الفرنسية دمشق في (٢٥ تموز ١٩٢٠ م)، واستتب الأمر للجنرال غورو المفوض السامي الفرنسي فيها، تم تقسيم البلاد إلى دويلات؛ هي: دولة لبنان الكبير، ودولة دمشق، ودولة حلب، ودولة العلويين.. وفي (٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ م) أنهى الجنرال غورو مهمة السيد الألشي رئيس مجلس الوزراء، وعين مكانه اعتباراً من (أول كانون أول ١٩٢٠ م) السيد حقي العظم، الذي أصدر من توه قراراً بقلب الوزارات إلى مديريات، ولقب نفسه بحاكم دولة دمشق، فأقر الفرنسيون ما وقع.. »^(٢).

وتطوّرت الأمور بعد ذلك إلى ما يلي:

١ - ليس هناك أية وثيقة تثبت رغبة المواطنين في حلب ودمشق بالانفصال عن بعضهم، بينما تمت دولة العلويين بالاتفاق مع الأهالي، وكذلك دولة الدروز.

٢ - في عام (١٩٢٠ م) وعن التقسيم إلى دويلات لم تكن دولة الدروز جزءاً من المخطط، إنما تم تأسيسها عام (١٩٢٢ م) بناءً على المؤتمر الذي عقده الدروز، وطالبوا فيه بالانفصال عن دولة دمشق، وتكوين دولة مستقلة كما رأينا في تأسيسها من قبل.

٣ - ولأنّ الانفصال بين دمشق وحلب كان مفروضاً على الشعب، فقد قامت المقاومة السياسية لإلغاء هذا الانفصال، « وقابلت الأمة التجزئة التي أقدم عليها الفرنسيون بأشدّ مظاهر الاستياء والاستنكار... ورأى الجنرال غورو أن يعدّل مشروع التجزئة تعديلاً ظنّ أنه يرضي الشعب، فأصدر يوم (٢٨ يونيو سنة ١٩٢٢ م) قراراً بإنشاء اتحاد بين دول دمشق وحلب والعلويين، جاء في المادة الأولى منه أنه قد أنشئ اتحاد بين الدول السورية المؤلفة من دولة حلب ودولة دمشق وأراضي العلويين المستقلة... ».

٤ - لم يعيش الاتحاد السوري طويلاً؛ لأنّه لم يرض الشعب السوري الذي ظلّ يواصل الاحتجاج مطالباً بالوحدة الصحيحة وبالحكم النيابي الديمقراطي الحر، وبلاستقلال الكامل، فلم يرَ الجنرال فيجان - وهو الذي خلف الجنرال غورو - بدءاً

(١) الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية، لرئيس وزراء سوريا الأسبق (حسن الحكيم)، (ص ٢٥٧).

(٢) المصدر نفسه.

من إلغائه، فأصدر يوم (٥ ديسمبر ١٩٢٤ م) قرارًا بإلغاء الاتحاد السوري وإنشاء وحدة بين دولة دمشق ودولة حلب، وإبقاء حكومة العلويين في خارج الدولة الجديدة، وهذا نصّ قراره:

« تتحد دولتا حلب ودمشق، اعتبارًا من (أول يناير سنة ١٩٢٥ م)، وتؤلّفان دولة واحدة تسمى الدولة السورية، تؤلف الدولة السورية ضمن الحدود الحالية لدولتي دمشق وحلب دولة مستقلة عاصمتها دمشق... ».

٥ - بعد صمت طويل وتسويق وتأجيل استمرّ أربع سنين، وبعد سفرات متعددة إلى باريس، أصدر المسيو بونسو المفوض السامي الفرنسي في (١٤ أيار ١٩٣٠ م) قرارًا تحت رقم (٣١١١) بنشر دستور سوريا الجديد، كما أصدر معه بنفس التاريخ قرارات بنشر النظام الأساسي للواء إسكندرون. والقانونين الأساسيين لحكومتَي اللاذقية وجبل الدروز والنظام الأساسي. وقد أقرّت هذه المجموعة من القرارات خطة التجزئة التي سارت عليها فرنسا وثبتتها في نصوصها.

٦ - بعد أن بلغت حركة النضال في البلاد في مطلع عام (١٩٣٦ م) ذروتها في الشدّة في سبيل الاستقلال والوحدة، وبعد أن استمرّ إضراب دمشق خمسين يومًا احتجاجًا على أعمال العنف التي تقوم بها فرنسا، لم يجد المفوض السامي الفرنسي بُدًا من مفاوضة الوطنين من أجل عقد معاهدة مع سورية... ووقع في بيروت اتفاقًا مع هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية ينصّ على موافقة الحكومة الفرنسية على استقبال وفد رسمي للمفاوضة.. وسافر الوفد في (٢١ آذار ١٩٣٦ م) إلى باريس، ومكث فيها إلى شهر (أيلول ١٩٣٦ م)؛ حيث وقع في اليوم التاسع منه على المعاهدة التي تنهي الانتداب، وتضمن لسوريا استقلالها، وإن كان استقلالًا تشوبه بعض الشوائب، وذلك مع ضمّ منطقتي اللاذقية وجبل الدروز إلى الوحدة السورية ضمن إطار إداري ومالي خاص بهما.

٧ - عندما شعر العلويّون أنّ فرنسا يمكن أن توافق على انضمام دولة العلويين إلى الدولة السورية، وبعد ثلاثة أشهر من صيغة المعاهدة المقترحة، رفع زعماء الطائفة خطابًا يرجون به فرنسا ألا تضمهم إلى الدولة السورية.

« ففي سجلات وزارة الخارجية الفرنسية وثيقة تحت رقم (٣٥٤٧) تاريخ

(١٥/٦/١٩٣٦م)، تتضمن الوثيقة عريضة رفعها زعماء الطائفة في سورية يطلبون فيها عدم إنهاء الانتداب الفرنسي لسورية.

نص الوثيقة: دولة ليون بلوم رئيس الحكومة الفرنسية.

إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس - هو شعب يختلف في معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم - السني - ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل.

إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على عدم إرسال المواد الغذائية لإخوانهم اليهود الطيبين الذين جاؤوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام، ونشروا على أرض فلسطين الذهب والرفاه، ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة. ومع ذلك أعلن المسلمون ضدّهم الحرب المقدّسة بالرغم من وجود إنجلترا في فلسطين، وفرنسا في سوريا.

إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري، ورغبته في تحقيق استقلاله، ولكن سورية لا تزال بعيدة عن هذا الهدف الشريف، خاصة لروح الإقطاعية الدينية للمسلمين.

ونحن الشعب العلوي الذي مثله الموقعون على هذه المذكرة نستصرخ حكومة فرنسا ضماناً لحريته واستقلاله، ويضع بين يديها مصيره ومستقبله، وهو واثق أنه لا بدّ واجد لديهم سنداً قوياً لشعب علوي صديق، قدّم لفرنسا خدمات عظيمة.

الموقعون: محمد سليمان الأحمد، محمود آغا حديد، عزي آغا غواش، سلمان المرشد، محمد بيك جنيد، سليمان الأسد.

٨ - قرار المفوض السامي الفرنسي تاريخ (١ تموز سنة ١٩٣٩م)، ورقم (١٣٢) ل، والمتضمن إعادة منطقة اللاذقية إلى ما كانت عليه قبل معاهدة أيلول (٩٣٦) بعد أن نكلت فرنسا أخيراً عن إبرام المعاهدة المذكورة، وقرار المفوض السامي الفرنسي تاريخ (١ تموز سنة ١٩٣٩م)، ورقم (١٣٣) ل، والمتضمن إعادة منطقة جبل الدروز إلى ما كانت عليه قبل معاهدة (أيلول ١٩٣٦م) بعد أن نكلت فرنسا أخيراً عن إبرام المعاهدة المذكورة.

٩ - بعد جهاد شاق، وكفاح مرير، وتضحيات غالية في الأموال والأنفس أرغمت سورية فرنسا على التخلي عن انتدابها والاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة، وذلك

في خطاب ألقاه الجنرال كاترو والمندوب العام لفرنسا الحرة في مهرجان أقيم في دار الحكومة في (٦ رمضان المبارك ١٣٩٠هـ، و ٢٧ أيلول ١٩٢١م) بحضور رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين الحسيني، ورئيس الوزراء السيد حسن الحكيم. « وعلى إثرها صدر قرار المندوب العام الفرنسي تاريخ (١٢ كانون ثاني ١٩٤٢م)، ورقم (٢٢) بشأن إعادة محافظة جبل الدروز كجزء متمم لدولة سورية، وقرار المندوب العام لفرنسا الحرة في (١٢ كانون ثاني ١٩٤٢م)، ورقم (٢٣) بإعادة محافظة اللاذقية إلى الوطن الأم كجزء متمم لدولة سورية ».

ولنا بعد هذا العرض الواقعي أن نقدم الملاحظات التالية:

١ - يكاد يكون عهد الاحتلال عهد انفصال للأقليتين (الدرزية والعلوية) عن جسم الأمة، وعن استقلال ذاتي أو كامل عنها، من خلال رغبة مشتركة من فرنسا، ومن أبناء هاتين الطائفتين أو أكثريتهما على الأقل.

٢ - واشترك الدروز في الثورة السورية عام (١٩٢٥م) بقيادة سلطان باشا الأطرش، إنما كان ردًا على إهانة شخصية وجهت له من جهة، ونقضًا لموعدهم فرنسي للدروز أن يكونَ الحاكم محليًا، فخالفوا هذا الاتفاق، وعينوا الكابتن كاراييه حاكمًا بالوكالة عام (١٩٢٣م) نتيجة التنافس بين آل الأطرش على السلطة، وثار الدروز كذلك على الفرنسيين لأسباب تتعلق بأوضاعهم وتقاليدهم.

٣ - « أن الكنيسة الأرثوذكسية لسبب صبغتها الشرقية وقدم تاريخها كانت أكثر تغلغلًا وانتشارًا في البلاد السورية، وأكثر مشاركة في الحركات الوطنية، وأكثر تأثرًا وتجاذبًا مع الحركة العربية منذ عهد العثمانيين. وقد برز عدد من رجالهم في الميادين الوطنية والسياسية، وإن لم يشاركوا في الثورات مشاركة عملية »^(١).

٤ - « وأكثرية الكاثوليك في سورية يقيمون في المدن.. كما أنهم يستفيدون ويتعاونون مع المؤسسات الأجنبية الكاثوليكية، كمدرسة الآباء، وراهبات الفرنسييسكين والفلبين الأقدسين، والأخوة المريميون، وجلّها في حلب ودمشق، وهي على الغالب فرنسية وإيطالية.. ولللكاثوليك عطف خاص على الأمم اللاتينية »^(٢). وكانت فرنسا تتبنى

(١) تركيبة المجتمع السوري، للأستاذ محمد المبارك (ص ٧١، ٧٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٧، ٧٨).

- حمايتهم في العهد العثماني، وتعاونوا مع الفرنسيين في العهد الوطني ضدّ الثوار.
- ٥ - « للأكراد ماضٍ ناصع من الناحية الوطنية؛ إذ كانوا دومًا من العناصر التي اشتركت في الحركات الوطنية ضدّ الاستعمار، واشترك كثير منهم في الثورات التي قامت ضدّ الفرنسيين، ولم يستطع المستعمر في أيّ يوم من الأيام أن يفصلهم عن المجتمع العام الذي يعيشون فيه. ولا شكّ أن للدين أثره العميق في هذه الناحية »^(١).
- ٦ - انخرط عدد كبير من الأرمن في الجيش الفرنسي، وشاركوا في قمع الثورة الوطنية.. كما أن السريان الوافدين كانوا هم قوام الجيش الفرنسي في الجزيرة في عهد الانتداب، ولا يزال عدد منهم يتقاضى راتبًا تقاعديًا عن خدمته في ذلك العهد.
- ٧ - كان الصراع محتدمًا بين الإسماعيليين والنصيريين، وقاد الشيخ صالح العلي قومه العلويين لمواجهة الإسماعيليين، وكانت فرنسا تؤيد الإسماعيليين، وإنجلترا تؤيد النصيريين، فاصطدم العلي مع الفرنسيين نتيجة هذه الحرب. وعندما صدر العفو عنه بقي متواريًا حتى تأسست دولة العلويين المستقلة بالاتفاق بينهم وبين فرنسا.
- ٨ - سلمان بن مرشد بن يونس علوي متأله من النصيرية من قرية - جوبة برغال - بدأت سيرته عام (١٩٢٠ م)، وسجن سنة (١٩٢٣ م)، ونفي إلى الرقة حتى سنة (١٩٢٥ م)، وعاد من منفاه، وتزعم أبناء نحلته - النصيرية - وكانت الثورة أيام عودته قائمة على الفرنسيين، وانتهت بتأليف حكومة وطنية لها شيء من الاستقلال الداخلي، فاستماله الفرنسيون واستخدموه، وجعلوا البلاد - العلويين - نظامًا خاصًا، فقويت شوكتهم، وتلقب بـ (رئيس الشعب العلوي الحيدري الغساني)... وكان خلال ذلك يزور دمشق نائبًا عن العلويين في المجلس النيابي السوري، فلما تحررت سورية وجلا الفرنسيون عنها، ترك هؤلاء له من سلاحهم ما أغراه بالعصيان، فجردت حكومة سوريا قوة فتكت ببعض أتباعه، واعتقلته مع آخرين، ثم قتله شنقًا في دمشق^(٢).
- ٩ - لا ننفي أبدًا أن كثيرًا من ضعاف النفوس من السنة كانوا يتعاونون مع فرنسا ضدّ شعبهم وأمّتهم، ولكنهم لا يمثلون الجمهور العام للسنة.

(١) تركيبة المجتمع السوري، للأستاذ محمد المبارك (ص ٣٤).

(٢) المصدر نفسه (ص ٤١ و ٤٣).

الأقليات في عهد الاستقلال:

جاء الدستور السوري عام (١٩٤٩م) مؤكداً على المساواة التامة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، ومؤكدًا على النظام البرلماني الديمقراطي، وعاشت سورية قرابة عشرين عامًا في ظلّ هذا النظام وما تخلّله من الانقلابات العسكرية الخمسة. وبرزت الحياة السياسية من خلال الأحزاب الوطنية، والأحزاب القومية، لا وجود لذكر الأقليات، ولم يحرم مواطن حقه لانتسابه الطائفي، وكانت الصراعات حزبية بحتة، بغض النظر عن أصلها الطائفي، حتى جماعة الإخوان المسلمين التي قامت على أساس ديني لم تعترض على هذه المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

يقول الدكتور السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية: «إنّ هذه البلاد أحبت النظام الجمهوري واعتنقته واعتقدت بصلاحه، وإننا نعلن بكلّ إيمانٍ وصراحة ووضوح بأننا لا نريد عن النظام الجمهوري بديلاً، إننا نريد لوطننا نظاماً شعبياً يقوم على إرادة الشعب، وتتمثل فيه إرادة الشعب»^(١).

كما يقول: «المواطنون متساوون في الحقوق، لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة».

وقد وقع استثناءان في عهد الاستقلال، ظهرت فيهما الطائفية البغيضة:

الاستثناء الأول: ما قام به الزعيم أديب الشيشكلي من ضرب جبل الدروز، ومن ضرب جبل العلويين، وقتل معجب المرشد، الذي ادّعى الألوهية بعد أبيه. ولا شك أن هناك أسباباً كامنة لذلك، ومع هذا فلا يحمل العهد الديمقراطي مسؤولية هذا التصرف، إنما هو عهد الدكتاتورية العسكرية.

الاستثناء الثاني: المؤامرة التي قامت ضدّ النظام السوري، وشاركت فيها فئات من السنة والدروز والعلويين والعشائر.

«وقد ضاعف المتآمرون نشاطهم في أواخر صيف (١٩٥٦م)، مجندين أعضاءً جددًا في اللجنتين العسكرية والسياسية، ومتصلين بالدروز والعلويين والعشائر ينفقون الأموال على الدعاية على أمل كسب الدعم الشعبي لقضيتهم، وتدفقت الأسلحة والذخيرة من

(١) من خطاب السباعي في الجلسة الرابعة للجمعية التأسيسية بتاريخ (١٧ كانون أول ١٩٤٩م).

العراق لتغص بها مستودعات الحزب القومي السوري في لبنان، لتهرب من ثمّ إلى سورية. واتفق المتآمرون على أن يؤمن الحزب القومي السوري فرق الهجوم.

وكان على تنظيمات الشباب شبه العسكرية أن تتسلل إلى سورية عبر الحدود لتسيطر على المراكز الهامة بدمشق بعد أن يتنكر أفرادها على هيئة شرطة عسكرية، وينفذوا الاغتيالات كما تمّ تخطيطها.

وفي نفس الوقت كان على غسان جديد - القومي السوري العلوي، أخي صلاح جديد - أن يحتلّ حمص على رأس قوة أخرى من القوميين السوريين، بينما يستولي صلاح الشيشكلي على حماة بمساعدة رجال هناك. وعلى الدروز في الجنوب، والعلويين في الغرب أن يثوروا في الوقت نفسه لاستدراج جنود الحكومة»^(١).

هذا وقد فشلت المؤامرة بعد كشف خيوطها الرئيسية، وكانت عضوية اللجنة السياسية أخيراً على الشكل التالي:

ميخائيل ليان (الحزب الوطني)، عدنان الأتاسي (حزب الشعب)، منير العجلاني، جلال السيد، حسن الأطرش، سعيد تقي الدين (درزيان)، محمد الفاضل (المفكر العلوي المعروف). ونشرت قائمة الاتهام، وتضمنت (٤٧) متهمًا، منهم ديب الشيشكلي (الذي ضرب العلويين والدروز ثم تأمر معهم)، ومحمد صفا وغسان جديد ومحمد معروف وصلاح الشيشكلي وسعيد تقي الدين وحسن الأطرش... وغيرهم.

الأقليات في عهد البعث وبعد انقلاب ٨ آذار:

أ - تكتل الأقليات الباطنية والطائفية:

كان انقلاب الثامن من آذار انتصارًا للحزب البعث العربي الاشتراكي من جهة، وفرصة ذهبية لظهور الأقليات الباطنية من دروز وإسماعيلية ونصيرية من جهة أخرى، وكذلك النصاري، فالأقليات الباطنية جاءت من الريف والجبل، بحكم نشأة الحزب بعيدًا عن المدن الكبرى، حيث إنّ معظم أهلها من السنة.

يقول الدكتور سامي الجندي - وهو من مؤسسي الحزب القدماء - : « لقد انتشر

(١) مصطفى السباعي: الداعية المجدد، للدكتور عدنان زرزور (ص ٢٩٥).

الحزب في الريف، ولكنه كان ضعيفاً في دمشق، وباقي المدن السورية، وصار الحزب كبيراً في جسمه صغيراً في رأسه؛ حيث إن الأقليات الدينية كانت متواجدة أصلاً في الريف، ومنها النصيريون والدروز، وأن المدن كانت أساساً مسلمة سنية في تكوينها الديمغرافي»^(١).

وقد ندر في فرع دمشق الأعضاء الدمشقيون الذين ينحدرون أصلاً من عائلات دمشقية، ففي سنة (١٩٦٤م) تجمد نشاط الحزب فيها؛ لأن أعضاء الحزب كانوا غرباء عن دمشق، حتى اضطرت القيادة القطرية في الحزب أن تطعم قيادة فرع دمشق وفرع حماة بعناصر جديدة، وخاصة حينما واجه الحزب مشاكل عديدة في المدينتين المذكورتين، باعتبار أن معظم أهلها من السنة، وفي عام (١٩٦٤م) ثار أهل حماة ضدّ النظام، فقمعت الثورة بقسوة ووحشية.

وقد قام بعملية القمع الدموي في حماة ضابط بعثي درزي، هو: حمد عبيد، وقصفت المساجد، وأولها مسجد السلطان^(٢).

ب - تصفية الضباط السنة بعد انقلاب الثامن من آذار:

لقد تغلغلت الأقليات الباطنية في حزب البعث، مما جعل تأثير الحزب في الأوساط الإسلامية ضعيفاً، وصارت سياسته مناوئة لتوجهات المسلمين وعقائدهم عدوانية لأبناء أهل السنة في الجيش وقوى الأمن، ففي الفترة التي أعقبت انقلاب النحلاوي في (٨ / ٣ / ١٩٦٢م) كانت التسريحات (في أوساط المسلمين السنة داخل المؤسسة العسكرية) قوية وعنيفة، واستلم الضباط الباطنيون محل الضباط المسرّحين الذين كانوا من دمشق خاصة وعامة أهل السنة في المدن الأخرى^(٣). وعندما جاء انقلاب الثامن من آذار (١٩٦٣م) احتكر البعث السلطة.

١ - انقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣م واحتكار البعث للسلطة:

تجمعت القوى العسكرية المناوئة للانفصال، وهم الضباط الناصريون والحدويون، وكذا الضباط البعثيون والذين ينتسبون إلى الأقليات الباطنية من الدروز والنصيريين، فقام

(١) كتاب البعث، للدكتور سامي الجندي (ص ٣٩، ٤٠)، طبعة بيروت (١٩٦٩م).

(٢) ينظر: حزب البعث، لمطاع الصفدي (ص ٣٤١).

(٣) التجربة المرة، للدكتور منيف الرزاز (ص ١٥٩) بيروت (١٩٦٧م).

هؤلاء جميعاً بانقلابهم ضدّ حكومة الانفصال وضباطها، وكان عدد من الضباط الباطنيين قد عادوا إلى الجيش بعد أن كانوا مفصولين من الجيش، ومنهم: محمد عمران وحافظ الأسد، وصلاح جديد وعبد الكريم الجندي وآخرون، وقد ترأس العميد لؤي الأتاسي المجلس الوطني لقيادة الثورة فترة من الزمن، فيما ترأس صلاح البيطار الوزارة^(١).

وكان اللواء زياد الحريري (رئيس الأركان) هو الذي قاد الانقلاب، إلا أن شركاءه البعثيين استغلّوا رحلة قام بها إلى الجزائر، فجُرّد من وظيفته وعيّن سفيراً في أسبانيا^(٢).

وفي (١٤ آذار ١٩٦٣ م) كان قد توجه وفد إلى القاهرة من أجل المفاوضات لصالح الوحدة، وكان من أعضاء الوفد: نهاد القاسم (نائب رئيس الوزراء)، عبد الكريم زهور (وزير الاقتصاد)، اللواء راشد قطيني (معاون القائد العام للقوات المسلحة)، اللواء زياد الحريري (رئيس الأركان)، والمقدم فواز محارب، والمقدم فهد الشاعر (عضو المجلس الوطني لقيادة الثورة)، واجتمع بهم عبد الناصر وبعض رجاله، وانضمّ إليهم وفد العراق بعد ثورة البعث؛ منهم: صالح السعدي (نائب رئيس الوزراء)، ووزير الدفاع (صالح مهدي عماش)، وكانت المباحثات تدور حول اتحاد بين الجمهوريات الثلاث، لكنها لم تسفر عن شيء^(٣).

ويلاحظ أن البعثيين السوريين لم يكن لهم تمثيل واضح في مباحثات الوحدة، وأن شركاءهم في الانقلاب كانوا يظنون أنّ الوحدة مع مصر قاب قوسين أو أدنى؛ ففي سوريا كانت المنازعات قد أثّرت منذ الأيام الأولى لثورة آذار، إذ شكل جاسم علوان ورائف المعري ومحمد نبهان وذوقان قرقوط، منظمة سرية أطلقوا عليها (أنصار الوحدة)^(٤).

وكانت إذاعة عبد الناصر قد بدأت تذيع تقارير مباحثات الوحدة والاتحاد خلال شهري (آذار ونيسان)، وأظهرت قادة البعث (عفلق والبيطار) بمظهر المفاوضين الدنيين، وجعلتهما سخرية للسامعين.

وكان الصراع بين الناصريين والبعثيين قد فجر الأوضاع في سوريا، وبرز الصراع قوياً

(١) هؤلاء حكموا سوريا، للدكتور سليمان المدني (ص ١٤٩).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٥١).

(٣) الانقلابات العسكرية في سورية، لمحمد أبو عزة (ص ٣٨٦).

(٤) المصدر نفسه (ص ٣٨٩).

داخل الجيش، وكان المجلس الوطني لقيادة الثورة (٨ آذار ١٩٦٣ م) يتكوّن من هيئة سرية تتألّف من عشرين عضواً، ثمانية من الناصريين، واثنى عشر من البعثيين، وسرحت اللجنة العسكرية ما يزيد عن خمسين ضابطاً من الناصريين، واستقال بسبب ذلك: وزير الدفاع (محمد الصوفي)، وهو ناصري، و (راشد قطيني) رئيس الأركان - ناصري أيضاً - ثم استقال معهما خمسة وزراء ناصريين^(١).

٢ - انقلاب الناصريين في ١٨ تموز ونتائجه المريعة:

قام الضباط الناصريون والوحدويون بمحاولة انقلابية على سلطات حزب البعث، بقيادة: اللواء لؤي الأتاسي، وجاسم علوان، ورفاقهما، وكانت القاهرة تؤيد هذه الحركة، لكن خطة الانقلاب فشلت، وتسربت أخبارها عن طريق بعض الناصريين المشاركين في تلك المحاولة، أمثال: محمد نبهان، الذي كان جاسوساً لصالح الطائفة الناصرية^(٢).

وبعد فشل المحاولة الانقلابية، شكّلت محكمة عرفية من شركاء الثورة، برئاسة المقدم صلاح الضللي، وعضوية النقيب محمد رباح الطويل، والنقيب سليم حاطوم، والنقيب سليمان العلي في (١٩ تموز)، وأصدرت أحكاماً مختلفة، فأعدم هشام شبيب (عقيد)، وصدرت أحكام أخرى مختلفة ما بين الإعدام لجاسم علوان، ومحمد نبهان، ورائف المعري وآخرين؛ حيث بلغ عددهم العشرين ضابطاً وانقلابياً، وبالأشغال الشاقة والمؤبدة والسجن سنوات عدّة للآخرين، وعيّن اللواء أمين الحافظ وزيراً للداخلية^(٣).

لقد تمّ احتكار البعث للسلطة بعد هذه الأحداث، فتمكن الضباط الطائفيون من السيطرة على اللجنة العسكرية المنوط بها الإشراف على التنظيم العسكري البعثي في صفوف الجيش والقوات المسلحة، تأسست هذه اللجنة عام (١٩٥٩ م) خلال الوحدة مع مصر، وكانت في البداية تتكوّن من خمسة ضباط؛ ثلاثة منهم نصيريون (محمد عمران، صلاح جديد، حافظ الأسد)، واثنان إسماعيليان (عبد الكريم الجندي، وأحمد المير)، ثم وسعت اللجنة وصار عدد أعضائها خمسة عشر عضواً كانوا كالتالي: (٥) نصيريون، (٢) من الإسماعيلية، (٢) من الدروز: سليم حاطوم وحمد عبيد، و (٦) من السنة، منهم: موسى الزعبي، ومصطفى

(١) الانقلابات العسكرية في سورية، لمحمد أبو عزة (ص ٤٠٦).

(٢) المصدر نفسه (ص ٦٠٤).

(٣) المصدر نفسه (ص ٤١٠، ٤١١)، وهؤلاء حكموا سورية (ص ١٥١).

الحاج علي، وأحمد سويداني، وأمين الحافظ، ومحمد رباح الطويل^(١).

٣ - التكتل الطائفي داخل الجيش، وتسريح المئات من الضباط السنة:

لقد تمّ تسريح ما لا يقلّ عن سبعمائة من كبار الضباط السنة، بعد انقلاب (٨/٣/١٩٦٣ م)، وتمّ تعيين مثل هذا العدد لملء الفراغات من أبناء الطائفة النصيرية، فصارت قيادة اللجنة العسكرية بين ثلاثة من الضباط النصيريين: عمران، جديد، الأسد. وصار صلاح جديد رئيساً للأركان العامة في الجيش (ما بين شهر آب ١٩٦٣ م، وشهر أيلول ١٩٦٥ م)، وأصبح حافظ الأسد قائداً ل سلاح الجو، ومحمد عمران، وهو أكبرهم سنّاً، يتحكّم بقيادة القوات الخاصة، أي اللواء المدرع السبعين، وكان دائم الحضور جنوبي دمشق، ويشكل العمود الفقري لجهاز البعث العسكري.

ومن خلال هذه الأجهزة العسكرية الهامة، استطاع النصيريون التحكم بمصير سوريا لفترة طويلة، فتخلصوا من رفاقهم الناصريين والوحدويين: (لؤي الأتاسي، وزياد الحريري، محمد الصوفي، محمد الجراح، جاسم علوان).

ويلاحظ أن هؤلاء جميعاً كانوا من الضباط السنة، ولو بحكم المولد والنشأة، وقد بدأ الثلاثي النصيري (عمران، أسد، جديد) يكرس الطائفية، في أوساط الطائفة النصيرية والجيش السوري، يقول منيف الرزاز: «إن رائحة التوجه الطائفي داخل الحزب بدأت تظهر بعد أن كانت همساً، ثم تطوّرت هذه الأصوات إلى اتهامات لا تنفقر إلى الأدلة الكافية»^(٢).

لقد كان انقلاب الثامن من آذار نقطة تحوّل أساسية في تاريخ سورية المعاصر، من ناحية بروز الدور السياسي للأقليات الطائفية، وخاصة النصيريين، ولقد ضمّر دور المسلمين السنة، وخاصة في المدن الكبرى، بعد ذلك الانقلاب المشؤوم، وتمّ انحسار دور أبناء المسلمين في تلك المدن (دمشق، حلب، حمص، حماة). فبعد انقلاب آذار (١٩٦٣ م) أصبح تمثيل الضباط النصيريين في القيادات القطرية يشكّل أعلى نسبة، حيث وصلت إلى نسبة (٣٧,٧ ٪)، وبعدهم الدروز (٩,٤ ٪)، ثم الإسماعيليون^(٣).

(١) ينظر: التجربة المرة، لمنيف الرزاز (ص ٨٧)، والبعث، لسامي الجندي (ص ٨٥)، ومقال في مجلة الدعوة المصرية، العدد (٧٢)، بعنوان: سقوط سورية في برائن الأقليات الطائفية.

(٢) التجربة المرة (ص ١٥٩).

(٣) الصراع على السلطة في سوريا، للدكتور نيقولاوس فان دام (ص ١٣٠).

يقول الدكتور سامي الجندي أحد مؤسسي حزب البعث، وكان قد تقلد منصب وزير الإعلام بعد انقلاب آذار: «إنه بعد أن أسندت إليه مسؤولية وزارة الإعلام بثلاثة أيام، زاره (الرفاق) في مكتبه من أبناء طائفته مطالبين بالتخلص من أبناء دمشق وحلب وحماة، وتعيين أبناء الطائفة في وظائفهم مكان المسلمين»^(١).

كما أن الصراع على السلطة بدأ يظهر بين قادة اللجنة العسكرية البعثية عقب الانقلاب الناصري الفاشل في (١٨ تموز ١٩٦٣ م)؛ حيث لجأ هؤلاء القادة إلى تجميع عسكريين حولهم، ممن تربطهم بهم روابط طائفية أو عشائرية أو إقليمية. ونتيجة لذلك قوّضت بنية القيادة والانضباط داخل القوات المسلحة وداخل تنظيم الحزب العسكري بشكل ملحوظ^(٢).

وفي تقرير حزبي وصف أمين المكتب التنظيمي العسكري لحزب البعث هذه العملية فقال: «لقد وصل التنظيم إلى حالة من التشويه، لم يعد من الممكن تحملها من قبل الرفاق، وحلّ الولاء الشخصي والتكتلي محل الولاء الحزبي»^(٣).

وكان أهل السنة هم الخاسرين في كلّ مرحلة، فقد عانى أبناؤهم من التمييز لدى تقدّمهم للالتحاق بالكلية العسكرية ومراكز التدريب الأخرى، وتكرّر الأمر عندما جند أعضاء جدد في الحرس الوطني البعثي، أو الشعبة السياسية والمخابرات، بينما كان (العلويون والدروز والإسماعيليون) والناصرى - الروم الأرثوذكس - يحظون بتمييز إيجابي في المعاملة في كثير من الحالات^(٤).

وطبقاً لمطاع الصفدي - بعثي قديم - في كتابه (حزب البعث): «فقد أغلق باب الكليات العسكرية ومختلف المدارس العسكرية في وجه شباب المدن السنية، حتى إن دورات كاملة من هذه الكليات قد سرحت جميعها من الخدمة قبل أن تتخرّج»^(٥).

(١) البعث، لسامي الجندي (ص ١٣٦).

(٢) الصراع على السلطة في سورية، طبعة (١٩٩٥ م)، (ص ٦٤).

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، القطر السوري، المكتب العسكري، مشروع تقرير عن واقع الحزب في التنظيم العسكري (١٩/١٠/١٩٦٥ م).

(٤) الصراع على السلطة في سورية (ص ٦٦)، والتجربة المرة، للدكتور منيف الرزاز (ص ١٥٩)، وجريدة النهار (٩ تموز ١٩٦٣ م).

(٥) كتاب حزب البعث، لمطاع الصفدي (ص ٣٣٩، ٣٤٠).

وكلّ مَنْ عاصر تلك الفترة يعلم ذلك جيّدًا. هذا وإن تفويض سلطة القادة العسكريين بالسيطرة على الولاءات الطائفية التي تتبعهم في قطعهم، لم يكن بظاهرة جديدة في تاريخ الجيش السوري، فقد استخدمت مثل هذه التكتلات على سبيل المثال خلال (فترة الانفصال)، ففي بداية عام (١٩٦٣ م) فشل المقدم الدمشقي عبد الكريم النحلاوي في محاولة استرداد سلطته على الجيش، وأحد أسباب فشله يعود إلى أنّ بعض الضباط فقدوا السيطرة على جنودهم الذين رفضوا الامتثال لمزيد من الأوامر، لقادتهم الدمشقيين أو الذين هجروا وحداتهم العسكرية، بتحريض من الشيوخ النصيريين^(١).

وهكذا أحكمت القبضة على مقدرات البلاد من قِبَل الأقليات الطائفية، فظهرت أحقادها الدفينة، وتعاونت على الفتك بأهل السنّة، حتى ولو كان الضباط السنيون متحلّلين سلوكيّاً، فجَرّة مجرمين أخلاقياً، ذاق المسلمون على أيديهم الويلات كما هو شأن الباطنيين، ومن هؤلاء: أمين الحافظ، يوسف رعين، أحمد سويداني.. ثم تطوّرت الأحداث، فأطاح التعاون الباطني برئيس الدولة أمين الحافظ وبعبابته من أهل السنّة، تحت شعار الإطاحة بالقيادة القومية، وذلك في حركة (٢٣ شباط ١٩٦٦ م)؛ إذ تعاون فيها الدروز والإسماعيليون مع النصيريين في تلك الحركة، ثم تخلص النصيريون من رفاق التآمر والإجرام، من الدروز والإسماعيليين، فسجن كثير منهم، وأعدم آخرون، وبذلك تدور على الباغين الدوائر. واستمرّ مسلسل التناحر والتصفيات داخل الطائفة النصيرية، فانحصرت العشائرية والانتهازية والطائفية على بعض رموز الطائفة النصيرية، فتخلص حافظ الأسد من خصومه: صلاح جديد، ومحمد عمران وآخرين.. وها هو التناحر يستمرّ، والتفرد بالسلطة يلقي بكابوسه على الأمة، ولا نجاة من الله إلا إليه.

كيف نتعامل مع الأقليات اليوم:

سورية التي نريد:

- نريد سورية بلدًا تسود فيها كلمة الحقّ والعدل، ويقوم فيه المواطن وهو آمن على نفسه، بدوره الفاعل في بناء وطنه، وحماية معتقداته، يقطف ثمار تقدّمه وازدهاره.

(١) البعث، للدكتور سامي الجندي (ص ١٠٩، ١١٠)، والصراع على السلطة في سوريا، للدكتور نيقولاوس فان دام (ص ٦٨).

- نريدها بلدًا ذا هوية عربية إسلامية، فالإسلام دين للمواطن المسلم، وهوية حضارية للمواطن غير المسلم.

- نريدها بلدًا ينعم فيها الجميع بظلّ شريعة الله ﷻ، من خلال رضا الناس واختيارهم.

- نريدها بلدًا تتحقّق فيها الوحدة الوطنية، وينبذ التعصب الطائفي، وتتعايش فيها مختلف الديانات والمذاهب والأعراق، ضمن إطار المصلحة العليا للوطن.

- نريدها بلدًا يؤمن بالحقّ في الممارسة السياسية وتشكيل الأحزاب في إطار دستور البلاد، ويكون الاقتراع الحرّ النزاهة أساسًا لتداول السلطة دون تسلّط أو إراقة دماء.

- نريدها بلدًا يتمتع فيه استبداد السلطة والتفرد بها، ويرسي قواعد المؤسسات الرقابية والقضائية، والآليات الكفيلة بذلك، وتستقرّ فيه قواعد الحكم عن طريق اختيار الشعب، لا عن طريق الإكراه.

- نريدها بلدًا ينتهي فيه الصراع بين التيارات الإسلامية والقومية، ويتنافس فيه الجميع لِمَا فيه مصلحة الوطن، وتثبيت هويته العربية والإسلامية.

- نريدها بلدًا يأخذ فيه التيار الإسلامي دوره الفاعل في بناء الأمة والوطن، دون تهميش أو إلغاء.

- نريدها بلدًا ينعم بالازدهار الاقتصادي، وتتحقّق فيه العدالة في توزيع الثروات، ويضمن فيه حقّ المواطن في التعليم، والسكن، والرعاية الصحية، والعمل، والضمان الاجتماعي في حالتي العجز والشيخوخة.

- نريدها بلدًا يتساوى فيه الجميع أمام القانون، دون حصانة لأحدٍ أمام القضاء، رئيسًا كان أم مرؤوسًا.

- نريدها بلدًا تعلو فيه سيادة القانون، ويتقدّم فيها أمن المجتمع على أمن السلطة، ولا تحل فيها قوانين الطوارئ محلّ القوانين العادية.

- نريدها بلدًا النساء فيه شقائق الرجال، متساوون في الكرامة الإنسانية، ومتكاملون في الوظائف والواجبات.

- نريدها بلدًا ذا جيشٍ وطني يحقّ لكلّ مواطن شرف الانتساب إليه حسب المؤهلات

والكفاءات، وعدم اقتصره على فئة دون أخرى من أبناء الوطن.

- نريدها بلدًا تحتفظ بكفاءات أبنائها الوطنية، وتكون عامل جذب للكفاءات الوطنية والعربية المهاجرة.

- نريدها بلدًا تسود فيه أساليب الإدارة الحديثة، وتعمّ فيه وسائل الثورة التكنولوجية والمعلوماتية في المدارس والجامعات ومؤسسات البحث العلمي، والمؤسسات العامة والخاصة.

- نريدها بلدًا ذا مناهج تربوية ترسخ الانتماء العربي والإسلامي باعتباره شرطًا من شروط النهضة، وتربي الأجيال على تعزيز قيمة الحرية، وربطها بالمسؤولية، كما تربيهم على نصرّة المستضعفين، والدفاع عن حقوق الإنسان، وكذا على أصول الحوار، وتتضمن هذه التربية منهج التعايش عند الاختلاف، والوقاية من اللجوء للعنف، وتصفية المخالفين بدلًا من السعي لتغيير أفكارهم.

- نريدها بلدًا ذا إعلام حرّ، يعمل على دعم وترسيخ حرية التعبير والتفكير والإبداع والتنمية، وينسجم مع هوية الأمة الثقافية والحضارية.

- نريدها بلدًا يلتزم التزامًا صادقًا بقضايا الأمة والوطن، ومواجهة المشروع الصهيوني في فلسطين المحتلة.

- نريدها بلدًا ذا مشروع عربي إسلامي ناجح، ينطلق من آفاق الوحدة الوطنية إلى التكامل الإقليمي والعربي والإسلامي.

- نريدها بلدًا يعمل على تعزيز التعاون الدولي القائم على تبادل المصالح بين الشعوب، ودعم السلام العالمي المقام على العدل.

ملخص البحث:

ونخلص بعد هذا العرض إلى ما يلي:

١ - تعريف الأقلية لا يتجاوز أنها خلاف الأكثرية، وتجمع على أقليات. ومنها العرقية ومنها الدينية.

٢ - وأول مجتمع مدني في الأرض العربية أعطيت الحقوق فيه من خلال دولة هو

مجتمع المدينة؛ حيث حددت الوثيقة حقوق وواجبات المواطنين في الدولة الإسلامية.

٣ - وعلى امتداد التاريخ الإسلامي كانت الأقليات، أو الأمم التي فتحت أراضيها تتمتع أراضيها باستقلال ديني وسياسي كامل، وكان لحسن المعاملة هذه أن دفعت الكثير من هذه الأمم لتدخل في الإسلام عن اختيارٍ وطوعية، ومن بقي على دينه بقي يمثل هذه الأقليات بجوار المسلمين على امتداد القرون. ومصر النموذج الحيّ على ذلك.

٤ - لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب، ولم تعرف أمة من التسامح مع الآخر ما عرفه العرب والمسلمون.

٥ - بينما كانت القرون الوسطى، والحروب الصليبية نموذجاً لوحشية الأمم الأخرى في التعامل مع العرب والمسلمين.

٦ - كانت الدولة العثمانية هي الممثلة للإسلام لعدة قرون، وعاملت الأقليات عندها خير معاملة.

٧ - من خلال حروب أوروبا مع الدولة العثمانية، ومع نشوء الحركات القومية في أوروبا، ومع ضعف الدولة، بدأت أوروبا في التدخل في شؤون الدولة الداخلية من خلال الأقليات الدينية؛ كالكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت. ومن خلال الأقليات القومية؛ كالصرب، والبلغار، واليونان، والعرب بعد ذلك.

٨ - طالب خط شريف كولخانة بمصلحة الرعايا المسيحيين وتحسين أحوالهم، كما طالب الخط الهمايوني بإصدار مشروع عثماني خاص بالنصارى القاطنين في الدولة العثمانية، واعترف رسمياً برعاية روسيا للأرثوذكس، وفرنسا للكاثوليك، وإنجلترا للبروتستانت. وتقررت المساواة بين المواطنين العثمانيين جميعاً في الدستور، مع بقاء امتيازات (أهل الذمة) التي كانت خاصة باليهود والنصارى، وعدم اشتراكهم في الحرب مع الدولة العثمانية.

٩ - بعد طرد الخلافة العثمانية من أوروبا، التي كانت الأكثرية الإسلامية فيها صاحبة القرار، تمزقت إلى دويلات متعددة في أوروبا، وصار المسلمون في كل دولة أقلية تحكم من الأكثرية النصرانية.

١٠ - وبعد سقوط الدولة العثمانية وانفصال الأمم والشعوب عنها، وسيادة النظرة

الديمقراطية العلمانية، أصبح دعاة الإسلام وتطبيقه أقلية في كل مجتمع تلاحق من العلمانيين الدكتاتوريين الذين سيطروا على الوطن الإسلامي. وصار واقع الحال وجود أقليات مسلمة في أنحاء العالم، وأقليات داخل دول العالم الإسلامي.

١١ - وفي إحصاء في الثمانينيات كان عدد الأقليات المسلمة في العالم حوالي (٣٧١) مليون من (١٠٦٦) مليون موزعين على دول العالم في أوروبا وآسيا والأمريكيتين. ولهم معاناة في التعامل مع الأكثرية غير المسلمة.

١٢ - واستقلت الجمهوريات الإسلامية عن الاتحاد السوفيتي، وهي ستة، ومع تفكيك الاتحاد اليوغسلافي وقيام حروب البوسنة والهرسك وكوسوفو فيها، وحروب دولة الشيشان التي تصرّ روسيا على إبقائها جزءاً منها، والاحتلال اليهودي لفلسطين، ومعاناة الشعب الفلسطيني، ومشكلة كشمير التي بقيت عالقة بين الهند والباكستان، وتعاني من الاستعمار الهندوسي لها، كانت هذه المناطق جميعاً مناطق اشتعال للمقاومة الإسلامية، وتآلب الأعداء على المسلمين، وقامت مجازر يشيب من هولها الولدان، وقدّم المسلمون أعظم التضحيات في المحافظة على وجودهم وهويتهم الإسلامية، ومقاومة المحتلّ لهم في كل أرض.

١٣ - من خلال المنظمات والمواثيق الدولية التي كانت نتاج الفكر الأوربي العلماني، نلاحظ أن ربع دول الأمم المتحدة دول إسلامية، والأصل أن تكون دولة واحدة، ولما تعاني من تجزئة فليس لها أي تأثير في تقدير مصيرها وتقرير مصير العالم، في الوقت الذي تتحكم الدول الخمس الكبرى والتي تمثل الشيوعية والنصرانية بمصير العالم.

١٤ - حتى في محكمة العدل الدولية فالتمييز لهذه الدول الخمس قائم؛ إذ لا بدّ أن يكون من أربعة أخماسها قاضٍ يمثل كلّ دولة من قضاة المحكمة التسعة عشر.

١٥ - وبرزت فكرة حقوق الإنسان التي تبنتها منظمة الأمم المتحدة في قيام العالم على أساس المواطنة والمساواة بين المواطنين، بغضّ النظر عن الجنس أو الدين أو العرق أو اللغة. ونقض هذا الميثاق من جهة حقّ الشعوب في الاحتكام إلى شريعة الله المنزلّة، لكن كان عاملاً مساعداً في المطالبة بتحرير المستضعفين المسلمين من خلاله، وأعطيت المرأة حقّ المساواة الكاملة مع الرجل في كل شيء.

١٦ - ثم جرت تطوّرات خطيرة تحت ستار حقوق الإنسان وتحت سقف الأمم المتحدة

في إباحة الإجهاض والربط بين الفقر والنمو السكاني، وإباحة الممارسات الجنسية غير الشرعية بحجة أنّها حقّ شخصي، وإلغاء القوانين التي تحدّ من هذه الممارسة، ونقض مفهوم الأسرة الذي يقوم على الزواج بين الذكر والأنثى، لتقرير شرعية الأسرة القائمة على الزواج المثلي والشذوذ الجنسي.

١٧ - وفي نقلة واضحة للحديث عن الأقليات في سورية نرى أنّ الأكثرية فيها تمثل العربية والإسلامية، فالعرب أكثرية بالنسبة للقوميات حوالي (٨٠٪)، والمسلمون السنّة أكثرية بالنسبة للأقليات الدينية والطائفية (٧١٪).

١٨ - أكبر الأقليات العرقية هم الأكراد (٩٪)، ثم يمثل البقية من الجركس والداغستان والشاشان والتركمان والسريان والكلدانيين والآشوريين.

١٩ - أكبر الأقليات الطائفية العلويون (١٠٪)، والدروز (٣٪)، والنصارى بجميع فروعهم (١٢,٥٪)، ثم يأتي بعدها الإسماعيليون والجعفرليون واليهود بنسب لا تكاد تُذكر.

٢٠ - كانت الأقليات في سوريا في العهد الإسلامي تعامل بإعطاء الحرية الدينية لها مقابل جزية ضئيلة تؤخذ من القادرين عليها، ولها استقلالها الخاص، وعلى المسلمين الدفاع عنها كما يدافعون عن أنفسهم.

٢١ - واستمرّ هذا التعامل على امتداد التاريخ الذي يحوي الحروب الصليبية التي كان من أشأم نتائجها أن ساد عدم التسامح في العالم لعدة قرون.

٢٢ - وفي ظلّ الدولة العثمانية بقيت الأقليات الدينية على المستوى نفسه من التعامل، وإن كانت الأقليات الطائفية قد خاضت حروباً ضدّ الدولة العثمانية، كالعلويين والدروز.

٢٣ - في القرنين الأخيرين للدولة العثمانية قامت الإرساليات التبشيرية بتعميق الهوة والخلاف بين أبناء الأمة وتغلغل النفوذ البريطاني والإيطالي والفرنسي من خلال هذه الإرساليات، وتدخل الدول الأوروبية في شؤون الأقليات في الدولة العثمانية.

٢٤ - وفي دستور الدولة العثمانية عام (١٨٧٦م) ألغيت فكرة الأقليات، ونصّ الدستور على أن العثمانيين جميعاً متساوون أمام القانون، كما أنهم متساوون في حقوق ووظائف المملكة ما عدا الأحوال الدينية والمذهبية.

٢٥ - وجاءت الحكومة الفيصلية وأقرت في دستورها أن سورية مملكة مدنية، وأن السوريين متساوون أمام القانون في الحقوق والواجبات.

٢٦ - جاء عهد الاحتلال الفرنسي، واعتمد التفرقة الطائفية والدينية أساساً لحكمه، وأبقى للدروز دولتهم المستقلة، وللعلويين دولتهم المستقلة خلال أطول فترة من حكمه التي استمرت عشرين عاماً من خمس وعشرين.

٢٧ - وتعاونت معظم الأقليات مع المحتل الفرنسي، واعتبرت وجوده فرصة ذهبية للاستقلال عن جسم الدولة السورية.

٢٨ - وهذا لا ينفي حدوث صدام وحرب بين الدروز والفرنسيين من جهة، لغمطهم حقوقهم، ولا ينفي حرب صالح العلي لفرنسا، مستقوياً بها على الإسماعيليين الذين كانت إنجلترا تمدّهم بالمال.

٢٩ - للأكراد ماضي ناصع من الناحية الوطنية؛ إذ كانوا دوماً من العناصر التي اشتركت في الحركات الوطنية ضد الاستعمار.

٣٠ - وقام كيان الجيش الذي يواجه الوطنيين على الأقليات النصرانية والدروزية والعلوية، وكثير من ضعاف النفوس السنة الذين باعوا أنفسهم للأجنبي المستعمر.

٣١ - جاء عهد الاستقلال، وجاء الدستور السوري الذي يسوي بين المواطنين جميعاً في الحقوق والواجبات، بغض النظر عن الجنس أو العرق أو الدين أو الطائفة أو المذهب، واستمرت الحياة السياسية بعيدة عن المنطلق الطائفي.

٣٢ - ثم جاء عهد البعث وانقلاب الثامن من آذار الذي حوّل الجيش السوري خلال ثلاث سنوات إلى جيش قوام قياداته كلّها من الطائفة النصيرية، وعندما ثار الشعب ضدّ هذا الاستقلال الحزبي والطائفي قمع بوحشية كبيرة، وخاصة في حماة؛ حيث أزھقت أرواح عشرات الألوف، وتوزع معظم أهلها بين أسير وشريد وشهيد.

٣٣ - ولا يزال الاستئثار الحزبي والطائفي قائماً حتى اليوم في الجيش وأجهزة الأمن، واعتبار البعث هو القائد للشعب السوري، ويده السلطة التنفيذية التي تحكم هذا الشعب.

٣٤ - ولن يقضى على هذا التمييز إلا بسقوط هذا النظام الحزبي الطائفي، والعودة إلى المساواة التامة بين أبناء الوطن في الحقوق والواجبات ووظائف الدولة، وتركيب

الجيش وأجهزة الأمن حيث يكون بلدًا تتحقق فيه الوحدة الوطنية، وينبذ التعصب الطائفي، وتتعايش فيه مختلف الديانات والمذاهب والأعراق ضمن إطار المصلحة العليا للبلد.

٣٥- ويكون حقّ الممارسة السياسية وتشكيل الأحزاب في إطار دستور جديد للبلاد، ويكون الاقتراع الحرّ النزيه أساسًا لتداول السلطة دون تسلّط أو إراقة دماء.



(٥)

أهل الذمةلماذا نتحدث عن أهل الذمة؟

لقد كان التردد كثيراً قبل إضافة هذا البحث إلى القضايا المعاصرة، فنعتقد أنه موضوع تاريخي لا وجود له الآن في الساحة العالمية، ومن جهة ثانية يشكل الحديث عنه بعض الحساسيات مع أبناء الوطن الواحد من أتباع الديانات الأخرى.

لكن الذي دفع إلى الحديث عنه ثلاث نقاط جوهرية:

الأولى: أنه قائم في ذهن الكثيرين من الدعاة أنه موضوع معاصر، وفي تصورهم أنه مجرد قيام دولة للإسلام في قطر من الأقطار فسيكون التعامل مع غير المسلمين مباشرة على أنهم أهل ذمة، فكان لا بد من تصحيح هذا المفهوم، وإيضاح أن دولة الإسلام الأولى في المدينة والتي كان على رأسها رسول الله ﷺ لم يكن الوضع بين سكانها على أنهم مسلمون وأهل ذمة، إنما كان الوضع بينهم قائماً على المواطنة فهم سكان يثرب، لهم حقوق مشتركة ولو اختلفوا في أديانهم.

الثانية: يحسن الحديث عنه لما لحقّه من تشويه وسوء استغلال في اتهام الإسلام بالتمييز بين أبناء الأمة وحرمان الأقليات من حقوقها، وهو موضوع له مساحة واسعة في أذهان الناس اليوم.

الثالثة: ويحسن الحديث عنه كذلك للمقارنة بين الإسلام في تعامله مع الأقليات والاعتراف فيها، وبين الدول الديمقراطية المعاصرة وتعاملها مع الأقليات المسلمة اليوم، والتي تعاني كثيراً من الجور والظلم في ظل هذه الأنظمة.

ومن أجل هذا سيتناول الحديث في هذا المجال هذه الأفكار الرئيسية بعيداً عن الخوض في الجزئيات التي غدت موضوعاً تاريخياً يرجع إليه في مظانّه في كتب الفقه.

مصطلح « أهل الذمة »:

لا بد من الإشارة إلى أن مصطلح أهل الذمة مرتبط ارتباطاً وثيقاً في قيام وجود دولة

إسلامية كبرى تحمل راية الإسلام وتجاهد في سبيلها لنشر هذا الدين، وإذا أردنا أن نحدد لها بداية تاريخية فيمكن العودة إلى الحديث التالي، عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال:

« اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، واغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفىء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تتركهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا »^(١).

١ - هذا الحديث الذي أخرجه مسلم ذكره الواقدي في غزوة مؤتة بقوله: خرج رسول الله ﷺ مشيعًا لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع فوقف ووقفوا حوله فقال: « اغزوا باسم الله ».

إذن فنحن في المرحلة التي انتقلت الدولة الإسلامية فيها من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وغزو العدو في دياره، وأصبحت مهمة الغزو الانطلاق بدين الله في هذه الأرض، أما قبل ذلك فإنما كانت مهمة الإسلام هي الدفاع عن أرض الإسلام، وقد حدد رسول الله ﷺ بداية هذه المرحلة بعد غزوة الأحزاب بقوله ﷺ:

« الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم »^(٢).

٢ - وحديثنا عن هذا الأمر إنما هو حديث عن ناحية تاريخية، وحرصنا على ذكرها

لتكون بمثابة تمهيد لما آل إليه وضع المسلمين اليوم، حين غدوا أقلبيات في بعض الدول، أو خضعوا لنظام الدولة العلمانية الديمقراطية، وخضعوا للمواثيق الدولية التي صاغها هؤلاء العلمانيون بما يتناسب مع مصالحهم ومبادئهم.

٣ - ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا التاريخ الذي امتد ألف عام ونيف حيث كان للإسلام دولته العظمى ولها رباطها على ثغورها، ولها امتداداتها وفتوحاتها، لا نبالغ إذا قلنا أن هذه الصفحة من أنصع صفحات تاريخنا - على ما فيها من مد وجزر - وعلى ما فيها من بعض النقاط الداكنة كذلك، لكن تبقى منارة للبشرية تفيء إليها حين تقارن بعهود الظلام الكبرى في تاريخ البشرية حين كان للمبادئ والطغاة والسلطة والقوة على من هو دونهم.

أهل الكتاب في ظل الدولة الإسلامية:

ولقد جاءت الآية القرآنية في السنة التاسعة للهجرة، والتي وجهت أنظار الجيل النبوي إلى مهمته في الأرض لتبليغ دين الله وشريعته إلى عباد الله في كل صقع وتحت كل سماء، والتي تم على ضوءها التحرك بالجيش الإسلامي إلى تبوك تنفيذاً لأحكام هذه الآية.

﴿ قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

يقول الإمام ابن كثير: «وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين؛ اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً وتخلّف بعض الناس.. وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذه من مجوس هجر، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه، وقال أبو حنيفة - رحمه الله -:

بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب، وقال الإمام مالك: بل يصح أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك، ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم^(١).

فالخيار الذي ذكره القرآن ليس هو الإسلام مع أنه واضح في كل نصوص الأحاديث والمأثور عن الصحابة والتابعين، ولم يذكر الخيارات الثلاثة، إنما ذكرت الجزية فقط حتى لا يتطرق أدنى شك إلى الإكراه على العقيدة أو فرض الإسلام بالسيف، إنما هو الاستسلام لشريعة الله أن تسود في الأرض، ومن حق كل فرد بعد ذلك أن يعتنق هذا الدين أو يرفضه ويتحمل تبعه موقفه ومسؤولية اختياره.

« وهذه الآية تصف أهل الكتاب هؤلاء بأنهم ﴿وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.. كذلك تصفهم بأنهم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾.. فليس بدين الحق أي اعتقاد بربوبية أحد مع الله، كما أنه ليس بدين الحق التعامل بشريعة غير شريعة الله وتلقي الأحكام من غير الله، والدينونة لسلطان غير سلطان الله، وهذا كله قائم في أهل الكتاب اليوم كما كان قائماً فيهم يومذاك.

والشرط الذي يشترطه النص للكف عن قتالهم ليس أن يسلموا فلا إكراه في الدين، ولكن أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فما حكمة هذا الشرط، ولماذا كانت هذه الغاية التي ينتهي عندها القتال؟

إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقاداً وسلوكاً، كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله ومنهج الجاهلية المتمثلة في عقيدة أهل الكتاب وواقعهم وفق ما تصوره هذه الآيات.. والإسلام - بوصفه دين الحق الوحيد القائم في الأرض - لا بد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه، ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق، على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك..

فالوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام في الوقت نفسه هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق حتى تستسلم وتعلن

استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلاً، وعندئذ تتم عملية التحرير فعلاً بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع، فإن لم يقتنع بقي على عقيدته، وأعطى الجزية لتحقيق عدة أهداف:

أولها: أن يعلن استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الله الحق.
وثانيها: أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة (الذين يؤدون الجزية فيصبحون في ذمة المسلمين وضمائمهم) ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

ثالثها: المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل، بما في ذلك أهل الذمة بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعي الزكاة.

ولا نحب أن نستطرد هنا إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم، ولا عن تقادير هذه الجزية، ولا عن طرق ربطها ومواضع هذا الربط.. ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم كما كانت معروضة على الفقهاء الذين أفتوا فيها، واجتهدوا رأيهم في وقتها.

إنها تُعتبر اليوم تاريخية وليس واقعية، إن المسلمين اليوم ليس لهم دولة ولا قوة والدعوة الآن تبلغ بأساليب وطرق مختلفة.

قضية (وجود) الإسلام و (وجود) المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج..
إن نقطة البدء الآن هي مماثلة لنقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام، أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع، ويطبقون هذا في واقع الحياة فيقيموا دولة الإسلام على أرضهم، ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان، ويومئذ - ويومئذ فقط - سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية في مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات»^(١).

(١) في ظلال القرآن (٣/١٦٣٣، ١٦٣٤) لسيد قطب بتصرف.

أهل الكتاب في العهد النبوي:

- فكان فتح خيبر أول فتح إسلامي وتعامل دولي بين رسول الله ﷺ وبين خصومه بعد صلح الحديبية الذي كان فتحاً معنوياً للمسلمين.

« وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها، فلما بلغ يهود تيماء ما وطئ به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية وأقاموا بأيديهم وأموالهم، فلما كان زمن عمر رضي الله عنه أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام»^(١).

وروى البخاري والبيهقي عن ابن عمر أن خيبر لما فتحها رسول الله ﷺ سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرهم فيها على نصف ما خرج منها من التمر، وقالوا: «دعنا يا محمد نكون في هذه الأرض، نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه علمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم رسول الله ﷺ خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ، وفي لفظ قال رسول الله ﷺ: «نقركم فيها على ما شئنا»، وفي لفظ: «ما أقركم الله»^(٢).

وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها^(٣) عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرص ابن رواحة، وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة، فقال: يا أعداء الله، تطعموني السحت؟

وروى الواقدي بسنده: جابر بن عبد الله قال: «رأيت يحنة بن روبة يوم أتى به النبي ﷺ عليه صليب من ذهب وهو معقود الناصية، فلما رأى النبي ﷺ كفر وأوماً برأسه فأوماً إليه النبي ﷺ أن ارفع رأسك، وصالحه يومئذ، وكساه رسول الله ﷺ برداً يمينية، وأمره بمنزل عند بلال»^(٤)، فكان العدل هو الأولى في التعامل مع أهل الكتاب.

إنما الثانية التي هي هم الإنسان أيًا كان هذا الإنسان، إنها الأمن بعد العدل، ولذلك

(١) المغازي، للواقدي (٧١١/٢).

(٢) مسلم (ح ٤٠٤٩).

(٣) الخارص: هو الذي يحزر ويقدر ما على النخل من ثمر.

(٤) المصدر السابق (١٠٣١/٢)، ومعنى كفر: أي أحنى رأسه كالسليم عند المسلمين.

كانت الجملة الثانية بعد البسملة: هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل الديلة. « وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح هذا الكتاب..

قال الواقدي: نسخت كتاب أذرح وإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه.

قالوا: وكتب لأهل مقنا أنهم آمنون بأمان الله، وأمان محمد وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم «^(١)، وبذلك كان شمال الجزيرة، وجنوب الشام أول من نعم بالأمن والحكم الإسلامي من رسول الله ﷺ.

- ومن الشام إلى اليمن: « قالوا: وكتب رسول الله ﷺ لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله لا يغير أسقف عن أسقفية، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهنته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين، وكتب المغيرة «^(٢).

وتأتي القضية الثالثة هنا بعد قضيتي العدل والأمن ألا وهي حرية العقيدة، فهم على دينهم لهم ما تحت أيديهم من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم لا يغير فيه القليل ولا الكثير. والقضية الرابعة التي قدمها الإسلام للإنسان المخالف له في العقيدة والخاضع لحكمه بعد العدل والأمن وحرية العقيدة هي الحكم الذاتي، بحيث يبقى لهم حق حكم أنفسهم بأنفسهم كما يريدون.

« ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم «، وما عليهم لا يعدو أن يكون دينارين أو ديناراً واحداً على القادر منهم، يُعفى الشيخ والصبي والمرأة، ويُعفى الذي لا يملك، هذا ما عليهم هو الثمن

(١) المغازي للواقدي (١٠٢/٢).

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٢٦٦/١).

لاستقلالهم الإداري، وحكمهم الذاتي وحرية عقيدتهم، وأمنهم والعدل بالقسطاس فيهم.

« قالوا: وكتب رسول الله ﷺ لربيعة بن ذي مرحب الحضرمي وإخوته وأعمامه أن لهم أموالهم ونخلهم ورقيقهم وآبارهم وشجرهم ومياهم وسواقيهم ونبتهم وشراجمهم بحضرموت، وكل مال لآل ذي مرحب، وإن كل رهن بأرضهم يُحسب ثمره وسدره وقضبه من رهنه الذي هو فيه، وأن كل ما كان في ثمارهم من خير فإنه لا يسأل أحد عنه، وأن الله ورسوله براء منه، وأن نصر آل ذي مرحب على جماعة المسلمين، وأن أرضهم بريئة من الجور، وأن أموالهم وأنفسهم وزافر حائط الملك الذي كان يسيل إلى آل قيس، وأن الله جار على ذلك، وكتب معاوية ^(١) ».

والقضية الخامسة التي يهددها الإسلام للإنسان المخالف له في عقيدته، والداخل في ذمته من خلال الجزية بعد العدل والأمن وحرية العقيدة، والحكم الذاتي، هي الحماية من أي عدو داخلي أو خارجي « وأن نصر آل ذي مرحب على جماعة المسلمين » فالمسلمون يقدمون حياتهم وأرواحهم ودماءهم فدًى لمن دخل في حماهم، وأصبح في ذمتهم، إنها ذمة الله تعالى وذمة رسول الله ﷺ.

ومن أجل هذا نجد من النصوص المستفيضة الكثير في حق هذا الذمي: « من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته، فأنا حجيجُه » ^(٢)، « ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجُه يوم القيامة » ^(٣)، « ومن قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا » ^(٤).

أهل الكتاب في العهد الراشدي:

وانطلاقًا من هدي رسول الله ﷺ القولي في وصيته لأمرأ مؤتة فيمن رفض الإسلام والقتال، ومن أحاديثه ﷺ في التوصية بأهل الذمة والحفاظ على أموالهم وأعراضهم ودمائهم، وانطلاقًا من كتبه وهديه الفعلي ﷺ في التعامل مع أهل الذمة، انطلاقًا من هذا الهدي مضى الخلفاء الراشدون يفتحون الأرض بالإسلام دينًا وشرعية لمن أراد

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (ص ٢٦٦).

(٢) أبو داود (ح ٣٠٥٤).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) البخاري (ح ٢٩٩٥) عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنها -.

الإسلام وبسيادة شريعته لمن اختار الجزية، وبالقتال لمن ناوأه، وكانت الأمصار تفتح عنوة أو صلحاً وتطبق عليها أحكام الإسلام بذلك.

أ - فتح دمشق:

أورد البلاذري نص هذا الكتاب في فتح دمشق:

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله ﷺ والخلفاء والمؤمنين لا يُعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية »^(١).

قال الواقدي: « وكان فتح مدينة دمشق في رجب سنة أربع عشرة، وتاريخ كتاب خالد في صلحها في شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة، وذلك أن خالدًا كتب الكتاب بغير تاريخ، فلما اجتمع المسلمون للنهوض إلى من تجمع لهم أتى الأسقف خالدًا فسأله أن يجدد له كتاباً ويشهد عليه أبا عبيدة والمسلمين، ففعل وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وغيرهم فأرّخه بالوقت الذي جدده »^(٢).

وبعقد الأمان هذا عاش المسلمون والنصارى جنباً إلى جنب خمسة عشر قرناً من الزمان متعايشين يسود بينهم الاحترام والبر كما علم القرآن المسلمين.

﴿ لَا يَنْهَكَمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة: ٨] والبر أعلى أنواع المعاملة، فهو يطلق للتعامل مع الوالدين، وهو الذي سماه رسول الله ﷺ في حديث آخر: « البر حسن الخلق... » إلى أن تدخلت الأيدي الأجنبية، وراحت تثير الإحن والضغائن بين الأهل والجيران فوق ما وقع.

إن هذا الدين حين قرر مبدأ الجزية، قرر مبدأ التعايش بين العقائد المختلفة في ظل نظام واحد، ورفض مبدأ الإبادة لأبناء العقائد الأخرى، ولو أراد ذلك ما كان في الأرض الإسلامية اليوم إلا المسلمون، وكانت المدن الأخرى في الشام على هذا المنهج.

(١) فتوح البلدان، للبلاذري (ص ١٢٨).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٣٠).

ب - فتح القدس:

وقام بتنفيذه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بشخصه حيث قدم من المدينة إلى الشام بدعوة عمرو بن العاص أميره، حيث اشترط أهل القدس ذلك.

« وعن خالد وعبادة قالا: صالح عمر أهل إيلياء بالجابية وكتب لهم فيها الصلح لكل كورة كتابًا واحدًا ما خلا أهل إيلياء، بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يُسكَّن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوت، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعتهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة»^(١).

فلقد كان هذا الأمن الإسلامي إلى ثلاثة نماذج تملك الاختيار في التصرف:

١ - إلى أبناء فلسطين والقدس الذين اشترطوا أن لا يساكنهم اليهود فيها، وأقر لهم هذا الشرط.

٢ - إلى أبناء الروم المحتلين الذين يرغبون الإقامة في القدس مواطنين عاديين، فيسري عليهم حكم الجزية كالمواطنين.

٣ - إلى أبناء القرى والبلدان الأخرى المقيمين في القدس في حقهم بالاستقرار

فيها أو العودة إلى بلادهم وقراهم، ويبقى حق كل فريق من هؤلاء، وحق أبناء القدس بالالتحاق بالروم بالاختيار التام حتى يبلغ مأمنه وموقع اختياره.

- « فأما سائر كتبهم فعلى كتاب لد: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم، أن لا تسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا مللها، ولا من صلبهم ولا من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط ^(١)... إلى آخره.

ج - فتح مصر:

وقد سبقها وصية رسول الله ﷺ فيهم: « إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحمًا » ^(٢). قال ابن شهاب: وكان يُقال أن أم إسماعيل بن إبراهيم منهم، وهذا عبادة ابن الصامت رسول الإسلام يعرض الموقف الإسلامي على المقوقس:

« إما أجبتم إلى الإسلام.. فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدت في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، فإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتكم، نقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا السيف... ».

واستطاع المقوقس بذكائه ودهائه أن يقنع الأقباط أهل مصر بقبول الجزية، عاصياً أمر هرقل ملك الروم « فاجتمعوا (عمرو والمقوقس) على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناراً عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، ومن بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيء، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث

(١) تاريخ الطبري (٤٤٩/٢).

(٢) المعجم الكبير، للطبراني (ح ١٥٧٨٤).

نزلوا.. ضيافة ثلاثة أيام مفترضة، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها، فشرط ذلك كله على القبط خاصة وحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفُرض عليهم الديناران، رفع ذلك عرفاؤهم بالآيمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف - وفي رواية ثمانية آلاف ألف - فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار (١٢ مليون)^(١).

د - سواد العراق:

وهم أهل العراق الأصليون المحكومون من فارس، فبعد وقعة القادسية اضطرب وضعهم فكتب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مع أبي الهياج الأسدي قال:

« إن أهل السواد جلوا، فجاءنا من أمسك بعهد ولم يُجلب علينا، فتمننا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم، وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن، فأحدث إلينا فيمن تمّ وفيمن جلا، وفيمن ادعى أنه استكره وحُشِر فهرب ولم يقاتل، أو استسلم، فإنا بأرض رغبة، والأرض خلاء من أهلها، وعددنا قليل، وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لنا وأوهن لعدونا تألفهم »^(٢).

فقام عمر في الناس واستشارهم، ثم كتب الجواب:

« أما بعد فإن الله جلّ وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين، العدل في السيرة والذكر، فأما الذكر فلا رخصة فيه على حاله، ولم يرض منه إلا الكثير، وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا في رخاء، والعدل - وإن رئي ليئلاً - فهو أقوى وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور وإن رئي شديداً فهو أنكش للفكر، فمن تم على عهده من أهل السواد، ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية، وأما من ادعى أنه استكره فمن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض، فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاؤوا، فانبذوهم إليهم، وأبلغوهم مأمنهم.. وأما من أقام ولم يُخلّ وليس له عهد، فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم، وكفّهم عنكم، وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك، وكل من ادعى ذلك فصدّق فلهم الذمة، وإن كذبوا بُذ إليهم، وأما من أعان

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم (ص ٦٨).

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٥).

رجلاً، فذلك أمر جعله الله لكم، فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية، وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم»^(١).

وعن عامر الشعبي قال: «قلت له: السواد ما حاله؟ قال: أخذ عنوة، وكذلك كل أرض إلا الحصون فحلا أهلها؛ فدعوا إلى الصلح والذمة فأجابوا وتراجعوا، فصاروا ذمة وعليهم الجزاء وهم المنعة، وذلك هو السنة، كذلك صنع رسول الله ﷺ بدومة، وبقي ما كان لآل كسرى ومن خرج معهم فيئاً لمن أفاء الله عليه»^(٢).

لقد عاشت هذه الأمة في ظل هذا الدين، حيث كان أهل الذمة يمثلون الطبقة الممتازة في المجتمع، يتمتعون بكامل الحقوق العامة التي يتمتع بها المسلمون، وأسقط عنه أفدح واجب وأثقله هو واجب الجهاد وحمايتهم مع مقدساتهم، والدفاع عنهم وبذل أرواحهم وحياتهم من أجلهم.

نهج الإسلام مع أهل الذمة:

وضمن المبادئ السبعة التي ذكرناها كانوا يعيشون مع المسلمين: (البر، العدل، الأمن، الحماية، حرية العقيدة، الحكم الذاتي، المشاركة في الحكم) ويساهمون في الحياة العامة كاملة في كل مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويمكن أن يرتقوا في سلم المناصب والوظائف العليا عدا الإمامة الكبرى التي تكون لأكثرية الأمة من المسلمين.

وفي عالم الدول المعاصرة اليوم يكون تنظيم الدولة أقرب ما يكون إلى الولايات المتحدة، إذا استثنينا ما يُسمى بالوزارات التي هي من شأن الدولة الاتحادية، فلدى كل ولاية برلمانها ووزاراتها، وتبقى الوزارة الاتحادية مثل العدل والتربية والداخلية والخارجية والدفاع والإعلام هي من حق الوزارة المركزية.

« ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة وإن لم يجز أن يكون التفويض^(٣) منهم، ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين من أربعة أوجه:

أحدها: أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤٣٦/٢).

(٣) وزير التفويض هو الذي يقوم مقام الخليفة فهو أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده. اهـ. وهو بمثابة رئيس الوزراء في الدولة البرلمانية.

والثاني: أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاية وليس ذلك لوزير التنفيذ.
والثالث: أن يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ.

والرابع: أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أمور بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه وليس ذلك لوزير التنفيذ.
وليس فيما عدا هؤلاء الأربعة ما يمنع أهل الذمة منها، إلا أن يستطيلوا فيكونوا ممنوعين من الاستطالة.

ولهذه الفروق الأربعة بين النظيرين افترق في أربعة من الشروط للوزارتين:
أحدها: أن الحرية معتبرة في وزارة التفويض، وليست معتبرة في وزارة التنفيذ.
والثاني: أن الإسلام معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ.
والثالث: أن العلم بالأحكام الشرعية معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ.

والرابع: أن المعرفة بأمرى الحرب والخراج معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ.
فاfterاً في شروط التقليد من أربعة وجوه كما افترقا في حقوق النظر من أربعة أوجه واستويا فيما عداها من حقوق وشروط».
وحين ننظر إلى شروط الوزير التنفيذي نجد أنها تعتمد على الكفاءة والخبرة فقط، وهذه الشرط الثمانية، هي:

- ١ - الأمانة حتى لا يخون فيما أوّمن عليه ولا يغش فيما استنصح فيه.
- ٢ - صدق اللّـهجة حتى يوثق بخبره فيما يؤديه، ويعمل على قوله فيما ينهيه.
- ٣ - قلة الطمع حتى لا يرتشي فيما يلي ولا ينخدع فيتساهل.
- ٤ - أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء، فإن العداوة تصد عن التناصف وتمنع من التعاطف.

٥ - أن يكون ذكوراً لما يؤديه إلى الخليفة وعنه لأنه شاهد له وعليه.

٦ - الذكاء والفتنة حتى لا تدلس عليه الأمور فتشبهه، ولا تموه عليه فتلتبس.

٧ - أن لا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل، ويتدلس عليه المحقق من المبطل.

فإن كان هذا الوزير مشاركاً في الرأي احتاج إلى وصف ثامن وهو:

٨ - الحنكة والتجربة التي تؤديه إلى صحة الرأي وصواب التدبير، فإن في التجارب خبرة بعواقب الأمور^(١).

والملاحظ أن التركيب لنظام الحكم الحديث في العالم يجعل الوزراء جميعاً يمثلون السلطة التنفيذية في الأمة لا السلطة التشريعية ولا السلطة القضائية، وعلى هذا فكل وزارات الدولة يمكن أن يستلمها الأكفاء والأخلاقون من أهل الذمة، طالما أنها منطلقة في تشريعاتها جميعاً من الإسلام، وهم منفذون لهذه التشريعات ونظام فصل السلطات هو الذي يؤكد ذلك.

فقه الحماية ومسؤولية الدولة في الحماية مقابل فرض الجزية:

هذه القضية من القضايا الشائكة التي اختلطت فيها الأنظار، فإذا اعتبر الإسلام إعفاء أهل الذمة من الدفاع عن وطنهم وأوكل هذا الأمر للمسلمين، ميزة يقدمها لهم مقابل الجزية البسيطة التي يأخذها منهم، فإن الكثير منهم يعتبرون هذا الأمر إهانة لهم، وتجريداً لهم من حق المشاركة في الجيش والدفاع عن الوطن، وفي عالمنا الثالث حين يكون الجيش هو الحاكم، فمعنى هذا الأمر حرمانهم من كل مواقع المسؤولية والنفوذ في البلد التي يقيمون فيها.

وللحقيقة أعترف أن من علمني فقه الحماية هذا هو زميل نصراني من أهل الكتاب وأحد ضباط الجيش السوري البارزين، إذ كنا في جلسة معاً فوجّه هذا السؤال: هل ستأخذون الجزية منا إذا حكمتكم بالإسلام؟

فقلت له: هذا هو حكم الله بالنسبة لأهل الكتاب، فكما يدفع المسلمون الزكاة مساهمة في ميزانية الدولة وأصنافها المستحقين الثمانية، فكذلك يدفع أهل الكتاب الجزية، ولأن الزكاة عبادة فلم يجبر الإسلام أهل الكتاب على هذه العبادة، وسمى المشاركة المالية لهم في ميزانية الدولة بالجزية.

(١) الأحكام السلطانية، للهاوردي (ص ٢٧، ٢٨).

قال: دعني أقل لك بصراحة: إنكم جنباء - ويقصد دعوة الإسلام - فاستغربت منه ذلك؛ فأردف: لم يكن هناك نظام أعدل من الإسلام وأسمى منه يوم فرض الجزية على أهل الكتاب.

سرني جوابه وقلت له: وأين أعجبتك عدالته؟

قال: الجهاد في الإسلام ليس للدفاع عن الوطن فحسب، والدفاع عن الوطن جزء من مهماته، إنما المهمة الرئيسية للجهاد في الإسلام هي نشر هذا الدين، وتبليغه للناس كافة، وتصور معي أن الإسلام قد فرض على أهل الكتاب أن يشاركوا في هذا الجيش، ويسعوا في الأرض ليحاربوا أهل دينهم ويموتوا ويقتلوا لنشر غير دينهم، فكم هو ظلم وقهر واستعباد لهم يوم يُسخرون لذلك، فجاء الإسلام وأعفاهم من هذه المهمة العسيرة المجحفة بحقوقهم، وأخذ منهم الجزية مشاركة بسيطة بمالهم مقابل حمايتهم من إخوانهم المسلمين بأرواحهم ودمائهم، وأنتم الدعاة إلى الإسلام تأثرتم بتركيب الجيش في هذا العصر، حيث أصبحت مهمات الجيوش الدفاع عن الوطن فقط، ولا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد، ورحتم تقيسون الحكم الشرعي الخالد على الوضع المستجد الطارئ. وأدركت حقيقة ما فاتني من قبل وعلمنيه هذا الزميل الكتابي.

خلال أربعة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي، كان الجهاد في سبيل الله ينطلق لتحرير الإنسان بنشر الإسلام في الأرض وتطبيق شريعته، ثم ما فتئت مهمة الجيوش محصورة في دول الأرض بحماية الأوطان، والمحافظة على الحدود، ومنع العدو من الاقتراب منها.

وفي اللحظات الحرجة التي شعر فيها المسلمون أنهم عاجزون عن حماية أهل الذمة الذين عاهدوهم على ذلك، أعادوا الجزية لأصحابها، وطلبوا منهم أن يشاركوا في الدفاع عن الوطن أمام الهجوم الكاسح من العدوان وكان هذا في العهد الراشدي.

« ولا تظن أن شرط المنعة في الجزية إنما كان يقصد به مجرد تطيب نفوس أهل الذمة، وإسكان غيظهم، ولم يقع العمل قط، فإن من أمعن النظر في سير الصحابة، واطلع على مجاري أحوالهم عرف من غير شك أنهم لم يكتبوا عهداً ولا ذكروا شرطاً إلا عضوا عليه بالنواجذ، وأفرغوا الجهد في الوفاء بها، وكذلك فعلهم في الجزية التي يدور رحي الكلام عليها، فقد روى القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج عن مكحول أنه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم، صاروا أشد على عدو المسلمين،

وعيوناً للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعاً لم يُر مثله، فأتى رؤساء أهل كل مدينة الأمير الذي خلفه أبو عبيدة إلى أبي عبيدة يخبره بذلك، وتتابع الأخبار على أبي عبيدة فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين، فكتب أبو عبيدة لكل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جُبي منهم من الجزية والخراج، كتب إليهم أن يقولوا لهم: إنما ردنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد ردنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي حتى لا يدعوا شيئاً».

وقال العلامة البلاذري في كتابه فتوح البلدان (بسنده) قال: « بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، قالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: كولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفع جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود وقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا على ما كنا عليه، وإلا فإننا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد»^(١).

وقال العلامة الأزدي في كتابه فتوح الشام يذكر إقبال الروم على المسلمين ومسير أبي عبيدة من حمص: « فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال: اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم، فإنه لا ينبغي لنا إذ لا نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً، وقل لهم: نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح، ولن نرجع عنه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما ردنا عليكم أموالكم لأننا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم... »

أما ما ادعينا من أن أهل الذمة إذا لم يشترطوا علينا المنعة أو شاركونا في الذب عن

(١) فتوح البلدان، للبلاذري (١/١٦٢).

حريم المُلْك لا يطالبون بالجزية أصلاً، فعمدتنا في ذلك أيضاً صنيع الصحابة، وطريق عملهم فإنهم أولى الناس بالتنبه لغرض الشارع وأحقهم بإدراك سر الشريعة، والروايات في ذلك وإن كانت جمّة نكتفي هنا بقدر يسير يغني عن كثير.

فمنها: كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر بن الخطاب لمرزبان وأهل دهستان وهاك نصه:

هذا كتاب من سويد بن مقرن.. ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً عن جزائه...

ومنها: الكتاب الذي كتبه عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصه: هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان.. ومن حُشر منهم في سنة وُضع عنه جزاء تلك السنة...

ومنها: العهد الذي كان بين سراقه عامل عمر بن الخطاب وبين شهر براز، كتب به سراقه إلى عمر فأجازه وحسنه وهاك نصه:

هذا ما أعطى سراقه بن عمرو عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان.

.. وعلى أرمينية والأبواب الطراء منهم والتَّناء منهم ومن حولهم، فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وَيَنْفُذُوا لكلِّ أمرٍ نابٍ أو لم يَنْبُ رآه الوالي صلاحاً على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك، ومن استغنى وقعد فعليه ما على أهل أذربيجان»^(١).

إننا حين نقارن بين ما يعطيه الإسلام لأهل الذمة، وما تعطيه الحكومات الحديثة للأقليات، نجد الحقوق المعطاة لأهل الذمة أكبر، وللأقليات أقل، كما نجد الواجبات المفروضة على الأقليات أفدح من الواجبات المفروضة على أهل الذمة، ففي النظام الديمقراطي يستأثر حزب الأكثرية بالسلطة، ومواقع المسؤولية، وليس هذا الأمر في النظام الإسلامي، فـ «إن حق الأغلبية في أن تحكم مثلاً لا يخل بقاعدة المساواة بأي حال وهو الأساس الذي تقوم عليه الديمقراطيات الغربية، والأمريكيون يصوغون القضية في التعبير الشائع: حكم الأغلبية وحقوق الأقلية، بل إن العرق الأمريكي يذهب

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٠/٢٩٥ - ٢٩٧)، والطراء: الغرباء، والتناء: المقيمون.

في قمة الديمقراطية الغربية إلى اشتراط أن يكون الرئيس من فئة ذات مواصفات محددة، تعرف باسم (واسب)، وهي اختصار لمواصفات: أبيض وأنجلوا وسكسوني وبروتستانت، وقيام الدولة على العقيدة يربط نتيجة بديهية أخرى هي حق الدولة في أن تستخدم كوادرها على رأس الموقع ذات الصلة البعيدة والقريبة بتلك العقيدة، فضلاً عن حقها في أن تصون خصوصيات المؤمنين بعقيدتها عن طريق إدارة ومباشرة تلك الخصوصيات من خلال كوادرها المؤهلة للقيام بتلك المهام.

إن انتقال الرئاسة الأمريكية من حزب إلى حزب يقضي حسب العرف الأمريكي بأن يقدم حوالي ألفين من الموظفين الكبار في الإدارة السابقة استقالاتهم إلى الرئيس الجديد، حتى يتسنى له أن يعيد بناء إدارته الجديدة بأكبر قدر من التوافق والانسجام، وليس مفترضاً هنا أن موظف الحزب الذي تقلد الرئاسة أفضل من موظف الحزب الذي ترك الحكم، ولكن لأن الحزب الجديد يتبنى سياسة معينة، ومن حقه أن يعيد بناء الإدارة الأمريكية بالشكل الذي يخدم هذه السياسة^(١).

فإذا كانت الصياغة الأمريكية لهذه القضية حكم الأغلبية وحقوق الأقلية، فهي في العرف الإسلامي حقوق الأغلبية والأقلية وواجباتهم، ورأينا في الفقرة السابقة مدى مساهمتهم ومشاركتهم في الحكم، ولا نبالغ إذا قلنا أن إعفاءهم من القتال في العرف الديمقراطي هو وضع ممتاز بالنسبة لهم يتمنى الكثيرون الوصول إليه، وعلية القوم في المجتمعات المعاصرة هم الذين يعفون من الخدمة الإلزامية في الجيش، وحين يختارون المشاركة فكما أفادت النصوص السابقة يُعفون من الجزية مقابل ذلك.

المعايشة طريق دخول الإسلام:

حين نقرأ تاريخ الفتوحات الإسلامية نذهل للنتائج الكبرى لسيادة الإسلام في هذه الأراضي المفتوحة، ففي كل قطر لا يتجاوز أعداد الجيوش الإسلامية عشرات الألوف على أبعد تقدير وهم بالنسبة لأهل الأرض نقطة في بحرهم، ومع ذلك، ومع مرور الزمن تحول هؤلاء الذميون إلى الإسلام وأصبحت الغالبية العظمى من المسلمين في هذه البلاد نتيجة التعامل الإسلامي، والعدل الإسلامي، والسلوك الإسلامي، أما المبدأ فلا إكراه في الدين.

(١) مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي (مع التحفظ على العنوان) (ص ١٥٤، ١٥٥).

وهذا هو الهدف الرئيسي من فكرة الجزية وأهل الذمة، في أن يُتاح من خلال التعامل والمعايشة الإسلامية التعرف على مبادئ هذا الدين وعظمته، فتفتح القلوب له.

والحادثة المشهورة أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز تجلي هذا الأمر وتوضحه فقد « عزل عمرُ بن عبد العزيز الجراحَ بن عبد الله الحَكَمي عن إمرة خراسان بعد سنة وخمسة أشهر، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار، ويقول: إنما أنتم مسلمون فراراً منها فامتنعوا عن الإسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية، فكتب إليه عمر: إن الله إنما بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه جابياً، وعزله وولى بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيري على الحرب وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج »^(١).

لقد أحس النصارى بنعمة الحياة في ظل الإسلام « ولما عرف رهبان القبط هذا الأمر من عمرو بن العاص وتيقنوه خرج عدد عظيم منهم من الأديرة التي كانوا قد اعتصموا بها خوفاً من الاضطهاد والعسف وساروا في نحو سبعين ألفاً - كما يروي المقريزي - كل منهم يحمل في يده عصا إلى عمرو، ويعلنون له الطاعة.. وكان عمرو بن العاص من جهة أخرى حريصاً على أن يعود الطريق بنيامين إلى رئاسته الدينية لما عرف من محبة القبط له وتعلقهم به؛ لذلك أرسل عمرو إلى بنيامين كتاباً يقول فيه: أينما كان بطريق القبط بنيامين نعهده بالحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق إلى هنا في أمان واطمئنان ليلي أمر ديانته، ويرعى أهل ملته... ولم يلبث عهد الأمان الذي كتبه عمرو أن بلغ البطريق بنيامين فعاد من مخبئه ودخل الإسكندرية دخول الظافرين، وفرح الناس برجوعه فرحاً عظيماً بعد غياب بلغت مدته ثلاثة عشر عاماً، ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر للقبط على يد « قيرس » والثلاث الباقية في مدة حكم المسلمين.. وأخذ بنيامين يقول لأتباعه: عدت إلى بلدي الإسكندرية، فوجدت بها أمناً من الخوف واطمئناً بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم... وكان من أمر هذه الحرية الدينية التي أطلق عقالها عمرو بن العاص أن أقبل كثيرون من عقلاء الروم والمصريون والأقباط على النظر في المذاهب المختلفة، ثم انتهى أكثر هؤلاء إلى قبول الإسلام والدخول فيه »^(٢).

وذكر الطبري بسنده قوله: « قال الديلم ورؤساء أهل المسالحي الذين استجابوا

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٩٧/٩/٥).

(٢) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبو رابية (ص ٣٥١، ٣٥٢) بتصرف.

للمسلمين وقاتلوا معهم على غير الإسلام إخواننا الذين دخلوا في هذا الأمن من أول الشأن أصوب منا وأخير، ولا والله لا يفلح فارس بعد رستم إلا من دخل في هذا الأمر منهم فأسلموا»^(١).

بنو تغلب حين رفضوا الجزية: روى البلاذري عن السفاح الشيباني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أراد أن يأخذ الجزية من نصارى بني تغلب فانطلقوا هارين، ولحقت طائفة منهم ببعيد من الأرض، فقال النعمان بن زرعة: أنشدك الله في تغلب فإنهم قوم من العرب نائفون من الجزية، وهم قوم شديدة نكايتهم، فلا يغنّ عدوك عليك بهم، فأرسل عمر في طلبهم، فردّهم وأضعف عليه الصدقة، وفي رواية مخنف وابن الحكم قالا: كتب عمير بن سعد إلى عمر بن الخطاب يعلمه أن أتى شق الفرات الشامي ففتح عانات وسائر حصون الفرات وأنه أراد من هناك من بني تغلب الإسلام فأبوه وهموا باللاحاق في أرض الروم، وقبلهم ما أراد من في الشق الشرقي على ذلك وامتنعوا منه وسألوه أن يأذن لهم في الجلاء واستطلع رأيهم فيهم، فكتب إليه عمر رضي الله عنه بأمره أن يضعف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض، وإن أبوا ذلك حاربهم حتى يبيدهم أو يسلموا، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة وقالوا: أما إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج فإننا نرضى ونحفظ ديننا»^(٢).

وحين أصبحت شارة للذل ورفضها العرب الذين يأنفون من الجزية يعتبرونها على الأعاجم، فضاعف عليهم الصدقة وغير المسمى.

أهل الذمة في العهدين الأموي والعباسي:

وبقي أهل الذمة في الحضن الإسلامي العظيم طيلة العهدين الأموي والعباسي في أعلى مستويات التكريم «عندما لاحظ آدم ميتز كثرة العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية في عصورها المبكرة كان تعليقه هو: كأن النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الشام.

ففي العهد الأموي أسند معاوية بن أبي سفيان الإدارة المالية في الدولة لأسرة مسيحية

(١) الطبري (٢/٤٢٥).

(٢) فتوح البلدان، للبلاذري (ص ١٨٥، ١٨٦).

توارث أبنائها الوظائف لمدة قرن من الزمان بعد الفتح الإسلامي، ومن أفرادها القديس والمؤرخ يوحنا الدمشقي المعاصر لمعاوية وولده يزيد، كما أسند معاوية إلى طبيبه ابن آثال جباية خراج حمص وهي وظيفة مالية لم يسبق لنصراني قبله أن وصل إليها، وكان سرجون كاتبًا مسيحيًا لمعاوية.

وكان عبد الملك بن مروان قد اختار عالمًا مسيحيًا من مدينة الرها يدعى أثناسيوس مؤدبًا لأخيه عبد العزيز ورافق أثناسيوس هذا تلميذه إلى مصر عندما عين واليًا عليها، وهناك جمع ثروة طائلة.. وبلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الإسكندرية، وكان يُنعت بالمكاتبات بالكاتب الأفخم» وكان بديوانه عشرون كاتبًا، ثم زادوا إلى أربعة وأربعين حتى شغل أثناسيوس منصب متولي الخراج عند الخليفة عبد العزيز.

وكان في خدمة الخليفة المعتصم أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين، أحدهما يُدعى سلمويه، ويظهر أنه كان يشغل منصب قريب أشبه ما يكون من منصب الوزير في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد، وفي عهد المعتضد كان والي الأنبار مسيحيًا، وعهد الموفق وكان صاحب السلطان المطلق في عهد أخيه المعتضد بأمر تنظيم الجيش إلى مسيحي ويُدعى إسرائيل، كذلك كان نصر بن هارون مسيحيًا، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهية الذي حكم العراق، وقد ظلت دواوين الحكومة - وخاصة ديوان الخراج - فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس، وظلت الحال في مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جدًا؛ حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكارًا يكاد يكون تامًا.

وللإنصاف نقول: إن الأمور لم تسر دائمًا على هذا النحو، فلم تخل رحل التاريخ الإسلامي عبر قرونها الطويلة من صفحات ليست بنفس القدر من الصفاء والنصاعة، وفي هذا الصدد يذكر توماس أرنولد: «أنه كان تفرض أحيانًا بعض الحالات التي تضايق الأهالي من غير المسلمين (أو أهل الذمة) .. وهذه تتنافى مع الروح العامة التي ظهر بها الحكم الإسلام.. على أن الفترة الواقعة بين خلافة السفاح وحتى نهاية عصر المعتصم تُعتبر من العهود الزاهرة في تاريخ أهل الذمة، لما لقيه أهل الذمة من تسامح في ممارسة

شعائهم، وفي مساواتهم بالمسلمين في الوظائف العامة، فكانت طوائف الموظفين الرسميين تضم مئات من المسيحيين، وقد بلغ عدد الذين رُقِّوا إلى مناصب الدولة العليا من الكثرة لدرجة أثارت شكوك المسلمين، وفي الوقت ذاته كانت الجامعات والمعاهد الإسلامية مفتوحة على مصاريعها لأهل الذمة حتى تتلمذوا على أيدي فقهاء وعلماء مسلمين مثل حنين بن إسحاق ويحيى بن عدي...»^(١).

شهادتان من خصوم الإسلام:

يشهد العالم الألماني الشهير آدم ميتز أنه « صار أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى يتمثل في وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين ويضيف قائلاً: إن أهل الذمة استندوا إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود، وما منحوه من حقوق، فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين، وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل (دار الإسلام) دائماً غير تامة التكوين، حتى أن المسلمين ظلوا دائماً يعدون في البلاد المفتوحة أجناب متصرفون لا أهل وطن، وليس أدل على ذلك الاستقلال المبني على الاحترام من أن قبط مصر مثلاً لم يستخدموا اللغة العربية إلا في أواخر القرن الرابع الهجري، أي أنهم ظلوا خلال ٣٥٠ عاماً بعد الفتح الإسلامي يتكلمون اللغة القبطية، ويذهب ميتز إلى أن وجود النصارى بين المسلمين كان سبباً لظهور التسامح الذي ينادي به المصلحون المحدثون، وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق نوعاً من التسامح الذي لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي: دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم»^(٢).

غير أن ما ينبغي أن يستوقفنا في هذا السياق هو تلك الشهادة التي سجلها الأستاذ آدمون رباط في بحثه الهام: « المسيحيون في الشرق قبل الإسلام » وفيها يقول: للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها ألا وهو نشر الإسلام عن طريق الجهاد بأشكاله المختلفة من عسكرية وتبشيرية إلى

(١) مواطنون لا ذميون، للأستاذ فهمي هويدي (ص ٦٩ - ٧١) بتصرف.

(٢) المصدر السابق (ص ٦٤، ٦٥) عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتز.

الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطرز حياتها وذلك في زمن كان يقضي الزمن السائد بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل حتى على الانتماء على الشكل الخاص الذي يرتضيه هذا الدين، كما كان الأمر عليه في المملكتين العظيمتين اللتين كان يتألف منهما العالم القديم، وهو القاعدة السياسية المعروفة بصيغتها اللاتينية... أي لكل مملكة دينها مما يؤدي لأن يصبح الشعب على دين الملك.

هذه القاعدة التي لم تندثر في البلاد الغربية إلا بفرض الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، وكان لا بد إذن لهذه السياسة الإسلامية المنحدرة من القرآن من أن تسفر عنها نتيجتان حاسمتان ما لبثت آثارهما ماثلة في الشعوب العربية وهما بقاء الطوائف المسيحية على أساس النظام الطائفي من جهة، ودخول سكان الأقطار التي فتحها العرب في دين الإسلام من جهة أخرى.

فتلك الجماهير الكثيفة التي تشكل أغلبية أهالي سورية ومصر والعراق إنها كانت تدين بالمسيحية، وقد اعتنقت الإسلام بأفواج متلاحقة منذ القرن الأول للهجرة بملء حريتها، في حين أن من بقي من هؤلاء النصارى موزعين إلى طوائفهم المعروفة بتسمياتها المختلفة، إنما هم شهود عدل عبر التاريخ ليس على سماحة الإسلام، وهو تعبير لا يفي بالواقع؛ لأن وجودهم كأهل ذمة في الماضي إنما كان مبنياً على قاعدة شرعية وليس على شعور من طبيعته أن يتضاعف أو يضعف، وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي جاء به القرآن، وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة بل أيضاً بالمواطنة الشاملة في عصرنا الحاضر الذي زال فيه نظام الذمة لكي يحل محله نظام الحريات العامة المنطوية لزاماً على مبدأ المساواة التامة في المواطنة.

أهل الكتاب في ظل الدولة العثمانية:

ويروي الأمير شكيب أرسلان في مقال بعنوان: التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي: « أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال دولة أوربة فيما يتعلق بهذا الموضوع، فقال لهم الوزير العثماني: إننا - نحن المسلمين - من ترك وعرب وغيرهم مهما بلغنا التعصب في الدين فلا يصل إلى درجة

استتصال شأفة أعدائنا، ولو كنا قادرين على استتصالهم، ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين على أن لا نبقي بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين، وأن نجعل بلداننا كلها صاغية للإسلام، فما هاجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة، ويجأجئه مثل زنبيلي أفندي شيخ الإسلام ويقول بلا محاباة: ليس على اليهود والنصارى إلا الجزية وليس لك أن ترعجهم عن أوطانهم فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف، فبقي بين أظهرنا حتى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة ومجوس وسامرة، وكلهم كانوا وافرين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم عليه إذا أراد البقاء بينكم أن يتنصر، ولقد كان في إسبانيا ملايين من المسلمين، وكان في جنوبي فرنسا، وفي شمالي إيطاليا وجنوبها مئات ألوف منهم، ولبثوا في هاتيك الأوطان أعصرًا مديدة وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت بلاد إسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يُعرف أنه قبر مسلم»^(١).

شبهات حول أهل الذمة:

ومع كل ما ذكرناه فلا تزال الشبهات تثار حول أهل الذمة في التاريخ الإسلامي بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وأنهم محرومون من المشاركة في الدفاع عن أوطانهم، ومحرومون من المشاركة في الحياة السياسية ويُنظر لهم بازدراء من المسلمين، وتقوم المحاولات لتذويهم والقضاء عليهم وقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام إلى آخر هذه الأباطيل التي فندنا معظمها في بحثنا الآنف الذكر.

ومع هذا فيمكن تقديم الإجابة التالية على هذه النقاط:

١ - أما إنهم مواطنون من الدرجة الثانية فهذا لا أساس له لأن حقوقهم في بلدهم ووطنهم مثل حقوق المسلمين سواءً بسواء، وإن كان هناك بعض التمييز فمرده إلى فكرة الأقلية والأكثرية لا إلى شيء آخر، وهذا المبدأ هو الذي تقوم الديمقراطية على أساسه اليوم.

(١) حاضر العالم الإسلامي، للأمير شكيب أرسلان (٢/٢/٢١٠).

٢ - وأما حرمانهم من المشاركة في الدفاع عن أوطانهم، فمرتبط بمهمة الجيش في الدولة الإسلامية الذي يقوم على نشر العقيدة الإسلامية إضافة إلى حماية حدود الدولة، وحين يكون الدفاع عن الوطن هو مهمة الجيش فقط فهم شركاء في ذلك، ويأخذون حقهم بنسبتهم العددية في مجتمعهم وأمتهم.

٣ - وأما حرمانهم من المشاركة في الحياة السياسية، فهذا لا أصل له، لأن الأمر الوحيد الذي لا يملكونه هو الرئاسة الأولى في الدولة ووزارة التفويض في دولة تحكم بشريعة الإسلام، وهذا مرهون بدينهم المغاير من جهة وبنسبتهم العددية من خلال الأقلية والأكثرية في مجتمعاتهم ودولهم وأوطانهم.

٤ - وأما محاولة إزابتهم أو تهديدهم في أمنهم أو إجبارهم على الإسلام فهذا لا أصل له لأن الإسلام لو كان يريد لهم ذلك لما سمح بالتعايش الكامل معهم وهم لا يزالون منذ أربعة عشر قرناً يعيشون بجوار المسلمين.

٥ - فالإسلام لا يحمل مسؤولية الفهم الخاطئة له أو التطبيق السيئ له، كما لا نحمل غير المسلمين الممارسات الحاقدة من أبناء دينهم والتصرفات التي تسعى لإزالة الإسلام من الوجود من إخوانهم في دينهم.

٦ - ونتمنى نحن اليوم أن يكون للأقليات الإسلامية في دول الغرب الديمقراطية والنصرانية ما كان لأهل الذمة من حقوق في ظل الدولة الإسلامية، والممارسات التي شهدناها في أوروبا من منع الحجاب للمسلمات، ومن منع تعدد الزوجات، وغير ذلك من أحكام الإسلام التي يحكمها القانون المدني والجزائي ولو خالف عقائد المسلمين وشرائعهم، ولا نتحدث عن الدول الدكتاتورية التي أرادت محو الإسلام من الأرض في الماضي والحاضر، فتلک الطواغيت لها شأن آخر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ملخص البحث:

نخلص بعد هذا العرض إلى النتائج التالية:

١ - عندما أصبح للإسلام دولة انطلقت لتفتح البلدان، نشأ تعبير أهل الذمة كما في وصية مؤتة.

- ٢ - وحين يكون للإسلام دولة تملك أن تجاهد في الأرض لتنشر دين الله، يقوم هذا الحكم من جديد، فالحديث عن جانب تاريخي.
- ٣ - عندما أنزل الله تعالى قتال أهل الكتاب في السنة التاسعة للهجرة، نصّت الآية على الجزية ولم تنص على فرض الإسلام.
- ٤ - يريد الإسلام من القوى المحاربة للإله أن تستسلم، وتزيل العوائق بين خلق الله ودين الله حتى يتبين الرشد من الغي.
- ٥ - كان اليهود هم أول من نعموا في الأرض بظل عدالة الإسلام بعد فتح خير، واعترفوا أن هذا العدل به قامت السموات والأرض.
- ٦ - أول ما يحرص عليه الإسلام حين يحكم الأمم بعد إقامة العدل فيها هو أن تنعم بالأمن على حريتها وعقيدتها وما لها.
- ٧ - وتم هذا الأمن والعدل لليهود في شمالي الجزيرة وفي جنوبها في نجران مع النص الصريح على حرية العقيدة بعد العدل والأمن.
- ٨ - كما نصت العهود النبوية على حق المعاهدين في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ولا تتدخل الدولة الإسلامية بشؤونهم.
- ٩ - ونصت على حمايتهم من العدوان الخارجي مثل ما يحمي المسلمون مقدساتهم وأعراضهم، كذلك تحمي بيعهم وكنائسهم.
- ١٠ - وسار المؤمنون في العهد الراشدي على النهج النبوي تمامًا في تعاملهم مع الأمم كلها في الشام والعراق ومصر وفارس وفلسطين.
- ١١ - ووثيقة عهد دمشق والقدس والأردن ومصر وفارس والشرق الإسلامي كله ابتداءً من العراق وما بعدها تؤكد ذلك.
- ١٢ - المبادئ السبعة التي تمثل نهج الإسلام مع أهل الذمة هي: البر، العدل، الأمن، الحماية، الحرية، الحكم الذاتي، المشاركة في الحكم.
- ١٣ - حق أهل الذمة في المشاركة في الحكم وفي وزارات التنفيذ ثابت في الفقه الإسلامي، وشروطه الأمانة والخبرة والكفاءة.
- ١٤ - حق الحماية مرتبط بالجزية وفقهه أن لا يفرض على أهل الذمة القتال لنشر دين غير دينهم فيتكفل المسلمون بحمايته.

- ١٥ - وحين تسقط إمكانية الحماية تسقط الجزية، كما فعل أمين الأمة أبو عبيدة مع كل من خاف من العجز عن حمايتهم بأن أعاد لهم جزيتهم.
- ١٦ - وتنص بعض الوثائق والعهود على ذلك، فمن شارك في الدفاع عن وطنه سقطت عنه جزيته بهذه المشاركة.
- ١٧ - هدف الإسلام من هذه المعاشية، أن تتعرف الأمم على الإسلام نظريًا وعمليًا، وهذا الذي أدخل الناس بالإسلام.
- ١٨ - حين فُهمت الجزية على أنها الإذلال والإهانة غيّرَها أمير عمر بمضاعفتها وتسميتها الصدقة وأخذها من بني تغلب.
- ١٩ - في ظل الحكم الإسلامي القوي بقي أهل الذمة على امتيازاتهم كاملة، وشاركوا في الحكم في جميع عهود الدولة المسلمة.
- ٢٠ - شهادة آدم ميتز وأدمون رباط النصرانيين أكدتا أن التعامل الإسلامي هو أساس حقوق المواطنة في العصر الحديث.
- ٢١ - وفي ظل الدولة العثمانية عادت الامتيازات كاملة لأهل الذمة، بينما كانت فلسفة النصارى استئصال غيرهم من الأرض وخاصة المسلمين.
- ٢٢ - ولا تزال الشبهات حول أهل الذمة قائمة، مع أن الإسلام والواقع الإسلامي يفند هذه الشبهات، ويحلم المسلمون في ظل الديمقراطيات بأن يصلوا ما لأهل الذمة من حقوق في ظل الدولة الإسلامية.



قضايا إسلامية معاصرة

عرض القضايا المعاصرة ومعالجتها من منظور إسلامي

المحور الخامس

قضايا عامة

- ١ - الوحدة العربية.
- ٢ - القضية الفلسطينية.
- ٣ - المشروع الحضاري والإعلام.
- ٤ - العولمة.
- ٥ - الحرية.

الوحدة العربية

تمهيد: لماذا الحديث عن الوحدة العربية؟

الحديث عن الوحدة العربية هو من مفرزات هذا القرن، وكان من أهم طروحات دعاة القومية العربية ويكاد يكون القاسم المشترك بينهم جميعاً، فإذا كان شعار البعث العربي الاشتراكي هو الوحدة والحرية والاشتراكية، فشعار القوميون العرب وحدة وتحرر وثأر، والاتحاد الاشتراكي المصري ينطلق من الحرية والاشتراكية والوحدة، والحركات التي قامت في العهد العثماني طرحت كلها شعار وحدة الأمة العربية، وكان أساساً من مباحثات الشريف حسين ومكماهون، وحزب عصبة العمل القومي يقول: «إننا نريد وحدة سورية، فوحدة عربية شاملة ذات كيان سياسي مستقل محترم»^(١) وهو أول حزب قومي في عهد الانتداب الفرنسي عام (١٩٣٣)، أما قبل الانتداب فكان حزب العربية الفتاة هو الذي حمل هذه الراية في العهد العثماني وقد تأسس عقب الانقلاب العثماني عام (١٩٠٨) بأربعة أيام وهدفه (النهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية)^(٢) كما تقول المادة الأولى من الدستور آنذاك، لم تكن التجزئة قائمة، وكانت الأمة العربية كلها ضمن الدولة العثمانية.

وإذا تجاوزنا الأحزاب إلى الدول، فمعظم دساتير الدول العربية تنص على مطلب الوحدة العربية، كما قال القوتلي رئيس سورية في عيد الاستقلال الأول: «إننا لن نقبل أن يرتفع فوق علم هذه البلاد سوى علم واحد هو علم الوحدة العربية»^(٣).

ولقد تجذر شعور الوحدة العربية لدى الشباب العربي في كل مكان، من دون أن يتجسد في هذا القرن إلا في وحدات جزئية أو اتحادات إقليمية، لم تمثل طموح العرب ولا رغبتهم في أن يرى العرب في دولة واحدة يرفرف عليها علم واحد.

وشاركت الحركات الإسلامية في هذا المبدأ، ونصت عليها في مبادئها، في الوقت

(١) الحكم الحزبي في سوريا، للدكتورة سهيلة الريماوي (ص ١٠٩).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٥).

(٣) فجر الاستقلال في سورية، لسهيل العشي (ص ٢٦٢).

الذي كانت الحركات الإقليمية هي التي تمثل أنظمة الحكم، فقد تحدث الإمام البنا - رحمه الله - عن الوحدة العربية بصفته مطلباً وهدفاً من مطالب الإخوان المسلمين وبصفته نواة للوحدة الإسلامية، وكان الصراع قائماً بين دعاة الإسلام في النصف الثاني من القرن العشرين حول أولوية الوحدة العربية أو أولوية الدولة الإسلامية، وعندما قامت الوحدة الوحيدة اليتيمة في القرن الماضي بين سورية ومصر كان الإخوان المسلمون في سورية من أشد المتحمسين لها وكانت تظاهراتهم في تأييدها تفوق كل التظاهرات، وعندما وقع الانفصال بين جناحي الجمهورية العربية المتحدة، كان الإخوان المسلمون هم الهيئة السياسية الوحيدة التي رفضت التوقيع على وثيقة الانفصال.

الزمن يمر والتجزئة مستمرة، وعرى الوحدة منفصلة، والشعور العربي بالرغبة في الوحدة يطغى ويتنامى.

سيكون حديثنا في هذا البحث لأضخم مشكلات هذا العصر، عن الجذور التاريخية للعرب وللوحدة العربية، وإبراز أن الإسلام في التاريخ هو وحده الذي أنشأ الوحدة العربية، وأقامها واقعاً حياً على الأرض، وهو الذي حافظ عليها من الاندثار طيلة أربعة عشر قرناً، وهو اليوم يحمل هذا اللواء، وهو الوحيد القادر على توحيد هذه الأمة نواة لوحدة الأمة المسلمة، ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

أولاً: العرب وأصولهم:

أما أصول العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام، بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

١ - العرب البائدة: وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواهما.

٢ - العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان، وتُسمى بالعرب القحطانية.

٣ - العرب العدنانية: قال ابن إسحاق: فمن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام.

العرب العاربة: وهي شعب قحطان فمهدوها بلاد اليمن..

« قال ابن هشام: فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان، وبعض أهل اليمن يقول: قحطان من ولد إسماعيل، ويقول: إسماعيل أبو العرب كلها »^(١).

وروى الترمذي عن فروة بن مسيك المرادي رضي الله عنه قال: « وأنزل في سبأ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله: وما سبأ، أرض أو امرأة؟ قال: « ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد له عشرة من العرب فتيا من منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخم وخدام وعاملة وغسان، وأما الذين تيامنوا: فالأزد والأشعريون وحمير ومذحج وأنمار وكندة » فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: « الذين منهم خثعم وبجيلة »^(٢).

وهكذا نرى أن الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق من أصل واحد، وينتمون إلى سبأ ومعظم قبائل اليمن كذلك، والأوس والخزرج في المدينة من أولاد عمرو بن عامر من اليمن.

ثانياً: الملك العربي:

لقد قام للعرب دويلات موزعة محدودة في اليمن والشام والحيرة والحجاز:

أ - الملك في اليمن:

وقد مر بمراحل متعددة:

الأولى: في عهدهم الزاهر أيام السد: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ: ١٥].

ويقدر المؤرخون أن هذا الأمر كان قبل قرابة سبعة قرون قبل الميلاد، واستمر ثلاثة قرون بعده.

الثانية: وهي خلال عهدهم الزاهر أيام النبي الملك سليمان عليه السلام، وقصة ملكة سبأ المذكورة في القرآن، وكانوا قد انحرفوا عن التوحيد، وصاروا يعبدون الشمس، ﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾^(١) إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٧/١).

(٢) سنن الترمذي، (ح ٣٢٢٢)، وقال الترمذي؛ حديث حسن غريب.

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٤].

الثالثة: بعد أن انهار السد، وتفرق شملهم في كل صقع: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّةَيْهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمَطٍ وَاتْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا
وَهَلْ يُجِزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَرْزًا مَّعِينًا ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ
إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا
فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ حَفِيزٍ ﴿٢١﴾ [سبا: ١٦ - ٢١].

ويقدر المؤرخون أن هذا الأمر قد تم قبل ثلاثة قرون من البعثة النبوية، وهي صورة
لحضارة قامت على أساس العقيدة، وانهارت حين خرجت عن منهج الله بعد أن عاشت
قرونًا طويلاً.

الرابعة: وهي مرحلة استيلاء أبي كرب تبار أسعد على ملك اليمن، وامتداد نفوذه حتى وصل
إلى مكة والمدينة، وهو الذي ساق الجبرين من يهود المدينة إلى اليمن، وعمر البيت الحرام
وكساه، وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر، وهو الذي أدخل النصرانية إلى اليمن، وجاء
ابنه حسان الذي امتد نفوذه إلى العراق وبعده أخوه عمرو.

الخامسة: مرحلة دخول النصرانية إلى نجران، والتي صادفت وجود ذي نواس على رأس
الحكم، الذي كان يهودياً، وسار بجنوده فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين القتل وبين
الدخول في دينه، فاختراروا القتل، وقصة الغلام والراهب والساحر والملك التي رواها
الإمام مسلم والترمذي تدل على عظمة هؤلاء المؤمنين، وثباتهم على الحق في وجه
الطاغية ذي نواس.

وحكى الله قصتهم في قوله سبحانه: ﴿ قُلِ اصْبِرُوا الْاُخْدُودَ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْاَوْقُودِ ﴿٥﴾ اِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ اِلَّا اَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ فَنَوا الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنٰتِ ثُمَّ لَمْ
يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْخَرْقِ ﴿١٠﴾ [البروج: ٤ - ١٠].

السادسة: انهيار حكمهم بعد ذلك، وابتداء استيلاء الأجنبي على أرضهم، حيث استولى

الأحباش عليها ثأراً من ذي النواس باسم النصرانية عام (٥٢٥ م)، ويقوا على ذلك حتى استعادوا استقلالهم بمعونة الفرس بقيادة معد يكرب بن سيف بن ذي يزن الحميري، الذي اغتيل من الحبشة الذين أبقاهم لخدمته، وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن، وولى كسرى غلاماً فارسياً على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية، فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم بأذان الذي اعتنق الإسلام سنة (٦٣٨ م)، وبإسلامه انتهى نفوذ الفرس على اليمن وبلادها.

ب - الملك بالحيرة:

في عهد ملوك الطوائف - قبل قرنين من الميلاد - هاجر القحطانيون وسكنوا ريف العراق وتبعهم بعض العدنانيين، وعندما استعاد الفرس قوتهم عام (٢٢٦ م) على عهد أردشير استولوا على العرب المقيمين على تخوم ملكه، ورأى أنه لا يستطيع أن يحكم العرب ما لم يجعل عليهم رجلاً منهم له عصبة تؤيده وتمنعه، وكان عمرو بن عدي أول ملوك الحيرة، وتتابع الملوك بعده، وكان أشدهم النعمان بن المنذر الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها له عدي بن زيد العبادي، وكانت وقعة ذي قار المشهورة بين العرب والعجم حيث انتصر فيها العرب، وكان ذلك بعد بعثة النبي ﷺ، فقد « روى أبو نعيم عن سعيد عن أبيه عن جده أن بكر بن وائل قدموا مكة في الحج، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: « إيتهم واعرض عليهم »، فأتاهم فعرض عليهم، فقالوا: حتى يجيء شيخنا حارثة، فلما جاء قال: إن بيننا وبين الفرس حرباً، فإذا فرغنا بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول، فلما التقوا بذئ قارهم والفرس، قال لهم شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى ما دعاكم إليه، قالوا: محمد، قال: فهو شعاركم، فنصروا على الفرس، فقال رسول الله ﷺ: « بي نصرنا »^(١).

وكان ذلك تحقيقاً لموعود رسول الله ﷺ حين التقى مع وفد شيباني وفيهم هاني بن قبيصة والنعمان بن شريك والمثنى بن حارثة ومفروق بن عمرو (من قادة ذي قار) قال لهم: « رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله - تعالى - أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبّحون الله وتقدسونه؟ » قالوا: اللهم لك هذا.

فلم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً حتى خرج على أصحابه فقال لهم: « احمدا الله

كثيراً؛ فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس، قتلوا ملوكهم، واستباحوا عسكرهم؛ وبى نصرُوا»^(١).

وولى كسرى بعده (أي النعمان) على الحيرة حاكماً فارسياً، ثم أعاد الملك إلى آل لخم عام (٦٣٢ م) حتى تولى المنذر الملقب بالمغرور، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم خالد رضي الله عنه بعساكر المسلمين.

ج - الملك بالشام:

« لما خرج عمرو بن عامر إلى اليمن مع قومه تفرقوا في البلدان، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج المدينة، ونزلت خزاعة مراً، ونزلت أزد السراة ونزلت أزد عمان عمان ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ».

وانتهت ولاية الضجاعة من قضاة على الشام بعد قدوم آل جفنة (الغسانيين) إليها، فولّتهم الروم ملوكاً على عرب الشام، وكانت قاعدتهم دومة الجندل، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة (١٣ هـ)، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الغساني في عهد أمير المؤمنين، وهو الذي ارتد وذهب إلى قيصر عندما أراد عمر رضي الله عنه أن يتتصف للأعرابي منه وقال له: الإسلام سوى بينكما.

العرب العدنانية:

وأما قي دار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معه، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي، وقد ورد أنه رضي الله عنه كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمكسك ويقول: « كذب النسابون » فلا يتجاوزوه، وروي عن عروة بن الزبير أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما، قال: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون^(٢).

وولد عدنان رجلين: معد بن عدنان، وعك بن عدنان.

قال ابن هشام: فصارت عك في دار اليمن، وتفرقت بطون معد من ولده نزار، فكان

(١) سبيل الهدى والرشاد للصالحى (ص ٥٩٧، ٥٩٨).

(٢) فقه السيرة النبوية، للدكتور منير الغضبان (ص ٣١ - ٣٨).

لنزار أربعة أولاد تشعبت منهم أربع قبائل عظيمة: إباد وإنمار وربيعة ومضر، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما.

فكان من ربيعة: أسد، وعنزة، وعبد القيس، وابنا وائل بكر وتغلب، وحنيفة وغيرها. وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين: قيس عيلان بن مضر، وبطون إلياس ابن مضر.

فمن قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو غطفان، ومن غطفان: عبس، وذبيان، وأشجع وأعصر، ومن إلياس بن مضر: تميم بن مرة، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد ابن خزيمة، بطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة.

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى: من أشهرها: جمح وسهم وعدي وتيم وزهرة، وبطون قصي بن كلاب، وهي: عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف ابن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل عبد شمس، ونوفل والمطلب وهاشم، وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام.

قال عليه السلام: « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم »^(١).

« ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب، متبعين مواقع القطر ومنابت العشب، فهاجرت عبد القيس وبطون من بكر بن وائل وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها، وخرجت بنو حنيفة إلى اليمامة، فنزلوا بحجر قصبة اليمامة، وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر فأطراف سواد العراق فهيت، وسكنت بنو تميم ببادية البصرة، وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي الجبلين إلى ما ينتهي إلى الحرة، وسكنت ثقيف بالطائف، وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس وهي على الجادة بين مكة والبصرة، وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء بحر من طيء، وبينهم وبين الكوفة خمس ليالٍ.

(١) مسلم: باب فضل نسب النبي عليه السلام (ح ٦٠٧٧).

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران، وبقي بتهامة بطون كنانة، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي ابن كلاب، فجمعهم وكوّن لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم»^(١).

د - الإمارة بالحجاز:

بقي إسماعيل عليه الصلاة والسلام وولده ثابت ثم قي دار على إمرة مكة، ثم رجع أمر مكة إلى مضاض بن عمرو الجرهمي جدهما، وبقي الأمر في جرهم قرابة عشرين قرناً من الزمان، ثم غلبتهم خزاعة بعد بغيتهم وصار أمر مكة لها حيث استمرت ثلاثمائة عام إلى أن جاء قصي بن كلاب الذي تزوج بنت حليل بن حبشية الخزاعي، وانتقل أمر مكة له بعد حرب عنيفة احتكموا بعدها ليعمر بن عوف أحد بني بكر، ففُضِيَ بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وكان هذا في القرن الخامس للميلاد، ونظم قصي بعبريته أمر مكة وقطعها رباعاً في قومه، وأسس دار الندوة، وكانت مجمع قريش وفيها تُفَصَّلُ مهام أمورها وتفض مشاكلها، وجمع مآثر قومه بيده اللواء فلا تعقد الحرب إلا بيده، والحجاجة فلا يفتح باب الكعبة أحداً إلا هو، وسقاية الحاج، حيث يملأ حياض مكة بالماء، ويقذف التمر والزبيب ليشرّب من شاء أن يشرّب، ورفادة الحاج وهو طعام يصنع للحجاج على طريقة الضيافة، ثم توزعت قريش هذه المآثر، فكانت السقاية والرفادة لبني هاشم، والحجاجة واللواء لبني عبد الدار، حتى جاء الإسلام فأبقى الحجاجة لهم كما قال عليه الصلاة والسلام:

« ألا وإن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحاج »^(٢).

ثالثاً: العرب في العهد النبوي:

أيام العرب: لقد كان تاريخ الجاهلية هو تاريخ الصراعات والحروب بين القبائل العربية تتمثل أمجادها فيها، ما عدا ذي قار فكل فخار العرب في ذبح بعضهم بعضاً فيما بينهم، والشعر العربي يحيى قصة هذه الأمجاد، وكما قال المغيرة بن شعبة لرستم قائد الفرس: كان ديننا هو أن يقتل بعضنا بعضاً.

(١) الرحيق المختوم، لصفي الدين المباركفوري (ص ٢٥ - ٢٧).

(٢) إمتاع الأسباع، للمقرئزي (١/ ٣٨٦).

فقد كان هناك عرب موزعون في أصقاع الأرض وأصلهم وموطنهم الرئيسي في شبه الجزيرة العربية الحجاز ونجد واليمن، وتوزعوا إلى الشام والعراق، لكن لا يجمعهم جامع على الإطلاق، فكان هناك ملوك محليون، لكن لم تكن هناك وحدة عربية على الإطلاق، ولم تكن قائمة في ذهن العرب، فكانت القبلية أو الإقليمية هي التي تحكمهم منذ عشرين قرناً حتى عهد النبوة.

وأكرم الله هذه الأمة بالسلام وبالقرآن وبرسول الله ﷺ؛ خير كتبه وخير رسالاته، وخيرة الله تعالى من خلقه، وكانوا كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله ﷺ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

التقوا على شخص قائدهم ونبيهم وحبیبهم محمد ﷺ، وعندما كانت حجة الوداع قبل وفاة رسول الله ﷺ بثلاثة أشهر، وأنزل الله - تعالى - على نبيه قوله ﷺ: ﴿أَيُّوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا﴾ [المائدة: ٣].

عندما نزلت هذه الآية كانت الجزيرة العربية كلها في وحدة كاملة يحكمها سيد واحد وهو رسول الله ﷺ هذه الوحدة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً على الإطلاق، وقد اكتملت في عام الوفود - العام التاسع للهجرة - حيث جاء زعماء العرب وقادتهم من أقصى الأرض العربية يبايعونه على الإسلام.

لقد كانت حدود الدولة النبوية من الفرات وخليج البصرة شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً، ومن تبوك شمالاً إلى بحر العرب في عدن جنوباً، وكانت المدينة العاصمة، وله ولاته في أصقاع هذه الأرض وبلغ عدد ولاته ﷺ قرابة عشرين والياً.

لقد كانت اليمن ثلاث ولايات: الجند ومخالفيةها، وصنعاء ومخالفيةها، وحضرموت ومخالفيةها، تتابع عليها عشرة ولاء من الصحابة، بينما توزع الولاة الباقون على تيماء ومكة وعمان والبحرين والطائف والحبشة وقضاة والشام ونجد.

وهؤلاء غير زعماء القبائل الذين أجازهم رسول الله ﷺ وأبقى لهم زعامتهم وإمرتهم على قومهم بعد أن أسلموا مثل أكيدر بن عبد الملك على دومة الجندل (على خلاف

في إسلامه)، ويحنة بن روبة على إيلات، وعدي بن حاتم على طيئ، وصرد بن عبد الله علي الأزد، والأقرع بن حابس، وقيس بن عاصم على تميم وغيرهم.

رابعاً: الوحدة العربية في عهد الراشدين: من المحيط إلى الخليج:

أما الوحدة العربية التي يتغنى بها العرب اليوم من المحيط إلى الخليج، فهذه لم تقع في تاريخ العرب إلا في عهد الراشدين - رضوان الله عليهم - حيث وصل عقبة بن نافع إلى المحيط الأطلسي في أقصى المغرب العربي، ووصل عمرو بن العاص إلى أراضي النوبة في السودان، وامتدت الفتوحات في الشرق فلم تقف عند حدود الأرض العربية وخليج البصرة إنما مضت في الشرق حتى اقتحمت بلاد فارس وما بعدها، وقد مرت عملية الوحدة بمراحل متعددة.

والمرحلة الأساس هي حروب الردة، وأعقبها توحيد العراق والشام والجزيرة في عهد الصديق، ثم انضمام مصر وليبيا في عهد الفاروق، وكان بعد ذلك قيام الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج ضمن إطار الوحدة الإسلامية. ويمكننا في هذا المقام الاكتفاء بحروب الردة نموذجاً:

حروب التحرير والوحدة (حروب الردة):

الطور الأول: وهي حروب عربية - عربية:

حيث انتفض معظم العرب بعد وفاة الرسول ﷺ، وهي المصطلح الإسلامي حروب الردة، وفي المصطلح القومي حروب الردة كذلك، فقد حاول زعماء القبائل أن يعودوا إلى العهد القبلي، فكل قبيلة دولة، وإن بقي التفرق والتمزق هو الأصل كما هو الحال في امتداد القرون الطويلة، لكن الإسلام العظيم الذي دخل في قلوب المؤمنين الصادقين، وعظمة القيادات التي رباها رسول الله ﷺ استطاعت في بحر من الأهوال والدماء، وفي عزم وتصميم لا يقبل الوهن، استطاعت أن تعيد للأمة وحدتها وأن تعيد إليها دينها، تقول عائشة - رضوان الله عليها -:

« لما بويع أبو بكر ﷺ وجمع الأنصار في الأمر الذي اقترفوا فيه وقال: ليتبع أسامة وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشربأت اليهود والنصارى والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبهم ﷺ وقتلهم، وكثر

عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جل المسلمين والعرب على ما ترى قد انتفضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال له أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة^(١).

وكان خالد رضي الله عنه هو البطل المجلي في إعادة الوحدة إلى جزيرة العرب، فقد هزم الكذابين المتنبيين طليحة بن خويلد الأسدي، ومسيلمة بن حبيب الحنفي، غير أن طليحة أسلم وحسن إسلامه، وكانت معركة اليمامة من أعنف المعارك التي خاضها المسلمون إذ قتل منهم ما ينوف عن ألف - وهو رقم أكبر من كل شهداء المسلمين منذ أن جاء الإسلام إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - في الوقت الذي قتل فيه من بني حنيفة عشرة آلاف مقاتل، وقتل الأسود العنسي المتنبي الثالث في اليمن، وعادت الجزيرة لوحدها مرة أخرى.

الطور الثاني: حرب المسلمين في العراق:

وكان على رأسها خالد بن الوليد رضي الله عنه، والمثنى بن حارثة الشيباني، والقعقاع بن عمرو التميمي، وهي حرب عربية - عربية فارسية، حيث حارب الفرس ابتداءً بالعرب التابعين لهم، ثم بقيادتهم وجنودهم، وحرّر خالد رضي الله عنه العراق العربي كله.

وعلى رأسه الحيرة مركز دولة المناذرة، وانضمت العراق العربية كلها إلى وحدة الجزيرة العربية.

الطور الثالث: حرب المسلمين في الشام:

وكان على رأسها يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعمرو بن العاص، وانضم إليهم خالد - رضي الله عنهم - وكانت المعركة الفاصلة في اليرموك وانضمت دمشق بعدها إلى المسلمين، وأعلن هرقل نهايته المحتومة في سورية، فقال بعد هزيمته في اليرموك: سلام عليك يا سورية سلامًا لا لقاء بعده.

وخلال السنوات الثلاث الأولى وفي بداية خلافة عمر رضي الله عنه انضمت الشام وتحررت من الروم، وأصبحت الوحدة العربية تضم المشرق العربي كله، وكانت هذه كذلك أول وحدة في تاريخ العرب منذ أن كان لهم تاريخ.

وإذا كان لنا أن نتحدث عن بطل لهذه الوحدة العربية بعد الصديق والفاروق لكان

خالد - رضوان الله عليه - الذي قال فيه الصديق: لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد ابن الوليد، وقال فيه عمر بعد عزله: رحم الله أبا بكر لقد كان أعلم مني بالرجال.

الطور الرابع: حرب المسلمين في المغرب العربي:

وهي الحرب التي جعلت عمر بن الخطاب يقول فيها عن عمرو بن العاص: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، بل جعلت الأرطبون نفسه داهية الروم وقائدهم يقول: خدعني عمرو، هذا أدهى العرب، هذا أدهى الخلق، وهكذا لم ينته عهد عمر - رضوان الله عليه - إلا وكان المغرب والمشرق العربي تحت راية واحدة وفي دولة واحدة وخليفة واحد، وقامت الوحدة العربية التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ العرب منذ أن كان لهم تاريخ.

الطور الخامس: توحيد المغرب العربي كله مع المشرق العربي:

حيث تم ذلك في عهد عثمان ؓ على يد عبد الله بن أبي سرح الذي فتح أفريقية، وعقبة بن نافع الذي وصل إلى المحيط الأطلسي.

وحتى يتم تعريب أفريقية ندب عثمان الناس إلى أفريقية، فخرج إليها عشرة آلاف من قریش والأنصار والمهاجرين، وكان عبد الله بن أبي سرح قد صالح بطريق أفريقية جرجير على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار أو ثلاثمائة قنطار ذهبًا.

كان هذا في عام سبع وعشرين للهجرة، أي: بعد وفاة رسول الله ﷺ بسبعة عشر عامًا فقط، وتمت بذلك وحدة العرب الكبرى لأول مرة في التاريخ على عهد عثمان ؓ، وهذا في المنطق القومي العربي، أما في المنطق الإسلامي فستحدث عن ذلك في بحث الخلافة الإسلامية، وعن إنهاء إمبراطوريتي قيصر وكسرى وتحويل ثلثي المعمورة آنذاك إلى أرض إسلامية، وكان قادة الفتح معظمهم من العرب، والجيوش التي حملت لواء الإسلام معظمها من العرب، فتقبلت الأمم العروبة والإسلام معًا، ومضت تنصهر في هذا الدين وفي لسان دعائه وقادته.

واستمرت الوحدة العربية ضمن إطار الوحدة الإسلامية حتى انهارت الخلافة العثمانية، وانفصل العرب عنها وقامت فكرة الدعوة إلى الوحدة العربية التي نمت وازدهرت حتى قامت من المحيط إلى الخليج.

خامساً: واقع الوحدة العربية في القرن العشرين:

لا بد حين ندرس هذا الواقع من التفريق بين مرحلتين: المرحلة الأولى: النصف الأول من القرن العشرين، والمرحلة الثانية: هي النصف الثاني منه.

المرحلة الأولى: النصف الأول من القرن العشرين:

كان أبرز معالمها ثلاثة أمور: الأول: اتفاقيات سايكس بيكو، الثاني: وعد بلفور وقيام إسرائيل، الثالث: قيام الجامعة العربية.

الأمر الأول: اتفاقيات سايكس بيكو:

وهذه الاتفاقيات مزقت الوطن العربي ووزعته إلى دويلات متعددة، وقامت باستعمار هذا الوطن، وبذلك حولت النضال من البعد القومي للوحدة، إلى النضال الوطني للتحرير من الاستعمار، وصار الاستقلال هو الهدف الطاغي على هذه المرحلة، وربت الأجيال على تنمية وتعبئة روح الإقليمية في كل قطر.

لقد انتهت الوحدة العربية أو الخلافة العربية التي طالب بها الشريف حسين إلى الصيغة التالية في نص المعاهدة:

« المادة الأولى: إن فرنسا وبريطانيا مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و (ب) (داخلية العراق) المبيتتين في الخريطة الملحقة بهذا، ويكون لفرنسا في منطقة (أ) وإنجلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية: يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) ولإنجلترا بالواسطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة: تنشأ إدارة دولية في المنطقة الحمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شركة مكة.

المادة الرابعة: تنال إنجلترا ما يلي: ١ - ميناء حيفا وعكا. ٢ - يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب)، وتتعهد حكومة جلالة الملك من

جهتها أن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدماً^(١).

وهكذا آلت الخلافة العربية والدولة العربية الواحدة إلى هذه المزق المبعثرة، وصار الشريف حسين ممثل العرب في الدولة العثمانية لا يمثل إلا شركة مكة.

الأمر الثاني: وعد بلفور وقيام إسرائيل:

- وعد بلفور: لقد كانت اتفاقية سايكس بيكو عام (١٩١٦ م)، أما وعد بلفور فكان بعد سنة (١٩١٧ م)، ونصه: «إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وسوف تبذل مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية، وليكن معلوماً أنه لا يُسمح بإجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى، وبمركزهم السياسي فيها»^(٢).

وقد لا نجد في بداية الأمر علاقة مباشرة بين التمزق العربي ووعد بلفور وإقامة الوطن لليهود في فلسطين، والذي تحول إلى دولة فيما بعد، لكننا عندما نتصور هذا الإسفين الذي دُق في قلب الوطن العربي وصار جسمًا غريبًا في قلبه، نعرف كيف استنزفت طاقات الأمة في مكافحته، لأدركنا دور هذا العائق الكبير للوحدة العربية، وحتى لا نضرب في التيه، فمؤتمر كامبل يغيننا في هذا المجال عن أي تعليق.

« فقد عقد مؤتمر كامبل في لندن بصورة سرية منذ عام (١٩٠٥ م) واستمرت جلساته حتى عام (١٩٠٧ م)، وكان هدف المؤتمر العمل على تشكيل جبهة استعمارية من الدول الأوروبية وهي إنجلترا وفرنسا، إيطاليا، إسبانيا، البرتغال، بلجيكا، هولندا، وذلك لمواجهة التوسع الألماني ولتحقيق الأهداف التوسعية في أفريقيا وآسيا، وانتهى المؤتمر إلى:

إن مصدر الخطر الحقيقي على الدول الاستعمارية إنما يكمن في المناطق العربية لكونها نقطة التقاء بين الشرق والغرب، ولتوفر عدة عوامل لملكها مثل وحدة التاريخ، واللغة والثقافة والهدف والآمال، فإذا توحدت هذه الشعوب فستحل الضربة القاضية على الدول الاستعمارية، وعليه فلا بد من بقاء المنطقة متأخرة ومفككة، والعمل على

(١) فجر الاستقلال في سورية، لسهيل العشي (ص ٢٣٤).

(٢) القدس والتحدي الحضاري، للدكتور مصطفى الطحان (ص ٦٤، ٦٥).

إنشاء دويلات مصطنعة، كما أكد على ضرورة زرع دولة دخيلة تفصل أفريقية عن آسيا العربية»^(١).

وهكذا اتخذت الدول الاستعمارية قرارها بإنشاء إسرائيل.

لقد كانت سوريا تحمل الهم العربي أكثر من غيرها، وكانت بلاد الشام منطلق القومية العربية، وأكبر دعاة الوحدة فيها، وحين تمزقت بلاد الشام إلى أربع مزق، وراحت تناضل لإنهاء الاستعمار الجاثم على صدرها، ضاعت الوحدة العربية في متاهات الحركات الوطنية التي لا تملك إلا العمل للخلاص من المستعمرين فيها.

الأمر الثالث: قيام الجامعة العربية:

أدركت إنجلترا أم الاستعمار في القرن العشرين أن العرب حين يتحررون من الاستعمار سوف يعودون للعمل للوحدة العربية، وخشيت أن يأخذ هذا العمل مداه، ولو تم ذلك لأصبحت إسرائيل في خطر ماحق، ومن أجل ذلك، وحتى تجهض مشروع الوحدة، جاءت بديل مسخ تعلق العرب بأذياله وهو الجامعة العربية.

« فقد صرح وزير الخارجية البريطاني أنطوني إيدن في (٢٤ فبراير - شباط ١٩٤٣ م) بما يلي:

« إن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى كل حركة تقوم بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية ».

وأخذت مصر زمام المبادرة فأعلن رئيس وزرائها مصطفى النحاس في (٣١ ديسمبر - تشرين الثاني ١٩٤٣ م) أنه على مصر أن تبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية.. وتم الاتفاق على تأليف جامعة الدول العربية في أعقاب لقاء القاهرة في فبراير (١٩٤٤ م)، أي بعد سنة من تصريح إيدن، واتفقوا على أن تضم الدول المستقلة فقط»^(٢).

- ولننظر كيف أجهضت الجامعة العربية مشروع الوحدة العربية من خلال عرض ميثاق الجامعة أو أهم بنوده:

« وتؤلف جامعة للدول العربية من الدول العربية المستقلة التي تقبل الانضمام

(١) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، لحسان علي حلاق (ص ٢٢١).

(٢) القدس والتحدي الحضاري، للدكتور مصطفى الطحان (ص ١١٢).

إليها، ويكون لهذه الجامعة مجلس يُسمى مجلس جامعة الدول العربية، يمثل به الدول المشتركة في الجامعة على قدم المساواة، وتكون مهمتهم مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول فيما بينها من الاتفاقات وعقد اجتماعات دورية لتوثيق الصلات بينها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء بالوسائل الممكنة وللنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها.

وتكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها فيما عدا الأحوال التي يقع فيها خلاف بين دولتين من أعضاء الجامعة ويلجأ فيها الطرفان إلى المجلس لفحص هذا الخلاف، ففي هذه الأحوال تكون قرارات مجلس الجامعة نافذة ملزمة، ولا يجوز على كل حال اللجوء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين من دول الجامعة، ولكل دولة أن تعقد مع دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها اتفاقات خاصة لا تتعارض مع نصوص هذه الأحكام أو روحها، ولا يجوز بأية حال اتباع سياسة خارجية تضر بسياسة جامعة الدول العربية أو أية دولة منها، ويتوسط المجلس في الخلاف الذي يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة وبين أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها للتوفيق بينهما»^(١).

- وحين نقف ملياً أمام هذا المشروع وعلاقته بالوحدة العربية نلاحظ ما يلي:

١ - تطور مفهوم الاستقلال؛ فبعد أن كان استقلالاً من استعمار الدول الأجنبية، صار استقلالاً عن الدول العربية، فلكل دولة علمها وحدودها ودستورها والمحافظة على استقلالها، وتراب وطنها وصارت هي المحافظة على الحدود بين الدول العربية المجاورة عوضاً عن أن تكون هي إلغاء هذه الحدود.

٢ - قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها، فلا يستطيع المجلس أن يفرض قراراً على دولة عارضة، وهذا يعني استمرار الانفصال الكامل بين هذه الدول، وإلغاء فكرة الوحدة العربية كاملة.

٣ - ولا يجوز على كل حال اللجوء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين من دول الجامعة.

٤ - فالوحدات السابقة في التاريخ إنما كانت تتم عن طريق القوة والغلبة والسيطرة،

(١) خبراتي في الحكم، لرئيس وزراء سوريا الأسبق حسن الحكيم (ص ١٨٨، ١٨٩).

كما شهدنا أهمها في الوحدة أيام نور الدين وصلاح الدين، وحيث ألغى استعمال القوة للوحدة، فقد ألغيت عملياً الوحدة ولن يتنازل حاكم بمحض إرادته عن سلطاته، ولن تقوم الوحدة عملياً بين هذه الدول.

٥ - وحيث إن هذه الدول موقعة على ميثاق الأمم المتحدة، والذي ينص على أنه:

«٤- يتمتع على أعضاء الهيئة جميعاً في علاقاتهم الدولية عن التهديد بالقوة أو استخدامها للاعتداء على سلامة أراضي أي عضو في الهيئة أو استقلاله السياسي أو سلامة أو استقلال أي دولة أو يسلكوا أي سبيل يتعارض مع أغراض الأمم المتحدة»^(١).

لقد تكرر الانفصال التام بين الدول العربية من خلال ميثاق الجامعة العربية والأمم المتحدة وانحصرت العلاقة بالتعاون والتنسيق بدلاً عن الوحدة وانصهار الكيانات في كيان واحد، وتحولت الوحدة العربية إلى خيال وحلم من أحلام الشعب العربي.

المرحلة الثانية: النصف الثاني من القرن العشرين:

مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين انتهى سلطان الأحزاب الوطنية التقليدية، وتمكنت الأحزاب القومية من الوصول إلى السلطة، والتي جعلت الوحدة العربية الهدف الأول من شعاراتها وفي أول أولوياتها واهتماماتها، ففي عام (١٩٥٢ م) قامت الثورة المصرية ضد الملكية، وفي عام (١٩٥٦ م) تمكن التجمع القومي الذي يمثل البعث العربي مع الشيوعيين من الانتصار على التيار الإسلامي، وانتهى بقيام الوحدة بين مصر وسوريا عام (١٩٥٨ م)، ولأن وحدة سورية ومصر كانت هي الوحدة اليتيمة الوحيدة في هذا القرن، وبانتخاب شعبي حرّ دون اللجوء إلى القوة فلا بد من وقفة عندها ملياً، لنرى أسباب صعودها وأسباب انهيارها.

الوضع السوري عند الوحدة:

كان الزعيم شوكت شقير رئيساً للأركان ويعاني من جموح الضباط الاشتراكيين الحورانيين والضباط المستقلين الموالين للاشتراكيين، والضباط من الحزب السوري القومي وجماعته، وضباط عبد الحميد السراج، هذا الذي أصبح بصلة مباشرة مع الكيان المصري عبر القيادة المشتركة العربية وعبر السفارة المصرية، وكان هؤلاء الضباط

(١) خبراتي في الحكم، لرئيس وزراء سوريا الأسبق حسن الحكيم (ص ١٩٨).

جميعهم يتنافسون في الطموح إلى تحقيق مآربهم، ولكل فئة منهم غاربة يعرفها البقية، واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا أنفسهم باعتبارهم حماة الديار فوق السلطتين التشريعية والتنفيذية في البلاد، وأصبحوا بحاجة لمن يوزع بينهم الأدوار ويضبط تنافرهم، فوجدوا في شخص الضابط الشرس عفيف البزري.

الجميع يعلم بأن سورية - قلب العروبة النابض - منذ عهد التتريك زمن العثمانيين، والجميع يعلم أن شباب هذا البلد منذ ذلك الزمن طلاب وحدة عربية شاملة، كانوا يحلمون بذلك اليوم الذي تتحقق فيه الوحدة، ولكن ذلك لا يجوز أن يتم عشوائياً، بل عليه أن يتم عن طريق تشريعي يمثل الأمة بأسرها، ويضع أساس هذا الارتباط الجذري المصري.

في ظل هذه الظروف السائدة نزولاً عند رغبة ضباط القوات المسلحة هب وزير الخارجية صلاح البيطار وهو بعثي إلى مصر ليلتقي مع الإخوة المصريين، أي: مجلس الثورة؛ لإحكام خيوط الوحدة، وكان ذلك دون علم رئيس الوزراء خالد العظم.

ولما تمهدت الأمور واشتدت الارتباطات وأحكمت حلقاتها سافر وفد عسكري برئاسة العقيد عفيف البزرة الذي منحه رتبة فريق، ووصل إلى مصر ليطالب بالوحدة الفورية، واجتمع الوفد مع بعض ضباط الثورة، وقد أخطأ البزرة أثناء الحديث ولفظ كلمة اتحاد بدلاً من الوحدة فثار أحد ضباط مجلس الثورة يصيح اللفظ ويقول: إحنا بتكلم عن وحدة مش اتحاد.

واجتمع الوفد أخيراً مع الرئيس جمال عبد الناصر الذي رحب بالوفد، ثم استمع إلى مطالبه، فقال: إن هذا الأمر يحتاج إلى قرار من المجلس التشريعي السوري والسلطات السورية، فقالوا له: إن هذه أمور كلها معروفة ومضمونة ونحن نطلب تحقيق الوحدة فوراً، ولا نخرج من هذا الاجتماع إلا بعد أن نقرأ الفاتحة على نشأة الوحدة، ووافقهم عبد الناصر، وقرئت الفاتحة، ونشأت الوحدة كأنها مراسم خطوبة.

ولما وصل الخبر إلى سورية هاجت وماجت جماهير حركتها مخابرات السراج، ولم يجد الرسميون في سورية بدءاً من الذهاب إلى القاهرة لاستجلاء الأمر، وقد حاول خالد العظم استبدال الوحدة باتحاد، ولكنه لم يفلح، وبقي محتفظاً برأيه في هذا الاتجاه، ولما انعقد المجلس النيابي برئاسة أكرم الحوراني ل طرح الوحدة عارضها كل من خالد

بكداش وصالح عقيل وهاني السباعي، ولكن الوحدة أقرت بما يشبه الإجماع، ولم يمنع ذلك الوزيرين عقيل والسباعي من السفر إلى القاهرة في اليوم التالي.

وتنازل فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية عن الرئاسة لصالح الرئيس جمال عبد الناصر، فاتحاً بذلك عهداً جديداً تتحقق فيه أحلام السوريين جميعاً ببدء وحدة عربية شاملة رائدتها مصر الشقيقة الكبرى في الأسرة العربية»^(١).

وجاء في بيان إعلان الجمهورية العربية المتحدة: « والمجتمعون إذ يعلنون قراراتهم هذه يحسون بأعمق السعادة وأجل ألوان الفخر؛ إذ شاركوا في هذه الخطوة الإيجابية في طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبة، وجيلاً بعد جيل، والمجتمعون إذ يقررون وحدة البلدين يعلنون أن وحدتهم تتوخى لَمَّ شمل العرب، ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربي يريد أن يشترك معها في وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها... »^(٢).

وكان الانفصال بعد ثلاث سنوات:

« في (٢٨ أيلول ١٩٦١ م) حدث في سورية انقلاب عسكري.. وأعلنت الحكومة المؤقتة في (٣٠ أيلول ١٩٦١ م) عن برنامجها السياسي.. وأصدرت جماعة من السياسيين في (٢ تشرين أول) بياناً تم فيه الإعلان عن الدعم والتأييد الكاملين لخطوة الجيش الجبارة، وناشدت جميع الدول العربية أن تنظر بجدية إلى هذا النظام وأهدافه التقدمية في إقامة نظام ديمقراطي حقيقي، ووقع هذا البيان كل من أكرم الحوراني وصلاح البيطار وزعيم المستقلين خالد العظم وصبري العسلي وغيرهم.. ودعم كل من شكري القوتلي وفارس الخوري وسلطان الأطرش نظام الانفصال، أما بالنسبة لموقف حزب البعث من الانقلاب وبغض النظر عن موقف قادته المذكورين أعلاه، كان معارضاً له، ولقد أصدرت القيادة القومية لحزب البعث في بيروت بيانين متعارضين ومتناقضين، فأحدهما كان ضد هذا الانقلاب والآخر معه، فيما بعد اعترف حزب البعث بالبيان الأول فقط... وأشار الحزب الشيوعي السوري في الوقت الذي أيّد فيه خروج سورية من الوحدة إلى أن فشل الوحدة لا يعني على الإطلاق فشل مفهوم ومبدأ الوحدة، واستقبلت الأوساط البورجوازية

(١) فجر الاستقلال في سورية، للعميد سهيل العشي (ص ١٩١، ١٩٢).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٨٤).

والإقطاعية حركة الانفصال بترحيب واسع، فقدم إلى دمشق عقب الانقلاب وفود تمثل أصحاب المصانع والشركات المؤسسة ومن التجار وكبار الملاك والإقطاعيين وغيرهم ليعلنوا عن تأييدهم الكامل لحكومة الانفصال.. ومن أجل أن تحوز حكومة الانفصال على اعتراف الدول العربية، فقد أسرعت للإعلان عن أنها سوف تبقى مخلصه لمبادئ الوحدة العربية رغم خروج سورية المؤقت من الجمهورية العربية المتحدة، فوجهت حكومة الانفصال دعوة إلى جميع الأقطار العربية تحثهم فيها على العمل الجاد لإقامة اتحاد فيدرالي طوعي يقوم على أساس المساواة بين جميع الأقطار المشتركة فيه، وأشير في مشروع الاتحاد الفيدرالي المقدم إلى أن السلطات التشريعية والتنفيذية داخل كل قطر سوف تستمر في تنفيذ مهامها في داخل القطر وفي مجال العلاقات الدولية ويقضي المشروع بعدم التدخل من جانب أي قطر في الشؤون الداخلية لقطر آخر، وما إلى ذلك من الشروط الأخرى الخاصة باحترام الحريات الشخصية والدستورية لأعضاء الاتحاد الفيدرالي، وأشير بنفس الوقت إلى أن هذا الاتحاد لا يتعارض مطلقاً مع أن تقوم بين بعض الأقطار الداخلة في الاتحاد وحدة اندماجية.. ولا في هذا المشروع - كما كان يتوقع له - التأييد من جانب الحكومة العراقية بزعامة عبد الكريم قاسم الذي كان يكن العداء لحكومة الجمهورية العربية المتحدة.. أما حكومة مصر فقد أعلنت عن رفضها حتى لمناقشة هذا المشروع»^(١).

المحاولات الأخرى للوحدة العربية:

لقد نشأ عن فشل الوحدة العربية رد فعل قوي لدى الحاكمين في عدم إعادة التجربة في الوحدة الفورية بين الأنظمة الحاكمة، بينما بقيت الجماهير تنادي بالوحدة العربية الشاملة وتتلهم لها، وواضح أن القرار في النهاية هو بيد الأنظمة الحاكمة، فقد رافق تجربة الجمهورية العربية المتحدة تجربة اتحاد عربي بينها وبين اليمن انتهى مع قيام الانفصال.

«وبعد الانفصال عن مصر وعودة الجمهورية العربية السورية، وقيام ثورة (٨ شباط ١٩٦٣م) في العراق، والتي كان يؤيدها حزب البعث هناك، جرت محاولة جديدة للتقارب بين النظامين العراقي والسوري (وتحت الضغط من جانب حزب البعث وجهت حكومة

(١) الصراع في سورية لبيبربودا غوفا، مقتطفات (ص ١٦٥ - ١٧٠).

خالد العظم دعوة لتشكيل اتحاد فيدرالي بين سورية والعراق، وجاء في إعلان وزير الخارجية السورية مايلي: إن سورية العربية تعلن بأنه لم يعد هناك أية صعوبات على طريق الاتحاد مع العراق الشقيق، ونأمل أن يكون هذا الاتجاه مركز استقطاب للدول العربية الأخرى»^(١).

« أما التجربة الثالثة فتمثلت في الاتحاد الهاشمي بين العراق والأردن عام (١٩٥٨م) كرد فعلٍ على الوحدة المصرية السورية، وانتهت بقيام ثورة العراق الأولى في تموز - يوليو من العام نفسه، ثم جاءت التجربة الرابعة لإقامة وحدة بني كل من مصر والعراق وسورية عام (١٩٦٣م)، وظلت هذه المحاولة حبراً على ورق ولم تر النور، وجرت التجربة الخامسة بعد قيام الثورة الليبية في أيلول - سبتمبر (١٩٦٩م)، وتبنيها من جديد دعوة الوحدة العربية وإنشاء اتحاد الجمهوريات العربية سنة (١٩٧١م) الذي ضم كلاً من مصر وسورية وليبيا ولكنه لم يدم طويلاً وتجمد ثم انتهى»^(٢).

سادساً: تطور مفهوم الوحدة العربية لدى البعث الاشتراكي:

قال أحد الزعماء قبل أن يصل إلى الحكم:

« المبدأ الأول: وحدة الأمة العربية وحريتها:

العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعي في أن تحيا في دولة واحدة، وأن تكون حرة في توجيه مقدراتها ولهذا فإن حزب العربي الاشتراكي يعتبر:

١ - الوطن العربي وحدة سياسية اقتصادية لا تتجزأ، ولا يمكن لأي قطر من الأقطار العربية أن يستكمل شروط حياته منعزلاً عن الآخر.

٢ - الأمة العربية وحدة ثقافية جميع الفوارق بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بتغطية الوجدان العربي.

٣ - الوطن العربي للعرب ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونهم وثرواتهم وتوجيه مقدراته»^(٣).

(١) الصراع في سورية، لبوداغوفا (ص ١٩٧).

(٢) دستور الحزب عن نضال البعث (ص ١٧٢) وما بعدها.

(٣) الصراع الدولي حول العالم العربي، لبكر مصباح تنيرة، الحياة، العدد (١٤٤٧٣).

وبعد أن وصل إلى الحكم، أصبحت الوحدة عنده لقاءً بين القوى الثورية فقط، والقوى الاشتراكية.

« إن الاشتراكية هي المضمون الواقعي للوحدة العربية، وإن بناء الاشتراكية يجعل الوحدة الإطار البشري والاقتصادي الأكثر انسجاماً.. لذا فإن الوحدة العربية والاشتراكية قضيتان متلازمتان على الصعيد التاريخي والاقتصادي »^(١).

ومن أجل هذا كانت تجارب الوحدة فقط مع الأنظمة الاشتراكية، مصر، وليبيا والعراق، ومع ذلك لم تتمكن هذه الوحدات الاشتراكية أن تصمد أكثر من أشهر، وقام حزب البعث في سورية والعراق، وعجز خلال عشرين عامًا من إقامة وحدة بين شطري الحزب، بل أن يقيم وحدة عربية في أرجاء الوطن العربي ولأن الحزب وصل إلى السلطة في قطرين عربيين، وهو الحزب الجماهيري الداعي للوحدة العربية، كان هو الذي يمثل واقع التيار القومي، وتطبيقه للوحدة تاركين الآراء النظرية في مهب الريح؛ حيث لا وجود لها على أرض الواقع.

سابعًا: الحركات الإسلامية والوحدة العربية:

لقد كان الإمام الشهيد حسن البنا المؤسس الأول للإخوان المسلمين رمزًا من رموز الوحدة العربية، فهو الذي ربط مصر بالأقطار العربية، وكانت الحركة الإسلامية في العالم العربي تخضع لقيادة واحدة تمثلت في ارتباطها بالمرشد العام، بينما اعتبرت الحركات الأخرى على رأسها المراقب العام وذلك في الأقطار العربية الأخرى، ولهذا دلالة الهامة فمسؤولو الأقطار هم تابعون لمرشد عام واحد، وتجسد هذا فيما بعد بالتنظيم العالمي للإخوان المسلمين الذي تمثلت فيه كل الأقطار العربية وفي رسالة المؤتمر الخامس تحدث صراحة عن وحدة العرب فقال:

« وحدة العرب أمر لا بد منه لإعادة الإسلام، وإقامة دولته وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها وناصرتها، وهذا موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية »^(٢).

(١) المنطلقات النظرية (ص ٣٣).

(٢) رسالة المؤتمر الخامس.

وهذه عوامل الوحدة العربية في فكر الإخوان المسلمين:

« ج - وقد ذكر البنا وغيره من كتاب الإخوان أن العوامل التي تؤدي إلى الوحدة الكاملة للأمة العربية تتمثل فيما يلي:

١ - الوحدة الجغرافية: فالأرض واحدة تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في اتصال والتحام لا تقسمها الفواصل الكونية أو التضاريس مع تميزها بثروتها الطبيعية واستغنائها بخيراتها.

٢ - الوحدة الروحية: فالمسلمون يقدسون الإسلام عقيدة وغيرهم يعتزون به شريعة قومية عادلة ونظاماً اجتماعياً ترعرع في أوطانهم.

٣ - الوحدة اللغوية: فاللغة واحدة للمسلمين وغير المسلمين من العرب الذين يحوطنونها بمشاعرهم.

٤ - وحدة الآمال والآلام: التي يمثلها تاريخ ضخم مشترك في القديم والجديد.

٥ - الوحدة الفكرية والثقافية والاجتماعية: بتشابه العادات والتقاليد في شعوبه»^(١).

كما طالب الإخوان المسلمون بتجاوز الجامعة العربية ووضعوا الطريق الصحيح للوحدة.

« هـ - وقد رأى الإخوان أنه لكي تنجح الجامعة العربية في تحقيق الوحدة العربية وآمال العرب فمن الضروري التزام هذه الأسس بجانب ما سبق:

١ - ستظل الوحدة بطيئة الجنى ما دامت مقصورة على ناحيتها الرسمية بين الحكومات، فيجب الإسراع في توحيد الثقافات حتى تتقارب الأفهام ويفتح الباب للاندماج الكامل، وهذا يستدعي تغييراً في مناهج وسياسة التعليم في المعاهد والمدارس العربية، وتوجيه الثقافات وجهة واحدة تخدم أهداف الوحدة، ومعنى ذا وضع المعاهدة الثقافية بين الدول العربية موضع التطبيق.

٢ - العمل لتحقيق الوحدة السياسية برفع الحدود، والوحدة الاقتصادية.

الجامعة العربية أداة لجمع كلمة العرب وتوجيههم قوة واحدة لتحقيق رسالتهم في الحياة (نشر المثل العليا)؛ أي الإسلام.

(١) التربية السياسية عند الإخوان المسلمين (ص ٢٩١)، من خطاب للبنا، آمالنا في الجامعة العربية.

٣ - أجزاء الوطن العربي تنتظر من الجامعة النجدة لتحقيق حريته أو إتمامها فيجب أن تؤمن الجامعة العربية بحقوقها في حماية العرب وصيانة استقلالهم فلا تكون آلة في يد غيرهم، ومن الضروري بث ذلك في نفوس الشعب حتى يحتشد وراء هذا الميثاق»^(١).

ثامناً: الإخوان المسلمون في سورية وقضية الوحدة العربية:

١ - في تبني القضايا العربية:

لقد كان الإخوان المسلمون يعيشون الوحدة العربية واقعاً حياً، فالقضايا العربية تملك عليهم مشاعرهم يرفعون بها المذكرات للحكومات والجهات المختصة، وتأتي في مقدمة القضايا العربية القضية الفلسطينية وقضية مصر، وكما قال السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية: « نستطيع أن نؤكد بأن هيئة أو حزباً أو جماعة ما في بلادنا لم تساهم بنشاط عملي شعبي واسع في سبيل نصره فلسطين وإنقاذها كما ساهم الإخوان المسلمون، أما قضية مصر فقد أيد الإخوان المسلمون في سورية مطلبها الرئيسيين، الجلاء ووحدة وادي النيل.. ولم يكن تأييد الإخوان لنضال الشعب العربي المغربي ضد الاستعمار الفرنسي بأقل من تأييدهم لمصر، بل أثار الإخوان المسلمون في مذكرة رفعوها إلى مجلس الجامعة العربية المنعقدة في دمشق بتاريخ (٩ شعبان ١٣٧٠ هـ الموافق ١٥ / ٥ / ١٩٥١ م) قضية الإمارات العربية.. وطالبوا الجامعة بوجوب العمل لتحريرها واستقلالها»^(٢).

٢ - الموقف من وحدة مصر وسوريا:

ولقد كان موقف الإخوان المسلمين في سورية موقفاً في غاية المبدئية والموضوعية، فرغم الصراع الذي كان قائماً بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر في مصر، تناسى الإخوان هذه الجراح وكان تأييدهم للوحدة منقطع النظير والمظاهرات التي قادها الإخوان المسلمون في العاصمة دمشق تأييداً للوحدة لم تشهده دمشق من أي حزب سياسي آخر، ووافق الإخوان المسلمون على حل تنظيمهم السياسي مراعاة لمصلحة الأمة العليا، وحرصاً على نجاح الوحدة بين القطرين؛ لأن عبد الناصر اشترط إلغاء الأحزاب

(١) التربية السياسية عند الإخوان المسلمين (ص ٢٩٢) من خطاب للبناء، آمالنا في الجامعة العربية.

(٢) مصطفى السباعي، الداعية المجدد، للدكتور عدنان زرزور.

السياسية في سورية كأساس للموافقة على الوحدة معها، بينما رفض الشيوعيون ذلك.

٣ - الموقف من الانفصال بين القطرين:

وبالموقف المشرف نفسه، ورغم المضايقات والملاحقات التي شهدتها الإخوان المسلمون بأشخاصهم وزعمائهم في عهد الوحدة، فقد رفضوا التوقيع على وثيقة الانفصال حيث كان الأستاذ عصام العطاء^(١) المراقب العام للإخوان المسلمين هو الذي يمثل الجماعة في لقاء الأحزاب والفئات السياسية عقب الانفصال في الوقت الذي وقع على وثيقة الانفصال عن مصر اثنان من زعماء حزب البعث الاشتراكي السوري هما أكرم الحوراني وصالح البيطار، وكان كتاب - اشتراكية الإسلام - للدكتور مصطفى السباعي معتمداً لدى الإعلام المصري وينقل منه حلقات في الإذاعة المصرية أثناء عهد الانفصال.

٤ - ماذا بعد ذلك؟

بعد قرابة عشرين عاماً، وحين كان بيان الثورة الإسلامية يمثل فكر الإخوان المسلمين السوريين عام (١٩٨٠ م) آنذاك، جاء الحديث عن الوحدة العربية كما يلي:

« في السياسة الخارجية:

أولاً: الوحدة العربية: لم يكن يخطر على بال أحد من قادة الحركة الإسلامية الحديثة أن الزمن سيتمخض عن تمزيق هذا العالم الواحد بعد الحرب العالمية الأولى إلى ما سار إليه واستقر عليه، إلا أن إرادة الأعداء المتربصين كانت أقوى من آمال المخلصين...

- مرض التجزئة: ومنذ ذلك التاريخ كان التوجه الأساسي لدى المخلصين من قادة هذه الأمة يتمثل في إزالة حاجز التجزئة وإعادة الوطن العربي الممزق إلى وحدته الكاملة تمهيداً لاتحاد المسلمين، شعوراً منهم أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجباتها تجاه ذاتها وتجاه الإسلام وتجاه الإنسانية إلا من خلال الوحدة الشاملة، وفي إطار الدولة الواحدة، لأن هذا هو الحل الأمثل الذي يسمح بالتوظيف الأمثل للطاقات البشرية والمادية بصورة متكاملة متوازنة.. والثورة الإسلامية في سورية تعتبر بداية الانفصال في دولة الوحدة بين مصر وسورية، مع كل البواعث الأليمة التي أدت إلى هذا المآل، نهاية

(١) انظر مذكرات خالد العظم.

التوجهات الحقيقية نحو الوحدة، وبداية التدعيم الكثيف للنزعات العرقية والطائفية والإقليمية والقطرية....

إن من العار الذي ما بعده عار على شعب يتكلم بلغة واحدة، ويدين بعقيدة واحدة، ويعبد رباً واحداً أن يُعتبر أبنائه في بعض الأقطار العربية غرباء، في الوقت الذي يسرح فيه الغرباء الحقيقيون في هذه الأقطار.

إن أمتنا كلها وبمجموع أفرادها تبوء بإثم التمزق والانقسام ما لم يعملوا على استئصال أسبابه، والقضاء على بواعثه، والعودة بالأمة إلى سابق وحدتها، وغابر مجدها^(١).

٥ - وأخيراً مشروع الميثاق الوطني:

هو مشروع الميثاق الوطني الذي تقدم به الإخوان المسلمون في سورية للعاملين في الحقل السياسي السوري، وتم إقراره ميثاقاً وطنياً في مؤتمر المعارضة السورية بلندن، فقد كانت الثوابت الثلاثة في المشروع، وأضحت جزءاً من المقدمة في الميثاق هي: الانتماء الإسلامي هوية ومرجعية، والانتماء للمنظومات العربية، والاستفادة من تجارب الأمم.

وبصدد الثابت الثاني الذي يمثل فكر الإخوان المسلمين قال الميثاق:

« إن انتماء قطرنا إلى منظومته العربية يعتبر أساساً في بناء أي استراتيجية سياسية مستقبلية، ومن الضروري أن يعبر هذا الانتماء عن نفسه في تجسد واقعي فعال، يوثق الروابط ويؤكد العلاقات، ويسير بالأمة في طريق التوحد ضمن سياسات منضبطة ومدروسة، ولا يجوز أن يبقى ممثلاً في رؤى ذهنية أو في مشاعر وأحلام عاطفية.

ثم إن المواجهة بين العروبة والإسلام كانت عنوان مرحلة تاريخية تصرمت، ولقد نشأت تلك المواجهة عن عوامل من الانفعال وسوء الفهم، وحمى الإيديولوجيا التي سادت المناخ العام في فترات ما بعد الاستقلال... »^(٢).

كما كانت الوحدة العربية هي الهدف الرابع من أهداف الأمة، والتي نص عليها الميثاق بما يلي:

« الهدف الرابع: السعي إلى تحقيق الوحدة العربية:

(١) بيان الثورة الإسلامية ومنهجها (ص ٥١، ٥٢).

(٢) مشروع الميثاق الوطني، والذي غدا الميثاق الوطني للمعارضة السورية.

إن السعي لتحقيق الوحدة العربية على أسس متينة من الروابط الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية واجب شرعي وضرورة قومية، وإلى أن تتوفر الشروط الموضوعية لهذه الوحدة لا بد من العمل على إعادة التضامن العربي، وتجاوز كل الخلافات البينية، وفتح الحدود بين جميع الدول العربية، وإقامة سوق عربية مشتركة للارتقاء بالعلاقات العربية - العربية إلى مستوى التحديات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تواجه الأمة.

تاسعاً: النموذج الصلاحي للوحدة:

كثيراً ما تتراءى لنا أوضاعنا مشابهة للأوضاع المتردية للمسلمين يوم احتل الصليبيون القدس واحتلوا الكثير من الأرض الإسلامية، ولم يتمكن العرب المسلمون من الانتصار على خصومهم إلا من خلال الوحدة، فقد كانت الإمارات العربية في صراع مرير على السلطة تتحالف مع الصليبيين ضد بعضها بعضاً، وانطلق عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين من جعل الأولوية الكبرى لحرب الصليبيين، وأن هذه الحرب لن يتحقق فيها النصر ما لم تتوحد الأمة كلها لحربهم، ومضوا في عمليات التحرير والتوحيد حيث بلغت قمته من توحد مصر وسورية واليمن والشام كلها، وباركت الخلافة الإسلامية في بغداد هذا التوحد، وكان الإسلام هو أساس هذه الوحدة، والجهاد في سبيل الله هو سبيلها لمواجهة جيوش الفرنجة المتجمعة من أوروبا « ومات نور الدين سنة (٥٦٩هـ) فاضطربت البلاد الشامية والجزيرة ودعي صلاح الدين لضبطها فأقبل على دمشق (مصر) سنة (٥٧٠هـ - ١١٧م)، فاستقبله بحفاوة وانصرف إلى ما وراءها فاستولى على بعلبك وحماة وحلب، ثم ترك حلب للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وانصرف إلى الإصلاح الداخلي في مصر والشام، كما اهتم بدفع غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام.. ودانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً وبرقة غرباً إلى بلاد الأرمن شمالاً وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً، وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي يوم حطين سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ثم افتتح بيت المقدس في نفس العام ووقائع أخرى على أبواب صور، فدفع مجيد عن عكا »^(١).

« مناقبه: كان خليقًا بالإمارة، مهيبًا شجاعًا، مجاهدًا كثير الغزو، عالي الهمة، جوادًا كريمًا حسنًا إلى أمرائه وغيرهم، وكان بسيطًا في ملبسه ومأكله وركبه، ومن عدله أنه لم يعاقب على المظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فأمنت البلاد مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشريعة المظهرة، وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء وجميع الناس بلا تفرقة.

وفاته: بعد أن انتهى من المعاهدة بينه وبين ريتشارد قلب الأسد، قام بجولة في بلاد الشام التي كانت تحت سيطرته ليطمئن على أحوالها، وعلى مسيرة الإصلاحات، ثم عاد إلى دمشق، ومكث فيها أيامًا طلبًا للراحة وعازمًا المسير بعد فترة إلى مصر ليستطلع أحوالها، إلا أن المرض عاجله، وما لبث أن توفي في دمشق ودفن فيها^(١).

فقد قامت الوحدة بين هذه الأقطار العربية على القوة ومفهوم الفتح الإسلامي والجهاد في سبيل الله « وافتتح بسيفه من اليمن إلى الموصل، ومن طرابلس الغرب إلى النوبة »^(٢)، وكان الدين هو الذي يحركه في كل خطواته.

ف « كان صلاح الدين فقيهاً درس الفقه الشافعي بالإضافة للحديث والعقيدة، وروى الحديث أناس عنه وكان يحفظ القرآن، والتنبه في الفقه، والحماسة في الشعر، ومثله كان أمراؤه ووزراؤه، ومنهم وزيره الشهير ومستشاره القاضي الفاضل الذي قال صلاح الدين عنه فيما رواه السبكي: « لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل »، وكذلك كان الأمير ضياء الدين عيسى أكبر أمراء الجيش، وكذلك الأمير بهاء الدين قراقوش عالمًا فقيهاً إلا أنه كرس نفسه للخدمة الإدارية والعسكرية، فقد كان والي صلاح على عكا ثم على القاهرة، فكان من أحكم القادة وأشجعهم »^(٣).

عاشراً: الوحدة العربية اليوم:

وتطلعت الأمة كثيرًا إلى تحرير فلسطين من اليهود بعد الوحدة بين سوريا ومصر عام ثمانية وخمسين وتسعمائة للألف بقيادة عبد الناصر، وخيّل للعرب أن التاريخ يعيد

(١) الموسوعة العربية العالمية (ص ١٢٦).

(٢) الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين.

(٣) الموسوعة العربية العالمية (١٥/ ١٢٥).

نفسه، فهذا صلاح الدين الجديد قد برز (عبد الناصر) وهذه سورية ومصر قد توحدت، ولم يعد إلا إعلان الحرب على اليهود.

لم يدم هذا الحلم أكثر من ثلاث سنوات حين انهارت الوحدة المصرية السورية، وخمس سنوات بعدها حيث قامت الحرب عام سبع وستين، وتوحدت الجيوش العربية في مصر والشام والأردن تحت إمرة المشير عبد الحكيم عامر وكانت أسوأ حرب في تاريخ الأمة في القرن العشرين، حيث انتهت بتحرير كامل فلسطين من أيدي العرب والمسلمين، وأعلن دايان في القدس (هذه بخير) أي أنه قد ثار من رسول الله ﷺ ومن هزيمة اليهود في خيبر، وأمضينا إلى نهاية القرن نطالب بعودة ما فقدناه من أرض بعد حرب الأيام الستة، مباركين لليهود في دولتهم في ثلثي أرض فلسطين.

أكثر من مائة عام ولا وحدة، ومن حقنا أن نقول: إن الوحدة لا يمكن أن تقوم إلا بالإسلام، انطلاقاً من تاريخ خمسة عشر قرناً من تاريخ هذه الأمة، ومن تجربة مائة عام من القرن العشرين انتهت بثلاث وعشرين دولة بدل دولة واحدة، والقومية العربية هي أساس التحرير والوحدة، وقد وصلت القومية إلى ذروتها في عهد الرئيس عبد الناصر، حيث لم تحظ بشخصية شعبية مثله أحبته جماهير الأمة العربية، وتطلعت الآمال إليه، وحكم ثمانية عشر عاماً في أكبر دولة عربية، ومع ذلك انهارت آمال التحرير والوحدة كلها قبل وفاته.

أ - معوقات الوحدة العربية:

إن الواقع العربي اليوم يكاد يكون كله عوائق دون الوحدة، نذكر من أهم هذه العوائق:

١ - نمو الإقليمية في كل قطر عربي، وتأسيس الحياة على التجزئة، فلكل دولة علمها ودستورها وحدودها، وقد تربي أبناء الوطن العربي الواحد على هذه الإقليمية، فكل مواطن عربي يفدي دولته بدمه، ويدافع عن حدودها بروحه، ويتلقى في مناهج التعليم منذ صغره فكرة الدفاع عن الحدود المرسومة في سايكس بيكو وتقديسها والاستعداد للموت في سبيلها والذود عن كل ذرة تراب فيها.

٢ - الواقع الدولي والأمم المتحدة الذي يمنع محاولة ضم أي دولة في منظمة الأمم المتحدة لدولة أخرى ومن حق العالم أن يمنع أي اتحاد بالقوة بين دولتين، وهذا يعني أن الوحدة لن تتم إلا برضى الأنظمة الحاكمة في الدول العربية، وليس من السهل ذلك.

٣ - الاختلاف الفكري بين الأنظمة العربية والاختلاف السياسي، ولا يمكن أن تقوم الوحدة بين قطرين عربيين مختلفين في المنطلق الفكري أو الواقع السياسي بين ملكي أو جمهوري أو ديمقراطي وديكتاتوري.

٤ - الوحدة تعني لدى الأنظمة زوال الحاكم وتنازله عن السلطة لغيره، وليس من السهولة أن توجد روح الإيثار هذه عند الأنظمة، إلا بضغط جماهيري قادر على إسقاط النظام الإقليمي أو الانفصالي.

٥ - غياب الديمقراطية الحقيقية عن الأنظمة السياسية: ففي النظام الديمقراطي يحرص الحاكم على نيل رضا ناخبيه، بينما تقوم الأنظمة القمعية على استباحة الكبت والظلم والاضطهاد والتضحية بالشعب من أجل النظام الحاكم.

٦ - ضعف الوازع الإسلامي عند السلطة والشعب، فالإسلام حين تنطلق الأنظمة منه يفرض على الحاكمين العرب أن يتوحدوا ولا يتفرقوا، وتفرض الخليفة الواحد للأمة كلها أو الرئيس الواحد.

ب - الطريق إلى الوحدة العربية اليوم:

لعل التجربة الأوربية التي شهدناها منذ عدة سنوات تصلح نموذجاً لمسيرة الوحدة العربية:

١ - فالوحدة الثقافية هي الطريق الأول للوحدة، حيث تتوحد المناهج التربوية والكتب المدرسية والثقافية ومنظومة القيم المنطلقة من الإسلام والتاريخ العربي، والآلام والأمال المشتركة للشعب العربي كله كفيلة أن تذيب الفوارق الجزئية القائمة بين الدول، وجدية العاملين في هذا الإطار تساعد على ذلك.

٢ - والوحدة الاقتصادية هي الطريق الثاني للوحدة، حيث يتكامل الاقتصاد العربي في سوق عربية مشتركة وتُعطى الأولوية في التعامل الاقتصادي للدول العربية.

٣ - وقيام الاتحادات والكتل الاقتصادية والسياسية ابتداءً سوف يقود إلى الاتحاد أو الوحدة الشاملة، فكتلة الخليج مثل كتلة المغرب العربي، مثل كتلة الشام أو الهلال الخصيب التي تعتبر نويات للوحدة العربية حين تتكامل كل كتلة ثقافياً واقتصادياً وتذلل الصعوبات العامة، والصعوبات بين دول هذه الكتل.

٤ - الانطلاق من الإسلام الذي يحتل في الوطن العربي أكثرية ساحقة، تجتمع عليه كل الجماهير العربية، ويسهل حين التنازع العودة إليه لتكون الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع.

٥ - اعتبار الاتحاد الفيدرالي هو الأنسب لواقع الأمة المتخلف اليوم، فيمكن من خلال الاتحاد المحافظة على الكيانات القطرية نسبياً من حيث وجود مجلس تشريعي وحكومة محلية في كل قطر تعالج كل الشؤون القطرية أو الإقليمية المحلية، ويبقى الاتحاد يمارس السياسات الكبرى في الدولة كالخارجية والاقتصاد والإعلام والتربية.

٦ - الأكثرية العربية الإسلامية في الوطن العربي تتعامل مع اللغة العربية لغة القرآن بصفتها لغة وحدة الأمة ولغة حضارتها، وإزالة الصراع بين العروبة والإسلام، واعتبارهما متكاملين لا متناقضين مهمة كبيرة لتذليل طريق الوحدة، فالصراع بين هذين التيارين، أعاق نهضة الأمة ووزعها مرقاً شتى.

ج - بيننا وبين دعاة القومية:

إذا كانت الوحدة العربية ظئر الإسلام فنحن أولى بها من دعاة القومية العربية، إن التجزئة التي وقعت في الوطن العربي هي التي أعطت المبرر بالتخلي عن الإسلام؛ فسورية مثلاً عندما تكون جزءاً من الوطن العربي فالإسلام ضرورة لها؛ لأنه يمثل أكثر من ثمانين بالمائة من عقيدة المسلمين في وطن عربي موحد، لكن في سورية وحدها نجد من يواجه سيادة الإسلام وحكمه (النصارى والدروز والنصيريين والإسماعيليين والبعثيين والعلمانيين والشيوعيين)، فتكون الأكثرية الإسلامية ضعيفة فيها، وهذا ما حدا بدعاة الإسلام في عهد الانتداب أن ينطلقوا من الشعب السوري الواحد حفاظاً على وحدة سورية التي حرص الاستعمار أن يقسمها إلى خمس دويلات طائفية وإقليمية.

إن وجود التجزئة والإقليمية في الوطن العربي هي التي تبرر التخلي عن الإسلام في هذه الدويلات.

ونحن إذ بصفتنا دعاة للإسلام أحرص بكثير على الوحدة العربية، فهي وحدة إسلامية إضافة لكونها وحدة عربية، وبالمنطق الموضوعي، فأعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي أربع وأربعون دولة، فإذا اتحد اثنان وعشرون دولة منها في دولة عربية واحدة، فإن هذا يعني أن نصف الوحدة الإسلامية قد تحقق؛ لأن هذه الدول الاثنتين والعشرين

أو الأحد والعشرين هي أعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، نعم قد يكون العرب ربع المسلمين أو خمسهم أو أقل، لكنهم هم العنصر الأساسي والرئيسي في هذه الوحدة، ولن يتوحد المسلمون بدونهم، فهم أهل هذا الدين، وهم رعاته وهم حملته، بلغتهم نزل، وبسواعدهم انتشر، وبعقلهم وبفقههم نضج وحكم، والعلمانيون هم الذين أشعلوا الحرب ضد الإسلام، فأزالوهم حتى عن موقع الوحدة العربية التي هي من ثمرة هذا الدين ومن نتاجه، ولو قامت دولة الوحدة العربية بعيداً عن سيطرة الأقليات القومية والأقليات الدينية لكانت الدولة النموذج للإسلام في الأرض، كما كانت فيما مضى ولتغير وجه التاريخ الحديث كله.

يقول الإمام الشهيد حسن البنا:

«ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربياً ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين، وقد جاء في الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام، وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبه الإسلام وحراسه.

وأحب أن أنبه هنا إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة كما عرفها النبي ﷺ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان»، ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها، وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية»^(١).

ولاشك أن اقتراب دعاة القومية من الإسلام، يضيق الهوة ويلغيها بين الفريقين؛ بحيث تصبح القومية العربية جسد هذه الأمة والإسلام روحها، وعندئذ تصبح الوحدة العربية أقرب منالاً وأكثر واقعية من بقائها هدفاً يرفرف في الأمانى والأحلام.

ملخص البحث:

ونخلص في نهاية البحث إلى النتائج التالية:

- ١ - العرب ابتداءً هم نسل عدنان وقحطان، وقد توزعوا في بلاد العرب بعد مغادرة موطنهم الرئيسي الجزيرة العربية في هجرات متعددة بلا رسالة يحملونها.
- ٢ - قام للعرب دول عريقة في التاريخ في اليمن خاصة، وفي أطراف الجزيرة العربية، كالمناذرة والغساسنة، بينما بقي العرب في قلب الجزيرة قبائل شتى، متفرقة متناحرة، وكان البيت العتيق في مكة موضع تقديس العرب جميعاً بلا منازع.
- ٣ - أول معركة انتصف فيها العرب من العجم قبل الإسلام - كما في اللفظ النبوي - هي معركة ذي قار، وكانت كلمة السر عند العرب محمداً، فباسمه نصرُوا على الفرس.
- ٤ - أشرق نور الإسلام وقامت أول وحدة عربية في التاريخ ضمت الجزيرة العربية كاملة في اليمن ونجد والحجاز وعسير، وكان ولاه رسول الله ﷺ يتبعون لقائدهم الأعظم في المدينة.
- ٥ - قامت أول حروب التحرير والوحدة بعد وفاة رسول الله ﷺ وأمكن إنهاء الردة عن الإسلام، وإنهاء القبلية والعبودية للطواغيت، وإعادة توحيد الجزيرة العربية، ولخالد ابن الوليد رضي الله عنه البطل الميداني القدح المعلى في ذلك، وللصديق خليفة المسلمين ورمزهم دور القيادة في ذلك.
- ٦ - انطلق العرب المسلمون في عامهم الثاني من خلافة الصديق في تحرير الأرض العربية في الشام وفي العراق من التجزئة، وانتزاعها من سيطرة الفرس والرومان باسم الشعار الذي أعلنه رباعي بن عامر: الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.
- ٧ - تابع الفتح الإسلامي أيام الخليفة الثاني امتداده إلى أفريقية وعربها وضمها للدولة الإسلامية، وقامت لأول مرة في التاريخ وحدة عربية تتجاوز المحيط والخليج لتتألف من ثلاثي المعمور آنذاك.
- ٨ - وعلى امتداد ألف عام بقيت وحدة العرب قائمة، بقيام خلافة الإسلام وانتهت بانتهائها.

٩ - فالوحدة العربية نبت إسلامي أصيل نشأ في روضة الإسلام ونما وترعرع واشتد سوقه في ظل الإسلام، وقُتل بقتله.

١٠ - انطلقت فكرة الوحدة العربية في القرن العشرين من فكرة القومية الحديثة، وأمضت قرنًا كاملاً لم تتمكن من التحقيق، وبعد قرن كانت دول العرب اثنتين وعشرين دولة بدل دولة واحدة.

١١ - وحدة مصر وسورية كانت النموذج اليتيم للوحدة خلال القرن العشرين ولم تستمر أكثر من ثلاث سنوات ونيف، وكذلك الوحدة بين شطري اليمن.

١٢ - قامت محاولات اتحادات عربية كردود فعل، وتكتلات مؤقتة لم يكتب لها الحياة كذلك.

١٣ - تطور مفهوم الوحدة العربية لدى البعث الاشتراكي من الدولة الواحدة إلى وحدة الأنظمة الاشتراكية والطليلة العربية.

١٤ - كانت الحركة الإسلامية - الإخوان المسلمون - من أكبر دعاة الوحدة العربية بصفتها مرحلة على طريق الوحدة الإسلامية، كما برز ذلك من كلام الإمام المؤسس حسن البنا - رحمه الله -.

١٥ - الإخوان المسلمون السوريون كانوا في مواقفهم الأصلية المبدئية من أكبر دعاة الوحدة العربية كذلك.

١٦ - معوقات الوحدة العربية في هذا العصر كثيرة من أهمها تجذر القطرية والإقليمية، والاختلافات الأيديولوجية بين الأنظمة، وحب التمسك بالسلطة، وغياب الديمقراطية الحقيقية، وضعف الوازع الإسلامي.

١٧ - الطريق إلى الوحدة العربية لا بد أن يأخذ جانب التدرج والانطلاق من الواقع، لا الانطلاق من العواطف والأحلام الهائمة، والاندفاعات الشعورية الحادة.

١٨ - لم تقم الوحدة العربية في التاريخ إلا من خلال الإسلام، وفي أقل من ثلث قرن، وقامت محاولات قرن كامل لإقامتها بعيداً عن الإسلام، وفشلت المحاولات.

١٩ - لن تقوم الوحدة العربية المعاصرة بغير الإسلام لأنه (مهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله).

٢٠ - اقتراب دعاة القومية ودعاة الإسلام له دور حاسم في دفع تيار الوحدة العربية إلى الأمام وتحويلها إلى واقع ملموس حي.



(٢)

القضية الفلسطينية

أولاً: فلسطين من النشأة الى اليوم:

أ - فلسطين (التاريخ و الجغرافيا):

يُطلق اسم فلسطين على القسم الجنوبي الغربي لبلاد الشام، وهي الأرض الواقعة غربي آسيا، على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وللفلسطين موقع استراتيجي مهم؛ إذ تُعدّ صلة الوصل بين قارتي آسيا وأفريقيا، ونقطة التقاء جناحي العالم الإسلامي.

وقد سكن الإنسان أرض فلسطين منذ عصور موعلة في القدم، كما تدلّ الحفريات والآثار، وشهدت أرضها مراحل التطور الإنساني الأولى في التحول من الرعي إلى الزراعة، كما أن أول مدينة جرى تشييدها في التاريخ هي مدينة (أريحا) الواقعة شمال شرقي فلسطين، وذلك نحو (٨٠٠٠ ق.م) حسب ما يذكر علماء الآثار، وأقدم اسم معروف لهذه الأرض هو (أرض كنعان)؛ لأن أول شعب سكن هذه الأرض معروف لدينا تاريخياً هم (الكنعانيون) الذين قدموا من جزيرة العرب نحو (٢٥٠٠ ق.م)، واسم فلسطين هو اسم مشتق من اسم أقوام بحرية، لعلها جاءت من غرب آسيا الصغرى ومناطق بحر إيجه حوالي القرن الثاني عشر ق.م، وورد اسمها في النقوش المصرية باسم (ب ل س ت)، وربما أضيفت النون بعد ذلك للجمع، وقد سكنوا المناطق الساحلية، واندمجوا بالكنعانيين بسرعة، فلم يبقَ لهم أثر مميز سوى أنهم أعطوا الأرض اسمهم.

أما أرض فلسطين بحدودها الجغرافية المتعارف عليها حالياً، فلم تحدّد بدقة إلا في أيام الاحتلال البريطاني لفلسطين (وخصوصاً خلال ١٩٢٠ - ١٩٢٣ م)، وقد ظلّت حدود أرض فلسطين تضيق وتوسع عبر التاريخ، غير أنّها ظلّت تعبر بشكل عام عن الأرض الواقعة بين البحر المتوسط وبين البحر الميت ونهر الأردن، وعلى أي حال فإنّ مساحة فلسطين وفق التقسيمات المعاصرة تبلغ (٢٧٠٠٩ كم^٢)، وتمتّع فلسطين بمناخ معتدل، هو مناخ البحر المتوسط، وهو مناخ يشجع على الاستقرار والإنتاج.

ب - فلسطين عبر التاريخ:

هناك آثار تشير إلى أن الإنسان سكن فلسطين منذ العصر الحجري القديم (٥٠٠ ألف - ١٤ ألفاً ق.م)، كما يشير العصر الحجري الوسيط (١٤ ألفاً - ٨ آلاف ق.م) إلى وجود أشكال حياة حضارية تمثلت بما يعرف بالحضارة النطوفية، وعندما قدم الكنعانيون من جزيرة العرب نحو (٢٥٠٠ ق.م) كانت هجرتهم واسعة، بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، وقد أنشأوا ما لا يقل عن مائتي مدينة وقرية في فلسطين، مثل مدن بيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وبئر السبع وبيت لحم. ويرى ثقات المؤرخين أن معظم أهل فلسطين الحاليين - وخصوصاً القرويين - هم من أنسال القبائل الكنعانية والعمورية والفلسطينية، ومن القبائل العربية التي استقرت في فلسطين قبل الفتح الإسلامي وبعده، حيث اندمج الجميع في نسيج واحد، يجمعهم الإسلام واللغة العربية، حيث أسلم الجميع واستعربوا تحت الحكم الإسلامي طوال ثلاثة عشر قرناً.

كان قدوم إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين نحو (١٩٠٠ ق.م) إشرافاً لنور التوحيد في هذه الأرض المباركة، وقد عاصر حاكم القدس (ملكي صادق) الذي كان على ما يبدو موحدًا وصديقًا له. وكان لأبي الأنبياء إبراهيم دوره في نشر رسالة التوحيد، ويبدو أنه لم يجد عنتاً أو عناءً من أهل فلسطين، ولم يضطر لتركها بسبب دينه أو دعوته، فظل مستقرًا فيها وينتقل بحرية حيث يشاء إلى أن توفاه الله في المدينة التي حملت اسمه (الخليل). وقد سار على دربه أبنائه الأنبياء من بعده؛ إسماعيل - الذي استقر في مكة - وإسحاق وابنه يعقوب اللذان استقرّا في فلسطين. وكان ليعقوب عليه السلام اثنا عشر ابنًا هم الأسباط المعروفون ببني إسرائيل - وإسرائيل هو لقب ليعقوب عليه السلام - وقد هاجروا إلى مصر واستقروا فيها، حيث عانوا من اضطهاد الفراعنة بضعة قرون. وأرسل الله لهم موسى عليه السلام - في القرن ١٣ ق.م - لينقذهم من فرعون وطغيانه، وأهلك الله فرعون وجنوده، غير أن بني إسرائيل في ذلك الزمان كانوا قد طبعوا على الذل والجبن، فرفضوا الذهاب إلى الأرض المقدسة قائلين لموسى: ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

وتوفي موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين، وعندما نشأ جيل جديد صلب من بني إسرائيل بعد أربعين سنة من التيه، قادهم يوشع بن نون عليه السلام نحو (١١٩٠ ق.م)، حيث

عبر بهم نهر الأردن، واستطاع تحقيق بعض السيطرة لبني إسرائيل في الجزء الشمالي الشرقي من فلسطين. ولمدة (١٥٠) سنة تالية سادت النكبات والفوضى والخلافات والانحلال الخلقي والديني بين بني إسرائيل. ولم يتحسن حالهم إلا بقدم طالوت ملكًا عليهم، والذي استطاع الانتصار على أعدائه.

وكان ظهور داود عليه السلام الذي خلف طالوت إيذانًا ببدء مرحلة جديدة لنور التوحيد في الأرض المباركة، حيث آتاه الله الملك نحو سنة (١٠٠٤ ق.م)، وقد واصل حربه ضدّ الأقوام الكافرة على الأرض المقدسة، حيث أخضعها واستطاع نقل عاصمته إلى القدس سنة (٩٩٥ ق.م)، وسيطر على معظم فلسطين، باستثناء معظم المناطق الساحلية التي لم تخضع له. واستمرّ في حكمه عليه السلام حتى (٩٦٣ ق.م)، حيث خلفه ابنه سليمان عليه السلام (٩٦٣ - ٩٢٣ ق.م)، حيث شهدت فلسطين حركة بناء وعمران وازدهار ضخمة، وسخرّ الله له الريح والجنّ، وأعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده. وكان حكم داود وسليمان هو العصر الذهبي الذي حُكمت فيه فلسطين نحو ثمانين عامًا تحت راية الإيمان والتوحيد قبل الفتح الإسلامي لها.

وبعد وفاة سليمان انقسمت مملكته إلى دولتين منفصلتين متعاديتين في كثير من الأحيان، فنشأت مملكة (إسرائيل) شمال فلسطين خلال الفترة (٩٢٣ - ٧٢١ ق.م)، التي سمّتها دائرة المعارف البريطانية ازدراء: (المملكة الذيلية)، حيث ضعفت وفسد حكمها، وانتهى أمرها بسيطرة الآشوريين بقيادة سرجون الثاني عليها، وتدميرها ونقل سكانها من بني إسرائيل إلى حرّان والخابور وكردستان وفارس، وأحلوا مكانهم جماعات من الآراميين، ولم يبقَ بعد ذلك أثر لأسباط بني إسرائيل العشرة الذين شكّلوا هذه الدولة. أما مملكة (يهودا) فاستمرّت منذ (٩٢٣ - ٥٨٦ ق.م)، وكانت عاصمتها القدس، وقد اعترتها عوامل الضعف والوقوع تحت النفوذ الخارجي فترات طويلة، فقد هزمها ودخل عاصمتها شيشق فرعون مصر (أواخر القرن ١٠ ق.م)، وفعل مثله الفلسطينيون في عهد يهورام (٨٤٩ - ٨٤٢ ق.م)، واضطرتّ لدفع الجزية للآشوريين...، ثم إنها سقطت أخيرًا بيد البابليين بقيادة نبوخذ نصر الذي خرّب القدس، ودمّر الهيكل، وسبى حوالي (٤٠) ألفًا من اليهود، وبذلك سقطت مملكتهم سنة (٥٨٦ ق.م).

وهكذا فلم تطل مملكة بني إسرائيل في فلسطين أكثر من أربعة قرون حكموا في معظم

الوقت بعضًا من أرضها، وكان حكمهم غالب الوقت ضعيفًا مفككًا، وخضع أحيانًا لنفوذ وهيمنة دول قوية مجاورة.

وقد سمح الإمبراطور الفارسي قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين، فعادت قلّة منهم، عاشت إلى جانب أبناء فلسطين، وتمتعت منطقة القدس بنوع من الحكم الذاتي تحت السلطة الفارسية التي استمرّت (٥٣٩ - ٣٣٢ ق.م)، وتلا ذلك عصر السيطرة الهلينية الإغريقية على فلسطين (٣٣٢ - ٦٣ ق.م)، واستمرّ يدير شؤون اليهود (الكاهن الأكبر)، واستطاع اليهود تحقيق حكم ذاتي منذ سنة (١٦٤ ق.م) أخذ يضيق ويتسع، وتزداد مظاهر استقلاله وتضعف حسب صراع القوى الكبرى في ذلك الوقت على فلسطين (الرومان، البطالمة، السلوقيين...).

وقد تمكن الرومان من السيطرة على فلسطين (٦٣ ق.م)، وأخضعوها لحكمهم المباشر من سنة (٦٦ م)، حيث ألغوا الحكم الذاتي اليهودي في منطقة القدس، وقد ثار اليهود (٦٦ - ٧٠ م)، لكن القائد العسكري الروماني تيتوس أخمد ثورتهم ودمّر الهيكل، ثم ثار اليهود مرة أخرى وأخيرة (١٣٢ - ١٣٥ م)، لكن القائد الروماني جوليوس سيفروس احتلّ القدس ودمّرها، وأقام الإمبراطور الروماني هدریان مدينة جديدة فوق خرائبها، سماها (إيليا كابيتولينا) حيث عُرفت بعد ذلك باسم إيلياء، وهو اسم هدریان الأول. وحظر على اليهود دخول القدس حوالي (٢٠٠) سنة تالية، وندرت أعدادهم نسبة إلى السكان طوال (١٨) قرنًا تالية. بينما ظلّ أهل البلاد الأصليون من كنعانيين ومن اختلط بهم من قبائل العرب مستقرّين في البلاد قبل قدوم بني إسرائيل وفي أثناء وجودهم، وظلّوا مستمرّين كذلك بعدهم إلى أيامنا هذه.

ج - فلسطين في العهد الإسلامي:

قبل أن تتشكل الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، كانت أنظار القلّة المستضعفة من المسلمين في مكة تتّجه إلى المسجد الأقصى وبيت المقدس في فلسطين، إذ إنّ معجزة الإسراء تمت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكان المسجد الأقصى هو القبلة الأولى للمسلمين في الصلاة، وقد كان فتح خيبر وفدك (٧هـ)، وغزوتا مؤتة (٨هـ)، وتبوك (٩هـ)، وحملة أسامة بن زيد (١١هـ) مقدمة لتطلع المسلمين إلى بلاد الشام.

أما فتح فلسطين فكانت أبرز المعارك التي أدت إلى فتحها معركة أجنادين بقيادة خالد ابن الوليد التي قتل فيها نحو ثلاثة آلاف من الروم، ومعركة فحل - بيسان في (٢٨ ذي القعدة ١٣هـ - ٢٣ يناير ٦٣٥م)، والتي كان ميدانها غربي نهر الأردن إلى الجنوب من بيسان، أما المعركة الفاصلة فكانت معركة اليرموك شمالي الأردن في (٥ رجب ١٥هـ / ١٢ أغسطس ٦٣٦م)، والتي واجه فيها جيش المسلمين المكون من (٣٦) ألفاً بقيادة أبي عبيدة و خالد بن الوليد - رضي الله عنهما - جيش الروم البالغ (٢٠٠) ألف، وقد حلت كارثة كبرى في الروم قدرها بعض المؤرخين بنحو (١٣٠) ألف قتيل، وقد أدت هذه المعركة إلى فتح بلاد الشام، وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه لاستلام مفاتيح بيت المقدس بعد أن حاصرها المسلمون بضعة أشهر، ورغب أهلها في الصلح شرط أن يتولى عمر رضي الله عنه العقد بنفسه، وهي المدينة الوحيدة في عهد الراشدين التي تولى خليفة بنفسه استلام مفاتيحها، وقد شارك عمر في الفتح نحو أربعة آلاف من الصحابة و صدح صوت بلال بن رباح فيها بالأذان بعد أن كان امتنع عن ذلك منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كتب عمر بن الخطاب لأهل القدس عهداً، اشتهر باسم (العهدة العمرية)، وقد جاء فيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبيهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وله مثل ما على أهل إيلياء من الجزية...

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية ابن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة (١٥هـ) .

ويعكس هذا النص مدى التسامح الديني عند المسلمين في عالم كان يسوده التعصب

الأعمى والإكراه على الدين، وقد تم فتح القدس على الأرجح في (ربيع الآخر ١٥هـ/ مايو ٦٣٧م). وكانت (قيسارية) آخر مدينة تفتح في فلسطين في (شوال ١٩هـ/ أكتوبر ٦٣٩م)، وكانت ميناء ومدينة عامرة قوية سعى الروم للاحتفاظ بها قدر استطاعتهم.

وحسب التقسيمات الإدارية أصبحت فلسطين (جنداً) من (أجناد) الشام الذي توزع على أربعة أجناد في الراشدين، وأصبحت خمساً في عهد الدولة الأموية. وقد ظلت فلسطين جزءاً أصيلاً في الدولة الإسلامية، ومتفاعلاً مع تطوراتها السياسية والحضارية. ولم يكن تغير الدول والأسر الحاكمة ليؤثر على حقيقة أن أهل فلسطين عرب مسلمون مؤالون لدولة الإسلام وحكم الإسلام.

وقد استمر حكم الراشدين حتى سنة (٤١هـ/ ٦٦١م)، ثم تبعه حكم بني أمية حتى (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، ثم العباسيون الذين استمر حكمهم المباشر على فلسطين إلى أن بدأ يعاني من الضعف والتفكك مع انتهاء العصر العباسي الأول بمقتل الخليفة العباسي المتوكل سنة (٢٤٧هـ/ ٨٦١م)، مما أعطى الفرصة للولاة إلى أن يشكلوا لأنفسهم سلطات محلية وراثية، كما حدث مع العائلة الطولونية التي حكمت مصر وضمت فلسطين إليها (٢٦٤ - ٢٩٢هـ، أي: ٨٧٨ - ٩٠٥م)، وقد حذا الإخشيدون حذو الطولونيين عندما حكموا مصر، فضمّوها إلى نفوذهم (٣٢٣ - ٣٥٨هـ، أي: ٩٣٥ - ٩٦٩م). وقد حكم الإخشيدون والطولونيون تحت الظلّ الاسمي للدولة العباسية.

وفي (٣٥٨هـ) تمكن الفاطميون الذين ينتمون إلى المذهب الإسماعيلي من السيطرة على فلسطين، وخاض الفاطميون صراعات مع الثورات المحلية ومع القرامطة والأتراك السلاجقة للسيطرة على فلسطين، وتمكن السلاجقة في (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م) من السيطرة على معظمها، لكن الصراع عاد ليحتدم بين السلاجقة أنفسهم وبين الفاطميين الذين تمكنوا من السيطرة على صور سنة (١٠٩٧م)، وبيت المقدس في (فبراير ١٠٩٨م)، وقد كان هذا الصراع في غمرة الحملة الصليبية الأولى التي بدأت طلائعها في الوصول إلى بلاد الشام، وقام الفاطميون بمراسلة الصليبيين عارضين عليهم التعاون في قتال السلاجقة مقابل أن يكون القسم الشمالي من بلاد الشام للصليبيين، وفلسطين للفاطميين.

د - فلسطين ووعد بلفور:

لم تبق اتفاقية سايكس - بيكو طيّ الكتمان؛ إذ قام الروس بكشفها بعد أن استطاعت الثورة الشيوعية القضاء على الحكم القيصري في روسيا في (أكتوبر ١٩١٧ م)، وأعلنت انسحابها من الحرب، كما عرف الناس مبكراً بوعد بلفور الذي لم يعد سرّاً بعد أن وصل للصحافة في البلاد العربية - مصر بالتحديد - بعد أقل من أسبوع من صدوره، وقد كان ذلك صدمة كبيرة للثورة العربية؛ إذ لم يتخيلوا أبداً هذه الدرجة من الخداع البريطاني؛ ولذلك رفض جنود الثورة العربية الاستمرار ما لم توضح الأمور، فأرسلت بريطانيا - إمعاناً في التضليل - أحد مبعوثيها (هوغارث Hogarth) في (يناير ١٩١٨ م) لطمأنة الشريف حسين، حيث حمل تصريحاً بريطانياً بأن الهجرة اليهودية لفلسطين لن تتعارض مع مصالح السكان السياسية والاقتصادية، كما حمل التصريح البريطاني إلى القياديين السوريين السبعة في (يونيو ١٩١٨ م) تأكيدات واضحة على أن الأرض التي يحتلها البريطانيون (جنوب فلسطين وجنوب العراق) سوف تحكم وفق رغبات السكان، فضلاً عن الموافقة على استقلال ما كان لا يزال تحت السيادة العثمانية من شمال فلسطين وشرق الأردن وسوريا ولبنان وشمال العراق، وعندما انتهت الحرب العالمية صدر التصريح الإنجلو - فرنسي (٧ نوفمبر ١٩١٨ م) بتأكيد التعهدات للعرب الذين كانوا تحت الحكم العثماني في الحرية والاستقلال.

هـ - فلسطين تحت الاحتلال البريطاني (١٩١٧ - ١٩٤٨ م):

أتّم البريطانيون احتلال جنوب فلسطين ووسطها في (ديسمبر ١٩١٧ م)، واحتلّوا القدس في (٩ ديسمبر ١٩١٧ م)، وخطب قائد الجيش البريطاني (اللبي Allenby) في القدس محتفلاً بانتصاره قائلاً: «والآن انتهت الحروب الصليبية»، وكأنّ حملتهم على فلسطين كانت آخر حملة صليبية، وكأنّ الحروب الصليبية لم تتوقف منذ أن شنها الأوروبيون قبل ذلك بأكثر من (٨٠٠ عام).

وفي (سبتمبر ١٩١٨ م) احتلّ البريطانيون شمال فلسطين، كما احتلّوا في (سبتمبر - أكتوبر ١٩١٨ م) شرق الأردن وسوريا ولبنان. ومنذ ذلك الوقت فتحت بريطانيا بالقوة مشروع التهويد المنظم لأرض فلسطين، واستطاعت بريطانيا بعد ذلك إقناع فرنسا بالتخلي عن مشروع تدويل فلسطين كما في نصوص سايكس بيكو، مقابل رفع بريطانيا

لدعمها للحكومة العربية التي نشأت في دمشق بزعامة فيصل بن الشريف حسين، حتى تتمكن فرنسا من احتلال سوريا، ثم وفرت بريطانيا لنفسها غطاءً دولياً باستصدار قرار من عصبة الأمم في (٢٤ يوليو ١٩٢٢ م) بانتدابها على فلسطين، وتمّ تضمين وعد بلفور في صكّ الانتداب، بحيث أصبح التزاماً رسمياً معتمداً دولياً. غير أنّ فكرة الانتداب التي ابتدعتها عصبة الأمم كانت قائمة على أساس مساعدة الشعوب المتتدبة وإعدادها لنيل استقلالها، وقد تضمن صكّ الانتداب نفسه على فلسطين مسؤولية الدولة المتتدبة (بريطانيا) في الارتقاء بمؤسسات الحكم المحلي، وصيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين، وهذا يعني ألا يقف وعد بلفور في نهاية الأمر عائقاً في وجه أبناء فلسطين ضدّ الارتقاء بمؤسساتهم وإقامة دولتهم.

وكان تنفيذ وعد بلفور يعني عملياً الإضرار بمصالح أهل فلسطين وحقوقهم، وتعطيل بناء مؤسساتهم الدستورية باتجاه إقامة دولتهم. وقد فضلت بريطانيا دائماً التزام الشقّ المتعلق بوعد بلفور، وأصمّت أذانها ولم تحترم الشقّ المتعلّق بحقوق أبناء فلسطين العرب الذين كانوا يمثلون نحو (٩٢٪) من السكان عند بداية الاحتلال. وربما أرادت بريطانيا من إيجاد نصوص متعلقة بحقوق الفلسطينيين إظهار نفسها بمظهر الحكم العادل بين الطرفين العربي واليهودي، وتشجيع الفلسطينيين على المطالبة بحقوقهم وفق أساليب مدنية (دستورية)، وعدم إغلاق كافة المنافذ أمامهم، بحيث لا يصلون إلى درجة الانفجار والثورة بسرعة، في الوقت الذي تقوم فيه بالتسويق والمماطلة، ريثما يتمّ لها ترسيخ الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

وضعت بريطانيا فلسطين تحت الحكم العسكري حتى نهاية (يونيو ١٩٢٠ م)، ثم حوّلتها إلى الحكم المدني، وعينت اليهودي الصهيوني هربرت صمويل أوّل (مندوب سام) لها على فلسطين (١٩٢٠ - ١٩٢٥ م)، حيث شرع في تنفيذ المشروع الصهيوني ميدانياً على الأرض. وتابع المندوبون (السامون) المسيرة نفسها، غير أنّ أكثرهم سوءاً ودهاءً ونجاحاً في التنفيذ كان (آرثر واكهوب A. Wauchope) (١٩٣١ - ١٩٣٨ م)، حيث وصل المشروع الصهيوني في عهده إلى درجات خطيرة.

ثانياً: المقاومة المسلحة ضد المشروع الصهيوني والكيان الإسرائيلي:

ونستعرض فيما يلي مجمل الانتفاضات والثورات والحروب ضد إقامة المشروع الصهيوني على أرض فلسطين. وقبل أن نشرع في ذكر التفاصيل، نضع للقارئ بعض الملاحظات العامة المتعلقة بالموضوع.

١ - كان هناك وعي مبكر بخطورة المشروع الصهيوني، وكانت مقاومة هذا المشروع سياسياً أو عسكرياً قديمة قَدَم هذا الوعي، وقدم المشروع الصهيوني نفسه.

٢ - تدرّجت مقاومة المشروع الصهيوني قوة (في أثناء الاحتلال البريطاني ١٩١٧ - ١٩٤٨ م)، بحسب ازدياد الخطورة العملية لهذا المشروع من هجرة يهودية واستيطان وبناء للمؤسسات.

٣ - أثبت شعب فلسطين استعداده للتضحية والمبادرة والعطاء، بل وفي أحيان عديدة كانت المبادرة الشعبية تفرض نفسها على القيادة السياسية، وتدفعها للجهاد، وبعبارة أخرى: فإنّ شعب فلسطين كان يقود قيادته نحو الثورة والمقاومة.

٤ - إنّ المشاركة العربية والإسلامية في الدفاع عن فلسطين كانت محدودة وضعيفة، وارتبطت أساساً بثلاثة حروب كبيرة، أدّت اثنتان منها إلى كوارث حقيقية؛ ذلك أنّ البلاد العربية والإسلامية كانت تعاني من الاستعمار ونفوذه، كما عانت بعد ذلك من قياداتها السياسية، ومن السياسات الإقليمية المحلية التي لا تعطي أولوية كبرى للقضية الفلسطينية، فضلاً عن الخلافات والصراعات بين بلدان العرب والمسلمين.

٥ - إنّّه لم يحدث - حتى الآن - أن عبّئت طاقات الأمة العربية والإسلامية بشكلٍ وحدوي منهجي جادّ متكامل، متّسم بالاستمرارية في مواجهة المشروع الصهيوني.

٦ - إنه منذ زيارة أنور السادات للكيان الصهيوني في (نوفمبر ١٩٧٧ م)، وتوقيع اتفاقية تسوية سلمية مع الكيان الصهيوني (كامب ديفيد سبتمبر ١٩٧٨ م)، فإنّ محاربة الدول العربية والإسلامية ومقاومتها للمشروع الصهيوني قد فقدت زخمها، وأخذت تعاني من التفسخ والضعف.

٧ - إنّ الاتجاهات والحركات الإسلامية التي كان لها دور مشهود في المقاومة في النصف الأول من القرن العشرين، عادت لتلعب دورها المتميز من جديد في عقدي

الثمانينيات والتسعينيات. لكن دورها ظلّ شعبياً بشكل أساسي؛ لأنها لم تنجح في الوصول إلى القيادة السياسية، وخصوصاً على الساحة الفلسطينية، وفي دول الطوق.

٨ - إن جذوة المقاومة المسلحة لم تنقطع على الإطلاق منذ البداية وحتى الآن، وإن اتخذت أشكالاً وحركاتٍ واتجاهاتٍ مختلفة. وكان هناك دائماً مَنْ يصبو البندقية على المشروع الصهيوني، أو على الأقل مَنْ يُعدّ البندقية لذلك.

أ - المقاومة أثناء الاحتلال البريطاني لفلسطين (١٩١٧ - ١٩٤٨ م):

ترجع أولى علامات المقاومة الفلسطينية المسلحة إلى سنة (١٨٨٦ م) - أي: قبل الاحتلال البريطاني بـ (٣١) عاماً - عندما هاجم الفلاحون المطرودون من الحظيرة وملبس (بتاح تكفا) اليهود في قُراهم المغتصبة التي أُجلوا عنها رغماً عنهم بعد أن اشتراها المستوطنون اليهود من ملاك كبار، وقد دفع ذلك السلطات العثمانية إلى فرض قيود مشددة على الهجرة والاستيطان اليهودي، وتزايد بعد ذلك الوعي بمخاطر المشروع الصهيوني، فقد احتج وجهاء القدس المسلمين ضدّ رشاد باشا متصرف القدس في (مايو ١٨٩٠ م) عندما أبدى محاباة للصهاينة، وقدموا عريضة لرئيس وزراء الدولة العثمانية في (٢٤ يونيو ١٨٩١ م) طالبوا فيها بمنع هجرة اليهود الروس إلى فلسطين، وتحريم استملاكهم للأراضي فيها. وكان لكتابات وأنشطة المصلح الإسلامي الشيخ محمد رشيد رضا، والسياسي الفلسطيني يوسف الخالدي، ومفتي القدس محمد طاهر الحسيني، وممثلي مناطق فلسطين في البرلمان العثماني، أمثال روجي الخالدي، وسعيد الحسيني، وصحف الكرمل وفلسطين والمناادي وغيرها، كان لها أدوار في زيادة الوعي، وتعبئة الجماهير ضدّ المشروع الصهيوني قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة (١٩١٤ م).

احتلّ البريطانيون سنجق القدس - جنوب ووسط فلسطين - في (ديسمبر ١٩١٧ م)، وأكملوا احتلال شمال فلسطين في (سبتمبر ١٩١٨ م)، ولكنهم دخلوا فلسطين كقوة حليفة للثورة العربية التي قادها الشريف حسين؛ ولذلك لم يلقوا مقاومةً من أبناء فلسطين، على اعتبار وعودهم للعرب بالحرية والاستقلال، لكن تنكّر بريطانيا لعهودها، وإعطائها وعد (بلفور) لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، فتح الباب عريضاً لمقاومة المشروع الصهيوني والاستعمار البريطاني، غير أن الفترة (١٩١٧ - ١٩٢٩ م)

اتّسمت بتبني قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية للمقاومة السياسية؛ لأنّ المشروع الصهيوني لم يأخذ أبعداً خطيرة بعد (كان اليهود ٨٪ من السكان سنة ١٩١٨ م، ويملكون ٢٪ فقط من أرض فلسطين)، ولأنه كان لا يزال هناك أمل بأن تعدل بريطانيا عن موقفها (أقرت عصبة الأمم رسمياً الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٢٢ م)، فضلاً عن ضعف الفلسطينيين، وقلة خبرتهم في مواجهة بريطانيا (العظمى)، التي كانت أكبر قوة استعمارية في العالم.

كانت أولى بوادر مقاومة المشروع الصهيوني إنشاء جمعية (الفدائية) أوائل (١٩١٩ م)، وقد تكوّنت لها فروع في يافا والقدس وغزة ونابلس وطولكرم والرملة والخليل، وتولّى زعامتها في البداية محمد الدباغ، ثم محمود عزيز الخالدي، واستمرت بأشكال مختلفة حتى سنة (١٩٢٣ م)، وكان من الشخصيات الموجهة لها في الخفاء: الشيخ سعيد الخطيب، والحاج أمين الحسيني، والشيخ حسن أبو السعود، والشيخ محمد يوسف العلمي، ونشطت في تجنيد الأعضاء وسط الجندرية والشرطة الفلسطينية، ورغم أنه تم القبض على كثير من عناصرها، إلا أنه يظهر أنّ أفرادها شكّلوا عناصر تحريض مهمّة في انتفاضة موسم النبي موسى في القدس في (إبريل سنة ١٩٢٠ م).

ب - حرب (١٩٦٧ م) وأبرز نتائجها:

١ - احتلال (إسرائيل) لِمَا تبقى من فلسطين - أي الضفة الغربية (٥٨٧٨ كم^٢) -، وقطاع غزة (٣٦٣ كم^٢)، واحتلالها لسيناء المصرية (٦١١٩٨ كم^٢)، والجولان السورية (١١٥٠ كم^٢)، ليصبح مجموع الأرض التي يسيطر عليها الكيان الصهيوني (٨٩٣٥٩ كم^٢).

٢ - تشريد نحو (٣٣٠) ألف فلسطيني.

٣ - سيطرة الكيان الإسرائيلي على منابع مياه الأردن، وفتح مضائق تيران وخليج العقبة للملاحة (الإسرائيلية).

٤ - تشكيل الكيان الإسرائيلي لخطوط دفاع جديدة، وتوفير عمق إستراتيجي يسهّل الدفاع عنه بشكل أفضل.

٥ - فرض احتلال جديد للأراضي العربية، جعل هدف العرب فيما بعد استرجاع هذه الأراضي المحتلة سنة (١٩٦٧ م)، وليس تحرير فلسطين المحتلة سنة (١٩٤٨ م).

- ٦ - تدمير القوات العسكرية لمصر والأردن وسوريا.
- ٧ - انكشاف ضعف القيادات العربية، وانعدام التنسيق فيما بينها، وعدم جدّيتها في تحرير فلسطين.
- ٨ - ظهور المقاومة الفلسطينية المسلّحة وتعاضلها وبروز الهوية الوطنية الفلسطينية التي قرّرت أن تأخذ زمام المبادرة بعد أن تبين لها مدى الضعف العربي.
- ج - حرب (١٩٧٣ م) وأبرز نتائجها:
 - ١ - كسر أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر، وتحطيم نظرية الأمن الإسرائيلية، وإثبات إمكان استعادة أجزاء من الأراضي المحتلة على الأقلّ بالقوة العسكرية.
 - ٢ - أخذ العرب زمام المبادرة، والانتقال من الدفاع إلى الهجوم الإستراتيجي، وإثبات كفاءة وشجاعة المقاتل العربي.
 - ٣ - تحقيق قدر عالٍ من التضامن العربي، من خلال المشاركة العسكرية، ومن خلال استخدام سلاح النفط.
 - ٤ - تحقيق شعور بالثقة بالنفس، وارتفاع المعنويات بعد سنوات من الهزيمة والإحباط.
 - ٥ - استخدام الأنظمة العربية - خصوصاً مصر - النتائج السابقة لتحريك الأوضاع السياسية، ومحاولة الوصول إلى تسوية سلمية مع الكيان الإسرائيلي، تضمن عودة الأراضي المحتلة سنة (١٩٦٧ م).
- ثالثاً: المقاومة الفلسطينية (١٩٤٩ - ٢٠٠١ م):

أ - مرحلة المدّ القومي العربي ١٩٤٩-١٩٦٧ م:

علق الفلسطينيون آمالهم بتحرير فلسطين في هذه المرحلة بشكل عامّ على الأنظمة العربية، وخصوصاً مصر بزعامه جمال عبد الناصر، وكان شعار (الوحدة طريق التحرير) هو الشعار البراق لهذه المرحلة. وقد تمّ تغييب دور القيادة الوطنية الفلسطينية بزعامه الحاج أمين الحسيني، في الوقت الذي ضُمَّت فيه الضفة الغربية إلى الأردن، ووضع قطاع غزة تحت الإدارة المصرية. غير أنّ شعور العديد من الفلسطينيين في النصف الثاني من هذه المرحلة بعدم جدية الأنظمة العربية في عملية التحرير دفعهم إلى إنشاء

منظمات فدائية وطنية، كان أبرزها « حركة فتح »، كما أن الأنظمة اضطرت لفتح المجال للفلسطينيين للتعبير عن (كيانيتهم) وهويتهم ضمن أطر يمكن ضبطها ومتابعتها، فكان إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية سنة (١٩٦٤م) بدعم مصري.

ب - حرب (١٩٨٢م):

هدف الكيان الإسرائيلي من حرب (١٩٨٢م) إلى ضرب المقاومة الفلسطينية في لبنان، وتدمير بنيتها العسكرية، والقضاء على مشروع الثورة الفلسطينية بتحرير فلسطين من خلال الكفاح المسلح، وجّرها إلى مشاريع التسوية وفق الشروط والمعايير (الإسرائيلية)، خصوصاً وأن الأنظمة العربية هجرت الخيار العسكري أو لم تعد تراهن عليه. واستفاد الكيان الإسرائيلي من ظروف خروج مصر من الصراع العربي - الإسرائيلي بعد توقيعها اتفاقيات كامب ديفيد في (سبتمبر ١٩٧٨م)، ومن انشغال العرب بالحرب العراقية - الإيرانية، فضلاً عن الدعم الأمريكي للكيان الإسرائيلي الذي ازداد قوة في ولاية الرئيس ريغان.

وقد ادعى الكيان الإسرائيلي أن هدف الحرب هو تحقيق (سلامة الجليل)، أي: حماية المستوطنات اليهودية في شمال فلسطين المحتلة من الصواريخ والعمليات الفلسطينية، مع العلم أنه لم تحدث عمليات من هذا النوع منذ (٢٤ يوليو ١٩٨١م وحتى ٤ يونيو ١٩٨٢م). بينما قام الكيان الإسرائيلي في الفترة نفسها بخرق المجال الجوي اللبناني (٢١٢٥) مرة، وخرق المياه الإقليمية اللبنانية (٦٥٢) مرة، فضلاً عن بعض حوادث الانتهاك برّاً.

بدأ الاجتياح (الإسرائيلي) للبنان في (٤ يونيو ١٩٨٢م)، واشترك فيه (١٢٥ - ١٥٠) ألف جندي (من أصل ١٧٠ ألفاً هم قوام الجيش (الإسرائيلي) العامل) تساندهم (١٦٠٠) دبابة، و (١٦٠٠) ناقلة جنود مدرعة، و (٦٠٠) مدفع وراجمة صواريخ، والقوات الجوية والبحرية، أي أنها كانت حرب اقتلاع للوجود العسكري الفلسطيني، في جوّ من الاطمئنان إلى عدم وجود أي تحرّك عربي جادّ، فتركت الحدود شبه فارغة مع البلاد العربية الأخرى.

وقد تمكنت القوات (الإسرائيلية) من اجتياح جنوب لبنان ووسطه بسرعة كبيرة تساندها القوى الكتائبية، وفي يوم (٩ يونيو) كانت قد وصلت إلى مشارف بيروت.

وقد حاولت القوات السورية المتمركزة في البقاع والشوف التصدي لها، لكن القوات (الإسرائيلية) تمكنت من تدمير شبكة الصواريخ السورية، وأسقطت في معارك جوية مائة طائرة عسكرية سورية، فانكشفت القوات السورية البرية أمام الطيران الإسرائيلي، واضطرت القوات السورية للانسحاب بعيداً عن محاور القتال منذ (١١ يونيو).

وقد استمرت معركة بيروت (٦٥ يوماً) (٩ يونيو - ١٢ أغسطس ١٩٨٢ م). ووصلت القوات (الإسرائيلية) إلى طريق بيروت - دمشق، ودخلت بيروت الشرقية في (١١ يونيو)، حيث قصر الرئاسة في بعدا، وحيث وجدت ترحيباً من تحالف القوات اللبنانية الكتائبية. وقد أكملت حلقة حصارها على بيروت الغربية في (١٤ يونيو)، حيث تجمع فيها نحو (١٢ - ١٣). ألف مقاتل فلسطيني واللواء السوري الـ (٨٥). وقد قررت المقاومة الفلسطينية الصمود، وقدمت نموذجاً لملاحمة بطولية، فشل العدو خلالها، وعلى مدى شهرين من احتلال رقعة صغيرة هي منطقة بيروت الغربية، رغم شراسة القصف والحصار ومحاولات الاقتحام والهجمات برّاً وبحراً وجوّاً، واستخدام أحدث وأشدّ وسائل الدمار. وفي (٣٠ يونيو) كان قد استشهد نحو (١٥) ألف مدني من جراء الغزو الإسرائيلي.

وقد اضطرت القوات (الإسرائيلية) للموافقة على وقف إطلاق النار في (١٢ أغسطس ١٩٨٢ م) بعد أن فشلت في احتلال بيروت الغربية، غير أن القوات (الإسرائيلية) حققت أهدافها بشكل عام؛ إذ اقتضت الترتيبات خروج المقاومة الفلسطينية وقيادة (م. ت. ف) من لبنان بعد أن تجمعت في بيروت، مما أدى إلى خروج حوالي (١١) ألف فلسطيني مقاتل (نحو ٨٣٠٠ من المنظمات الفدائية و ٢٦٠٠ من جيش التحرير الفلسطيني و ١٧٥ جريحاً)، وذلك وفق ترتيبات تضمن سلامتها، وقد تمّ ذلك في الفترة (٢١ - ٣١ أغسطس ١٩٨٢ م)، حيث توجه المقاتلون الفلسطينيون إلى معسكرات في سوريا والعراق وتونس واليمن (الشمالي والجنوبي) والجزائر والسودان، ولم تحترم القوات (الإسرائيلية) تعهدها، فقد اقتحمت بيروت الغربية بعد أسبوعين من خروج المقاومة الفلسطينية، وأشرفت بنفسها على تنفيذ قوات الكتائب والوطنيين الأحرار وغيرهم من القوى المسيحية المتعصبة لمذابح صبرا وشاتيلا في (١٦ - ١٨ سبتمبر ١٩٨٢ م)، والتي أدت إلى استشهاد نحو (٣٥٠٠) فلسطيني ولبناني من المدنيين الأطفال والنساء والشيوخ...

أدت حرب (١٩٨٢م) إلى استشهاد وجرح نحو (٥٥) ألف فلسطيني ولبناني، وإلى تدمير معظم البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية في لبنان، بحيث لم تعد تشكل خطراً جاداً على الكيان الصهيوني، ووجدت (م. ت. ف) نفسها بعيدة عن فلسطين، محرومة من العمل العسكري في دول الطوق. وكسب تيار (الواقعية) في (م. ت. ف) دفعات جديدة باتجاه تبني الحلول السلمية، وأخذ تركيز (م. ت. ف) ينصبّ بعد ذلك على النضال السياسي، وعانت من محاولات فرض الهيمنة عليها أو تجاوزها، كما عانت من الاختلافات الداخلية، ووقع انشقاق في حركة فتح بزعماء أبي موسى، ورغم البطولات التي أبدتها المقاتلون الفلسطينيون، فإن حرب (١٩٨٢م) كشفت عن اختراقات وترهلات ونقاط ضعف في جسد الثورة، كما دفعت إلى مراجعة الأيديولوجية التي يجب أن ينبنى عليها الصراع مع العدو.

ولم تدم سعادة الكيان الصهيوني بتحقيق أهدافه؛ إذ سرعان ما ظهرت المقاومة اللبنانية ممثلة خصوصاً بحزب الله، حيث حولت الجنوب اللبناني إلى ساحة حرب توالى فيها العمليات اليومية وسقوط القتلى (الإسرائيليين). فقد جرى اغتيال الزعيم الكتائبى بشير الجميل الذي نصبته (إسرائيل) رئيساً على لبنان بعد أيام من انتخابه، وتمّ تدمير مقرّ القيادة العامة للقوات (الإسرائيلية) في صور في (١٢ نوفمبر ١٩٨٢م)، حيث قتل (٧٥) عسكرياً (إسرائيلياً)، وهوجم مقرّ الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور في (٤ نوفمبر ١٩٨٣م)، وقتل (١٩) إسرائيلياً. وأفشلت القوى الوطنية الإسلامية الوجود المشبوه للقوات متعددة الجنسيات في لبنان، فدمرت السفارة الأمريكية في بيروت في (١٨ إبريل ١٩٨٣م)، وقتلت (٨٠ شخصاً)، ودمرت مقرّ قيادة القوات الأمريكية في (٢٣ أكتوبر ١٩٨٣م)، وقتلت (٢٣٩ جندياً). كما ضربت مقرّ قيادة القوة الفرنسية في (٢٣ أكتوبر و ٢١ ديسمبر ١٩٨٣م)، مما أدى إلى مقتل (٧١ جندياً)، وتمكنت المقاومة من إفشال الاتفاق بين الحكومة اللبنانية والكيان الإسرائيلي الذي وُقّع في (١٣ مايو ١٩٨٣م)، حيث تمّ إسقاطه في (٥ مارس ١٩٨٤م)؛ لأنّه اتفاق ينتقص من الحقوق اللبنانية الكاملة في السيادة والاستقلال، كما أخذت المقاومة الفلسطينية تعود شيئاً فشيئاً إلى لبنان - وإن بدرجة أقلّ مما سبق - وتتولى القيام ببعض العمليات والدفاع عن المخيمات الفلسطينية.

وقد اضطرّت القوات الإسرائيلية للانسحاب في (٤ سبتمبر ١٩٨٣م) إلى خطّ

نهر الأولي، ثم قررت في (١٤ يناير ١٩٨٥ م) تحت الضربات القاسية للمقاومة إلى الانسحاب من كثير من المناطق على ثلاث مراحل أتمتها في (يونيو ١٩٨٥ م)، وأبقت قواتها فقط في الشريط الحدودي، الذي عهدت بإدارته إلى عميلها أنطوان لحد. وهو شريط في جنوبي لبنان يتاخم الحدود مع فلسطين، وبعمق ٥ - ٢٠ كم داخل لبنان. وقد توالى ضربات المقاومة للقوات الإسرائيلية وعمالها في هذا الشريط حتى تمّ تحريره في (٢٤ مايو ٢٠٠٠ م).

ج - انتفاضة الأقصى: (٢٨ / سبتمبر ٢٠٠٠ - أكتوبر ٢٠٠١ م):

لقد كانت زيارة أرييل شارون - زعيم حزب الليكود - الاستفزازية إلى حرم المسجد الأقصى في (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ م) هي الشرارة التي فجرت الانتفاضة، وكان واضحاً أن ثمة مباركة وتأيداً من رئيس الحكومة الصهيونية باراك للزيارة، حيث زوّده بستمائة جندي لمرافقته، واستنفر (٣٠٠٠) جندي وشرطي في القدس وأحيائها، وصمّم المسلمون على الدفاع عن الأقصى، حيث سقط في المواجهات الأولى خمسة شهداء، وجرح أكثر من مائة.

وكانت عناصر اشتعال الوضع وأسباب تفجيره جاهزة، فقد وصلت مفاوضات التسوية السلمية إلى طريق مسدود، وتأكّدت الأطماع الصهيونية اليهودية في القدس والمسجد الأقصى، وظهر التنعت الإسرائيلي في قضايا اللاجئين والمستوطنات، واستمرّ الصهاينة في مصادرة الأراضي وتوسيع المستوطنات، ولم يكونوا مستعدين للتنازل، ولا لتنفيذ القرارات الدولية، عندما يتعلق الأمر بالقضايا الجوهرية الحاسمة.

وبدا الباراك أنّ (الحلّ الوحيد الذي لاح في الأفق كان دفع الوضع إلى الانفجار)، كما قال بنفسه في اجتماع سرّي في (٢٥ أكتوبر ٢٠٠٠ م). ولعلّه أراد إظهار مزيد من التصلب، وتحقيق مزيد من الشعبية وسط المجتمع الصهيوني، واستثمار ذلك في وقف عملية التسوية أو إدخالها في أزمت متتالية في الوقت الذي تزداد فيه عمليات الهجرة اليهودية ومصادرة الأراضي والاستيطان، ليتسنى تحقيق مزيد من الضغط على السلطة الفلسطينية، التي أثبتت السنوات الماضية قابليتها للتنازل والتراجع، وتخفيض سقف مطالبها.

لكن الصهاينة ووجهوا ببركان غضب عارم ليس في فلسطين وحدها، وإنما في العالم الإسلامي أجمع، وحيثما وجدت الجاليات الإسلامية، وأبطل الله ﷻ حسابات الصهاينة

ومكرهم، وبرز الأقصى عصياً على الخضوع والاعتصاب عندما استعدت الملايين أن تفديه - والأرض المباركة - بأرواحها.

وأفرزت الانتفاضة عدداً من الحقائق والمؤشرات، أهمها:

الأولى: أن الأمة الإسلامية لا تزال حية، رغم الجراح التي أثختتها، وأن روح المقاومة والصمود والاستعداد للبذل والتضحية لم تخمد، فقد خرجت المظاهرات بعشرات الآلاف، بل بمئات الآلاف في بلدان العالم الإسلامي، من الرباط في أقصى المغرب وحتى جاكارتا في أقصى المشرق الإسلامي، كلها تهتف للأقصى والقدس وفلسطين، وتطالب بالجهاد، وتقدم ما لديها من تبرعات ودعم، فكانت لحظات رائعة من أخوة الإسلام ووحدة الأمة، وظهرت تجليات الإمكانيات الكبرى لهذه الأمة لتحقيق النصر لو سلكت طريق الجهاد.

الثانية: أن قضية فلسطين - بأرضها المباركة وبقدسها وأقصاها - قضية تجمع المسلمين وتوحدهم، بل وتكون سبباً في تجاوز خلافاتهم والتركيز على العدو الصهيوني المشترك، وأن هذه القضية غدت القضية المركزية للعالم الإسلامي، فلا قضية تجمعهم كهذه القضية، ولا عدو يجتمعون ضده كهذا العدو.

الثالثة: وجهت الانتفاضة ضربة قاسية لمشروع التسوية السلمية والتطبيع مع العدو، وبرز الخيار الجهادي كخيار أمثل.

الرابعة: أن هذه الانتفاضة انعكست على طريقة تفكير الناس وأسلوب حياتهم اليومي، فاشتدّ العداء للمشروع الصهيوني، واشتدّ العداء ضدّ أمريكا، وتكرست الروح الجهادية وروح التكافل، وتجاوبت الجماهير مع دعوات مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، حتى غير الملايين من أسلوب طعامهم وشرابهم اليومي، ومن لباسهم ووسائل تنقلهم واتصالاتهم وترفيههم، فكانت مدرسة تربوية اجتماعية شعبية، ربما احتاجت حركات الإصلاح سنوات للوصول إلى مثل نتائجها. فانخفضت مثلاً مبيعات مطاعم الوجبات السريعة (ماكدونالدز، و K.F.C) بنحو (٨٠٪) في السعودية، وانخفضت مبيعات مشروبات البيبسي كولا بنسبة (٤٦٪) في مصر، (وذلك حسب بعض التقديرات التي نشرت في نوفمبر ٢٠٠٠م)، واتجه الناس للمأكولات والمشروبات الشعبية، بل واضطرت الشركات الأجنبية الأمريكية لإنزال إعلانات عدم العلاقة بالكيان الصهيوني،

بل والتبرع لضحايا الانتفاضة، كما حدث مع مطاعم ماكدونالدز التي تبرعت بريال سعودي لكل وجبة طعام، لعلاج جرحى الانتفاضة.

الخامسة: أن التسوية السلمية قائمة على الظلم والغصب، وأن جماهير الفلسطينيين والعرب والمسلمين ترفض التنازل عن حقوقها في الأرض المقدسة، وأنها لا تأمل من الغاصب الصهيوني سلامًا ولا خيرًا، وأنها ترى في الجهاد الوسيلة الأنجع لاسترداد الحقوق.

السادسة: برزت أهمية الإعلام ودوره في التعبئة؛ إذ تمكن المسلمون من كسر الطوق الإعلامي الغربي المتصهين، من خلال الفضائيات العربية، وخدمات الإنترنت والبريد الإلكتروني، وخصوصًا في المراحل الأولى من الانتفاضة.

ومن جهة أخرى فقد تميزت هذه الانتفاضة بالمشاركة الشعبية الواسعة في كل أرجاء فلسطين المحتلة، وبمشاركة كافة التيارات الفلسطينية، كما تميزت في الوقت نفسه بشدة القمع الصهيوني الذي تمادى في قتل الأطفال والأبرياء واستخدام الأسلحة المحرمة دوليًا، وانكشفت سوءات أذعيا السلام (الصهاينة) الذين تباروا في سحق الانتفاضة المباركة.

وقد صمد أبناء فلسطين صمودًا بطوليًا طوال أشهر الانتفاضة الـ (١٣) ولا يزالون. وتشير الإحصائيات إلى أنه بعد مرور سنة على الانتفاضة (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م - ٢٨ سبتمبر ٢٠٠١م) فقد استشهد (٧٢٧) فلسطينيًا، وجرح نحو (٣٠) ألفًا (أو ٣٥ ألفًا حسب تقديرات أخرى)، وأصيب (٢٨٠٠) منهم بإعاقات دائمة، واستشهد من أطفال فلسطين (١٥٩ طفلًا)، وجرح آلاف الأطفال، وتقدر نسبة الإصابات في الأطفال والياfecين دون سنّ الثامنة عشرة بنحو (٤٠٪) من مجمل إصابات الانتفاضة، وكان من بين الشهداء (١٣) شهيدًا من أبناء الأرض المحتلة عام (١٩٤٨م)، حيث انتفضوا بقوة إلى جانب إخوانهم في الضفة والقطاع، وقام الكيان الصهيوني بتدمير نحو خمسة آلاف بيت، واجتثاث (٢٠٠) ألف شجرة، وقصف (٩٥) مدرسة، وتسبب حصاره في معاناة (٢١٨) قرية من العطش الشديد، وارتفعت نسبة البطالة من (١١٪) إلى (٥٧٪) بين أبناء الضفة والقطاع، وأصبح هناك (٢٦٥) ألفًا عاطلين عن العمل، وباحتساب عدد عائلات هؤلاء يرتفع عدد المتضررين إلى مليون و (٢٧٠) ألفًا، أي نحو (٤٥,٥٪) من سكان

الضفة والقطاع، وارتفعت نسبة الفلسطينيين الذين هم تحت خط الفقر إلى (٥٠٪)، وخسر الاقتصاد الفلسطيني - الناشئ المنهك - نحو (٧,٥) بليون دولار أمريكي.

وتشير إحصاءات المركز الوطني الفلسطيني للإحصاء التابع للسلطة الفلسطينية أنّ مجموع شهداء الانتفاضة حتى نهاية شهر مايو (٢٠٠٢م) بلغ (١٦٥٠) شهيداً، وأن (٧٧١) شهيداً منهم ارتفعوا في الأشهر الخمسة الأولى لسنة (٢٠٠٢م)، ونبه المصدر إلى أنه لم يضمّن عدة مئات من الشهداء في مخيم جنين وفي نابلس موجودون تحت الأنقاض، أو قامت قوات الاحتلال بدفنهم بعيداً عن المخيم، ولم تتوفر معلومات عنهم.

أما منطقة العمل العربية فقد قدرت خسائر الفلسطينيين بنحو (١٩) مليون دولار يومياً - يبدو أنّها ضمنت الأضرار غير المباشرة -، فقدّرت الخسائر اليومية لقطاع العمال بـ (٦,٦) مليون دولار، وقطاع التجارة (٥,٥) مليون، والصناعة (٣,٣) مليون، والزراعة (٣,٢).

وقد تعمد الصهاينة إطلاق النار بقصد القتل، وليس لتفريق المظاهرات، أو مجرد مواجهة حجارة المتفضّضين، فذكرت التقارير أن (٦٥٪) من الإصابات كانت في الجزء العلوي من الجسد - أي: في الرأس والرقبة والصّدر والبطن - وأنّ (٤٠٪) من الإصابات كانت باستخدام أسلحة محرمة دولياً، مثل رصاص الدمدم الذي يتفجّر في الجسد، ورصاص (٥٠٠ و ٨٠٠) الذي يستخدم عادةً ضدّ الدبابات !! وكانت نسبة (٤٠٪) من الإصابات ليافين وأطفال تحت سنّ (١٨) سنة.

رابعاً: التسوية السلمية وأبعادها ومراحلها:

وقد أصبح بيلين بعد الانتخابات (الإسرائيلية) نائباً لوزير الخارجية (بيريز). وقام أحد الدبلوماسيين النرويجيين في (أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢م) بتقديم عرض على بيلين بأنّ بلاده على استعداد لتكون المعبر السري للاتصال مع (م.ت.ف). وفي (ديسمبر ١٩٩٢م) بدأت الترتيبات العملية للمفاوضات السرية، فالتقى عن (الإسرائيليين) البروفيسور يائير هيرشفيلد أستاذ التاريخ بجامعة حيفا، مع أحمد سليمان قريع (أبو علاء) رجل الأعمال والقيادي في حركة فتح، في فندق سانت جيمس بلندن.

وفي (٢٠ كانون ثانٍ / فبراير ١٩٩٣ م) عُقد أول اجتماع بينهما، من أصل (١٤) اجتماعاً، في مدينة سان بتيتر سبورج على بُعد (٦٠) ميلاً إلى الشرق من أوسلو، في أجواء سرية مطلقة. وفي (نيسان / إبريل ١٩٩٣ م) رفعت (إسرائيل) مستوى تمثيلها في المباحثات، فعَيّنت يوري سافير، مدير عام وزارة الخارجية، رئيساً للوفد (الإسرائيلي)، وانضمَّ إليهم يوئيل زنجر، وهو محام خبير في القانون الدولي، أما (أبو علاء) فساعده مستشار قانوني اسمه طاهر شاش، وكانت الجلسات تنتقل من مكان إلى آخر، ويمتدّ الاجتماع بضعة أيام، وسافر بيريز في (١٩ آب / أغسطس ١٩٩٣ م) إلى النرويج، حيث وُقّع في الليلة نفسها على مسودة الاتفاق. وقد استمرّ عقد هذه المفاوضات في أثناء انعقاد المفاوضات الرسمية المعلنة بقيادة حيدر عبد الشافي، ودون علم أيّ من أعضاء هذا الوفد الرسمي، كما أنّ مفاوضات أوسلو استمرّت حتى بعد أن قام الوفد الرسمي بتعليق المفاوضات إثر إبعاد الكيان الإسرائيلي لـ (٤١٥) فلسطينياً من حماس والجهد الإسلامي إلى مرج الزهور في جنوب لبنان.

وقد تمّ التوقيع الرسمي على اتفاق أوسلو في واشنطن في (١٣ أيلول / سبتمبر ١٩٩٣ م)، ووقعه عن الجانب الفلسطيني محمود عباس أمين سرّ اللجنة التنفيذية لـ م. ت. ف) وعضو اللجنة المركزية لحركة فتح، والذي تولى متابعة هذه المفاوضات السريّة بنفسه، ووقعه عن الجانب (الإسرائيلي) شمعون بيريز وزير الخارجية، كما وقعه وزيراً خارجية أمريكا وروسيا كشاهدين.

ويُعدّ هذا الاتفاق بحقّ منعطفاً تاريخياً في مسار القضية الفلسطينية، فهو أول اتفاق يوقعه الفلسطينيون و (الإسرائيليون)، ويتمّ بموجبه تنفيذ تسوية سلمية، وهو يعكس مدى التنازلات الهائلة التي اضطرت قيادة (م. ت. ف) إلى تقديمها حتى تحصل على اتفاق شبيه في جوهره باتفاق كامب ديفيد (١٩٧٨ م)، والتي وصفت مُوقّعه (السادات) يومذاك بالخيانة والاستسلام، ودعت شعب مصر لإسقاطه، وهو يعكس بالتأكيد مدى الانتكاسات والتراجعات والضربات التي عانى منها مشروع تحرير فلسطين خلال الفترة (١٩٧٨ - ١٩٩٣ م)، وقد كرّس هذا الاتفاق الانفصال التام بين مسار المفاوضات الفلسطيني - (الإسرائيلي) ومسارات المفاوضات العربية الأخرى، مما أفقدها القدرة على تنسيق المواقف والعمل المشترك، وتسارعت بعد ذلك وتيرة المفاوضات الأردنية - (الإسرائيلية)، والتي أدّت في نهايتها إلى عقد تسوية سلمية بين الجانبين في

(٢٦ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٩٤م)، والتي عرفت بمعاهدة وادي عربة. أما المساران السوري واللبناني فبقيا متعثرين طوال السنوات الثماني التالية.

وقد عُرف اتفاق أوسلو (باتفاق إعلان المبادئ الفلسطيني - الإسرائيلي)، أو باتفاق غزة - أريحا أولاً، ووقعت كافة الاتفاقات التالية بين (م. ت. ف) وبين الكيان (الإسرائيلي) بناءً على هذا الاتفاق. أما أبرز النقاط في اتفاق أوسلو فهي:

١ - إقامة سلطة حكم ذاتي محدود للفلسطينيين في الضفة والقطاع لفترة خمس سنوات.

٢ - تبدأ قبل بداية العام الثالث من الحكم الذاتي المفاوضات على الوضع النهائي للضفة والقطاع، بحيث يفترض أن تؤدي إلى تسوية دائمة تقوم على أساس قراري مجلس الأمن الدولي (٢٤٢) و (٣٣٨).

٣ - خلال شهرين من دخول الاتفاق حيّز التنفيذ، يتوصل الطرفان لاتفاقية حول انسحاب (إسرائيل) من غزة وأريحا، تشمل نقلاً محدوداً للصلاحيات للفلسطينيين، وتغطي التعليم والثقافة والصحة والشؤون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة.

٤ - بعد تسعة أشهر من تطبيق الحكم الذاتي، تُجرى انتخابات مباشرة في الضفة والقطاع لانتخاب مجلس فلسطيني للحكم الذاتي، وتقوم القوات الإسرائيلية قبيل الانتخابات بالانسحاب من المناطق المأهولة بالسكان وإعادة الانتشار في الضفة.

٥ - يتم تشكيل سلطة فلسطينية انتقالية ذاتية تشمل الضفة والقطاع، على أن صلاحياتها لا تشمل الأمن الخارجي ولا المستوطنات الإسرائيلية، ولا العلاقات الخارجية، ولا القدس، ولا (الإسرائيليين) في تلك الأراضي.

٦ - (لإسرائيل) حقّ النقض (الفيتو) ضدّ أيّ تشريعات تصدرها السلطة الفلسطينية خلال المرحلة الانتقالية.

٧ - ما لا يتمّ تسويته بالتفاوض يمكن أن يتفق على تسويته من خلال آلية توفيق يتمّ الاتفاق عليها بين الطرفين.

٨ - يمتد الحكم تدريجياً من غزة وأريحا إلى مناطق الضفة الغربية وفق مفاوضات تفصيلية لاحقة.

٩ - وقد أكد الاتفاق على نبد (م . ت . ف) والسلطة الفلسطينية (للإرهاب) و (العنف) ، والحفاظ على الأمن ، ومنع العمل المسلّح ضدّ الكيان الإسرائيلي .
وبشكل عام ، فإن أبرز الانتقادات والملاحظات على اتفاق أوسلو يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - قضية فلسطين قضية كلّ المسلمين وليست قضية الفلسطينيين وحدهم ، وهي معركة بين حقّ العرب المسلمين وباطل اليهود الصهاينة ، وهي معركة تتوارثها الأجيال ، ولا يجوز لجيل أن يرضخ أو يتنازل فيغمر حقّ الأجيال التالية ، وقد أجمع العلماء الثقات على عدم جواز هذه التسوية بالشكل الذي تمت فيه ، ودعوا إلى وجوب الجهاد لتحرير الأرض المباركة .

٢ - تفردت قيادة (م . ت . ف) بالموافقة على الاتفاق والاتفاقات التي تلتها ، ولم ترجع حتى إلى الشعب الفلسطيني نفسه ، الذي توجد فيه تيارات واسعة معترضة على هذه التسويات من الإسلاميين واليساريين والقوميين ، وحتى في حركة فتح نفسها .

٣ - اعترفت قيادة (م . ت . ف) (بحقّ إسرائيل في الوجود) ، وبشرعية احتلالها لـ (٧٧ ٪) من أرض فلسطين المحتلة عام (١٩٤٨ م) ، والتي لا تجري عليها أية مفاوضات .

٤ - لم يتعرض الاتفاق لأخطر القضايا ، حيث تمّ تأجيلها إلى مرحلة المفاوضات النهائية ، ولأنّ (م . ت . ف) تعهدت بعدم اللجوء إلى القوة إطلاقاً ، فقد أصبح الأمر مرتبطاً بمدى (الكرم الصهيوني) الذي يملك عناصر القوة وأوراق اللعبة ، وهذه القضايا :

أ - مستقبل مدينة القدس ، والتي أعلنها اليهود عاصمة أبدية لهم ، وصادروا (٨٦ ٪) من أرضها ، وأسكنوا في القدس الشرقية أكثر من (٢٠٠) ألف مستوطن .

ب - مستقبل اللاجئين الفلسطينيين الذين يزيد عددهم (سنة ٢٠٠١ م) عن ستّة ملايين و (٢٠٠) ألف لاجئ (٦ ، ٤ مليون خارج فلسطين ، و ٦ ، ١ مليون داخل فلسطين ، وبالذات في الضفّة والقطاع) .

ج - مستقبل المستوطنات الصهيونية في الضفّة الغربية وقطاع غزة ، حيث صادر الصهاينة نحو (٦٢ ٪) من أراضي الضفّة والقطاع ، وأقاموا أكثر من (١٦٠) مستوطنة في

- الضفة، و (١٦) مستوطنة في القطاع يعيش فيها (٢٠٠) ألف يهودي مستوطن.
- ٥ - لا تتضمن مسؤوليات السلطة الفلسطينية الأمن الخارجي والحدود، ولا يستطيع أحد دخول مناطق السلطة دون إذن (إسرائيلي)، ولا يجوز للسلطة تشكيل جيش، والأسلحة تدخل بإذن إسرائيل.
- ٦ - للكيان الصهيوني حقّ النقض (الفيتو) على أيّة تشريعات تصدرها السلطة خلال المرحلة الانتقالية.

٧ - لا يوجد في الاتفاقيات إشارة إلى حقّ الفلسطينيين في تقرير المصير، أو إقامة دولتهم المستقلة، ولا تشير الاتفاقيات إلى الضفة والقطاع كأراضي محتلة، مما يعزز الاعتقاد بأنّها أراضي متنازع عليها.

٨ - في الوقت الذي تعهّدت فيه (م. ت. ف) (السلطة الفلسطينية) بعدم اللجوء إطلاقاً للمقاومة المسلّحة ضدّ الكيان الصهيوني، وبحلّ كافة مشاكلها بالطرق السلمية، فإنّها في الوقت نفسه أصبحت مضطرة - في ضوء تعهّدها السلمية - لقمع وسحق أيّة مقاومة مسلّحة ضدّ الكيان الصهيوني.

خامساً: تقويم وخلاصات:

يجدر بنا في نهاية هذه الدراسة أن نضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بأهمّ الخلاصات، وتقويمنا لمسيرة القضية الفلسطينية وتجربتها:

١ - أرض فلسطين أرض مقدّسة مباركة، سكنها أبناؤها (الكنعانيون) منذ نحو (٤٥٠٠) عام، ومن امتزج بهم بعد ذلك من (الفلسطينيين) والقبائل العربية. وقد أسلم أبناؤها - بعد الفتح الإسلامي لفلسطين (١٥ هـ / ٦٣٦ م) وتعربت لغتهم، وظلوا تحت حكم الإسلام أطول فترة في تاريخ فلسطين.

٢ - إن بني إسرائيل حكموا أجزاء من فلسطين نحو أربعة قرون، ولكنهم عندما حرّفوا دينهم وكفروا وقتلوا أنبياءهم، سخط الله عليهم، وخسروا شرعيتهم في فلسطين، وورثت الأمة المسلمة السائرة على درب التوحيد والأنبياء هذا الحق، وقد انقطعت صلة اليهود عملياً بفلسطين نحو (١٨٠٠) عام، (منذ ١٣٥ م وحتى القرن العشرين)، دون أن يكون لهم تواجد سياسي أو حضاري أو ريادي في هذه الأرض المباركة.

٣ - إن ظهور النزعات الصهيونية - المؤيدة لتجميع اليهود في فلسطين - وسط مسيحيي أوروبا، وخصوصًا البروتستانت، وظهور الفكرة القومية والدولة القومية، ونشأة المشكلة اليهودية خصوصًا في أوروبا الشرقية، وتمكّن اليهود من الوصول إلى عدد من دوائر النفوذ في أوروبا وأمريكا... كل ذلك عوامل أسهمت في نشوء الحركة الصهيونية التي سعت لإنشاء كيان يهودي في فلسطين.

٤ - إن فكرة (الدولة الحاجزة) في فلسطين، التي دعمها الاستعمار الغربي، وخصوصًا بريطانيا، تمثل ذروة الخطر الصليبي - الصهيوني - في قلب العالم الإسلامي، وهي تهدف إلى منع وحدته وإضعافه، وإبقائه مفككًا عاجزًا عن النهضة، قابلاً في دائرة التبعية، كما هدفت إلى منع ظهور قوة إسلامية كبرى، تحلّ مكان الدولة العثمانية التي تمّ القضاء عليها.

٥ - إن القوى الغربية الكبرى قد أعطت الغطاء والرعاية والحماية للمشروع الصهيوني، فقامت بريطانيا باحتلال فلسطين بالقوة والقهر (١٩١٨ - ١٩٤٨ م) حتى شبّ المشروع الصهيوني على عوده، ثم أصبحت الولايات المتحدة السند الأول، والراعي الأكبر لهذا المشروع، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ م) وحتى الآن، تزوده بالحماية والدعم العسكري والسياسي والمالي، وتوفّر له غطاء (الشرعية) الدولية.

٦ - إن العالم العربي والإسلامي كان مستضعفًا مستعمرًا في النصف الأول من القرن العشرين، مما سهّل إنشاء الكيان الصهيوني، كما أنّ نشوء الدولة القطرية المستقلة بعد ذلك أبقى على حالة التفكك والتجزئة والضعف، فتوزع العالم الإسلامي على نحو (٥٥) دولة. وقد استندت هذه الأنظمة في حكمها إلى مناهج مستوردة بعيدة عن الإسلام وعن تراث هذه الأمة وحضارتها، فكانت أعجز من أن تستنهض طاقات الأمة في مواجهة الخطر الصهيوني الذي يهددها جميعًا، كما فشل أغلبها في مجالات النهضة الاقتصادية والعلمية، وفي حلّ مشاكل شعوبها، فضلًا عن خصامها مع شعوبها، بسبب الفساد السياسي والحكم العسكري...

٧ - إنّ ما يُعرف بـ (الشرعية الدولية) سواء أكان عصبة الأمم، أو الأمم المتحدة، قد استخدمتها الدول الكبرى كأدوات لتنفيذ خططها ومصالحها، ولإضفاء الشرعية على هيمنتها الدولية، ومن ذلك إقامة الدولة الصهيونية في فلسطين، وترسيخ وجودها (وشرعيتها) محليًا ودوليًا. وإن أية قرارات دولية تدعم الحقّ الفلسطيني كان يتمّ

تجاهلها أو إجهاضها، مما يكشف الوجه القبيح لهذه (الشرعية) التي تستتر خلفها دولة كبرى (الولايات المتحدة) أو أكثر.

٨ - إن خطر الكيان اليهودي الصهيوني يهدد العالم الإسلامي أجمع، فمع نهاية القرن العشرين ترسخ هذا الكيان بوجود خمسة ملايين يهودي، لديهم من القوة العسكرية ما يمكنهم من هزيمة الدول العربية وفق الحسابات المادية، ولديهم نحو (٢٠٠) قنبلة نووية تمكنهم من تدمير عواصم العالم الإسلامي ومدنه، وهو يسعى بشكل دائم لإبقاء العالم الإسلامي ضعيفاً مفككاً؛ لأن ذلك خير وسيلة لضمان استمراره، وما دعمه وتدريبه للمتمردين في جنوبي السودان، وتدميره للمفاعل النووي العراقي سنة (١٩٨١م)، ومحاولة تدميره للمفاعل النووي الباكستاني، ودوره المخبراتي والإفسادي في مصر والأردن ولبنان وغيرها إلا بعض مؤشرات ذلك.

٩ - إن المسلمين لا يقاتلون اليهود لكونهم يهوداً فقط، فالأصل في علاقة المسلمين بأهل الكتاب أو أهل الذمة هو العدل والإحسان وإعطاء كافة الحريات والحقوق الدينية وحقوق المواطنة الكاملة لهم تحت حكم الإسلام، وإن (المشكلة اليهودية) والعداء للسامية نشأت في أوروبا وليس في العالم الإسلامي الذي كان اليهود يلجأون إليه آمنين من الاضطهاد والتعصب الديني والقومي في أوروبا. إن المسلمين يقاتلون اليهود الصهاينة المعتدين الذين اغتصبوا أرض فلسطين، وشرّدوا شعبها، وانتهكوا مقدّساتها، وسيقاتل المسلمون أية فئة أو جماعة تحاول احتلال أرضهم مهما كان دينها أو قوميتها.

١٠ - إن المقاومة الفلسطينية ضدّ بريطانيا والمشروع الصهيوني (١٩١٧ - ١٩٤٨م) اتّسمت بالمبدئية والإخلاص، وضحي أبناء فلسطين تضحيات جساماً، خصوصاً في الثورة الكبرى (١٩٣٦ - ١٩٣٩م)، غير أنّ المؤامرة الدولية وإمكانات القوى الكبرى كانت أكبر من طاقاتهم، في وقت افتقدوا فيه النصير القويّ الأمين.

١١ - إنّ المقاومة الفلسطينية المعاصرة (م. ت. ف، والعمل الفدائي الفلسطيني) التي تولّت قيادة الساحة الفلسطينية، قد قدمت هي الأخرى تضحيات كبيرة، وكرست الهوية الوطنية الفلسطينية، ولقيت اعتراف واحترام معظم دول العالم، غير أنّها عانت من جوانب أضعفت أداءها وقدرتها على تحقيق أهدافها.



سادسا: التيار الإسلامي وأدواره الجهادية وآثاره:

١ - قام التيار الإسلامي بأدوار جهادية لا تُنكر في مواجهة المشروع الصهيوني والقوى الاستعمارية، وقد تميزت الثورات الفلسطينية خلال (١٩٢٠ - ١٩٣٩ م) ببعدها الإسلامي، وبرزت حركة (الجهادية) بقيادة الشيخ القسام لتقدم نماذج رائعة في المقاومة والجهاد، كما برزت حركة (الجهاد المقدس) بقيادة عبد القادر الحسيني، وكان لهذه القوى و (للإخوان المسلمين) دور كبير في قيادة العمل الشعبي في حرب (١٩٤٧، ١٩٤٨ م). وإذا كانت (فتح) التي خرجت من أحضان الإخوان المسلمين قد اتخذت بعد ذلك خطأ علمانياً وطنياً، فإن الإخوان شاركوا بعد ذلك في معسكرات الشيوخ، كما أنشأوا حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في (١٩٨٧ م)، والتي لا تزال تمثل أهم القوى الفلسطينية المجاهدة، المستمرة في الكفاح المسلح، الراض للتنازل عن أي جزء من فلسطين.

٢ - وإذا كان التيار الإسلامي الحركي قد تميز بفعله الجهادي، فإنه لم يتمكن بعد من قيادة الساحة السياسية الفلسطينية. ولا يزال هذا التيار يعاني من محاولات سحق واقتلاع وتشويه وتحييد فلسطينياً وعربياً ودولياً، لكنه لا يزال يمثل نبض هذه الأمة، وأملها القادم بإذن الله. غير أنه مطالب في الوقت نفسه بـ:

- التحديد الدقيق لرؤيته المنهجية - المرحلية وبعيدة المدى - لكيفية مواجهة التحدي الصهيوني وتحرير فلسطين.

- توسيع دائرة الصراع والتفاعل مع قضية فلسطين ليتجاوز الإطار الإقليمي المحلي والإطار القومي العربي، وينطلق ليشمل كافة مسلمي العالم، وتوفير الأدوات والوسائل المكافئة لتحقيق ذلك.

- تطوير مؤسساته التنظيمية، وكفاءات قياداته، والانفتاح والاستفادة بشكل أفضل من الكفاءات المتوفرة، وتحقيق عملية توريث سلسة وسليمة للأجيال القيادية الحالية والقادمة.

- الالتصاق أكثر بهموم الجماهير، والتعبير عن معاناتها وخدمتها، والتغلغل في أوساطها، وتحويل همّ مواجهة المشروع الصهيوني إلى همّ جماهيري يومي.

- الإبقاء على جذوة المقاومة والجهاد، وصوت الحق الذي لا يتنازل عن فلسطين مهما كانت التضحيات.

لقد أعطت المقاومة الإسلامية في جنوبي لبنان بارقة أمل للمقاومة الفلسطينية، عندما أجبرت العدو الصهيوني على الانسحاب دون شروط بعد (٢٢) سنة من الاحتلال.

٣ - إن الإسلام ينبغي أن يكون هو القاعدة التي يستند إليها مشروع التحرير وتبني المشروع الصهيوني؛ لأن الله سبحانه تكفل بنصر عباده الصادقين، ولأن الإسلام هو عقيدة الأمة، وبه خيرها وفلاحها، ولأنه الأقدر على تعبئة الجماهير وحشد طاقاتها، ولأن تجارب التاريخ - سواء في فتح القدس أو تحريرها من الصليبيين والتتار - أثبتت نجاح الحل الإسلامي، كما أثبت تاريخنا الحديث والمعاصر فشل الأيديولوجيات الأخرى.

٤ - إن أبرز معالم الحل الإسلامي لقضية فلسطين تتمثل في:

- تبني الإسلام عقيدة وسلوكاً ومنهج حياة، والحكم بما أنزل الله ﷻ.

- القيادة الإسلامية الكفوءة الصادقة هي وحدها المؤهلة لمواجهة المشروع الصهيوني وهزيمته.

- توسيع دائرة الصراع مع العدو اليهودي الصهيوني، ليشمل العالم الإسلامي بأسره، وعدم قصر هذا الصراع على الدائرة الفلسطينية أو الدائرة القومية العربية؛ لأن تحرير فلسطين أصبح فرض عين على كل مسلم، ولأن الصهاينة اليهود ينفذون مشروعهم بشكل عالمي منظم، فلا بد من مواجهة مكافئة ترتقي إلى مستوى التحدي.

- دعم شعب فلسطين ومساندته وتأهيله بكافة الوسائل باعتباره خط الدفاع الأول عن الأمة الإسلامية؛ حتى يثبت في أرضه، ويستمر في صموده وجهاده.

- السعي لتحقيق نهضة حضارية تكون مدخلاً للتغيير والارتقاء الإيجابي الشامل في مجتمعاتنا المسلمة سياسياً واقتصادياً وعلمياً وعسكرياً، حتى يكون المسلمون قادرين ذاتياً على مواجهة تكاليف الجهاد وأعباء التحرير، وتحقيق شروط التمكين والاستخلاف في الأرض وزيادة الإنسانية.

٥ - إن المسلمين متيقنون من نصر الله، ومن اقتلاع المشروع اليهودي الصهيوني مهما طال الزمن، فهذا وعد الله سبحانه في فواتح سورة الإسراء: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ لِيَسْتَأْذِنُوا

وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلُوا تَتَبَرَّكُوا ﴿ [الإسراء: ٧] ،
وهي بشرى نبيه ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة ؓ أن رسول
الله ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ
اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي
خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود »^(١).

وإذا كانت الأخبار تتواتر من فلسطين أن اليهود يُكثرون من زراعة شجر الغرقد، فإنَّ
الأولى بالمسلمين أن يتيقنوا من قول ربهم وبشرى نبيهم، ويشمروا عن ساعد الجدِّ،
إعدادًا لذلك اليوم الذي لا بدَّ قادم إن شاء الله.



(٣)

المشروع الحضاري والإعلام

أولاً: المدخل:

تعتبر وسائل الإعلام من أحد أهم مرتكزات الدولة الحديثة وأركانها، بل هي إحدى مميزات سلطانها وقدراتها، والناس فيها والشعوب متأثرون ومؤثرون، يتبادلون الأدوار والمواقع، لذلك أفرد مشروعنا السياسي لسوريا المستقبل باباً خاصاً لطرح هذا الموضوع، ليبين فيه أهميته وجوانبه العامة، وليسلط فيه بعض الضوء على موقف الإسلام ابتداءً وتوجهات جماعة الإخوان نحو أهم مرتكزاته وأساسه، إذ لا مكان لأحد تحت الشمس لا يتفاعل مع الإعلام ووسائله في عصر القرية الكونية وشبكة الاتصالات العنكبوتية، والله نسأل أن يوفقنا لتقديم وجهة النظر العصرية الصائبة المنطلقة من قواعد ومسلمات ديننا وثقافتنا المجتمعية المشتركة.

تعريف أساسية:

١ - الإعلام لغة:

هو الإنباء والإظهار والإبراز.

٢ - الإعلام اصطلاحاً:

هو كل قول أو فعل قصد به حمل حقائق أو مشاعر أو عواطف أو أفكار أو تجارب قولية أو سلوكية شخصية أو جماعية إلى فرد أو جماعة أو جمهور بغية التأثير، سواء أكان العمل مباشراً، أو بواسطة وسيلة اصطلاح على أنها وسيلة إعلام قديمة أو حديثة. كما يعرف بعضهم الإعلام: بأنه يضم جميع طرق التعبير التي تصلح للتفاهم المتبادل، على حين يراه آخرون بأنه المجال الواسع لتبادل الوقائع والآراء بين البشرية.

٣ - من وظائف الإعلام:

التوجيه، تكوين الاتجاهات، زيادة الثقافة والمعلومات، وتنمية العلاقات، والتعارف الاجتماعي، والإعلان والدعاية والترفيه وتوفير سبل التسلية وقضاء أوقات الفراغ.....

٤ - ركائز العملية الإعلامية:

المرسل، المستقبل، الرسالة، عملية التبادل، الصفة الإنسانية كهدف وراء العملية الإعلامية.

٥ - الإعلام الإسلامي الهادف:

هو ذلك الإعلام الذي يسعى لخدمة العقيدة وقضايا الأمة الإسلامية وإبرازها والدفاع عنها.

٦ - أسس الإعلام الإسلامي:

ترتكز أسس الإعلام الإسلامي على ركائز أساسية هي: الحق - الصدق - العدل - الإنصاف - والموضوعية.

الاسلام والإعلام:

يوصف الإسلام بأنه رسالة، والنبى محمد - عليه الصلاة والسلام - بالرسول، وإن القرآن وسيلة حمل تلك الرسالة، لأجل ذلك فإن مفردات الإعلام وآلياته وطرقه ووسائله هي بعض من مسيرة هذا الدين ورجاله، وينطبق على هذه الرسالة - الدعوة - جل قواعد وأصول هذا العلم - الفن -، بل إن الأكاديميين حين يدرسون السير والمغازي، يدركون دروساً إعلامية لا تحصى تفيد في صياغة إعلام معاصر، وتؤكد أسبقية هذه الأمة في هذا الميدان، ولايضاح ذلك لا بد من ذكر بعض النقاط:

١ - القرآن رسالة الله إلى العالمين.

٢ - النبى محمد رسول الهداية للعالمين.

٣ - مفاهيم التبليغ أساسية في هذا الدين « بلغوا عني ولو آية ».

٤ - مفاهيم الدعوة والدعاة من أعظم الأعمال ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾

[فصلت: ٣٣].

٥ - المسجد بيت الله ومكان لقاء المسلمين ومجتمعهم، وأثر ذلك في صياغة الرأي العام.

٦ - المنبر والخطبة كأهم وسيلة إعلامية مباشرة قديمة وحديثة.

٧ - الشعر والشعراء، حملة الرسالة، ووسائل إعلامها.

٨ - الكلمة مسؤولية والمحاسبة عليها سالبة وموجبة، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

مفاهيم إعلامية في ضوء الاسلام:

١ - الكلمة:

هي المفردة الأساسية في الإعلام سواء كانت مرئية أو مسموعة أو مكتوبة، مباشرة أو غير مباشرة، وأساس الرسالة الإعلامية ولأجل ذلك كان الإسلام حريصاً على الدعوة إلى قول الحق والجهربه وعدم السكوت عنه (مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، و (أفضل الجهاد كلمة حق...) في مقابل تحمل مسؤوليتها كاملة وحماية الناس من آثارها السيئة (مفهوم القذف...).

٢ - الرأي العام:

وهو يشير في المجتمع الإسلامي إلى اتجاهات جماهير المسلمين نحو قضية تهمها في وقت معين بعد مشاوره وحوار ونقاش يحكمه كتاب الله وسنة رسوله، وهو رأي يرفع المثل ويدعم الخير، وللحقيقة فإن كثيراً من مفاهيم الرأي العام قد تمت معالجتها عبر آيات القرآن المنزلة على النبي متدرجة في سياق السيرة النبوية.

٣ - الصدق:

هو القاعدة في بناء النظرية الإعلامية، ولأجل ذلك جاءت النصوص متضافرة في أهميته في حياة الأفراد والشعوب وأنه السبيل للنجاة، وأن سوى الصدق هو الكذب، الذي يقود في الختام إلى النفاق والخروج عن جادة الإسلام، أما نظرية الخداع والكذب وأنواع الدعاية السوداء والرمادية... مما هو مألوف في واقع الإعلام فهي من وسائل الحرب النفسية التي لا يتعامل معها الإسلام إلا في حدودها الضرورية والضيقة للغاية، وفي ميدان الحروب والصراعات فقط.

٤ - الموضوعية:

وهو الركن الرابع من أركان الإعلام، إذ لا حظوة لإعلام لا يتميز بالموضوعية مهما استخدم من وسائل وأغاليط ودعايات، ولقد أكدت تجاربنا الحديثة في العالم العربي أن

الجماهير حتى تلك التي لا تمتلك معارف عالية، تنحاز ببساطة وفطرية إلى تلك الوسائل الأكثر موضوعية من غيرها. لقد دعا الإسلام إلى الموضوعية وندب الناس للعمل بها ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ۥٓأَلَّا تَعْدِلُوٓا۟﴾ [المائدة: ٨] مع الصديق والعدو والقريب والبعيد.

الإعلام السوري: رؤية سريعة:

بعد هذا الاستعراض العام لعدد من المفاهيم، كان لا بد من إلقاء ضوء على واقع الحال في الإعلام السوري لمعرفة المطلوب وإدراك حجم التغيير، فإنه مما لا يخفى على أحد اعتماد السلطة في سورية على الإعلام عملياً ونظرياً كأهم وسيلة لتوجيه الرأي العام والسيطرة عليه والدفاع عن رموزه وشخصياته؛ لذلك يسمى في سورية بالإعلام الموجه، ويحتفظ أركان النظام بالسيطرة المطلقة والكاملة على كل مواقعه كبيرها وصغيرها ابتداء بالإذاعة والتلفزيون ووزارة الإعلام ووكالة الأنباء وانتهاء بأصغر ساع في جريدة محلية مغمورة، إلا أن ذلك لم يزد إلا ترهلاً وانغلاقاً وتراجعاً في المحصلة النهائية، فخسر العديد من معاركه داخلياً وخارجياً باستثناء بعضها الذي يعتمد على التحشيد الإعلامي والحماسي تجاه قضية فلسطين، وتجلت خسارته الكبرى في عدم ثقة الشعب به على العموم، كما عبر الشاعر ممدوح عدوان في كلمته المشهورة عام (١٩٨٠م): «إن الناس لا تصدق حتى حالة الطقس التي ييئها الإعلام السوري».

وتشير الأرقام والإحصاءات فيما يخص حجم الصحف والمجلات والإذاعات واستخدام الإنترنت.... إلى انخفاض كبير في مستويات الاستخدام والتعامل مقارنة بغيرنا من البلدان، والأمر لا يختلف كثيراً في ميدان الكتب والنشر على العموم، وكذلك فإن الانخفاض يشمل الناحية النوعية، فالمستخدم لتلك الوسائل يعاني من تخلف كبير.

غير أنه لا بد من لفت النظر إلى حقيقة حدوث تحول ما في طبيعة الإعلام في العهد الجديد، ورغم التراجع الذي حصل (إغلاق الدومري - سحب تراخيص إذاعات الإف إم - اعتقال العديد من الصحفيين...) إلا أن ما حدث حقيقة هو أن القمقم قد فتح، وليس من السهل إعادة الناس إلى داخله.

لمحة عن وسائل الإعلام المعاصر:

تنوعت وتعددت وسائل الإعلام وأصبح مفهومها واسعاً، ولم تعد تقتصر على وسائل الإعلام والنشاط الحكومي الموجه، إذ أصبح كل جهد أو وسيلة يقصد بها توجيه رسالة إلى مستقبل بمضمون ما (جاد أو فارغ) يعتبر وسيلة إعلامية، فانضوى تحت هذا المسمى:

- ١ - دور نشر الصحف والمجلات والكتب.
- ٢ - دور الإنتاج الصوتي والمرئي والكمبيوترى الفني والثقافي والعلمي والترفيهي...
- ٣ - مواقع الإنترنت الخاصة والعامة والمنتديات وما يتعلق بها.
- ٤ - الإذاعات المسموعة (المتوسطة والقصيرة والطويلة والـ إف إم) والمرئية العامة والمشفرة.
- ٥ - أدوات ومراكز التجمع الإنساني، كالمراكز الثقافية ودور المسرح والسينما..... وللحقيقة فإن لكل عصر وسيلته الأنسب والأكثر نجاحاً، وتعتبر القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت الآن هي الأكثر قبولاً وانتشاراً، لأجل ذلك يتضاعف عددها ودورها وتأثيرها وتلقى ما تلقى من عنت الحكومات والأنظمة ومن صعوبات التحدي والتطوير الناتج عن تطور تقنيات الاتصال ووسائله.

ونحن بدورنا نرى أن كل وسائل الإعلام بهذا المعنى مفيدة في مشروعنا الحضاري، ندعوها لتأخذ دورها في بناء الوطن وتسديد خطاه وفق القواعد والأسس التالية:

قواعد وأسس التعامل مع وسائل الإعلام المعاصر:

- ١ - الإعلام - ووسائله - سلاح مهم من أسلحة النهوض لا يستهان به، وركن ركين من نشاط أي مجتمع محترم، فهو وسيلة للبناء ووسيلة للدفاع عن الكيان والهوية والثقافة.
- ٢ - تشجيع كل من يرغب في خوض تجربة الإعلام بكل وسائله، فكثرة المنابر لا تعني إلا مجتمعاً حراً قادراً على النمو والتصحيح.
- ٣ - الرقابة الإعلامية التي ندعو لها هي في حدودها الدنيا المتعلقة بثوابت الأمة معتمدة في ذلك على الوازع قبل الرادع.

٤ - تشجيع روح الإبداع والابتكار والتطوير بما ينسجم مع قيام صناعة إعلامية مثالية وهادفة.

٥ - الحرية تقتضي المسؤولية الكاملة، فلكل أن يقول رأيه وبصراحة، ولكن لا بد من احترام قواعد القانون والحق العام، وإلا فإن القضاء النزيه هو الفصل في النزاع.

٦ - الحكومة تملك وسائل الإعلام بالقدر المناسب وبما يساعدها على إدارة الدولة من غير أن يعني هذا تضخم جيوش العاملين وتحولهم إلى بطالين.

٧ - الدفع بكل الوسائل إلى تشجيع المجتمع المدني لأخذ دوره في الإعلام؛ ليكون شريكا حقيقياً في صناعة الرأي العام.

٨ - إنهاء احتكار السلطة بالتالي لوسائل الإعلام إلى الأبد، واستبداله بالمنافسة الشريفة والحرّة بين تلك الوسائل.

٩ - رفع شعار (لا إبداع بلا حرية) وجعلها قاعدة في التعامل بين كل شرائح المجتمع وأركانه بما فيها الإعلام لتكون الحرية أساس حركة المجتمع، ولنا ثقة في فطر الناس لتكون إلى جوار قواعد القانون خير حارس من الشطط والجنوح.

١٠ - الصدق والموضوعية والجرأة والمسؤولية قواعد أساسية في ميثاق العمل الإعلامي.

١١ - وسائل الإعلام الحكومية بريئة من أخلاق التطويل للإنجازات، والعمل على كل حال يجب أن يسبق القول في ذلك.

١٢ - الإعلام الرسمي إعلام مستقل وهو إعلام دولة لا إعلام حكومة، وهو للمواطنين جميعاً لا لفئة منهم، وهو مستقل عن سلطان الحكومة المعنوي وليس بوقاً لها.

١٣ - الإعلام الرسمي والخاص إعلام هادف، وجده وهزله يخدم مصلحة الوطن والمواطن، ويدفع باتجاه قفزة الحضارية وبنائه المستقبلي.

١٤ - للأفراد والهيئات والأحزاب حق تملك وسائل الإعلام المختلفة.

١٥ - ميثاق الإعلام يجب أن يتضمن حماية المجتمع وأمنه والتشجيع على الحوار بين مختلف فئاته.

١٦ - ميثاق الإعلام الذي ندعو إليه يعزز ويرسخ الهوية العربية الإسلامية، ويحمي الوحدة الوطنية، ويدافع عن قضايا الأمة الأساسية.

١٧ - في مشروعهنا الحضاري ندعم ونشجع كل أشكال الترفيه البريء والهادف وبما ينسجم مع شخصية الأمة وكيانها.

١٨ - السلطة الرابعة ومفهوم حرية الصحافة وقدرتها على المحاسبة والمساءلة أساس ديني بالنسبة لنا منبثق من مفهوم الأمر بالمعروف، ومفهوم « إذا رأيت أمتي تهاب فلا تقول للظالم يا ظالم، فقد تُؤدّع منهم ».

١٩ - كما أن مشروعهنا الحضاري يدعو لدخول عصر العولمة عبر وسيلة تحرير الإعلام وكسر احتكاره، مع تكوين للكوادر القادرة على إدارة المشاريع الإعلامية الخاصة والعامة.

٢٠ - والعولمة التي ندعو لاقتحامها والمشاركة فيها هي تلك العولمة النافعة لا المفسدة، والتي يكون الإعلام أحد أسلحة الجهاد فيها.

٢١ - كما وأننا نظن أن الأمة قد تجاوزت بمراحل حكاية الوصاية عليها؛ ولذلك فإن كل ما يدفع لتحرير الإنسان وإبداعه وإطلاق مواهبه هو مطلب مشروع معتبر.

خاتمة:

الإعلام في نظريته الحديثة ودوره الجديد سلاح لبناء المجتمعات وللدفاع عنها، ووسيلة من وسائل إقامة الشورى وتصحيح الأوضاع، ووسيلة معرفة وتثقيف وترفيه ووسيلة مشاركة سياسية مهمة، ولعل التطورات اليومية في التقنيات والعلوم تضاعف من دوره وفعاليته، لذلك فإننا ندعو لاستغلال ذلك كله ولتوظيفه في نهضة الأمة وانطلاق مشروعهنا الحضاري دون حواجز أو قيود سوى ما يصطدم بثوابت الأمة وأخلاقها العامة.

وأخيراً، أقول: إن ما قلناه في هذا الموضوع مختصر جداً، ويحتاج الكلام فيه إلى أبحاث؛ ولذلك فسوف نقتصر على ما ذكرناه، وسنعود إليه تفصيلاً فيما بعد - إن شاء الله -، خاصة على ضوء دوره في الثورات العربية المعاصرة، وعلى الله قصد السبيل.

(٤)

العولمةماهية العولمة:

معنى العولمة في اللغة:

وصيغة فوعل تعني في اللغة التحويل، وعلى هذا فيكون المعنى اللفظي للعولمة هو: تحويل المحلي إلى العالمي.
العولمة في الاصطلاح:

وبالرغم من أن دعاة العولمة لم يصلوا بعد إلى تعريف محدد، لكن هناك تعريفات لم تأخذ صيغة الإجماع عليها، ومعظم هذه التعريفات تحاول أن تقدم العولمة من خلال خصائصها أو مواصفاتها، ونعرض لمجموعة من التعريفات على أمل الوصول إلى أجمع تعريف لها وأوضحه كذلك.

١ - العولمة: نظام عالمي جديد يقوم على العقل الإلكتروني، والثورة المعلوماتية القائمة على المعلومات والإبداع التقني غير المحدود بدون اعتبار للأنظمة والحضارات والثقافات والقيم والحدود الجغرافية والسياسية القائمة في العالم.

٢ - العولمة: هي القوى التي لا يمكن السيطرة عليها للأسواق الدولية والشركات المتعددة الجنسية التي ليس لها ولاء لأية دولة قومية.

٣ - العولمة: هي حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية.

وقد جاءت هذه التعريفات الثلاثة في كتاب « العولمة: نشأتها، أسسها، أهدافها »^(١).

٤ - العولمة: تعني في نظر البعض إزالة الحواجز والمسافات بين الشعوب بعضها وبعض، وبين الأوطان بعضها وبعض، وبين الثقافات بعضها وبعض، وبذلك يقترب الجميع من (ثقافة كونية) و(سوق كونية) و(أسرة كونية).

(١) الكتاب لمحمد سعيد بن سهو أبو زعرور، عرض: إحسان السيد، انظر: حصاد الفكر، العدد (٨٥) مارس (١٩٩٩م)، (ص ١٠).

٥ - العولمة: تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القومية في المجال الاقتصادي (المالي والتجاري)، وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالم، وداخل فضاء يشمل الكرة الأرضية جميعها.

وقد جاءت هذه التعريفات الثلاثة في كتاب العلامة الدكتور القرضاوي عن (العولمة) ^(١).

٦ - « العولمة الجديدة: عبارة عن واقع اقتصادي وتكنولوجي تم فرضه بلغة الخطاب الأمريكي؛ أي: الهيمنة الأمريكية على أرجاء الكرة الأرضية » ^(٢).

٧ - العولمة أو الكوكبة هي: الكرة الأرضية تشكل سوقاً واحدة فهي عالم بلا حدود، تجارة بلا قيود، انسياب رؤوس الأموال دون عوائق، تلاشي الاختلافات بين الثقافات والحضارات ^(٣).

ولعل أجمع تعريف للعولمة هو الذي قدمه السيد ياسين أستاذ علم الاجتماع السياسي، والمدير السابق لمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام في كتابه: « العالمية والعولمة ».

« العولمة: هو تعبير يُطلق على الحقبة التاريخية التي تبدأ منذ بداية سياسة الوفاق، ونهاية الحرب الباردة بين القطبين (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي) وهي تجلّ لظواهر اقتصادية أهمها تحرير الأسواق، وخصخصة الأصول، ونشر وتوزيع الإنتاج عبر القارات من خلال الاستثمار الأجنبي المباشر والتكامل بين الأسواق الرأسمالية، والاعتماد على سمو القدرات التكنولوجية، وتتسم بهيمنة القيم الأمريكية على المؤسسات والنظم من خلال التمسك بمبادئ الرأسمالية الديمقراطية، وإحياء دور المجتمع المدني في مجال التنمية » ^(٤).

(١) المسلمون والعولمة، للدكتور يوسف القرضاوي (ص ٩ - ١١).

(٢) ندوة العولمة وتأثيرها على الدول النامية، للدكتور سامي عفيفي حاتم.

(٣) المصدر السابق.

(٤) العالمية والعولمة، للسيد ياسين، دراسة للدكتورة عزة بدر، المجلة، العدد (٧٠٧٩)، (٢١/١٠/٢٠٠٠م).

الأوضاع الاقتصادية التي أدت إلى العولمة:

أ - تضخم الأسعار بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم، فإذا كان قد وصل في نيكارا جوا وبوليفيا وصربيا عام (١٩٨٥ - ١٩٨٩ م) إلى نسبة (١٢٠٠٠ ٪) سنوياً، فإنه قد وصل في الكثير من الأحيان في إنجلترا إلى (٣٠ - ٣٥ ٪)، وفي دول أوروبا الصناعية الأخرى إلى ما لا يقل عن (١٠ - ١٥ ٪).

ب - خسارة المصانع والمعامل المؤممة: والذي جعلها عالة على خزينة الدولة بدلاً من أن تصبح مصدر دخل لها كما كان مأمولاً بعد أن أصبحت وسيلة لإرضاء فئات الدخل الدنيا في وظائف وأعمال لا مبرر لها اقتصادياً لقاء أجور محدودة لا قيمة لها بحكم التضخم العالمي اقتصادياً، مما أدى إلى ارتفاع تكاليفها وانخفاض مستواها الفني وبالتالي نوعية إنتاجها وقدرتها على المنافسة.

ج - انخفاض الرغبة في العمل من قبل القادرين عليه؛ والراغبين فيه والناجحين اقتصادياً نتيجة قوانين مالية يعتبرونها تعسفية وجائرة بحقهم، فما الفائدة من عمل لا يضمن ولا يغني عن جوع؟ وما الفائدة من عمل إذا كان بإمكانني الاكتفاء بما تعطيني إياه دولة الرفاه من تعويضات وتقاعد بشكل مجاني بالرغم من قدرتي على العمل؟

د - هروب الرساميل إلى دول آسية الشرقية، أو تحويلها إلى مصارف الدول المتقدمة، أو للمضاربة في سوق العملات والأسهم العالية إذا ما دامت الأرباح محدودة، والرأسمال مقهور ومضطهد سياسياً وضريبياً، فما الفائدة من استثماره في إنتاج مقيد ما دام المردود الدولي من أعمال المضاربة أفضل بكثير؟

وهذا ما كان عليه الواقع الفعلي في السبعينيات من القرن العشرين في كل الدول الأوروبية.

هـ - بروز النمر الأربعة، وهي كورية وتايوان وسنغافورة وهونغ كونغ، ومن ورائهم الفهود السبعة وهي: الفلبين وتايوان وماليزيا وبروناي والصين والهند وإندونيسيا والباكستان كمصدرين عالميين منافسين لصناعات الدول الغربية الصناعية، في تحدٍّ هو الأول من نوعه منذ قرون للصناعات الغربية العريقة بعد أن أصبحت صناعات هذه الدول الصناعية الجديدة التي تعتمد على يد عاملة انضباطية رخيصة، وفوق كل هذا مدربة

تدريجياً جيداً، الأمر الذي جعل من دول ككورية الجنوبية تصبح ثالث دولة في العالم بإنتاج الرقائق الإلكترونية، وتوسع دولة تجارية في العالم عام (١٩٩٦م) على الرغم من حالتها المالية التي وصلت بها عام (١٩٩٧م) إلى حافة الإفلاس، كما أصبحت دولة مثل تايوان تملك ثاني احتياطي ذهبي ودولاري في العالم بعد الولايات المتحدة، مما أدى إلى تراجع نسبة الاستفادة من الطاقة الصناعية في الولايات المتحدة إلى (٩٦,٣ ٪) في صناعة الورق، وإلى (٧٦ ٪) فقط في صناعة الآلات والتجهيزات.

و - استفحال البطالة: أصبحت البطالة بشتى أنواعها مظهرًا دائمًا من مظاهر الاقتصاد الغربي.. وهكذا كان على التوزيعيين من ماركسيين في شرق أوروبا وكينزيين في غربها أن يعترفوا أخيراً بأن أفكارهم الحالمة والمثالية والجدلية، والقوانين الاجتماعية الأبدية التي اعتقدوا أنهم وحدهم اكتشفوها لم تؤد إلا إلى إفلاس الدول التي حكموها، وأصبح عليهم وبأصوات الطبقات الفقيرة نفسها التي جاؤوا إما لتنمية دخولها، أو لينصفوها من جور الطبقات الأغنى المحافظة الطابع أن يعيدوا إلى هذه الأخيرة الأمانة، وهذا ما تم من بريطانيا إلى الاتحاد السوفيتي عبر دول أوروبا الشرقية وساحل العاج، وحتى إلى البرازيل والأرجنتين خلال السنوات (١٩٧٩ - ١٩٩٠م).

ز - منح الثقة للمحافظين (١٩٧٩ - ١٩٩٠م): وقد أدى كل هذا إلى أن الشعوب الأوروبية الغربية - وقد حدث الكساد الاقتصادي وانتشار البيروقراطيات الاقتصادية في ظل حكم الاشتراكيين على اختلاف نزعاتهم طيلة السنوات (١٩٥٠ - ١٩٨٠م) - أعادت منح الثقة لمدة عقد من الزمن إلى المحافظين في إنجلترا وفرنسا وألمانيا الغربية على الدوام باقتصاد السوق كأفضل شكل من أشكال وأطر التعامل الاقتصادي عرفه الإنسان حتى الآن، وبهذا الشكل تمكن المحافظون من الإطاحة بكل النظريات الاجتماعية والاقتصادية سواء منها المبنية على الجدلية المادية والصراع بين الطبقات.. أو تلك المبنية على التكافل الاجتماعي^(١).

(١) التخصصية، النظرية والواقع، للدكتور محمد رياض الأبرش في كتاب «التخصصية، آفاقها وأبعادها» (ص ٣٤ - ٣٧).

العولمة القديمة والعولمة الجديدة:

العولمة القديمة:

عبارة عن تخطي الحدود الجغرافية والسياسية بين الدول، فالفتوحات الإسلامية صورة من صور العولمة القديمة.

العولمة الجديدة:

عبارة عن واقع اقتصادي وتكنولوجي تم فرضه بلغة الخطاب الأمريكي؛ أي: الهيمنة الأمريكية على أرجاء الكرة الأرضية، فالعولمة الجديدة ليست فعلاً وإنما رد فعل للثورات العلمية والتكنولوجية، ومعنى هذا أنها ظاهرة حتمية، كما أنها تمثل مرحلة تاريخية في عمر البشرية، ومن هنا يمكن اعتبار القرن الحادي والعشرين عصر العولمة الجديدة؛ لأن هذا العصر هو عصر تزاوج الثورات العلمية والتكنولوجية التالية:

- الثورة البيو تكنولوجية (الهندسة الوراثية).

- ثورة تكنولوجيا المعلومات والحاسبات الآلية.

- ثورة الاتصالات العالمية^(١).

المكونات الست للعولمة:

المكون الأول: نمو التجارة العالمية في السلع والخدمات، بل توسعت التجارة العالمية في السلع والخدمات بشكل ملحوظ خلال الفترة (١٩٨٠ - ١٩٩٦ م).

المكون الثاني: زيادة تدفق الاستثمار الأجنبي المباشر، حيث تمكن الاستثمار الأجنبي المباشر أن ينتقل من متوسط سنوي مقداره (١٧٤) مليار خلال الفترة (١٩٨٧ - ١٩٩٢ م) ليقفز قفزة كبرى مكنته من بلوغ (٦٤٤) مليار دولار عام (١٩٩٦ م).

المكون الثالث: العولمة المالية، وهو ما يُعرف اصطلاحاً بالاستثمار المالي، حيث تحركت هذه الاستثمارات من حوالي (٥ مليار دولار) عام (١٩٩٢ م) إلى حوالي (٩٢ مليار دولار) عام ١٩٩٧ م، وكان للعولمة دور كبير في دمج الاقتصاديات الوطنية بالاقتصاد العالمي من جهة، وتحقيق معدلات فوائد عالية ساهمت في تدعيم دور مجالات نشاط الشركات متعددة الجنسية من ناحية أخرى.

(١) ندوة العولمة، مكة، للدكتور سامي عفيفي حاتم.

المكون الرابع: الدور المتزايد للشركات متعددة الجنسيات، وهو دور مرتبط إلى حد كبير بتدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة داخل محيط الدول الصناعية المتقدمة، أو من هذه الدول إلى محيط الدول النامية.

المكون الخامس: الهجرة، حيث تُعتبر أحد مظاهر العولمة، حيث بدأت تتلاشى كثير من الحواجز، وترفع القيود عن الهجرة وبدأ الأفراد يبحثون عن فرص أفضل للحياة خارج حدودها.

المكون السادس: التكتلات الاقتصادية، وعلى الأخص التكتلات الاقتصادية بين الدول الصناعية المتقدمة وفي هذا الخصوص يمكن التفرقة بين التجمعات الاقتصادية الثلاثة التالية:

- التجمع الاقتصادي الأمريكي، والذي بدأ بإقامة منطقة التجارة الحرة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، ويضم في مرحلة أولى كل دول أمريكا الشمالية، وفي مرحلة ثانية ستضم إليه دول أمريكا اللاتينية.

- التجمع الاقتصادي الأوروبي المتوسطي، والذي يخطط ليضم كل دول القارة الأوروبية والقارة الأفريقية، ودول جنوب حوض البحر المتوسط.

- التجمع الاقتصادي الآسيوي، وهو التجمع المعروف بالآسيان بزعامة اليابان، والذي يضم دول جنوب شرق آسيا وأهم الدول الواقعة في جنوب آسيا^(١).

مثلث إدارة العولمة الجديدة:

وله ثلاثة أضلاع:

الضلع الأول: الضلع النقدي، ويشرف عليه صندوق النقد الدولي (النظام النقدي الدولي).

الضلع الثاني: الضلع المالي: ويشرف عليه البنك الدولي (النظام المالي الدولي).

الضلع الثالث: الضلع التجاري: وتشرف عليه منظمة التجارة العالمية (النظام التجاري الدولي).

(١) ندوة العولمة وتأثيرها على الدول النامية، للدكتور سامي عفيفي حاتم.

وهناك اتجاه نحو دمج هذه المنظمات الثلاث في منظمة واحدة هي: منظمة الاقتصاد العالمي لكي تكون بمثابة حكومة اقتصادية عالمية»^(١).

الخطوط العريضة للعولمة:

هناك خطوط عريضة أربعة تمثل مفهوم ومضمون العولمة وهي:

أ - تأمين الإطار المستقر للسوق:

أي يجب على الدولة عدم استخدام إنفاقها العام ومدفوعات وتحويلات وسيلة لتحقيق الاستقرار الاقتصادي، كما يجب أن تُستخدم معدلات الضرائب والرسوم بهدف تحقيق توازن الموازنة الأم فقط، وليس من أجل أهداف اقتصادية أو اجتماعية، ويجب أن تخلص الدولة أيضًا من مسؤولية الرقابة على الكتلة النقدية والتحكم بها، ويطلب بالتدخل الحكومي فقط في النظام البنكي لقطع الطريق على الانعكاسات السلبية التي تحدث في القطاع الخاص وتعرضه للخطر، بل يغالون في ذلك حيث يطالبون الدولة من الانسحاب من أهم مهامها كالجيش والشرطة والعدالة والتعليم والنقل وتركه للقطاع الخاص، والمقصود بالسياسات الاجتماعية هو تدخل الدولة لصالح الفقراء والضعفاء والمحرومين أمام سطوة المترفين.

ب - سياسات التثبيت والتكيف الهيكلي:

وبكلمة أخرى تنفيذ شروط البنك والصندوق الدولي بحذافيرها، فقد بدأ تطبيق العولمة الجديدة مع وصول ريغان للسلطة في أمريكا، وتأثير للسلطة في بريطانيا، والتي توجهت في البداية لمحاربة التضخم والحد منه بسياسات نقدية صارمة، فرفعت من سعر الفائدة، وأدى هذا إلى زيادة تكلفة أقساط خدمة الدين عند الدول النامية، وبدأت أزمة المديونية تأخذ أبعادًا أكثر شمولية لتضم أعدادًا أكثر من الدول النامية بشكل أصبح يهدد النظام المالي والنقدي العالمي نتيجة إعاقة الدول النامية، فسارعت الولايات المتحدة بشكل رئيسي بدفع البنك الدولي وصندوق النقد للعب دور رئيسي في امتصاص آثار الأزمة عبر تولي منح قروض جديدة للدول النامية لتحسين قدرتها على الوفاء بالتزاماتها مقابل تنفيذ عدد من الشروط المالية والاقتصادية، وبدأت تطالب هذه الدول بإعادة

(١) ندوة العولمة وتأثيرها على الدول النامية، للدكتور سامي عفيفي حاتم (ص ٩، ١٠) ملاحظ.

جدولة ديونها، وانصاعت إلى مشروطة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والتزمت ببرامج للتثبيت والتعديل الهيكلي في بنية الاقتصاد الوطني على المدى الأبعد... وجاءت اتفاقية الجات لعام (١٩٩٤م) لتدشن عهدًا جديدًا لحرية التجارة وإزالة القيود والضوابط المحركة لرأس المال، هذه العوام أسهمت بالضغط على الحكومات التي لم ترتبط بعد ببرامج محدودة للتعديل الهيكلي لتسريع عملية الانفتاح الاقتصادي والحد من دور الدولة وقطاعها الاقتصادي العام.

وفي أوائل التسعينيات كانت جميع الدول العربية تطبق إجراءات للتعديل الهيكلي سواءً من خلال برامج متفق عليها مع البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، أو من خلال إجراءات خاصة بها، ولكنها تؤدي النتيجة المطلوبة في الانفتاح والدور الرئيسي لرأس المال الخاص المحلي والأجنبي، والتقليص لدور الدولة الاقتصادي، ولدور القطاع العام بالدرجة الأولى.

ج - تطبيق البرامج المطروحة:

قام صندوق النقد والبنك الدوليان بتنسيق جهودهما وفرض مجموعة من البرامج المتكاملة فيما بينها، وتقسم هذه البرامج إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: تركز على صافي مدخرات القطاع الخاص من خلال تخفيض الضرائب على الدخل والإيرادات، وتقديم إعفاءات وتسهيلات لرأس المال المحلي والأجنبي في المشروعات الجديدة، وإلغاء تدخل لدولة في التسعير للمنتجات والرقابة عليها، وتقديم إعفاءات جمركية على الواردات الاستثمارية والوسيلة للمشروعات الجديدة، وزيادة سعر الفائدة على الودائع الادخارية.

المجموعة الثانية: تركز على العجز في الموازنة العامة من خلال تقليص الإنفاق العام بإلغاء الدعم للسلع الاستهلاكية الضرورية، وإلغاء الدعم للقطاع العام، وزيادة أسعار السلع والخدمات التي تقدمها الدولة، وإلغاء التزامات الدولة بتعيين الخريجين الجدد من المعاهد والجامعات، وتجميد الأجور أو تخفيضها، ووضع حد أعلى للائتمان المصرفي للحكومة والقطاع العام، بالإضافة إلى زيادة الضرائب غير المباشرة، وبيع منشآت القطاع العام للتخلص من عبئها وزيادة الموارد.

المجموعة الثالثة: فإنها تشمل السياسات المشجعة للحصول على النقد ورأس المال

الأجنبي، وتركز على تخفيض قيمة العملة المحلية، وتحرير التجارة الخارجية، وإلغاء كافة القيود الكمية والنوعية على الواردات، وتخفيض الرسوم الجمركية إلى حدودها الدنيا، وإلغاء الرقابة على الصرف، وإعطاء رأس المال المحلي والأجنبي والحرية العامة في التنقل، وتقديم محفزات وإعفاءات مغرية لرأس المال الأجنبي للاستثمار وخاصة في مجال التصدير.

الخصخصة:

« تبرر المؤسسات المالية الدولية تمسكها بهذه البرامج بعدد من الفرضيات تعتبرها مسلمات، وهي أن تحرير الأسعار والتجارة، ونقل ملكية المنشآت العامة إلى القطاع الخاص من شأنه أن يعزز فرص النمو ويقود إلى الاستقرار المالي والاقتصادي، وأن أي تدخل من قبل الدولة يشوه فعل آليات السوق، ويعيق تحقيقها للتوازن التلقائي.. وهي تبرر عملية نقل الملكية من العام إلى الخاص بأنها تؤدي إلى:

١ - تقليص الأعباء المالية للدولة بالتخلص من المنشآت العامة الخاسرة.

٢ - تحسين كفاءة ومردودية الاستثمارات والموارد.

٣ - تحسين الكفاءة الاقتصادية عامة باعتماد آليات السوق والمنافسة.

٤ - توفير موارد لتخفيض الدين الخارجي والأعباء المترتبة عليه.

٥ - تطوير وتوسيع السوق المالية.

٦ - الاستفادة من مشاركة رأس المال الأجنبي»^(١).

آثار تطبيق العولمة الاقتصادية:

أ - استمرار العجز في المديونية:

« مع ذلك لا يوجد دليل على هذا التحسن المزعوم، إذ تم تقليص العجز في الموازنة العامة، أما العجز في ميزان المدفوعات والمديونية الخارجية، فالملاحظ أنه استمر في الزيادة، وأنه على الرغم من كل الإصلاحات في أكثر من سبعين بلدًا منذ عام (١٩٨٠م) فإن عبء الديون الخارجية للدول النامية قد ازداد من ٦٥٨ مليار دولار عام (١٩٨٠م)

(١) الخصخصة وأبعادها الاقتصادية والاجتماعية، للدكتور نبيل مرزوق، حوارات (ص ١٦٥ - ١٩٤).

إلى ١٧٧٠ مليار دولار عام (١٩٩٣م) وازداد الدين الخارجي للدول العربية من ١٤١٤١٧ مليون دولار عام (١٩٨٠م) إلى ١٥٧٧٣٨ مليون دولار عام (١٩٩٥م)، أي على الرغم من تطبيق معظم الدول العربية برامج للتصحيح الهيكلي، فإن مديونيتها قد ازدادت بما يقارب (٤٥، ١١٪) خلال خمس سنوات^(١).

ب - الاستعمار جديد:

« إن العولمة كما تطرح اليوم إنما تصب في النهاية لصالح الأقوياء ضد الضعفاء ولكسب الأغنياء ضد الفقراء، ولمصلحة الشمال الغني ضد الجنوب الفقير... »

إن فتح الأبواب على مصاريحها بدعوى العولمة في مجالات التجارة، والتصدير والاستيراد، أو في مجال الثقافة والإعلام سيكون لحساب القوى الكبرى، والدولة التي تملك ناصية العلم والإعلام الجبار والتكنولوجيا العالية المتطورة، ولا سيما الدولة الأكبر قدرة، والأشد قوة، والأعظم نفوذاً وثروة، وهي أمريكا.

أما بلدان العالم الثالث كما يسمونها وخاصة (البلاد الإسلامية) منها، فليس لها في هذا السياق العالمي إلا بقايا ما يفضل من الأقوياء، إن بقي لديهم ما يجودون به من فتات على الآخرين^(٢).

العولمة المضادة:

ومن هذا المنطلق فإن قارات وحضارات العالم المختلفة عليها أن تبحث عن نمط جديد يضيف على العولمة الجديدة طابعاً خاصاً يحمي تراثها وحضارتها ويؤكد على بقاء هويتها دون إعاقة مسيرة النهضة التكنولوجية والمعرفية العالمية، معنى ذلك أننا في حاجة إلى نمط جديد يمكن من خلاله عولمة القيم الأوروبية وعولمة القيم الإسلامية، وما يُسمى بالعولمة الصفراء والنموذج الآسيوي للعولمة.

وفيما يختص بالنموذج الإسلامي للعولمة، فهو عبارة عن نموذج مقترح يقوم على شقين رئيسيين:

- يتعلق الشق الأول بعولمة القيم الإسلامية، أي: بناء نهج خاص يمكن من خلاله للدول

(١) الخصخصة، للدكتور نبيل مرزوق (ص ١٨٦).

(٢) المسلمون والعولمة، للدكتور يوسف القرضاوي (ص ١٦).

الإسلامية الترويج لقيمها في أنحاء العالم لتبقى العقيدة الإسلامية راسخة وقوية بين القيم المختلفة التي تتداولها شعوب العالم المختلفة.

- أما الشق الثاني فيتعلق ببناء وتوكيد الواقع الاقتصادي والتكنولوجي الخاص بدول العالم الإسلامي في القارات الآسيوية والأفريقية والأوربية.. وهناك صحة تنمية داخل العالم الإسلامي، بل وأمكن لعدد منها الوصول إلى خيوط التنمية التكنولوجية الذاتية، وهو ما نشاهده في باكستان وإيران وإندونيسيا وماليزيا^(١).

رأي دعاة العولمة العرب في الإسلام:

وذلك حسب نظر العولمة وفلاسفتها العرب للإسلام، وعلى رأسهم سمير أمين أول دعاة العرب والتي نعرضها بفهم هؤلاء المنظرين والفلاسفة.

بين العولمة والإسلام:

« يفرق (أمين) بين العولمة الرأسمالية الحالية وبين عالمية الامبراطوريات القديمة مثل الدولة العربية الإسلامية التي امتدت من الصين إلى الأندلس أو الدولة الرومانية.

فالعولمة الرأسمالية تغطي الكون، وتلك الإمبراطوريات مجرد دول إقليمية كبرى شملت في الأكثر بين الربع والثلث من الإنسانية، والرأسمالية هي أول نظام عالمي على الكون كله.

الاختلاف الثاني: هو أن نظام العولمة والرأسمالية يستند على سيادة هيمنة المستوى الاقتصادي على المستويات الأخرى، وسيادة قانون القيمة الذي هو قانون اقتصادي على جميع المستويات الأخرى، بينما جميع النظم السابقة على الرأسمالية كانت قائمة على هيمنة المستوى الأيدلوجي تستطيع أن تتحدث عن الدولة ولا تستطيع أن تصفها كنظام اقتصادي، ولهذه الأديان ميول عالمية بمعنى أنها مطروحة للبشرية كلها؛ أي ميول للتوسع على صعيد عالمي ولكن لم يتحقق ذلك عند المسيحية ولا الإسلام، أما العولمة فهي تظهر الآن في وجود نظام إنتاجي عالمي يتميز بوجود سوق مندمجة للمنتجات ولرؤوس الأموال، ولكن سوق العمل غير مندمجة^(٢).

(١) ندوة العولمة، مكة، لسامي عفيفي حاتم.

(٢) إشكالية الأصولية في الوطن العربي، لحيدر إبراهيم (ص ٣٣٣).

أ - الإسلام دين المتخلفين:

« يذهب الإسلاميون إلى تقديم أنفسهم كبديل لفشل الرأسمالية الغربية والاشتراكية الغربية، ويرفض أمين هذه الفرضية جذرياً.. ولا يمكن فهم ظاهرة صعود الحركات الإسلامية إلا بوضعها ضمن عملية التطريف والعولمة.. فهناك دول حققت رغم تبعيتها قدرًا من النجاح في تحقيق تنافس نسبي في السوق العالمية، ويطلق عليها اسم (العالم الثالث) ويراهنا تمثل قلب رأسمالية الأطراف للمستقبل، وهناك دول أخرى سماها (أمين) (العالم الرابع) وهي تحتل الدرجة الدنيا في التراتبية العالمية، وهي تضم العالم الإسلامي بأكليته - عدا تركيا وأجزاء من آسيا الوسطى تحت النظام السوفيتي السابق^(١)، بالإضافة إلى أفريقية جنوب الصحراء، فهناك قدر من النضج أو التطور في ردود الفعل في مجتمعات الفئة الأولى (العالم الثالث) يتخذ شكل صراعات اجتماعية أو طبقية أو سياسية.

بينما في العالم الرابع نجد حركات الرفض الشعبي والحركات الإسلامية أحدها تغيب عن إدارة الصراع على أرضيات الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية وهجرها إلى سماوات الحلول العامة المجردة: الإسلام هو الحل، وامتناعها عن ترجمة هذا الشعار المجرد إلى برنامج ملموس يتناول المطالب الشعبية وإجابات عينية للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية.. وقد نشطت الحركة الإسلامية بين الفئات المهمشة من القادمين من الريف دون أن تستوعبهم المدينة والتي تختلف في نشأتها عن المدينة البورجوازية^(٢)، وكان من آثار تطور مجتمعات العالم الرابع أن هذه الفئات تعيش حرمانًا يبعدها عن أي مشاركة فعالة في السلطة والثروة، وتحاول الحركة الإسلامية التعبير عن الأزمة بتفسيرات مختلفة ولكن أهم الآراء السائدة هي النظرة إلى القضية باعتبارها أزمة هوية، بينما هي في حقيقتها أزمة التوسع الرأسمالي عالمياً.... واستطاعت الحركة الإسلامية على أساس أنها فكر أزمة - أي: تنتشر في مناخ الأزمات - أن تجتذب أغلب الساخطين بسبب الفراغ السياسي والتدهور الفكري والثقافي مع غياب الوعي أو تزييفه ».

(١) استثنى تركيا بصفتها دولة علمانية صرفة ضد الإسلام، وأجزاء من آسيا الوسطى لأنها ضمن الشيوعية العالمية.

(٢) وهل وجود الحركة الإسلامية على رأس المثقفين في المجتمعات الإسلامية ويدها كل النقابات العلمية، والأطباء، والمهندسون، والصيادلة، والمعلمون، والمحامون، دليل على أنها للقادمين من الريف؟؟ ولكنه الحقد الأسود.

ب - الأصولية في مواجهة التحديث والحداثة والعولمة:

« تتسم الحركات الإسلامية بأن نموذجها المثالي موجود في الماضي.. لذلك لا يكون في إطلاق تسمية الأصولية عليها أي نوع من التجني أو تعميم، وعند (أمين) ينتقل من مرحلة التحديث إلى الحداثة، إذ تتضمن عملية التحديث إشكالية التخلف والتقدم واللاحق، ولكنها تبقى ناقصة أو مستحيلة دون إتمام ثورة في الفكر والثقافة تنقل المجتمع من عصر هيمنة الميتافيزيقا^(١) إلى عصر التحرير من هذه الهيمنة.

فالفكر الحديث تخلص عن الاهتمام بالبحث عن الحقيقة المطلقة، فلا جتهد ممكن في العقيدة وله سقف معين، أما الإبداع فينطلق نحو فضاء أرحب في مجالات المعرفة الأخرى؛ أي: تلك التي لا تحكمها الشريعة أو النصوص الدينية، هذا هو مدخل وشروط الثورة الثقافية والتي هي في هذه الحالة ثورة في الدين، للخروج من مأزق الفكر الوسيط من الجانب الآخر^(٢).

ج - الأصولية بين الفكر والممارسة:

« يحول الأصوليون الصراع أو التناقض إلى آخر عقائدي أو ديني، وقد ارتكزوا على فكرة أن الإسلام هو الحضارة.. وترد مثل هذه التوصيفات في أغلب أدبيات الحركة الإسلامية، وهي قاطعة في رأيها بأن الإسلام يوجد في داخله وليس مطالبًا باللاحق بنموذج خارجه، كل المطلوب أن يعيد إنتاج نفسه ولكن حسب المبادئ الإسلامية ذات الطابع الشامل، ولا تمنع من الأخذ بالتكنولوجيا والعلوم شريطة إخضاعها للعقيدة التوحيدية المتمثلة في الإيمان بالله الواحد الخالق.. ولا يرجع عجز الحركة الأصولية عن الاستجابة إلى طبيعة الدين أو عدم مرونته، ولكن إلى قدرات الحركة نفسها.. فلم تحقق الصحوة الإسلامية المزعومة خطوة أولى مهما كانت متواضعة في اتجاه الثورة الثقافية المطلوبة، بل على العكس مثلت ثورة مضادة دون أن يكون قد حدثت ثورة قبلها، فالحركة الأصولية بمختلف أجنحتها أحد أعراض الأزمة وليس حلاً لها؛ لذلك لن تقود ثورة ثقافية بل ستفاقم التدهور بكل صورها، وتستمر في عجزها عن مواجهة التحدي.

فالشعب المتخلف يفهم دينه فهمًا متخلفًا، (والتحرر عند أمين) هو إبعاد جميع

(١) أي: الدين.

(٢) إشكالية الأصولية، مقتطفات (ص ٣٤٠ - ٣٤٣).

المطلقات، وإحلال مطلق وحيد مكانها وهو حرية الفكر الكاملة، وهكذا تشترط الديمقراطية، العلمانية إبعاد الدين عن السياسة والفكر وأن يكون الدين خاصاً بالفرد^(١).

د - أسلمة الحداثة أم تحديث الإسلام:

« لقد وجدت الحركة الأصولية نفسها بين خيارين؛ إما أن تملأ الحداثة بمضمون إسلامي، أو تقوم بإصلاح ديني يحدث الإسلام، واختارت الأصولية مهمة أسلمة الحداثة لذلك كثر الحديث عن الاقتصاد الإسلامي وإسلامية المعرفة وحتى درجة البحث عن سينما إسلامية أو فن إسلامي ويحاول الأصوليون الوصول إلى فصل تعسفي بين المادي والروحي، فهم مثلاً يقولون أنهم مع الديمقراطية كطريقة لاختيار الحكام وتداول السلطة، لكنهم يرفضون النواحي الفلسفية التي قامت عليها، فهم مثلاً مع الصناعة دون مشكلاتها الاجتماعية... وبسبب قبول الليبرالية الاقتصادية لا يمكن القول بأن الأصوليين والحركة الإسلامية معادون في حقيقة الأمر للغرب أو بالأصح للرأسمالية العالمية، على العكس من ذلك يؤدي الخوف المرضي من الشيوعية والإلحاد إلى تنازلات في التعامل مع الغرب الرأسمالي، هذا عن إيران، أما الدولة الأخرى التي وصل فيها الإسلاميون إلى السلطة من خلال انقلاب عسكري وهي السودان، فقد اختطت سياسة خصخصة لا تختلف عن مصر أو تونس أو ساحل العاج، وقد قبلت السودان خلال حكم الإسلاميين كل شروط صندوق النقد الدولي، ورفع القطاع العام يده عن كثير من المشروعات الاستراتيجية مثل المواصلات والاتصالات، بل رفعت الدولة الدعم عن التعليم والصحة، ويشجع النظام الحاكم القطاع الخاص والمبادرة الفردية إلا إنها رأسمالية موجهة تميز أعضاء حزب الجبهة الإسلامية القومية الحاكم، وهكذا بينما يحاول الإسلاميون أسلمة الحداثة يجدون أنفسهم قد انغمسوا في العالم^(٢) دون مقاومة حقيقية غير التشنج والصراخ، يقول ذلك شايفان عن التجربة الإيرانية التي يمكن تسميمها^(٣).

هـ - خلاصة رأيه:

« يصل (أمين) إلى استنتاج نهائي بأن الصحوة الإسلامية المزعومة هي موجة رجعية

(١) إشكالية الصراع، مقتطفات (ص ٣٤٣ - ٣٤٧).

(٢) ويتجاهل بوقاحة إلغاء الربا الذي هو عماد الرأسمالية والعولمة.

(٣) إشكالية الحركة الأصولية، مقتطفات (ص ٣٤٧ - ٣٥١).

تنخرط في استمرار تسلط فكر عصور الانحطاط التي سبقت الغزو الرأسمالي، وقد حدثت هذه التطورات المؤلمة في الحقبة التاريخية نفسها التي تتميز في المناطق الأخرى بالتقدم في كلا مجالي الإبداع الاجتماعي والعلمي والاجتهاد المبتكر في التأويل الديني؛ لأن الذي نراه حتى الآن إنما هو مزيج من تأكيد الطقوسية الشكلية والغموض في الإجابة على المشاكل التي تواجهها المجتمعات المعاصرة، وفي نهاية المطاف مذهب يجمع بين تسلط الفكر الديني المتجمد وبين الخضوع لمقتضيات استمرار سيطرة الاستعمار الغربي، ونجد نموذجاً لهذا الجمع في تطبيقات الاقتصاد الإسلامي وفي النظم القمعية في دول تحكم باسم الدين وتجد بعض القبول لدى شعوبها.

والعالم العربي كجزء من العالم الرابع كان الصراع فيه متدنياً وظل رجال الدين المسلمون محافظين ووقفوا في أغلب الأحيان ضد السلطة الوطنية في بلادهم، فهم نتاج مجتمع فلاحى وتعليم ديني وسطي؛ لذلك كان لا بد أن يعجزوا عن ولوج المغامرات الفكرية والخروج عن عقلية القطيع، ولم يمثل التجديد الديني تياراً، بل ظل اجتهداً فردياً تعرّض للاضطهاد، وبقيت تهمة الردة مشروعة أمام كل مجتهد، وقد يصل الأمر لدرجة الإعدام كما حدث للأستاذ محمود محمد طه، أو الاغتيال النفسي والمعنوي كما حدث لنص حامد أبو زيد بإبعاده خارج وطنه ومحيطه الأكاديمي والفكري.

أظهر العرض السابق أن الأصولية فشلت في توفيقيتها لأنها تريد أن تجمع الماء والنار، فهي تحاول أن تأخذ التكنولوجيا مثلاً بدون العقل العلمي أو النقدي، أو أن تستسلف المؤسسات وطرق الإدارة الحديثة مع إبقاء القدرية والانتكالية، إنها حادثة معكوسة، وأعني بذلك تحاول عبثاً أن تخلق مجتمعاً حديثاً بأدوات قديمة وتقليدية.. هذا هو مأزق الأصولية، لذلك تتساكن أو نتعايش التكنولوجيا مع الخرافة أو توظف لأغراض رجعية، كما يحدث بالنسبة لاستعمال التلفزيون في تعليم البنات منفصلات عن الشباب والأساتذة الذكور في بعض البلدان العربية.

تواجه الأصولية إشكالية أخرى في العولمة، إذ تدعي الأصولية امتلاك الحقيقة المطلقة، وهذا ما يجعلها إقصائية ورافضة للآخر لدرجة إمكانية إلغائه بقصد تحقيق النقاء في الفكر أو الحياة، وما العنف الذي تمارسه إلا بسبب ادعاء دور رسائلي وتبشيري لنشر حقيقتها المطلقة، ولكن الميزة الأساسية في العولمة أن النسبية هي المطلق الوحيد، إن

صح التعبير، فالعولمة لا تسعى إلى خلق مركز أو قطب واحد كما يبدو ظاهرياً، ولكنها تعمل على زحزحة الثوابت، وفي هذه الحالة يصعب فرض ثقافة مركزية عالمية، ولكن ستوجد ثقافات إنسانية عالمية تشترك في طرائق تفكير واستخدام أدوات عالمية، ولكنها تتنوع في التعبير عن خصوصية غير ثابتة، أي نسبية»^(١).

العولمة والعرب:

الاستعمار الجديد: أصبح من الأمور المسلّم بها أن الاستعمار المباشر بصورته السافرة قد أخلّى سبيله إلى نوع آخر من الاستعمار يتعرف عليه بأنه استعمار جديد، فيما يمكن اعتباره تأكيداً على استمرار جوهره ولكن بأساليب تخفي الوجه السافر للاستعمار، ولكنها تتحقق بدرجة أعلى من الكفاءة وبمسحة أكبر من التظاهر بالإنسانية».

أ - العولمة والنظام العالمي الجديد:

هناك محاولات مستمرة لتسوية الصراع التاريخي بين العرب وإسرائيل، فما علاقة العولمة بذلك؟ لعل محاولة تلمس الإجابة على هذا التساؤل تمر عبر النقاط الثلاث التالية:

النقطة الأولى:

إن العولمة هي محاولة تسييد القوة بمفهومها الشامل الاقتصادي والسياسي والتقني والإعلامي والثقافي، وهي بالتالي الأساس الذي سوف يصنع أو يصبغ شكل النظام في القرن الواحد والعشرين.. هذا يعني أن النظام الدولي الجديد في القرن الواحد والعشرين سيكون أخطر بكثير من النظام الدولي الذي سبقه في القرن العشرين، فإذا كان هذا الأخير قد نجح في تجزئة القوميات في العالم وتكوين الدول والكيانات السياسية في آسيا وأفريقية وشرق أوروبا وأمريكا الجنوبية، وعلى أساس وطني أو إقليمي، فإن النظام القادم سيعمل على اختراق تلك القوميات، وسيقوم بتفتيت بعض الدول والكيانات وسوف لا تقارن النتائج التي أسفر عنها مؤتمر الصلح في باريس عام (١٩١٩ م) بما ستسفر عنه نتائج ذلك النظام.

النقطة الثانية:

بما أن الولايات المتحدة تتمتع اليوم بأدوات ووسائل القوة بمعناها الشامل، فإنها

(١) إشكالية الأصولية في الوطن العربي (ص ٣٣٥).

تحاول أن تسخر العولمة لصالحها، حتى يمكننا القول إن الخطط والأطروحات المتتابة التي يشهدها العالم اليوم من أجل ولادة العولمة إنما ترتبط عمومًا بالمشروع السياسي الأمريكي الجديد، وهو المشروع الساعي لتوحيد العالم من خلال رأسمالية السوق.

يكفي أن نشير هنا إلى أن أولى الخطوات التنفيذية لهذا المشروع كانت قد نمت من خلال الحرب التي دارت رحاها على الأرض العربية في الخليج شتاء (١٩٩١ م)، لقد كانت هذه الحرب أشبه بحرب عالمية واجه فيها (الشمال) - الذي تقوده الولايات المتحدة بعد أن حولت أوروبا واليابان إلى تابعين لما تفعله - الجنوب، وجرت فوق ميدان إقليمي وفوق هذا الميدان قادت الولايات المتحدة حربًا من أجل النفط وإسرائيل وعلى حساب (العالم الثالث).

النقطة الثالثة:

إن الأحداث التاريخية قد أثبتت بما لا يدع مجالًا للشك أن الولايات المتحدة لها القدرة على استخدام أقصى وسائل الردع والحسم الكبرى التي تمتلكها من أجل إبقاء نفوذها وسيطرتها على منطقة الشرق الأوسط ذات الموقع الحيوي في العالم.

وهكذا، كانت وما تزال وستغدو هذه المنطقة أهم مجال حيوي وأعظم منطقة إستراتيجية بالنسبة إلى مصالح الولايات المتحدة التي كانت وما تزال تدعم الأنظمة السياسية الموالية لها، فضلًا عن تبنيها نشأة قوة إسرائيل وتبلورها داخل المنطقة.. وهكذا فإن الدائرة المكونة لهذه النقاط الثلاث وإن كانت تشير إلى بانوراما المناخ العام الذي يلف (العرب) في إطار (العولمة) وتجلياتها، فإنها في نفس الوقت تؤكد أن ما يجري على الأرض العربية خصوصًا وفي منطقة - الشرق الأوسط - على وجه العموم، إنما يتم بغرض تحقيق استهداف محدد، ترتيبات إقليمية جديدة تتلاءم - في الأساس - مع الرؤية الأمريكية الإستراتيجية لفترة ما بعد الحرب الباردة، ولا شك أن التصفية السريعة للقضية الفلسطينية - وتسوية الصراع التاريخي بين العرب وإسرائيل تأتي في مقدمة تلك الترتيبات المستهدفة من حيث كونها تتسق مع الرؤية الأمريكية الجديدة ضمانيًا لمصالحها البعيدة وإدراكها أن محور النفوذ العالمي يتمثل في جزء هام منه في السيطرة على (الشرق الأوسط) اقتصاديًا وعسكريًا.

ب - العرب والتسوية، ملامح الترتيبات الإقليمية:

يمكن الولوج إلى محاولة الاستشراف هذه من خلال العديد من الملاحظات المتعلقة بمقدمات ونتائج التفاعلات الراهنة... والتي يمكن أن نوجزها كما يلي:

الملاحظة الأولى:

وهي تلك المتعلقة بالتحول الدولي السريع إلى مرحلة التكتلات العملاقة أو الدينامورية، وعلى ما يبدو من خلال متابعة ما يحدث من تحركات متعاكسة على جانبي الأطلسي، ولا نجاوز الحقيقة كثيرًا إذا قلنا إن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوربي يسلكان كل سبيل حتى يصلا إلى أن يتقاسما العالم بينهما، فالولايات المتحدة الأمريكية من جهة، وإضافة إلى أنها تمسك بقسم كبير مما يسمى بنصف الكرة الغربي، وتقيم منطقة اقتصادية مدمجة تشمل - فضلًا عنها - المكسيك وكندا - نافتا - ناهيك عن البرازيل والأرجنتين وفنزويلا، فإنها تحاول العمل على تحويل مركز ثقل الرأسمالية العالمية من أوربا إلى الشرق الأقصى... من الأطلسي إلى الهادي، وإحداث تبادل تاريخي لا سابقة له في الساحة التي شهدت أهم فصول التقدم الرأسمالي والهيمنة على العالم خلال القرون الستة الماضية تبادلًا لا يعرف أحد مداه ساهم في تأسيس وتأطير العلاقات الدولية.

ويظهر هذا جليًا من خلال الخطة الأمريكية الرامية إلى احتضان ١٨ دولة عضو في منتدى دول منطقة آسيا والمحيط الهادي (أبيك) في منطقة تجارة حرة بحلول عام (٢٠٢٠م)، والملاحظ أن هذا المنتدى سينضوي تحت رايته أقوى اقتصادين في العالم وأسرعها نموًا (اليابان والصين) ثم أمريكا بالإضافة إلى الاتساع الهائل في عدد سكانه وفي أسواقه ويشمل هذا المنتدى كلاً من (دول جنوب شرقي آسيا وأستراليا ونيوزلاندا) ومن ثم فإن هذا التكتل يشكل كتلة ضخمة تضم نصف سكان العالم تقريبًا وتهيمن على نصف الإنتاج العالمي، وحجم تجارتها ليس في حاجة إلى تعليق، ويبدو أن هذه الكتلة تهيأ أكثر من غيرها لورثة مقعد مجموعة السبع الغنية.. إضافة إلى الخطة لتهدة الصراع بين العرب وإسرائيل، وإدخال أطرافه في أنماط جديدة من الصراعات الدولية تلعب فيها هذه الأطراف دورًا لا تقاس أهميته الدولية بأهمية النتائج التي يمكن أن تترتب بالنسبة للمصالح الأمريكية على استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، وامتناع إسرائيل

عن الاعتراف بالوجود الوطني لشعب فلسطين، هذا وإن كان يشير إلى أن الحسابات الأمريكية تتجاوز احتمالات الخطر الناجمة عن (الطابع العربي - الإسلامي) للصراع ضدها وضد إسرائيل، فإنه في نفس الوقت يعني أنها تسعى لاحتواء الأدوار العربية، بل ودمجها في منظومة إقليمية مع إسرائيل؛ المنظومة الشرق أوسطية من أجل الاستفادة منها في الصراعات الدولية المحتملة خلال القرن الحادي والعشرين.

أما اتحاد أوروبا الغربية، من جهة أخرى فإنه يعمل على توسيع دائرة حركته في الاتجاهين الشرقي والجنوبي، يبدو هذا جلياً من خلال المشروع الذي طرحته المفوضية الأوروبية والذي تناولته قمة (آيسن) الألمانية في نهاية (١٩٩٤ م)، والذي يهدف إلى إبرام معاهدات أمنية وإقامة منطقة تجارة حرة تضم كتلة سكانية قوامها ٨٠٠ مليون نسمة تسكن ٤٠ دولة من دول الاتحاد ودول أوروبا الشرقية ودول الشمال الأفريقي المطلة على البحر المتوسط وتلك الواقعة إلى الشرق منه.

الملاحظة الثانية:

وهي تلك المتعلقة بما يجري على ساحة المنطقة التي يقع الوطن العربي في موقع القلب منها والتي تمثلها دائرتين متقاطعتين؛ دائرة (الشرق أوسطية) ودائرة (المتوسطية)، وهي المنطقة التي تشهد في هذه الآونة المعادلة (الأمريكية الأوروبية) التي تقوم على منظور ظاهرة التعاون، وصراع الكواليس.. ولا عجب والحال هذه أن تبدو بوضوح طبيعة المعادلة الأمريكية - الأوروبية، المشار إليها.. فتتعامل الولايات المتحدة مع المنطقة العربية بمنظور المصلحة المزدوجة حيث تبرز مصالحها الاقتصادية: النفط، عوائده، السوق، الممرات من جانب، ومن جانب ثانٍ تبرز مصالحها السياسية على أساس أنه من يسيطر على - أو على الأقل يتحكم في - هذه المنطقة يصبح (سيد العالم) كما أثبتت التجربة التاريخية.

الملاحظة الثالثة:

بعد أن راهنت إسرائيل خلال العقود الأربعة الأخيرة على تحدي المنطقة العربية، وما كان يجلبه لها هذا التحدي في سياق (الحرب الباردة) من دعم خارجي تطمح إلى جعل هذه المنطقة نفسها عن طريق استغلال ما بها من إمكانيات واسعة مرتكزاً وقاعدة لإحداث طفرة اقتصادية، وتقنية داخلية تسمح لها بالدخول المنتج والإنتاج العالمي في السوق العالمية، فانفتاح السوق العربية الواسعة عليها يعد فرصة ملائمة تسمح لها

بتجاوز وضعية اقتصاد (القلعة المحاصرة) المعتمد على التمويل الأجنبي والمساعدات الخارجية، وتكفي الإشارة هنا إلى خطة السلام التي اقترحها شمعون بيريز مهندس أطروحة (إسرائيل الكبرى اقتصاديًا) وفيها ظهر بوضوح أن ما يريده الإسرائيليون في ظل الترتيبات الجديدة ليس مقايضة الأرض بالسلام - ولكن مقايضة الجزء بالكل والخضوع لمعادلة جديدة لتقسيم العمل في المنطقة سوف تكون عناصرها كما طرحها بيريز كما يلي: (النفط السعودي + الأيدي العاملة المصرية + المياه التركية + العقول الإسرائيلية)، بل إن ما يزيد الأمر وضوحًا هو ما جاء في كتاب بيريز المعنون: الشرق الأوسط الجديد حيث يذكر فيه ما يلي: يؤدي السلام بين إسرائيل وجيرانها إلى خلق مناخ لإعادة تنظيم أساسية لمؤسسات الشرق الأوسط، وإلى نوع جديد من التعاون.. ويُعتبر التنظيم الإقليمي مفتاح السلام والأمن، وسوف يشجع الديمقراطية والتنمية الاقتصادية والتطوير القومي ورفاهية الأفراد، إن إقامة السلام تتطلب ثورة في المفاهيم.. وإن هدف إسرائيل النهائي هو خلق مجتمع إقليمي من الدول بسوق مشتركة وهيئات مركزية ومصممة على غرار الجماعة الأوروبية.

الملاحظة الرابعة:

وهي المتعلقة بالتوجهات العامة التي كانت لدى البلدان العربية، وخاصة في ظل الضغوط الهائلة لإلحاق المشرق العربي بـ (الشرق أوسطية) الجديدة، وإلحاق المغرب العربي بأوروبا الغربية أو (المتوسطية)، وإغراق الخليج العربي بهواجس الدفاع عن الثروة النفطية الجاذبة للأطماع، وإغراق السودان والصومال في الفضاء الأفريقي، وتأسيس الخطوة الأولى لإطلاق اليد الإسرائيلية للهيمنة الاقتصادية، وهي الخطوة المتمثلة في الدائرة الثلاثية (إسرائيل، الكيان الفلسطيني، الأردن) «^(١)».

« فنحن العرب على أبواب مرحلة جديدة لا تقوم فقط على (التجزئة الثالثة) للوطن العربي... بل تعتمد أيضًا على قاعدة التوظيف الاتجاعي بين كل من العرب وإسرائيل، وبينهما معًا وبين استراتيجيات القوى الكبرى وخاصة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي خلال العقود الأولى من القرن القادم من خلال الدوائر المتقاطعة (الدائرة المتوسطية) و (الدائرة النفطية) و (الدائرة الشرق أوسطية) «^(٢)».

(١) التسوية في زمن العولة، للدكتور حسين معلوم (ص ١٣٢ - ١٤١)، مقتطفات.

(٢) المصدر نفسه (ص ١٥٨).

سوريا والعولمة:

ويحسن أن نعرض الوضع الاقتصادي في سورية مباشرة من وزير التخطيط السوري الدكتور عدنان الزعيم الذي يعرض الوضع الاقتصادي السوري ابتداءً، ثم يعرض تحديات هذا الاقتصاد من العولمة وذيولها في التطبيع مع اليهود والمصالحة مع إسرائيل.

أ - أكثر من نصف الشعب يعاني من فقر حقيقي:

لقد وجهت مجلة الأموال مجموعة من الأسئلة للوزير السوري من أهمها:

- ماذا عن السياسات المالية والقطاع المالي؟

- التطور الذي تم في القطاع النقدي اتصف بتوحيد أسعار الصرف عبر عملية تخفيض تدريجية متعددة المراحل في قيمة النقد السوري، ويمكن القول أن هذا التخفيض قارب نهايته في الميزانيات العامة الأخيرة (١٩٩٨ - ١٩٩٩ م) حيث بلغ صرف الدولار الواحد ٤٥ ل.س وهو قريب جداً مما نسّميه سعر السوق السوداء، ولكن هذه الخطوات دفعت أيضاً إلى تدهور القوة الشرائية لكل من يتقاضى راتبه بالعملة المحلية، وهناك ظاهرة أخرى هي أن الأجور تزداد سنوياً بنسبة ثابتة وهي ٩,٤٥ سنوياً ولكن هذه الزيادة لا تتناسب مع التضخم، وبالتالي فإن الهوة بين الأجور والأسعار تتسع منذ سنوات عديدة، وقد أدى هذا وذاك إلى تدهور القوة الشرائية، وانتشار ظاهرة الفقر، وانحدار الطبقة الوسطى إلى مستوى الفقر، وتقلص الطلب المحلي وبالتالي ضعفت فرص النجاح أمام الاستثمار الوطني، وحتى أصحاب الدخول العليا في الدولة أصابهم الضرر من جراء انخفاض قيمة النقد، وتآكل القوة الشرائية، فالتخفيض وصل إلى ٣٠٠٪ خلال ٢٠ سنة، وهناك حوالي مليون ونصف شخص يعملون في قطاع الدولة المدني أو العسكري، والغالبية الساحقة من هؤلاء يكفونها أجراً، وبالتالي نحن أمام مشكلة تواجه ٦ - ٧ مليون شخص..

وهذا يعني أن أكثر من نصف المجتمع يعاني من فقر حقيقي، ونحن نعلم أن رواتب العاملين في الدولة بشكل عام تكفيهم مدة تتراوح بين أسبوع إلى عشرة أيام، وبقية الشهر يفتقرون إلى ما يصرفونه، ومن هنا بدت ظاهرة الرشوة والفساد التي تميز واقع الاقتصاد السوري.

ب - تحدي العولمة:

ومن الأسئلة التي وجهتها المجلة للوزير:

- هل تعتقدون أن القطاع الخاص يستطيع بمفرده أن يتحمل عبء التنمية في هذه المرحلة؟

- لا يستطيع القطاع الخاص تحمل عبء التنمية بمفرده، لأن عبء التنمية أكبر من قدرته، فنحن في عصر العولمة حيث يواجه القطاع الخاص تحديات لم يسبق لها مثيل بالنسبة إليه، ففي عصر الحرب الباردة كان نشاط القطاع الخاص مركزاً بصفة هامشية على التصدير، وكانت التحديات الخارجية قليلة، أما الآن فلم يعد بإمكان هذا القطاع أن ينمو متجاهلاً تحرير التجارة، وبالتالي فالتحديات التي تواجهه لا تطاق، وهي تحديات تبدأ بسوق التصدير، وتشمل قبل ذلك السوق الوطنية فهو خاضع لتحديد داخلي وخارجي، ولهذا فهو يحتاج إلى الدولة.

لقد وقعنا في الماضي في خطأ لأننا اعتبرنا قطاع الأعمال الخاص ممثلاً للقطاع، والذي يشمل قطاعات طفيلية دورها في التنمية هامشي وسبى، وهذا الخلط أدى بنا إلى شطب البورجوازية جملة وتفصيلاً، الأمر الذي أضر كثيراً بعملية التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي^(١).

ولكن في ذات الوقت فإن الانتقال إلى الطرف الآخر أيضاً خاطئ، إن الاعتقاد بأن الاقتصاد الخاص يستطيع أن يقوم بعبء التنمية، وأن القطاع العام مرادف للفشل والفساد^(٢)، فالمسألة الأساسية هي مسألة سياسية، ومسألة رقابة اجتماعية على مختلف الأنشطة، فعندما تكون هناك محاسبة وهناك شفافية، فلن تصبح المسألة مسألة قطاع عام أو خاص.. صحيح أن القطاع الخاص السوري يملك تقاليد عميقة وراسخة ويتصف بنضج سياسي، ولكن هناك أيضاً عناصر من هذا القطاع حديثة العهد بالنشاط الاقتصادي، ولا تملك تجربة لا في الإدارة الاقتصادية ولا في التعامل مع الأحداث السياسية.. ونحن بحاجة إلى توليفة تضم القطاع العام والخاص وتشرف عليها الدولة^(٣).. وفي الحقيقة

(١) وفي هذا إدانة كاملة للاشتراكية العلمية التي تبناها الحزب اقتصادياً منذ نصف قرن.

(٢) هذا ما طرحه العولمة وتريد أن تجبر العالم الثالث عليه.

(٣) وهذا من أسس النظام الاقتصادي الإسلامي.

فإن التجارب الوحيدة التي نجحت في العالم بعد الحرب العالمية الثانية.. وحقت نتائج باهرة هي التجارب التي اعتمدت على أولوية الدولة والمزاوجة بين قطاع الدولة والقطاع الخاص.

ج - تحدي السلام وسوق الشرق أوسطية:

من أهم المسائل التي واجهت سورية مسألة السلام مع الكيان الصهيوني، والسؤال:

- كيف ينعكس السلام على الصعيد الاقتصادي؟ وما هي سبل مواجهة آثاره؟

- ... إن عملية السلام تتم في مناخ اقتصادي يتصف بتحرير التبادل، ويتجلى هذا التحرير أولاً في قمة الأرغواي وتأسيس منظمة التجارة العالمية، وانضمام عدد كبير من الدول العربية إلى هذه الاتفاقية^(١).

ولقد مُرِس ضغط كبير على سورية من أجل الانضمام إلى اتفاقية التجارة الحرة، وفي الوقت نفسه تواجه سورية تحديات تحرير التجارة في إطار السلام الإسرائيلي، فإقامة علاقات ثنائية مشتركة معناه تحرير التجارة والتبادل والتعاون الاقتصادي بين سورية وإسرائيل.

- كيف تنظر إلى مشروع الشرق أوسطية إذا تم توقيع اتفاق سلام بين سورية وإسرائيل؟

هذا المشروع يشكل أخطر التحديات التي تواجه سورية في مرحلة ما بعد السلام، وكما هو معروف فإن هذا المشروع ولد من أفكار شمعون بيريز، وتبنته جامعة هارفارد والإدارة الأمريكية وصاغته في برنامج وثيقة عرفت بـ «وثيقة هارفرد».

وتنص هذه الوثيقة على تشكيل مثلث استراتيجي (إسرائيلي، أردني، فلسطيني) حيث تدمج إسرائيل في اقتصادها العملاق الاقتصاد الفلسطيني الهش، والاقتصاد الأردني الضامر، وتصبح هي مركز الثقل بدون جدال في هذا المثلث، أي سوف يتحكم في مصير الوطن العربي شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وهذا المشروع سوف يضع سورية في موقف لا تُحسد عليه، ومعروف أن سورية قد رفضت الانضمام إلى هذا المشروع، كما رفضت أن تشترك في أي قمة من القمم الخمس التي عقدت من أجله، ولكن إذا

(١) وهي من أهم أدوات العولة.

وقعت سورية اتفاقيات السلام وقبلت التطبيع، فلن يكون لديها حجة لترفض الدخول في مشروع الشرق الأوسط، وبدخولها ستواجه تحدياً كبيراً يكمن في أن سورية بموقعها الجغرافي السياسي هي في موقع المواجهة المباشرة مع إسرائيل؛ لأنها القوة الوحيدة التي يمكن أن تواجه إسرائيل في هذه المنطقة، وسيكون الصراع على من يتحكم في قلب الوطن العربي عربياً، أم يصبح إسرائيلياً والمشروع ينص على تحويل الوطن العربي إلى منطقة شرق أوسطية، وتحويل القلب العربي إلى قلب إسرائيلي يبتلع الاقتصاديين الأردني والفلسطيني.

- فكيف يمكن لسوريا أن تواجه مثل هذا التحدي؟

يمكن لسوريا أن تكون البديل لإسرائيل بأن تندمج ليس فقط مع لبنان، وإنما أيضاً مع الأردن وفلسطين من أجل تشكيل نواة اقتصادية بديلاً عن الاقتصاد الإسرائيلي، وإذا تشكلت هذه النواة البديل فيمكن القول أن مشروع الوحدة العربية لم يمت، أما إذا لم تتمكن سورية من أن تقيم اندماجاً اقتصادياً مع الأردن ولبنان وفلسطين، وبالمقابل تكون إسرائيل قد نجحت في تحقيق مشروعها الشرق أوسطي الاقتصادي، في هذه الحالة سيكون من الصعب جداً الحديث عن أي اندماج عربي في المستقبل^(١).

د - أسوأ أزمة ركود اقتصادي:

وأظهر استطلاع للرأي أن الأسواق تعاني أسوأ أزمة ركود اقتصادي على الرغم من محاولات الحكومة إخراجها من التعثر وتحسين الوضع المعيشي للمواطنين، ويبيّن الاستطلاع الذي أعدته صحيفة تشرين الحكومية وشمل عينة مكونة من ١٠٠ شخص ما بين منتج وتاجر جملة وتاجر تجزئة، أن ٩٩٪ من المشاركين أجمعوا على أن الأسواق المحلية تعاني من أسوأ حالة ركود وتصريف للبضائع، وأوضح الاستطلاع أن القطاعين العام والخاص كانا متساويين تقريباً في درجة الضرر من الركود وفقاً لآراء ٧١٪ ممن شملهم الاستطلاع.. ووجه سؤالاً آخر إلى العينة عن أكثر الفئات تضرراً من هذا الركود وأجاب ٢٣٪ بأن المواطن كان هو الأكثر معاناة من الركود^(٢).

(١) الأموال، السنة الرابعة، يوليو، سبتمبر ٢٠٠٠ (ص ٥٦ - ٥٨)، العدد السادس عشر.

(٢) الزمان (٦/٧/٢٠٠١).

هـ - « عارف دليلة » الخبير الاقتصادي يشهد:

نشرت صحيفة الثورة الرسمية... دراسة على حلقتين للخبير الاقتصادي انتقد فيها بشدة السياسة الاقتصادية للحكومات السابقة، وكتب دليلة العميد السابق لكلية الاقتصاد في جامعة دمشق أن النتيجة المنطقية والحتمية لمثل هذه الإدارة الاقتصادية على جميع المستويات هي ما نراه اليوم على الأرض من توقف للتقدم الاقتصادي منذ عشرين عامًا، وأضاف: إن النتيجة كانت إعادة توزيع الدخل القومي من جيوب ٨٠٪ من السكان على ٢ إلى ٥٪ من السوريين الذين لا يحكمهم القانون، وتزايد معدلات البطالة بين الشباب والخريجين الذين يسعون إلى الاغتراب^(١)...

وأشار الكاتب إلى أن الزيادة الأخيرة للرواتب ستكلف الخزينة ٢ مليار ليرة سورية، ورغم إنكار الوزراء الاقتصاديين لأي زيادة أسعار لتغطيتها، فقد أصدرت زيادات سعرية تمثلت في زيادة سعر علبة التبغ خمس ليرات سورية، وهو أمر سينتج عنه زيادة دخل المهربين ١٠ مليارات ليرة مقابل مليارين فقط للخزينة.

وما زالت العولمة تمضي في ضغوطها على سوريا، لتستغل وضع الاقتصاد السوري السيئ وتسد كل الخيارات أمامه إلا طريقها التي تستنزف فيها ثروة البلد، وإذا كانت العولمة هي مجتمع الخمس مقابل الثمانين في المائة فهذا محقق في سورية منذ ثلاثين عامًا كما شهد بذلك دليلة (الذي سرحه رئيس الوزراء السوري السابق (محمود الزعبي) لجرائته في نقد السياسات الاقتصادية للدولة، وأعادته رئيس الوزراء الجديد ليستفيد من خبرته، والاقتصاد السوري يمضي في طريق معاكس للاشتراكية لينقض كل ذلك البناء الذي بناه في حوالي أربعين عامًا، حيث اكتشف خطأه، وبدأ يتراجع عنه بخطوات سريعة هائلة بإعادة دور القطاع الخاص، وإعطاء الحرية الاقتصادية كاملة.

الصهيونية والعولمة:

لقد رأينا جزءًا أساسيًا من دور الصهيونية في عملية التسوية، والسيطرة على اقتصاد الشرق الأوسط وخطورة هذه التسوية على العالم العربي والإسلامي، وإذا كانت أمريكا هي زعيمة العولمة وهي التي تريد أن تفرض ثقافتها على العالم من خلالها، فلا بد من

(١) وهذا هو ما تريده العولمة بالضبط.

الحديث عن الارتباط بين مبادئ الصهيونية ومبادئ العولمة من جهة، ومن ربط تأثير الصهيونية على الحكم والاقتصاد في أمريكا، ودورها في بناء العولمة من جهة ثانية.

أولاً: الالتقاء في المبادئ:

أ - إهمال الفقراء:

تصر العولمة على إلغاء جميع التزامات الدولة نحو الفقراء والمعوذين حتى تبقى حرية اقتصاد السوق بدون قيود، فيعتبر اليهود كل خارج عن مذهبهم غير إنسان، ولا يصح أن تستعمل معه الرأفة ويعتقدون أن غضب الله موجه إليه، وأنه لا يلزم اليهود شفقة عليه. وجاء في التلمود: إن مثل بني إسرائيل كمثل سيدة في منزلها يستحضر لها زوجها النقود، فتأخذها بدون أن تشترك معه في الشغل والتعب.

وذكر في التوراة: إن الله سلط اليهود على الأجانب فأخذ أموالهم وسلمها لليهود.

وقال الرابي (أبو): سلط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم.

ب - الربا هو الأساس الأكبر الذي تقوم عليه العولمة:

وهو أساس اقتصاد اليهود، يقول تعالى عنهم:

﴿... وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

ويقول جلّ وعلا: ﴿ وَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

ويقول جلّ شأنه: ﴿ فَيُظْلَمُ مَنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (١٦) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

ج - الهم الأكبر عندهم جمع المال وكنزه وتكديس الثروات، والحصول عليه: وذلك حتى لو كان من عرق الكادحين أو الاغتصاب أو الغش أو الربا أو الاحتكار، الحصول عليه في الباطل والتجارة فيه للاستثمار، ولا شيء منه في سبيل الله.

يقول جلّ شأنه: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ

الْأَناسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزُرُونَ ﴿٢٥﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

د - ولعل الصورة العملية للعولمة القديمة قد تمثلت بقارون الإسرائيلي:

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُتُبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦].

فملياردير يور العالم اليوم الذين يملكون كأفراد أكثر من ثروة نصف العالم هم تلاميذ هذه المدرسة القارونية، والتي لم تتحصل إلا بالبغي والظلم على الآخرين.

وعندما طوبى بحق الله فيه من خلال وظائف أربعة.

١ - ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴿١﴾﴾.

٢ - ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿٢﴾﴾.

٣ - ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٣﴾﴾.

٤ - ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٧٧].

كان جوابه الرفض الكامل لهذه الوظائف كلها، واعتبار المال حقاً شخصياً له، قال:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ وبذلك عد من المجرمين في الأرض ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٧٨].

وكان عاقبة الإجرام الخسف في الأرض ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ

يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

ثانياً: الالتحام الأمريكي الصهيوني الإستراتيجي:

- تناول الدكتور فؤاد نهران هذا الموضوع الحساس بقوله:

« وإن الدعم الأمريكي لإسرائيل ليس نتيجة حسابات إستراتيجية تسقط بعد اصطفاف

الدول العربية في المعسكر الأمريكي، وما هي مجرد أثر للضغوط المحلية على صانعي

القرار، إنما هي نتيجة لتماهٍ ثقافي وأيديولوجي للمجتمع السياسي الأمريكي مع إسرائيل كيأنًا ونهجًا وسياسة، وتعجبتُ حين تَكشَّفتُ لي الأبعاد الدينية البروتستانتية لدعم المشروع الصهيوني، ثم تطرقتُ لموضوع تعامل الفكر السياسي الغربي الأمريكي مع الوطن العربي والإسلام، ووجدتُ في نصوص الأكاديميين ذات الصلة بأهل القرار، نظرية إجمالية سلبية للغاية إلى الإسلام، وأذكر على سبيل المثال مدرستين في هذا الميدان الثقافي وانتقادهما لديننا ولحضارتنا، وأبرزهما طبقًا مدرسة صدام الحضارات التي مثلها صموئيل هنتنغتون، فلما طلب مني مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق في بيروت إنجاز كتاب في هذا الموضوع استرسلت إلى التمعن في هذا الموضوع واتضحَت هذه الأمور، وقبل دراسة آلية القرار الأمريكي أردتُ أن أتوقف عند المنطلقات الفكرية - السياسية، ثم تمعنا في مسألة تحديد المصالح الجوهرية المحددة للقرار السياسي الأمريكي والتي لا تتوقف عند قضية دعم إسرائيل والسيطرة على النفط، وإنما تذهب إلى حد فرض مشروع حضاري مناقض لهويتنا الإسلامية^(١).

أ - التيارات الثلاثة وخريطتان للعالم:

التيار الأول: وهو التيار الليبرالي الذي مثله فوكوياما بادئ الأمر الذي قضى باعتبار أن العالم الغربي الليبرالي انتصر، لكنه ما يزال يواجه تهديدات من الجنوب، وقد عرض أنتوني لاك المستشار السابق لمجلس الأمن القومي خريطتين:

- الأولى اقتصادية تحدد سبيل التوسع الديمقراطي في العالم المحرر من الشيوعية وفي دول العالم الثالث.

- الثانية سياسية تحدد طبيعة العدو، وهو الدول المرتدة والتي يجب على الولايات المتحدة احتواءها.

كما تم احتواء الاتحاد السوفيتي من قبل، مع أن حجمها أصغر بكثير، وغالبها يقع في العالم الإسلامي.

التيار الثاني: نشأ منذ نهاية الستينيات وبداية السبعينيات مع مورغنتاو وكيسنجر ووالتر، ويدعو هذا القرار إلى الفصل بين الأيديولوجيا والسياسة الخارجية، وبين أن العلاقات الدولية

قائمة على مصالح وليس على أيديولوجيات.. ولم يحتل هذا التيار موقعاً مسيطراً إلا في بداية السبعينات وزارات كيسنجر.

ب - التيار الثالث، وتمثل في مواقف صاموئيل هنتنجتن الشهيرة حول صراع الحضارات، ففي نصوصه يبين هذا الأخير أننا انتقلنا مع انهيار الكتلة السوفيتية من صراع غلب عليه الطابع الأيديولوجي والليبرالية ضد الشيوعية - إلى صراع يطغى عليه الطابع الحضاري، أطلق هنتنجتن مقولته الشهيرة: الغرب يواجه بقية العالم، ثم أخذ تدريجياً يثبت أن التهديد الأساسي للحضارة الغربية ينبع من التحالف الإسلامي - الصيني، ويدعي أن العالم الإسلامي هو الأشد عدوانية وعداوة.

ج - التيارات الثلاثة تلتقي على الحضارة الغربية وإسرائيل:

ثم إن العلاقة بين التيارات الثلاثة ليست علاقة تنافر.. فالليبراليون الذين يتكلمون عن الديمقراطية ويضغطون بشتى الوسائل على الدول العربية باسمها، يعتبرون إسرائيل مثلاً يُقتدى به، وهي نظرة تكفي بإسقاط نمط نظم للسلطة والمجتمع، وتتغاضى عن الحقوق السياسية والوطنية لمجتمع بكامله تم طرده واضطهاده، وهم بذلك يسقطون نماذجهم الثقافية على مجتمعاتنا، ومن جهة ثانية يكشفون عن نهج انتقائي في المطالبة بالديمقراطية والتي لا توجه إلا للضغط على الطرف الآخر.

إن الولايات المتحدة التي أصبحت مهيمنة تنزع إلى فرض نظرتها السياسية ونموذجها الثقافي في المنطقة وتضغط على الدول العربية والإسلامية حتى تتمثل بالقيم التي يفرضها الكونغرس حالياً، ونذكر مثل قانون التحرر من الاضطهاد الديني الذي اعتمده هذا الأخير عام (١٩٩٧ م) والذي يقضي بفرض العقوبات على كل دولة لا تقيم بما في وسعها لمنح كافة حقوقها للأقليات الدينية، ونعلم أنه قانون سيطبق بصورة انتقائية، وأن الدول الإسلامية هي أول من يستهدف من جرائمها، وذلك جهلاً بطبيعة الإسلام الذي يدعو إلى التسامح وإلى احترام التعددية الدينية.

تم تطبيق هذا القانون فوراً على السودان، ولوّح النواب والشيوخ إلى إمكانية استخدامه بحق دول عربية أخرى، وهذا القانون يطلق يد المبشرين الأمريكيين - أي النصارى البروتستانت المتصهينين داخل العالم الإسلامي، ونذكر أن هؤلاء اصطدموا بالجماعات المسيحية العربية المتأصلة في مصر، ونذكر أن المشروع الإستراتيجي -

الشرق أوسطى، الذي تدعو إليه الولايات المتحدة كأثر مباشر لعملية السلام يهدف إلى محورة الاقتصاديات العربية حول مركزين هما إسرائيل كمركز أول وتركيا كمحور ثانٍ، لكن الصراع ليس بين الإسلام والغرب، لأن هذا المفهوم الأخير يبقى غامضاً، لقد كشفت وزملاء لي أمثال سيرج لاتوش في كتاب آخر بعنوان «نقل العقل الاقتصادي» باريس (١٩٩٩م)، أن النموذج المسيطر عالمياً والذي يُسمى بالنموذج التغريبي ليس بالضرورة نمط عيش مجتمع ما، وإنما هو نموذج كوني ركيزته سيطرة الثقافة المادية الاقتصادية في نزعها إلى هضم أو محو الرموز الثقافية المتناقضة»^(١).

ج - إدارة كليتون الأكثر يهودية في القرن العشرين:

ولعل السنوات الثماني التي مرت من تاريخ أمريكا تمثل هذا الالتحام الكامل بين أمريكا وإسرائيل، وتمثل بالتالي خطط العولمة لتسيطر على العالم طالما أنها إنتاج أمريكي.

فلم يكد كليتون يضع اللمسات النهائية لاختيار إدارته الأولى حتى ذهل العالم؛ بل اليهود أنفسهم من العدد الكبير الذي وصل إلى مناصب حساسة وهامة جداً في تعيينات كليتون، وهذا ما دعا أحد الصحفيين الإسرائيليين ليعلن: إن إدارة كليتون هي أكثر الإدارات يهودية في تاريخ الولايات المتحدة، وأنه لم يبق أمام كليتون إلا أن يعلن عن ضم إسرائيل لتكون الولاية الـ ٥١ من الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا دخلت السياسة الخارجية للولايات المتحدة مطبخ الحاخامات اليهود وامتلاً البيت الأبيض بالشخصيات اليهودية.. ومن هذه الشخصيات:

١ - سام لويس: تم تعيينه رئيساً لجناح التخطيط السياسي، له شبكة علاقات مميزة مع إسرائيل، وصديق شخصي لشارون.

٢ - دينس روس: شغل منصب المنسق الأمريكي في المفاوضات التي جرت بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل.

٣ - مارتن أنديك: من يهود أستراليا، وصفته إسرائيل بأنه ترعرع في لجنة العمل

(١) مقابلة مع الدكتور فؤاد نهرا، مدرس الفلسفة والعلوم الاجتماعية بجامعة ليل بفرنسا، وباحث في مركز الدراسات الدبلوماسية والإستراتيجية، وضع عدداً من المؤلفات منها «الشرق الأوسط الجديد في الفكر السياسي الأمريكي» الذي صدر مؤخراً، وقد أجرت مجلة المعرفة السعودية هذه المقابلة واستعرضت أهم محتويات الكتاب، العدد (٦٦)، (رمضان ١٤٢١هـ - ديسمبر ٢٠٠٠م)، (ص ٦٣ - ٦٧٨)، مقتطفات.

السياسي الإسرائيلي الأمريكي، عين مسؤولاً عن الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي، ثم سفيراً في إسرائيل.

٤ - ستوارت ابنشتات: عين مساعد وزير لشؤون المساعدات السياسية العسكرية، وهو منصب جديد.

٥ - برومنور لونس سامرس: اقتصادي يهودي، عين مساعداً لوزير المالية للعلاقات الاقتصادية، كان يعمل في البنك العالمي.

٦ - ريتشارد سيفستر: مسؤول حقوق الإنسان في الكونغرس، وكان مستشاراً لدى جماعة الضغط اليهودية.

٧ - وارن كريستوفر: وزير الخارجية الأول الذي قال عنه كليتون: وجدت عوناً كبيراً في معلوماته وخبراته.

٨ - مادلين أولبرايت: وزيرة الخارجية الأمريكية، وهي تعلن فرحتها بأنها اكتشفت أنها يهودية، وكان يوم ميلاد إسرائيل أسعد أيامها.

د - القوائم اليهودية:

(ويدهش المراقب حين يقرأ هذه القوائم اليهودية للمتنفذين في الإدارة الأمريكية من مسؤولين كبار في الوزارات السيادية، ومنها الخارجية والدفاع والخزانة والأمن القومي، وكذلك السلك الدبلوماسي والأسواق المالية والإعلام والسينما بالإضافة إلى الجريمة. فهناك ٦٤ مسؤولاً كبيراً في الإدارة الأمريكية، وعلى رأسهم مادلين أولبرايت (الخارجية)، ووليام كوهين (الدفاع)، وروبرت روبين (الخزانة)، بالإضافة إلى (السي آي إي) التي يرأسها صموئيل بيرغر وغيرهم، كما أن هناك ٢٣ سفيراً أمريكياً من اليهود في مختلف دول العالم، و ٣٦ عضواً في مجلس الكونجرس، هذا عدا مئات بل آلاف الموظفين الصغار في الإدارات المختلفة، وهناك عشرات المديرين التنفيذيين من اليهود في أسواق المال الأمريكية، وكذلك الإعلام من صحف وقنوات تلفزيونية، كما أن اليهود يتزعمون مافيا الجريمة المنظمة في المجتمع الأمريكي، وهم يتفوقون في هذا المجال على المافيا الإيطالية.

ولا ننسى ونحن نستعرض هذه القوائم أن معظم المسؤولين اليهود أيّاً كانت مواقعهم يدينون بالولاء أولاً للكيان العنصري الصهيوني في فلسطين المحتلة، وهم يؤثرون

(إسرائيل) على البلد الذي يستضيفهم، ويضربون بعرض الحائط بمصالحة الكثيرة في الوطن العربي).

ونترك قائمة اليهود المسيطرين على وسائل الإعلام في الولايات المتحدة، لنستعرض قائمة اليهود المسيطرين على الاقتصاد في الولايات المتحدة، وعلى الأسواق المالية فيها لعلاقتها الوثيقة بالعولمة.

(عائلة الفرد أوش، هيلمان سيلجمان، عائلة جولدمان، عائلة ساش، عائلة واريبرج، عائلة شيف، عائلة لويب، عائلة أوش (بولاية تينيسي)، ألفرد هو جرموسيس (يهودي جنوبي)، أدولف لويسون، جون لويب، عائلة ستون، عائلة هاميل، عائلة هنتز، سيدني جيمس وانبرج، فرانك اتشول، السير آرثر ليفت، أ. و. هابر، جيسليمان، أولمان رويبرت، عائلة بيرهارد، عائلة فيليس، عائلة الفلهارد ومارجريت ريان (ابنة اوتوخان) لي رادز بويل).

يسمى الجيل اليهودي الأحدث في أوروبا الشرقية باسم الزمرة الجديدة، وهؤلاء هاجروا إلى الولايات المتحدة في أوائل القرن العشرين ثم عقب الحرب العالمية الثانية ثم بعد انهيار الكتلة السوفيتية، ولم يرد ذكر لهؤلاء اليهود في الكتاب المذكور، الزمرة الجديدة، على الرغم من أنهم ينحدرون من نفس الزمرة وهم:

[تشارلز بلودورن (غلف أندويسترن)، سانفور دوايل (أمريكيان اكسبريس، ترافلرز جروب، شيرسون ليتمان) بيتر كوهين، آرم آند هامر (قطب صناعة صودا الخبز)، فليكس روهاتين (قواد وسمسار سياسي واقتصادي)، آلان كرينبورج، ايراهاريس (سفاحة وول ستريت)، اندرماير (يهودي فرنسي) مارتين ليتون، جيمس ولفترو يهودي أسترالي (أحد تجار البنوك في لندن)، إدموند سافرا (يهودي لبناني يعمل في مجال البنوك)، برنارد باروخ (أحد ذئاب بورصة وول ستريت)، صموئيل برونجمان (إمبراطورية سيجرامز)، البارون هاري أوبنهايمر (ماسات جنوب إفريقيا)، اريفنج شايبرو (مسؤول سابق في السياسة الصناعية بمجموعة ديونت)^(١)، وعشرات ومئات أمثالهم يمثلون الشركات الكبرى التي تتحكم في مصير العالم، وعلى رأسهم روكفلر وإدوارد دي روتشيلد وبيل جيتس وجورج سوروس، الذين يمثلون السرطان اليهودي المتغلغل في شرايين الحياة الأمريكية.

ماليزيا والعولمة:

ونعرض هنا رأي خبير قاد نهضة بلاده الاقتصادية على مستوى عالمي، ونحب أن نعيد هنا ابتداءً ما قيل عن ماليزيا في كتاب «فخ العولمة» لنتبين خبرة الرجل في هذا الموضوع فهو رجل ماليزيا الاقتصادية الحديثة (لقد خرجت ماليزيا منذ أمد ليس بالقصير من قائمة البلدان النامية فمنذ عام ١٩٧٠م) ينمو الاقتصاد الوطني سنوياً بمعدلات تتراوح في المتوسط بين ٧ و ٨٪، أما الإنتاج الصناعي فإنه ينمو بمعدل يزيد على ١٠٪، وبدلاً من ٥٪ يعمل اليوم ٢٥٪ من السكان في سن العمل في القطاع الصناعي الذي صار يخلق ثلث الناتج الإجمالي، وتضاعفت حصة الفرد الواحد من الدخل القومي في الفترة الواقعة بين عام (١٩٨٧) وعام (١٩٩٥م) فوصلت لدى هذا الشعب البالغ تعداده عشرين مليوناً أربعة آلاف دولار في العام، وإذا سارت الأمور على ما ترتبه الخطط الحكومية فسترتفع هذه الحصة حتى عام (٢٠٢٠م) إلى خمسة أضعاف أي أنها ستصل إلى المستوى السائد في الولايات المتحدة الأمريكية^(١).

وهي على رأس النمر^(٢) الآسيوية، ولـ (محاضير وجهة نظر تجاه الغرب تستحق الاهتمام وقد أثارت عليه غضب العالم إلا أنه لا يزال متشبهاً برأيه، مؤخراً عبّر محاضير عن تلك السياسة في خطابه لدى افتتاح الدورة السابعة والعشرين لمجلس وزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامي في العاصمة الماليزية يوم (السابع والعشرين من يونيو ٢٠٠٠م) نورد فيما يلي ترجمة^(٣) لمعظم فقرات الخطاب^(٤).

أ - مؤتمر الإسلام والعولمة:

لقد اختير شعار المؤتمر ليكون «الإسلام والعولمة»، وهو اختيار في وقته حيث كانت الدول الإسلامية تستعد في منظمة المؤتمر الإسلامي والمسلمين عامة لمواجهة تحديات العولمة في المرحلة القادمة.

(١) فخ العولمة (ص ٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) وإن كانت قد تعرضت لأزمة عفيفة منذ سنوات كان يمكن أن تحطم اقتصادها لكنها استطاعت أن تتجاوز هذه المحنة ضد اليهودي سايروس لص المصارف العالمية.

(٣) قام بالترجمة: صهيب جاسم.

(٤) من مقدمة مجلة المجتمع الكويتية العدد (١٤٠٩)، (ربيع الآخر ١٤٢١هـ، ١٨/٧/٢٠٠٠م).

اسمحوا لي أن أتحدث قليلاً عن العولمة في كلمات وهي المفهوم والظاهرة التي أصبحنا نعيش معها والتي كانت مألوفاً لسوء الحظ قد جربتها في الفترة الماضية ووجدتها لم تشكل لإغناء دول العالم أجمع ومنهم الدول النامية مثلنا، لقد كنا على وشك أن نعلن إفلاسنا الكامل بسبب نظام العالم المعولم، وكدنا نتحول إلى متسولين وعالة على غيرنا، وأن نقع تحت وطأة أوامر القوى الكبرى التي تختلف أجندتهم وأهدافهم عنا، وبالطبع فهي أهداف ليست إسلامية.

ب - أهمية دراسة التاريخ الإسلامي:

ولكن قبل أن نتحدث عن العولمة بشكل خاص دعوني أقول: إننا قبل أن نستعد لتحديات المستقبل لا بد أن نقف وقفة محاسبة لحاضرنا ودراسة لماضيها، وإنني على يقين أننا لو فعلنا ذلك لاستطعنا تفادي الأخطاء التي وقعنا فيها في الماضي، واستطعنا التعامل مع أخطار المستقبل بمهارة أكبر، فالتاريخ يثبت لنا مراراً أنه يعيد نفسه وأن الأخطاء التي نرتكبها عبر العصور متشابهة، وكنتيجة لذلك نستمر نحن في دفعنا ثمن ذلك ولكن يبدو أننا لا نتعلم أبداً.

عندما جاء الإسلام كان العرب منقسمين على أنفسهم، وكانوا يوالون قبائلهم باستماتة وبسبب ذلك لم يعيشوا حياة هدوء وسلام، وبقوا منقسمين من أكثر الشعوب تخلفاً، لكن الإسلام وحّدهم وأوقف حروبهم القبلية التي لم تنته سابقاً، وأصبحوا بعد ذلك أقوى شعوب الأرض فنشروا الإسلام من الصين وحتى إسبانيا، ومن أقاصي آسيا الوسطى وحتى أفريقية وآسيا التي وطئت أقدامها غاباتها الاستوائية الكثيفة، وفي تلك الفترات شُيّدت إمبراطورية عظيمة وبُنيت حضارة إسلامية، وابتاعهم لتعاليم الإسلام الذي أمرهم بتقصي العلم والعمل على تحصيله تعلم المسلمون الأوائل العلوم والرياضيات وفنون الحضارات التي سبقتهم وطوروها ووسعوها حتى أصبحت الحضارة الإسلامية أكبر الحضارات وأقواها وأكثرها علماً ومعرفة وتقدماً.

وفي البلدان الإسلامية بدأ ظهور الصناعات التي أنتجت أفضل ما أنتجته البشرية حتى ذلك الوقت من جديد وغير ذلك من المعادن والمواد الخام التي استخرجوها، وشيّد المسلمون السفن التي أبحرت إلى أقاصي العالم وبلاد البعيدة، وانطلقوا للتجارة والسكن فيها ونشر الهدى، أما قوافل الجمال والخيول والحمير فقد وصلت بين مدن

في الصين وأخرى في أوروبا، وقدمت بحوث المسلمين في الطب إياهم على غيرهم ممن بحث في هذا العلم وكان لهم الفضل في إرساء قواعد الطب الحديث، وبنيت مدن عظيمة تحتضن في جنباتها مكتبات ضخمة وجامعات مرموقة، وتدريب المسلمون على فنون حرب جديدة فهزموا جحافل جيوش أوروبا المثقلة بالسلاح والعتاد وحموا المسلمين ومجتمعاتهم أينما كانوا.

لقد كانت الدولة الإسلامية قوة عالمية، وكان المسلمون يعاملون باحترام في كل مكان، وبقيت الحضارة الإسلامية التي بناها المسلمون لقرون عديدة، وكان الأعظم في التاريخ البشري وستظل كذلك إلى الأبد، ومن الواضح أن الإسلام سيعود ليكون الدين السائد في العالم، ولقد اعتنقه الكثيرون من النصارى الإسبان والصينيين البوذيين، ويبدو أن غيرهم كثير ممن سيخطو تلك الخطى، وتراجع المسلمون عندما تركوا دينهم.

لكن عملية أسلمة الحياة الإنسانية بدأت بالتراجع والتباطؤ؛ لأن المسلمين بدأوا يرجعون إلى سلوكياتهم الجاهلية التي كانت قبل الإسلام، فلقد بدؤوا الصراع والتحارب فيما بينهم وبرز الاختلاف بينهم، وظهرت الدويلات والممالك الصغيرة رافضين ولاءهم للإسلام، ومقدمين على ذلك الولاء للحكام المحليين والحكومات وانشغلوا باختلافات حول تفسيرات وتطبيقات الأحكام الإسلامية، وتشاحنوا حول من هو المصيب في تطبيقه للإسلام ومن المخطئ، وكل طرف منهم حاول أن يهزم الآخر في تعصبه الديني، ورفض بعضهم سلوك طريق علم غير العلوم المتعلقة بالدين الإسلامي، وفشلوا في متابعة التغيرات التي حصلت في أوروبا والنقلات التي حدثت فيها بفعل العلوم والمعارف التي أخذها الأوروبيون من المسلمين، وهي تغيرات مهّدت للثورة الصناعية لاحقاً.

ولذلك عندما جاءت الثورة الصناعية وبدأ عصر جديد لم يسهموا فيها بشكل واضح، بل إنهم رفضوها بوصفها من فعل الباطل وتراجعت المصانع الإسلامية، ولم تعد صناعاتهم اليدوية مثل صناعة النسيج تقدر أن تنافس صناعات أوروبا، وكان الأمر المؤسف أن يواجه المسلمون الحاجة لاستخدام صناعات أوروبا الغربية بعد ذلك، وبالتأكيد احتاجوا أن يستوردوا أسلحة صنعت في الغرب، لقد أمر القرآن المسلمين أن يحاربوا ويخيفوا أعداءهم بقوة حربية وأسلحة للدفاع عن أنفسهم وأن يكونوا مستعدين لذلك، وبسبب الانشغال بالخلافات في تطبيق القوانين وفقه السلوكيات أهمل المسلمون استعداداتهم

الدفاعية تمامًا، ولا يستطيع أحد الدفاع عن نفسه بحق لو ظل يحتاج لشراء السلاح من الأعداء، وبمضي الوقت ضعفت القوة العسكرية الإسلامية وجيوشهم وسقطت أوطانهم بيد غير المسلمين أرضًا تلو أرض...

ج - الدروس المستفادة:

إن الدروس التي يجب أن نتعلمها من تاريخ الشعوب المسلمة والإمبراطورية الإسلامية كثيرة ومنها.

١ - لزوم الأخوة الإسلامية التي أمرنا الإسلام بها والتي من دونها لن نحيا وننجح في معيشتنا.

بالتأكيد هناك حاجة للقراءة التي أمرتنا بها أول آية أنزلت على محمد ﷺ، حاجة للتعلم وتحصيل المعرفة، ونحن نعرف كيف طلب المسلمون الأوائل العلم، وحتى ما كُتب في الحضارة الإغريقية وغيرها من الكتابات في العصور التي سبقتهم.

٢ - ولأنهم اتبعوا تعاليم المسلمين فإن المسلمين الأوائل تعلموا فنون الحرب، وفنون السلام والحياة، ونجحوا في نشر الإسلام وكسب مؤمنين ومناطق جديدة.

وفيما يتعلق بتحصيل العلم فنحن بالتأكيد متأخرون عن بقية دول العالم، والمعرفة في غير العلوم الإسلامية متقدمة من قبل المسلمين الذين يعتبرونها علومًا علمانية ويدعوننا لرفضها، ولكن بعضًا من المسلمين هاجر إلى خارج العالم الإسلامي ليطلب العلم، وكنيجة لذلك يستفيد غيرنا من الفنون والعلوم التي نماها وتعلمها أهل بلداننا؛ ولهذا السبب لا يمكن أن نطور بلادنا، ولا يمكننا حتى منافسة الدول التي تطورت حديثًا، وحتى في استخراجنا لما عندنا من ثروات طبيعية ومعادن إذا اعتمدنا على غيرنا.

- عصر المعلومات: واليوم تفتح الثورة الصناعية الباب لعصر المعلومات ليبدأ، ويرى غير المسلمين من التقنيات الجديدة فرصًا هم مشغولون باستغلالها، وتتضاعف قوة سيادتهم وانفرادهم الصناعي مرات عديدة بسيطرتهم على تطبيقات المعلومات، لقد أبدعوا فكرة العالم بدون حدود، ودولة وحكومة العالم، وعملت ماكينات دعايتهم وإعلامهم على ترويج هذه الفكرة، وضمان انتشارها في دول العالم، وجعلها مقبولة لدى الجميع، وغرس فكرة أننا لو لم نقبل ذلك فسنبقى جزءًا من الماضي متأخرين ومتمردين، ولذلك فنحن المسلمين مجبرون على أن ننضم للجوقة، ولنحن لتمجيد الدولة.

ولكننا هل نعرف حقًا ما الذي نقبله ونعي ذلك؟ إننا نعرف بعض الشيء، ولكننا بالتأكيد لا نعرف ذلك بشكل كامل.

د - ماليزيا والعولمة:

بتواضع أود أن أقول: إن ماليزيا تعرف أكثر من أغلبية الدول الإسلامية الأخرى بقليل، ولكن ما نعرفه، وما جربناه، جعلنا نحذر من الوعود العظيمة والمغرية التي يتنادى بها أدياء العولمة.

إنني أشك في قدرتنا على أن نكسب العلمية، ولكن معرفة الفكرة والمفهوم وما يمكن أن تفعل لنا وما فعلت لنا جعلنا نحذر، ونعد أنفسنا للتحديات التي ستأتي باسم العولمة.

وكما قلت فإن ماليزيا كانت لها تجارب مرّة مع العالم الذي بلا حدود، فبتعويم عملتنا فقط يمكن أن نعيش في فقر مدقع مما يجعلنا نتفاوض ونتنازل عن استقلالنا، الكثيرون ظنوا أننا نحن المسلمين - في هذا البلد وفي مواجهة هذا التحدي كنا سنغلق أبوابنا عن أنفسنا، لكن الكثيرين من المسلمين في ماليزيا مشغولون بالوعي لتقدير خطورة الوضع، لأننا استطعنا أن نفشل محاولة استعمارنا نحن الماليزيين، استطعنا أن نخلص أنفسنا هذه المرة، وذلك جعل شعبنا أكثر رضا عن نفسه، وفي الواقع أقل تقديرًا لحظهم الجيد، ولذلك بقينا منقسمين وقد نستمر باتجاه الضعف، والقصة قديمة لخلافات المسلمين، والاهتمام بالفروق الصغيرة في تطبيقات الإسلام ستظل تعيقنا عن محاولة إنجاز الأمور الحسنة في الدنيا.

الإنترنت:

إن أكثر التغيرات المهمة التي جاء بها عصر المعلومات وتقنياته هي الإنترنت، فقد أصبح فجأة فعل أشياء بطرق مختلفة وجديدة أمرًا ممكنًا، وأصبح من غير الممكن إيقاف انتشار المعلومات، لكن المعلومات ليست دائمًا بهدف المعرفة ولكنها أيضًا لنشر الفحش والقذارة والكذب، ينشرها أناس يريدون تدمير تنمية ونهوض المجتمعات الإنسانية بما في ذلك الأمة المسلمة.

إنكم ستفاجؤون عندما تعرفون أن ٥٠٪ من التعاملات المالية عبر الإنترنت في مجال المنتجات الإباحية، وبينما نحن المسلمين نغطي عوراتنا بكل طاعة واتباع لدينا فإننا

نجبر على استعراض أفحش الصور والأفلام على الإنترنت، وتهدد أخلاقنا وأخلاق أطفالنا والأجيال المقبلة حتى يصبح اعتناقنا الإسلام بلا معنى، ولا نعلم التقنيات والأساليب التي نواجه بها ذلك، ولأن الجميع يتوقع أن تفتح الأسواق العالمية بإشراف منظمة التجارة الدولية، تتكثل الدول الصناعية والبنوك والمصانع، وبعمليات الاندماج والتمليك أصبحت الشركات والكتل ضخمة جداً لدرجة أن دولاً بأكملها لا تُقارن إلا بقسم من أقسام هذه الشركات، إنهم سيقدرّون على ابتلاع أي بنك أو مصانع أو تجارات نملكها، وفي النهاية سنصبح مثل جمهوريات الموز التي يعد فيها مالكو المزارع أقوى من رؤساء تلك الدول.

نقد العولمة:

وهذا النقد هو بلسان عالمين من كبار علماء الاقتصاد في هذا العصر، حيث ألفا كتابهما « فخ العولمة - الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية »، وقد بلغ من إقبال الناس عليه أن طُبع تسع مرات في سنة واحدة، وهذان العالمان هما (هانس بيتر مارتين) و (هارالد شومان)؛ حيث وضعوا العولمة على المشرحة بعيداً عن التزيين والتهويل، وقام بترجمة الكتاب د. عدنان عباس علي، وقدم له الأستاذ الدكتور رمزي زكي^(١).

وقد أحسن الدكتور رمزي زكي حيث عرض ملخص الكتاب في مقدمة، نحاول أن نعرض هذا الملخص مع الاستشهاد من نصوصهما داخل الكتاب...

« فالمؤلفان قد طرحا مجموعة من الطروحات المهمة التي تستحق التأمل والتفكير لفهم قضية العولمة من منظور يختلف عن المنظور الزائف الذي غالباً ما طرحه علينا وسائل الإعلام المختلفة.

وأول هذه الطروحات هو أن العولمة من خلال السياسات الليبرالية الحديثة التي تعتمد عليها إنما ترسم لنا صورة المستقبل بالعودة للماضي السحيق للرأسمالية، فبعد قرن طغت فيه الأفكار الاشتراكية والديمقراطية ومبادئ العدالة الاجتماعية، تلوح لنا الآن في الأفق حركة مضادة تقتلع كل ما حققته الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من مكتسبات،

(١) وقام المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت بطبعه في سلسلة عالم المعرفة رقم (٢٣٨) جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ، أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٨ م).

وليس زيادة البطالة، وانخفاض الأجور، وتدهور مستويات المعيشة، وتقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة، وإطلاق آليات السوق، وابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي، وحصر دورها في حراسة النظام، وتفاقم التفاوت في توزيع الدخل والثروة بين المواطنين، وهي الأمور التي ترسم الآن ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية في غالبية دول العالم، كل هذه الأمور ليست في الحقيقة إلا عودة لنفس الأوضاع التي ميزت البدايات الأولى للنظام الرأسمالي (١٧٥٠ - ١٨٥٠)، وهي أمور تزداد سوءاً مع السرعة التي تتحرك بها عجلات العولمة المستندة إلى الليبرالية الحديثة»^(١).

الفصل الأول: مجتمع الخمس الثري:

« ويختزل البرجماتيون المستقبل إلى العديدين ٢٠ إلى ٨٠ فحسب ما يقولون فإن ٢٠٪ من السكان العاملين ستكون في القرن القادم للحفاظ على نشاط الاقتصاد الدولي، فخمس قوة العمل سيكون إنتاج جميع السلع، ولسد حاجات الخدمات التي يحتاج إليها المجتمع العالمي، إن هذه الـ ٢٠٪ هي التي ستعمل وتكسب المال وتستهلك، فماذا عن الآخرين؟ ماذا عن الثمانين بالمائة العاطلين وإن كانوا يرغبون في العمل؟

إن المسألة ستكون في المستقبل هي: إما أن تأكل أو تؤكل، لقد كان الأوروبيون يخافون في الثمانينيات من أن يكون مجتمع الثلثين الأثرياء هو الذي يقرر توزيع الثروة والمكانة الاجتماعية على الثلث الفقراء!!

أما الآن فسيحددها مستقبل (العولمة) النموذج العالمي الجديد القائم على صيغة ٢٠٪ يعملون و ٨٠٪ عاطلون عن العمل، لقد لاح في الأفق حسب رأيهم مجتمع الخمس، ويتعين في ظله تهدئة خواطر العاطلين عن العمل.

فليس هناك مكان يبدو فيه التدهور بيناً للعيان كما هو بين في الموطن الأصلي للثورة الرأسمالية المضادة الولايات المتحدة الأمريكية، فالجريمة اتخذت أبعاداً هناك بحيث صارت وباءً واسعاً للانتشار، ففي ولاية كاليفورنيا - التي تحتل وحدها المرتبة السابعة في قائمة القوى الاقتصادية العالمية - فإن الإنفاق على السجناء يعادل المجموع الكلي لميزانية التعليم، وهناك ٢٨ مليون مواطن أمريكي أي ما يزيد عن عشر السكان قد حصنوا

(١) فخ العولمة، المقدمة، للدكتور رمزي زكي (٩/٨).

أنفسهم في أبنية وأحياء سكنية محروسة، فليس بالأمر الغريب أن ينفق المواطنون الأمريكيون على حراسهم المسلحين ضعف ما تنفق الدولة على الشرطة، لكن أوروبا واليابان وكذلك الصين والهند هي الأخرى تفتت إلى قلة قليلة من الراحين وأغلبية ساحقة من الخاسرين، وإذا ما ظلت الحكومات تتحجج في كل المسائل المستقبلية الجوهرية بما يميله عليها الاقتصاد المعولم من مواقف لا قدرة لها على التحكم بها فعندئذ تصبح السياسة برمتها مسرحاً يضم حشداً من رجال مسلوبى الإرادة، وتفقد الدولة الديمقراطية شرعيتها، وتصبح العولمة مصيدة للديمقراطية»^(١).

الفصل الثاني: كل شيء موجود في كل مكان، ضغوط العولمة والانهيال المعولم:

سيغدو العالم واحداً، وفي البداية كان هناك تخيل لمعمورة واحدة..

«إن سبب نجاح استعمار - والت ديزني - للثقافة العالمية يكمن حسب ما يعتقد - باربير - في ظاهرة قديمة قدم الحضارة، إنها المنافسة بين الشاق والسهل بين البطيء والسريع، بين المعقد والمبسط، فكل أول من هذه الأزواج يرتبط بنتاج ثقافي يدعو للإعجاب والإكبار، أما كل ثانٍ من هذه الأزواج فإنه يتلاءم مع لهونا وتعبنا وخمولنا، إن ديزني وماكدونالدز تروّج لما هو سهل وسريع وبسيط»^(٢).

إن الشمس لا تغيب عن إمبراطوريات شركات الإعلام العظيمة، وتقدم هوليوود بصفتها المركز العالمي أهم مادة أولية لمادية العصر المتأخرة، ويسيطر في المنطقة الواقعة بين الخليج العربي وكوريا الأسترالي (روبرت موردوخ) فمحطة إرساله بواسطة الأقمار الصناعية (ستار ت. ف) تغطي من حيث التوقيت الزمني أربع مناطق مختلفة يسكنها نصف سكان المعمورة.

إن ثمة جهوداً خارقة تُبذل لكي يتخذ العالم صورة واحدة، ولا ريب أن المحصلة النهائية لمثل هذا التطور ستكون في المجال الثقافي سيادة الصراخ والزعيق الأمريكي بمفرده في العالم أجمع، لقد ازداد الطلب على السيل الهائل من السلع التي يجري الإعلان عنها والدعاية لها على مستوى دولي، بحيث بدا كما لو أن محرثاً يجوب المعمورة ويقلبها ويقلب المراكز التجارية في مدنها رأساً على عقب، وكما يقول الناقد

(١) فخ العولمة، الفصل الأول (ص ٢٥ - ٣٩)، مقتطفات.

(٢) الفصل الثاني (ص ٤٦) .

الاجتماعي - إيفان إيليش - ساخرًا: فقد « صار العطش يرتبط على نحو مباشر بالحاجة إلى الكوكا كولا ».

وننتقل إلى عصر المدن:

فلم تعد باريس ولندن ونيويورك هي مدن الخوارق والمعجزات، فمنذ (مارس ١٩٩٦م) صارت العاصمة الماليزية كوالالمبور هي المدينة التي يتربع على كتفيها أعلى ناطحة سحاب في العالم، فهناك بين الباكستان واليابان اثنتا عشرة منطقة تتحرك بإلحاح لتكون القوى الجديد على مسرح المنافسة العالمي، فـ « بانكوك » تريد أن تحل محل « ديترويت » كمدينة لصناعة السيارات، وترى « تاييه » نفسها وريثًا لوادي السيليكون لا سيما أن « تايوان » أخذت مكان الصدارة العالمية في إنتاج التلفزيون وأجهزة الكمبيوتر، وتتطلع شانغهاي على وجه الخصوص لتكون المركز الاقتصادي الأول في قائمة مدن آسيا، وكما يقول يانغ تساهو: إننا نريد أن نكون في عام (٢٠١٠م) المركز العالمي الأول في مجال التجارة والمال في المنطقة الغربية من المحيط الهادي، وهذا يقود إلى تصدع العالم الواحد، فالجزء الأعظم من العالم يتحول « خلافًا لتلك الجزر (الصناعية) إلى عالم بؤس وفاقه، عالم غني ببضع مدن كبرى أيضًا ويسكنها مليارات من البشر لا يسدون رمقهم إلا بالكاد، إن ٣٥٨ مليارديرا يمتلكون معًا ثروة تضاهي ما يملكه ٢,٥ مليار من سكان المعمورة؛ أي أنها تضاهي مجموع ما يملكه نصف سكان العالم، وبما أن ٩٥٪ من الزيادة السكانية تتركز في أفقر مناطق المعمورة؛ لذا لم يعد السؤال يدور حول ما إذا كانت ستتدلح حروب أم لا، فمن بين الاثنتين والعشرين دولة عربية ينخفض الناتج القومي في سبع عشرة دولة منها، هذا في وقت يتوقع فيه المرء أن يتضاعف حجم السكان في بعض هذه الدول في العشرين سنة القادمة، ويعلق كابلان في هذا السياق قائلاً: في هذا الجزء من العالم سيكون الإسلام بسبب تأييده المطلق للمقهورين والمظلومين أكثر جاذبية، فهذا الدين المطرد الانتشار على المستوى العالمي هو الديانة الوحيدة المستعدة للمنازلة والكفاح »^(١).

« ومن هنا فليس مصادفة أن يكسب الانفصاليون والمتحمسون المتدينون من المغرب وعبر الجزائر وحتى الهند وإندونيسيا أنصارًا أكثر فأكثر، هناك ٢٠٪ من دول العالم هي

(١) هذا رأي علماء الاقتصاد الغربيين في الإسلام، وشهدنا رأي المستغربين في الحقد عليه.

أكثر الدول ثراءً، وتستحوذ على ٨٤,٧٪ من الناتج العالمي، وعلى ٨٤,٢٪ من التجارة الدولية، ويمتلك سكانها ٨٥,٥٪ من مجموع مدخرات العالم، ومنذ عام (١٩٦٠م) تضاعفت الهوة بين ذلك الخمس من دول العالم الأغنى والخمس الذي يعتبر أفقر الدول، حتى الغذاء فحجم صادرات الحبوب بلغ الآن ٢٠٠ مليون طن، تصدر الولايات المتحدة الأمريكية بمفردها نصفه، وهكذا لا تعني العولمة استعماراً ثقافياً أمريكياً في مجال اللهو والتسلية فقط، بل ستوزع الخبز أيضاً^(١).

الفصل الثالث: دكتاتورية ذات مسؤولية محددة:

« يظل الفصل الثالث الذي خصصه المؤلفان للكلام عن صندوق النقد الدولي والأسواق النقدية العالمية من أمتع وأهم فصول الكتاب، فقد ارتبطت العولمة المستندة إلى الفلسفة الليبرالية الحديثة بتحرير الأسواق العالمية النقدية بالتخلي عن معظم الضوابط التقليدية التي كانت تسيّر العمل المصرفي والنظم النقدية لعهود طويلة، وكان من نتيجة ذلك أن الكتلة النقدية في ضوء عمليات التحرير هذه لم تعد خاضعة بالمرة للسلطة المحلية (البنك المركزي)، فعمليات خروج ودخول المليارات على نطاق واسع تتم في ومضات سريعة على شاشات الكمبيوتر، وعلى نحو جعل السلطة النقدية تقف عاجزة عن الدفاع عن أسعار الصرف وأسعار الفائدة وأسعار الأوراق المالية في البورصات، وهكذا تحول العالم إلى رهينة في قبضة حفنة من كبار المضاربين الذين يتاجرون بالعملات والأوراق المالية مستخدمين في ذلك مليارات الدولارات التي توفرها البنوك وشركات التأمين وصناديق الاستثمار الدولية وصناديق التأمين والمعاشات.

وقد أشار المؤلفان في هذا السياق إلى عدد من الحالات^(٢) والأزمات^(٣) التي سببها هؤلاء المضاربون والتي أصبحت تشير إلى مقدرتهم الفائقة على التحكم في رفاة

(١) الفصل الثاني (ص ٤١ - ٨٦)، مقتطفات.

(٢) من هذه الحالات إعلان الإفلاس لإحدى مدن كاليفورنيا، فهناك ما يزيد عن ثلاثة آلاف مليار دولار كانت قد ذهبت بين ليلة وضحاها تقريباً أدراج الرياح ولم يبق لها أي أثر، والعجيب أنه لم يكن أحد يدري بها حدث أصلاً.

(٣) من هذه الأزمات أزمة المكسيك؛ حين غدت بلاده على حافة الهاوية وأنها استنفدت آخر احتياطها من الدولار، وقام مدير صندوق النقد الدولي على مسؤوليته الشخصية مع كليتون في تأمين قرض بحوالي ٢٠ مليون دولار، ومن مجموعة أخرى عددهم أقل من أصابع اليدين تم تأمين ثلاثين مليار دولار، وكان هذا كله خلال أقل من ٢٤ ساعة لحفظ السوق العالمي من الانهيار (ص ٩٥).

أو فقر أمم أو دول برمتها دون أن توجد أية سلطة محلية أو عالمية لسحبهم أو ردعهم، وما يحدث على ساحة الأسواق النقدية والعالمية هو النتيجة الطبيعية والمنطقية للسياسات والقوانين التي أقرتها حكومات الدول الصناعية الكبرى تحت ما سمي بـ (تحرير الأسواق المالية والنقدية)، وهي العمليات التي سرعان ما أجبر صندوق النقد الدولي مختلف دول العالم على تطبيقها بإطلاق سعر صرف عملتها وافتتاحها التام على السوق المالي العالمي، وهذا الانفتاح يجبر هذه الدول على التنافس في تخفيض الضرائب وتقليص الإنفاق الحكومي، وخصخصة مشروعات الدولة، والتضحية بالعدالة الاجتماعية، وكل ذلك يتم الترويج له على أساس أنه ينسجم مع المصلحة العامة^(١).

الفصل الرابع: شريعة الذئاب، الأزمة اللامحدودة في سوق العمل والأمية الجديد:

« وهكذا تتحول الدعوة للانفتاح على السوق النقدي والمالي العالمي إلى أيديولوجية صارمة يخضع لها الجميع وإلا فقانون الغاب سيتكفل بالعقاب، وكل دول العالم تقريباً أخذت تحت تأثير الضغوط التي تمارسها عليها المنظمات الدولية في تطبيق سياسات الانفتاح المعولم، وقد أشار المؤلفان في هذا السياق إلى نقطة مهمة لا يلتفت إليها عادة غالبية الكتّاب، وهي أنه حينما يبدأ البلد بالانصياع لتلك السياسات، والخضوع لمنطق أسواق النقد والمال العالمية، ينضم الأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال من أبناء البلد إلى قائمة المقيمين للسياسات الاقتصادية في بلدهم، وكيف لا يحدث هذا وهم الآن بوسعهم استثمار أموالهم في كل مكان.

وتناول المؤلفان قضية على جانب كبير من الأهمية ولها علاقة وثيقة بالعولمة ألا وهي قضية النمو المطرد للبطالة، وما يرتبط بها من تقليص في قدرة المستهلكين واتساع دائرة المحرومين، فتحت تأثير الركض المحموم وراء الأرباح المرتفعة التي أصبحت تتحقق في الأسواق النقدية والعالمية راحت جميع القطاعات تتنافس وتتصارع من أجل خفض كلفة الإنتاج، وكان التنافس ضارباً والضغط شديداً على عنصر العمل للوصول ببند الأجور إلى أدنى مستوى ممكن، ولم يعد الأمر يقتصر على ذوي الياقات الزرقاء الذين

(١) المقدمة للدكتور زكي (ص ١٢، ١٣)، « وفي الواقع ليس هذا من عمل قطاع المال فقط، إذ يشاركه في تقويض هذه الإمكانات أولئك الذين نصبوا أنفسهم حديثاً موجهين للعالم في خضم العولة، إنهم قادة الشركات الأممية بمختلف أنواعها، فهم قد حققوا انتصاراً غير العالم تغييراً لم تحققه أية إمبراطورية أو حركة في السابق من حيث السرعة والجدرية، ومع هذا ينطوي هذا الانتصار على مذاق مر » (ص ١٨٠).

أبعدوا عن عملهم بعد أن حلت الآلات الحديثة والمتطورة مكانهم في مواقع الإنتاج المادي، بل امتد الأمر ليشمل أيضًا ذوي الياقات البيضاء (مهن الطبقة الوسطى) حيث تولت عمليات هندسة عنصر العمل، والاستخدام الموسع لأجهزة الكمبيوتر مهمة الاستغناء عن عشرات الألوف من الوظائف والمهن التي كان يقوم بها هؤلاء.

وكانت (مذبحة العمالة) قاسية جدًا في البنوك وشركات التأمين، بل إن المؤلفين يشيران إلى أنه حتى في قطاع صناعة برامج الكمبيوتر بدأت كبرى الشركات المتخصصة في هذا المجال في إحلال العلماء الهنود ذوي المرتبات المتدنية مكان العلماء الأمريكيين، وحينما ضايقتهم الحكومة الأمريكية في هذا السلوك قامت هذه الشركات بنقل جزء من أنشطتها إلى نيودلهي، وهكذا سواءً تعلق هذا بصناعة الصلب والسيارات أو المواد الكيماوية أو الأجهزة الإلكترونية أو بالبريد أو بشبكة الاتصالات، أدت حرية انتقال السلع ورؤوس الأموال عبر الحدود دون أي قيود إلى العصف بالعمالة والإطاحة بها بعيدًا عن الشوارع الخلفية للبطالة، ويرى المؤلفان انطلاقًا من هذا أن المنافسة المعولمة أصبحت تطحن الناس طحنًا وتدمر التماسك الاجتماعي، وتعمل على تعميق التفاوت في توزيع الدخل والثروة بين الناس^(١).

الفصل الخامس: أكاذيب ترضي الضمير:

أسطورة الميزة على استقطاب الاستثمارات وخرافة العولمة العادلة:

لقد كانت المكسيك من الضحايا الأولى للعولمة ففي فترة زمنية لا تزيد على شهور وجيزة أعلن الإفلاس لخمسة عشر ألف مشروع، وفقد ما يقرب من ثلاثة ملايين مواطن فرص عملهم، كما انخفضت القوة الشرائية لدى المواطنين بما لا يقل عن الثلث، وهكذا بعد عشر سنوات من الإصلاحات ذات الطابع الليبرالي المحدث أضحت أمة المائة مليون مواطن في وضع أسوأ مما كانت عليه من قبل، وتركبة هي المكسيك الأوروبية.. فقد أغرقت البضائع الأجنبية الزهيدة الثمن السوق المحلية، وبعد توقيع الاتحاد الجمركي

(١) المقدمة (ص ١٣ - ١٥)، ومن أمثلة البطالة ما ذكره المؤلفان عن أوضاع البطالة في الدول المنضوية تحت راية منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي؛ حيث زاد عدد السكان الذين يبحثون عن فرصة عمل حوالي ٤٠ مليون مواطن، ومن الولايات المتحدة شالاً وحتى أستراليا جنوباً، ومن بريطانيا العظمى غرباً وحتى اليابان شرقاً ينخفض على نحو سريع المستوى المعيشي الذي تمتع به الجمهور العام في الأمم الرائدة في الاقتصاد العالمي، فملايين الضحايا قرابين للسوق العالمية، الكتاب (ص ١٩٢).

مع أوروبا، وخلال نصف عام عصفت العجز بالميزان التجاري التركي، وخوفًا من تآكل احتياطياتها من العملات الأجنبية، فرضت الحكومة بقيادة حزب الرفاه الإسلامي ضريبة على الواردات تبلغ ستة بالمائة، وقد أدرك الكثير من حكام البلاد الفقيرة في النصف الجنوبي من المعمورة منذ سنين كثيرة الأمور على حقيقتها، فساروا بأمامهم إلى الرفاهية عن طريق أكثر حصافة ذكاء.

لقد خرجت ماليزيا منذ أمد ليس بالقصير من قائمة الدول النامية فمنذ عام (١٩٧٠م) ينمو الاقتصاد الوطني سنوياً بين ٧ و ٨٪، أما الإنتاج الصناعي فينمو بمعدل يزيد عن ١٠٪، وبدلاً من ٥٪ يعمل اليوم ٢٥٪ من السكان في سن العمل في القطاع الصناعي، وتضاعفت حصة الفرد الواحد من الدخل القومي بين عام (١٩٨٧ و ١٩٩٥) فوصلت لدى هذا الشعب البالغ تعداده عشرين مليوناً أربعة آلاف دولار في العام، وإذا سارت الأمور على ما ترتبه خطط الحكومة فسترتفع هذه الحصة حتى عام (٢٠٢٠م) إلى خمسة أضعاف؛ أي أنها ستصل إلى المستوى السائد في الولايات المتحدة.

ولا يقتصر السعي لتحقيق المستوى الرفاهي العظيم على ماليزيا فقط، فكوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وهونغ كونغ وهي كلها بلدان وُصفت بالنمو في وقت مبكر كانت قد سبقت ماليزيا بخمسة إلى عشرة أعوام في هذا المضمار، وجاء بعد ذلك دور تايلاند وأندونيسيا وجنوب الصين، فهذه البلدان انطلقت أيضاً في طريق التطور، وصارت تحرز الآن نجاحات مشابهة، الأمر الذي دفع الكثيرين لأن يطلقوا عليها لقب النمر، وأشاد الاقتصاديون والصناعيون في كل أرجاء المعمورة بالمعجزة الاقتصادية الآسيوية معتبرين إياها قدوة ودليلاً حياً على جدارة نظام السوق لكسر طوق الفقر والتخلف، وفي الحقيقة ليس هناك صلة وثيقة بين الازدهار الاقتصادي في آسيا (ورأسمالية دعه يعمل دعه يمر) السائدة في غالبية بلدان منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي، فمن غير استثناء طبقت البلدان الناهضة في الشرق الأقصى استراتيجية مستهجنة على نحو شديد في الغرب، فبدلاً من أن تحذو حذو المكسيك وتصبح شاة تُنحر في مجزرة المنافسة الدولية، طوّر نمو التنمية الموجهة حكومياً من « جاكرتا » حتى « بكين » مجموعة من الأساليب التي تتيح لهم فرصة توجيه عملية التنمية، فبالنسبة لها لا يشكل التكامل مع السوق العالمية الهدف الذي تسعى لتحقيقه؛ بل هو وسيلة تخدم الهدف المنشود لا غير، وبالتالي فلا يُستعان به إلا بتحفظ بعد تمحيص دقيق.

ومن هنا فإن استعادة الإرادة السياسية أو أولوية السياسة على الاقتصاد هي المهمة المستقبلية الأساسية، فالتكيف الأعمى مع الضرورات التي تفرزها السوق العالمية يقود المجتمعات التي تتمتع بالثراء الآن إلى فوضى لا مناص منها، ويقود إلى هدم البنى الاجتماعية التي تشكل سلامتها ضرورة حتمية لهذه الدول.

الفصل السادس: لينقذ نفسه من يستطيع، ولكن من هو الذي يفلح؟

« ضمور الطبقة الوسطى، وبزوغ نجم المضللين المتطرفين، انظر إلى أولئك الذين يُنهون دراستهم الجامعية وهم في سن الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، إن هؤلاء لن يحصلوا على فرصة عمل مناسبة، بل صار عليهم أن يعملوا نادلين (خدماً) في أحد المطاعم، أو موزعين للرسائل يمتطون دراجاتهم الهوائية متنقلين من شركة إلى أخرى. ويعلن زوج (ألسون) بأسلوب صحفي مقتضب إذ يقول: إن الطبقة الوسطى تتضاءل وتخثفي.. وتحسباً لما يضمنه المستقبل من نوائب يستثمر من تبقى في التسعينيات من الطبقة الوسطى الأمريكي مدخراتهم في الأسهم، إن هناك عشرين مليون عائلة أمريكية تقامر في الأسهم وقد علقت كل آمالها على صناديق الاستثمار البالغ عددها أكثر من ٦ مليارات دولار موزعة على كل أرجاء المعمورة، وصار مزاج ملايين العوائل يرتفع وينخفض بارتفاع وانخفاض مؤشر (داو جونز) للأسهم، كما يتعين على ملايين من المستخدمين المكتبيين البالغ عددهم ١٨,٢ مليوناً أن يتوقعوا خسرانهم لفرصة عملهم وإحلال زميلهم (الكمبيوتر) محلهم في العمل، وفي ألمانيا يتطلع ربع السكان على أقل تقدير إلى الرفاهية، فالفئات الدنيا من الطبقة الوسطى تزداد فقراً بخطى وثيدة.

إن تسارع عملية (الهدم الخلاق) هي الطابع الجديد الذي اتخذ نظام السوق الرأسمالي كما قال محللاً (إدوارد لوتاك) الاقتصادي الأمريكي الذي صاغ لهذا الطابع الجديد مصطلح (الرأسمالية النفثة) ويواصل تحليله قائلاً: إن السرعة المروعة التي تتم بها التحولات قد غدت صدمة لشطر عظيم من السكان، ويقول: من يرى توطيد أركان الأسرة والمجتمع أمراً مهما لا يمكن له أن يناصر في ذات الوقت تراجع تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية وعولمة الاقتصاد، فهما اللذان يمهدان الطريق للتحولات التكنولوجية السريعة، إن تفكك الأسر الأمريكية وما نلاحظه في الكثير من أصقاع المعمورة من انهيار في المؤسسات الاجتماعية المناط بها السهر على التربية، وكذلك الاضطرابات السائدة

في بلدان شبيهة بالمكسيك على سبيل المثال ليست سوى نتائج أفرزتها هذا القوة التدميرية ذاتها»^(١).

الفصل السابع: جناة أم ضحايا؟

«يترتب على ما تفرزه العولمة من نتائج، تضاؤل إمكانات الدول المختلفة على التدخل أكثر فأكثر، في حين يتعاظم أكثر فأكثر تجاوز اللاعبين الدوليين حدود اختصاصهم من دون رقيب يذكر، ولعل القطاع العام خير مثال على ذلك، وإن القادة السياسيين - كما يقول بطرس غالي - لم يعودوا يمتلكون الكثير من المجالات العقلية التي تمكنهم من اتخاذ القرار، إن انتظار وقوع الحدث وليس اتخاذ المبادرة الحاسمة، والإصلاح المكلف للأخطاء وليس تفادي وقوع الخلل - هو كل ما تستطيع فعله السياسة الدولية حسب تقدير اللاعبين الدوليين.

و (ميشيل كامديسو) رئيس صندوق النقد الدولي يؤكد من جانبه على أنه يتعين على المرء أن يعلم بأن اتخاذ المبادرة للذاتية أو عدم اتخاذها يسفر عن نتائج ذات أبعاد عالمية، وبهذا التقييم فهو لا يبرر مغامرته المكسيكية عام (١٩٩٥م) حينما خصص ثمانية عشر مليار دولار من أموال المشاركين في صندوق النقد الدولي بهدف مواجهة أول أزمة في القرن الحادي والعشرين فحسب، بل هو على ثقة أيضًا بأن التكييف مع البيئة العالمية المعولمة قد أضحي أمرًا لا مفر منه، كما أنه لا يترك مجالًا للشك بأن (الوول سترايت) وقادة صناديقه الاستثمارية هي المهيمنة: (إن العالم في قبضة هؤلاء الصبيان)، وكما أعلن آخر رئيس للاتحاد السوفيتي (جورباتشوف): (إن السياسة تجري وراء الأحداث، إننا نتصرف كما لو كنا رجال حرائق ينتقلون عند اندلاع النيران إلى أوروبا وإلى باقي أنحاء العالم، إننا جميعًا لا نتصرف إلا على نحو متأخر.

وبهذا فمن هم هؤلاء اللاعبون الدوليون في مجالات السياسة والمال والإعلام والاقتصاد، أهم مسيرونا دونما إرادة أم هم جناة مع سبق الإصرار؟

الفصل الثامن: لمن الدولة؟ انحطاط السياسة ومستقبل السيادة الوطنية:

تعطي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وهما البلدان اللذان خفضت فيهما الحكومة طوعية وفي وقت مبكر نشاطها صورة عن الحالة التي سيفضي إليها

(١) الكتاب (ص ٢٩٣)، مقتطفات.

ترتيب الموازنة الحكومية لمصلحة الاقتصاد الحر (الخاص)، فبالنسبة لصيانة وتوسيع البنية التحتية ثمة ضائقة مالية في كل النواحي، فمقارنة بالناتج القومي الإجمالي لا تستثمر الإدارات الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية سوى ثلث ما تنفقه اليابان على الطرق وسكك الحديد والمدارس والجامعات والمستشفيات، ففي واشنطن على سبيل المثال أوضحت بنيايات غالبية المدارس جاهزة للهدم، وبناءً على ما تقوله عمدة المدينة فإن المدينة بحاجة إلى ١,٢ مليار دولار إذا ما أرادت ترميم بنيايات هذه المدارس، وتقدر شرطة المدينة أنها بحاجة إلى مبلغ مشابه لإصلاح آلاتها ومعداتها وسياراتها، ويرفض الكونجرس تخصيص الأموال اللازمة لذلك.

وفي الجزر البريطانية، وهي البلد الذي يُعتبر الدولة المثالية من حيث تطبيق النظرية الليبرالية الجديدة، وتوشك نظم الرعاية الاجتماعية أن تتخذ المستوى السائد في بلد نام، فمن بين كل ثلاثة أطفال بريطانيين ينشأ طفل واحد في ظل الفقر والفاقة، وبسبب عدم كفاية الرعاية الاجتماعية يتعين على ١,٥ مليون طفل دون الستة عشر عامًا العمل من أجل كسب القوت، ويرتفع معدل الأمية ارتفاعًا متصاعدًا، ففي استطلاع يقوم على أسس علمية لم يستطع خمس من هم في سن الواحد والعشرين عامًا إجراء بعض العمليات الحسابية البسيطة، ولم يستطع سبعة منهم القراءة والكتابة.

وفي ألمانيا، البلد الغني نسبيًا والذي لا يزال الرفاه موزعًا بين سكانها فقد تعين الآن في فرنكفورت إغلاق أبواب ٤٤ مرفقًا ترفيهيًا، وهناك ستة من المسابح العمومية جاهزة للبيع أو الإغلاق، ولم يعد أحد مسارح المدينة يعمل أكثر من ستة أسابيع في الموسم الواحد وبسبب انخفاض الدعم الحكومي يهدد مدير دار الأوبرا بوقف العرض، فقد جعل التخفيض الإجباري في الموازنات الحكومية السياسيين حيارى كيف ينهضون بأعباء المهام الملقة على عاتقهم، فعلى مستوى كل البلدان الصناعية تحدث دوائر الشرطة والقضاء عن طفرة بينة في نمو الجريمة المنظمة، وكان أحد موظفي الشرطة الدولية يقول: إن ما هو في مصلحة التجارة الحرة هو في مصلحة مرتكبي الجرائم، وحسب تقديرات مجموعة خبراء شكلتها دول الاقتصاد السبع الكبرى في عام (١٩٨٩م) ارتفع حجم المبيعات في السوق العالمية للهيروين حتى عام (١٩٩٠م) إلى عشرين ضعفًا في خلال العشرين سنة الماضية، أما المتاجرة بالكوكايين فقد ارتفعت إلى خمسين ضعفًا، وازدهار عمليات التهريب لا يكمن في تقاعس الشرطة عن أداء مهامها، والنتائج المترتبة

تشير الرعب ففي منظور الخبراء أضحت اليوم الجريمة المنظمة عالمياً أكثر القطاعات الاقتصادية نمواً، إنه يحقق أرباحاً تبلغ خمسمائة مليار دولار في العام، ومن مجموع الثروة التي تمتلكها التنظيمات الإرهابية الإيطالية الأربعة، وهي ثروة تتراوح بين ١٥٠ - ٢٠٠ مليار مارك صادرت الدولة حتى يونيو (١٩٩٦م) مبلغاً لا يتجاوز ٢،٢ مليار مارك، إن قائمة فشل الدولة في التعامل مع فوضوية السوق العالمية تكاد تكون بلا نهاية، إذ شيئاً فشيئاً تفقد الدولة في أرجاء المعمورة قدرتها على أخذ زمام المبادرة في توجيه تطور أممها»^(١).

الفصل التاسع: التوقف عن السير على غير هدى، الإفلات من المأزق:

« هناك مقترحات إستراتيجية عديدة ترمي إلى وقف التطور صوب مجتمع الخمس الثري، وتكمن الخطوة الأولى على هذا الدرب في الحد من السلطة السياسية التي يتمتع بها الناشطون في أسواق المال، ولو فرضت ضريبة مبيعات على المتاجرة في العملات الأجنبية وعلى القروض الخارجية لما تعين على المصارف المركزية والحكومات في مجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى الخضوع بلا قيد أو شرط لما يمليه عليها تجار المال من مطالب غير مبررة، فبدلاً من الحد من الاستثمارات عن طريق الزيادة المستمرة في أسعار الفائدة كوسيلة لمكافحة تضخم لا وجود له بمستطاع هذه المصارف والحكومات معاً البدء في إنعاش النشاط الاستثماري لدى المشروعات الصناعية، وذلك عن طريق تخفيض^(٢) أسعار الفائدة على القروض التي تمنحها المصارف الاستثمارية، ولا مناص من أن يتزامن هذا كله مع إصلاح ضريبي يفي بمتطلبات المحافظة على البيئة، إصلاح يرفع من أسعار الثروات التي تستهلك بشكل قاسٍ، ويزيد من استخدام العمل البشري عن طريق خفض التكاليف التي تتحملها المشروعات في مجالات التقاعد والتأمين ضد المرض وضد البطالة، وهذا هو الطريق الوحيد القادر على الحد من استمرار التدمير الذي يعصف بالأساس البيئي، ويقدم المؤلفان حلاً أوروبياً من عشر نقاط:

١ - اتحاد أوروبي ديمقراطي قادر على النهوض بالتحويلات.

٢ - تقوية المجتمع المدني وتعزيز مشاعره الأوروبية.

(١) الكتاب « فسخ العولة »، (ص ٣٤٧ - ٣٧٦)، مقتطفات.

(٢) الملاحظ أن النظام الإسلامي يلغي الفائدة نهائياً.

- ٣ - الاتحاد النقدي الأوربي.
- ٤ - توحيد القوانين الضريبية الأوروبية.
- ٥ - فرض ضريبة مبيعات على المتاجرة بالمشتقات.
- ٦ - معايير اجتماعية وبيئة دنيا للتجارة الخارجية.
- ٧ - إصلاحات ضريبية ذات أبعاد أوروبية لحماية البيئة.
- ٨ - فرض ضريبة أوروبية على السلع الكمالية.
- ٩ - النقابات العمالية الأوروبية.
- ١٠ - التوقف عن تحرير الاقتصاد من دون تعزيز للرعاية الاجتماعية^(١) «^(٢)».

العولمة اليوم ومنتدياتها:

إذا كان عمر ذلك النقد أكثر من عشرين سنة فقد ظهرت العورات أكثر وأكثر بعد ذلك بعشر سنين، ويدل على ذلك التقرير الذي تحدث عن منتدى دافوس الاقتصادي الذي عقد في منتجع دافوس السويسري في دورته الحادية والثلاثين وحضره ٢٣٢٢ مشاركاً من أنحاء العالم بتاريخ (٢٦ / ١ / ٢٠٠٠ م) وبحضور ثلاثين رئيس دولة وحكومة، وثمانين وزيراً، والنخبة السياسية والاقتصادية في العالم، وعلى مدى ستة أيام و ٣١٥ جلسة ناقش المنتدى الاقتصادي العالمي الذي عقد تحت شعار التنمية المستدامة وشد الهوة، وتأثير التباطؤ المتوقع للاقتصاد الأمريكي، ووسائل جديدة لعمل الشركات والوجه المتغير للإنترنت.

أ - تجاهل أصوات الفقراء:

إلا أن الساسة وصناع القرار الاقتصادي تجاهلوا أصوات الفقراء، وأكدوا أنهم يحتمون وراء ثروتهم الطائلة، وغير مستعدين لسماع أي وجهة نظر تخالفهم الرأي، بل هم ماضون في خططهم الرامية إلى إضفاء المزيد من اللبرلة المتوحشة على النظام العالمي على الرغم من آثارها السلبية على شرائح كبيرة من الناس، وبذلك عزز أغنياء العالم اتهامات فقرائه

(١) فخ العولمة (ص ٣٧٧ - ٤٠٢).

(٢) وفي هذه الحلول تشابه مع فقرات الحل الإسلامي الذي سبق أن بيناه آنفاً في هذا الكتاب لموضوع التنمية.

بأن العولمة حوّلت الحياة برمّتها إلى سوق سلعية طاحنة، يديرها المرابون، والمقرضون والشركات المتعددة الجنسيات التي أتاحت للمبشرين بها استبدال كل المرجعيات بأخرى تنسجم مع مصالحهم، وتترك مليارات البشر نهباً للفقر والجوع والمرضى والصراعات الأهلية والنزاعات الإقليمية، وهو ما أكدّه - كلاوس شقّاب - مؤسس المنتدى الاقتصادي العالمي بقوله: إن هدف المنتدى الحالي طرح تساؤلات ومحاولة تقديم ردود عليها قدر الإمكان، منوهاً إلى أن هاجس العولمة طرح تساؤلات جديدة.

ب - المنتدى المعاكس:

في (بورتو) الليغري المدينة البرازيلية أعرب الفقراء المشاركون في المنتدى الاجتماعي العالمي الذي عقد بمواجهة المنتدى الاقتصادي العالمي عن رغبتهم بإنشاء صندوق عالمي للتعويض عن نهب الدول الغنية لدول العالم الثالث، ونددوا بقواعد التجارة الدولية القائمة، واقتروا إقامة حواجز كمؤشر للمسؤولية الاجتماعية، وفرض احترام القواعد التي تمنع إغراق الأسواق، ودعوا لمجتمع دولي أكثر تحضراً وتضامناً وعدلاً وانضباطاً، وتحدثوا عن مشكلات بلدانهم، وعن أحلام شعوبهم، وعن نظرتهم للمستقبل في خضم الأزمات المتلاحقة والمتصاعدة، وأشار رئيس لجنة ديون العالم الثالث (أريك توسان) أن مهمة صندوق التعويض الذي اقترح إنشاؤه، ستكون تعويض النهب المزمّن جدّاً في دول العالم الثالث، وقال في مناقشة بعنوان: نظام مالي من أجل المساواة بين الدول: إن الصندوق سيخضع لإشراف الأمم المتحدة وليس للبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، وسيتم توفير أمواله من عائدات رسم توبيّن الذي يقتطع ٥٪ على عمليات المضاربة المالية.

ج - صرخة معبرة:

الأصوات الجديدة الداعية لإعادة صياغة العالم على أسس عادلة ليست أكثر من صرخة معبرة عن حجم الألم الذي يستوطن الكرة الأرضية، صرخة شبيهة إلى حد بعيد بتلك الأصوات التي برزت في اجتماعات منظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد والبنك الدولي، وقمة الفقراء التي عقدت في هافانا عاصمة كوبا، وقمة الألفية التي عقدت في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، والسؤال المطروح اليوم على الساحة الدولية، هل أسمعنا تظاهرات المقهورين التي دوت مجدداً في دافوس وبورنو صوت الفقراء للعالم

المتحضر؟ أم أنها وقعت على آذان صماء في مراكز صنع القرار الاقتصادي العالمي المنهكة في التبشير بنهاية عهد الدول والحكومات وبداية عصر السوق المنفلت من أي قيود؟!

د - صورة جديدة للاستعمار:

العولمة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، وتساعد تأثيرها مع انتهاء الحرب الباردة قدمت نفسها على أنها حامية للحريات عبر صناديق الاقتراع، وحرية السوق وتبادل المعلومات، إلا أنها في حقيقتها ليست أكثر من نظام اقتصادي جديد يكرس هيمنة القوى الكبرى بأسلحتها القوية على البلدان الضعيفة معيدة إلى الأذهان عصر الاستعمار القديم الذي كرس الجهد للاستغلال عن طريق تصدير رؤوس الأموال والتقانة والثقافة من المركز إلى الأطراف.. وبالرغم من أن مصطلح القرية الكونية الذي تم تعميمه منذ مطلع التسعينيات من القرن العشرين أعطى زخمًا جديدًا لمحاولات السيطرة والتحكم بمصير الشعوب، إلا أن الصراع غير المتكافئ بين الدول الفقيرة التي لا تملك شعوبها قوت يومها، والدول الغنية التي تحقق نموًا متصاعدًا، وسع الفجوة كثيرًا، ففيما سجلت العولمة انتعاشًا كبيرًا اقتصاديًا في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، سيطر على عالم الجنوب هاجس تراجع النور وارتفاع الديون الخارجية، وانتشار الفقر، وتفاحش البطالة، وتدني مستوى العيش إلى حد التهديد بالمجاعة وخطر الموت وبخاصة في القارة الأفريقية وأمريكا اللاتينية.

هـ - تقارير مدهشة:

« وتشير التقارير إلى أن قيمة ديون الدول النامية ارتفعت من ٥٢٠ مليار دولار في العام (١٩٨٠ م) إلى ٢٠٧٠ مليار دولار في العام (٢٠٠٠ م) في حين أن هذه الدول سددت ٣٣٥٠ مليار دولار^(١) خلال نفس الفترة، أي ستة أضعاف ديون العام (١٩٨٠ م)، وذكرت مصادر منتدى بورتو أن دول الجنوب سجلت عجزًا في التجارة الخارجية بين عامي (١٩٨٠ و ١٩٩٠ م) بقيمة ٤٥ مليار دولار، مقابل فائض للدول الصناعية يقدر بنحو ٨٠ مليار دولار.. وبالرغم من أن أنصار مؤسسات العولمة الاقتصادية يقولون إنها

(١) هذه الأرقام المسددة هي فوائد الديون المتراكمة، أما الديون فنبقى ثابتة وتزداد عن طريق البنك الدولي الديون الجديدة، إنه مصداق قول الله ﷻ: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الذَّنْبَ وَيَرْبِّي الصَّدَقَاتِ﴾.

تنطق باسم الضعفاء، وتعهدوا بجعل مؤسساتهم (أكثر فاعلية وشفافية ومسؤولية) ردًا على آلاف المتظاهرين الذين ينددون بهذه الهيئات العالمية.

إلا أن سجل الدوليين يبدو كافيًا لدحض هذه المقولات.. فمع بداية الثمانينيات باتت اهتماماتها محصورة في الدول الفقيرة، وفرضت عليها شروط إقراض تركز على خفض قيمة العملة، وخفض الموازنات، ورفع الضرائب، والحد من تدفق القروض إلى الاقتصاديات المتأزمة»^(١).

و - أهم الحاضرين في منتدى دافوس:

« بعض الحاضرين لا يحتاج إلى تقديم مثل بيل جيتس وجورج سوروس وتوماس باتاو وديفيد روكفلر، وإدوارد دي روتشيلد، وبعضهم لم نكن سمعنا به، ثم اكتشفنا أنه يدير شركة أو شركات تفوق دخلًا سنويًا لمعظم الدول العربية، ومن هؤلاء:

- ١ - روبرت بوكلهوفرين فولكسواجن (٨٨ بليون دولار و ٣٠٦ آلاف موظف).
- ٢ - بيتر بيجور من شركة تكساكو (٣٥ بليون دولار و ١٨ ألف موظف).
- ٣ - يورجن هوبرت من شركة دايملر كرايزلر (١٥١ بليون دولار و ٤٦٧ ألف موظف).
- ٤ - تيموثي كولي من شركة إس بي سي البلجيكية للاتصالات (٥٠ بليون دولار و ٢٠٤ آلاف موظف).
- ٥ - شيلي لازاروس من شركة أوجيفلي أندماتر للاتصالات (٣٥ بليون دولار و ٣٣ ألف موظف).
- ٦ - جين جاكسون من شركة والمارت (١٦٥ بليون دولار و ٩١٠ آلاف موظف).
- ٧ - آن ليفرمور من شركة هيولت باكارد للكمبيوتر (٤٨ بليون دولار و ٨٨ ألف موظف).
- ٨ - ماري بات مكارثي من شركة كي إم بي جي (١٣ بليون دولار و ١٠٨ آلاف موظف).

وربما لاحظ القارئ أن الأسماء الأربعة الأخيرة من النساء، وقد اخترت نماذج قليلة

(١) فهد دياب، صحيفة الثورة السورية، العدد (١١٣٩٤) في (١/٢/٢٠٠١م)، بتصرف.

بشكل عشوائي فهناك مئات من رجال الأعمال من هذا المستوى وأكبر من العالم أجمع....

لم يغيب العرب كلهم عن الميدان فقد كان هناك أبو عمار وأمير قطر وولي عهد البحرين وولي عهد دبي ورئيس وزراء الأردن ورئيس وزراء تونس ووزراء كثيرون يتقدمهم وزير خارجية مصر السيد عمرو موسى ووزير المال والبتروال السعوديان إبراهيم العساف وعلي النعيمي، لكن ربما كان أجمل ما في المشاركة العربية ذلك الجيل من الشباب من رجال الأعمال العرب، وصحيح أن أكثرهم ورثوا العلم، إلا أنهم جميعاً أو على الأقل الذين جالسهم وناقشتهم كانوا أرفع مستوى... والحضور العربي الذي سجلت خصوصاً جيل الشباب يعطي ثقة في المستقبل.

ولكن ما يخيب الآمال غياب سوريا رسمياً ورجال أعمالها عن المؤتمر، وغياب لبنان الرسمي معها.. وأرجو ألا أسمع أن سوريا غابت وغُيبت لبنان معها لوجود إسرائيليين، فهؤلاء كانوا موجودين فعلاً من شمعون بيريز، وحاخامات يتقدمهم كبيرهم إسرائيل مايرلاو إلى رؤساء شركات التكنولوجيا الحديثة، والمطلوب أن ننافس الإسرائيليين لا أن نخلي الساحة لهم..^(١).

ز - الدول الفقيرة:

« الدول الفقيرة التي دعت في المنتدى الاجتماعي في بورتو وقمة الألفية وقبلها في قمتي هافانا ومجموعة ال ١٥ التي عقدت في القاهرة إلى إحداث تغيير في النظام الاقتصادي الاجتماعي العالمي، وحثت الدول الغنية على اتباع نظام تجاري أكثر إنصافاً لإنهاء ما وصفه الرئيس الكوبي « فيديل كاسترو » بنظام تفرقة عنصري اقتصادي، إلا أن الواقع يؤكد أن هذه الدول تعيش مرحلة غير مسبقة من اختلال التوازن، وتفرق حكوماتها في الديون الخارجية التي تتجاوز قيمة أقساطها وخدماتها قدرة الدول على السداد.

من يسمع صوت الفقراء في عالم لا مكان فيه للضعفاء؟ سؤال يتردد في كل مكان، لا أحد يملك الإجابة، وستبقى صرخات المتظاهرين في دافوس والمجتمعين في بورتو، والتي طالبت بفرض سياسات ملائمة لإنقاذ الفقراء صيحة في واد إذا لم يتم إشراك الشعوب الفقيرة بتقرير مصير بلدانها، واختيار أنظمتها السياسية والاقتصادية، وما لم تلعب من جهة

(١) جهاد الخازن الحياة، (الاثنين ٥ من شباط/ فبراير/ ٢٠٠١م/ ١١ ذو القعدة ١٤٢١هـ) العدد (١٣٨٤١).

أخرى حكومات الدول الغنية والمؤسسات الدولية دوراً ابناً في إدارة الأزمة»^(١).

ي - أين يكمن الحل؟

يقول عليه الصلاة والسلام: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» فهذا هو الإنسان بدون عقيدة، ولا مجال للإصلاح الحقيقي وإنهاء سيطرة قوى العولمة في الأرض إلا من خلال العودة إلى الدين الذي يقول: «والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه»، والذي يقول: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

ومن خلال إعادة البناء النفسي للإنسان على ضوء العقيدة ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۖ لِّلسَّائِلِ وَالْمَغْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] إلى المجتمع المتكامل المتكافل حيث يكون خير الناس أنفعهم للناس، ومن خلال النظرة الكلية للمال التي تنطلق من أنه «ما جاع فقير إلا بما بطر به غني»، إلى بقية المفاهيم الإسلامية الأخرى التي تحقق الإنسان الصالح والمجتمع الصالح والحكومة الصالحة.

الإسلام والعولمة:

أولاً: نقاط الافتراق:

إن نقاط الافتراق الكبرى بين الإسلام والعولمة كثيرة نستعرض منها عشر نقاط أساسية:

- ١ - الإسلام دين الله المنزل على خلقه ورسالة الله تعالى إلى البشر إلى قيام الساعة. والعولمة فكر بشري قاصر يتسم بالهوى والجهل والظلم ككل فكر بشري ضال لا يهتدي بهدي الله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].
- ٢ - فلسفة العولمة هي الحرية المطلقة وفلسفة الإسلام هي العدل.

فالعولمة تعني إبعاد جميع المطلقات وإحلال مطلق وحيد مكانها وهو حرية الفكر الكاملة.

(١) فهد دياب، تنمة المقال السابق.

أما الإسلام فهو دين العدل، وأينما كان العدل فثم شرع الله، والظلم مرفوض في شتى أحواله وأنواعه «... إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...». وقوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاَنَ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٣ - العولمة أو النظام العالمي الجديد أو الليبرالية الجديدة إنما تقوم على أساس الفائدة والربا الحرام، حتى لينقلب تسديد الديون إلى تسديد الفوائد، وتتعطّل وظيفة المال كلها عن الإنتاج في أسواق استغلال لحاجة الإنسان والدولة والأمم، فهم حلفاء الشيطان ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فقد ارتفع المجموع الكلي لمديونية الدول النامية.. ففي عام (١٩٩٦م) ارتفعت هذه الديون لتصل إلى ١,٩٤ ألف مليار دولار؛ أي أنها ارتفعت إلى ضعف ما كانت عليه قبل عشرة أعوام.

وهذا النظام يعلن الله تعالى الحرب عليه ورسوله كذلك، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُبُوسٌ أَمْوَالُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

٤ - العولمة هي تكديس للثروة البشرية بأيدي حفنة من الأثرياء الجشعين اللصوص، بينما تذبح البشرية بالفقر والحاجة والحرمان، (نتيجة توقع وجود ٢٠٪ فقط من السكان الذين يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد وسلام أما النسبة الباقية ٨٠٪ فتمثل السكان الفاضلين عن الحاجة الذين لن يمكنهم العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال الخير) وهناك (٣٥٨) ملياردير في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه ٢,٥ مليار من سكان المعمورة.

أما النظام الاقتصادي في الإسلام فيود أن يحطم استعمار المال في يد فئة من الأثرياء ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ويقول علي عليه السلام: « إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم ما يكفي الفقراء، فإن جاعوا أو عروا أو جهدوا فبمنع الأغنياء، وحق على الله - تبارك وتعالى - أن يحاسبهم ويعذبهم »^(١).

وفي الحديث: « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله »^(٢).

٥ - العولمة رفض لوجود الأمة، ورفض لقوميتها ورفض لهويتها « وهذا يعني أن النظام الدولي الجديد في القرن الحادي والعشرين سيكون أخطر بكثير من النظام الدولي الذي سبقه في القرن العشرين، فإذا كان هذا الأخير قد نجح في تجزئة القوميات في العالم وتكوين الكيانات والدول في آسيا وأفريقية وعلى أساس وطني أو إقليمي فإن النظام القادم سيعمل على اختراق تلك القوميات وسيقوم بتفتيت بعض الدول والكيانات، وسوف لا تقارن النتائج التي أسفر عنها مؤتمر الصلح في باريس عام (١٩١٩ م) بما ستسفر عنه نتائج النظام الآتي »^(٣).

أما الإسلام فقال: ﴿ يَتَأَيَّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال: « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح ».

فلقد حافظت الأمم على هويتها في ظل الإسلام، وطبقت كل أمة الإسلام دون أن تنتكر لأعرافها وتقاليدها وهويتها التي صاغتها حسب مبادئ الإسلام، وبقيت الأمم خلال ألف عام من حكم الإسلام لها استقلالها وتميز هذا في ظل هذا الدين، ولم يعمل الإسلام على إذابة أي قومية أو أمة لصالح قومية أو أمة أخرى، بل وضع طاقات هذه الأمم جميعاً لصالح الإسلام، لقد كان الإسلام تحريراً لكل أمم الأرض من ظلم الطواغيت واستسلامها لشرعية الله، بينما تريد العولمة أن تخضع أمم الأرض لحفنة من الأثرياء والمترفين يتحكمون في رقاب الأفراد والدول والأمم « وبعمليات الاندماج والتمليك أصبحت الشركات والكتل الضخمة جدًّا، لدرجة أن دولاً بأكملها لا تقارن إلا بقسم من أقسام هذه الشركات، إنهم سيقدرون على ابتلاع أي بنك أو مصانع أو تجارات تمتلكها،

(١) الأموال، لأبي عبيد (ص ٧٨٤)، ونقله المنذري مرفوعاً عن علي (١/ ٥٨٣).

(٢) أحمد (ح ٤٨٨٠).

(٣) العولمة والتحويلات المجتمعية، التسوية (ص ١٢٨).

وفي النهاية نصبح مثل جمهوريات الموز التي يعد فيها مَالِكُو المزارع أقوى من رؤساء تلك الدول.

٦ - الإسلام والحضارة الإسلامية حققوا رسالة عظمى في تاريخ البشرية إذ حرروا الشعوب والأفراد، وأنهوا ظلم الطواغيت في الأرض، كما يقول ربعي بن عامر: «اللَّهِ ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ورفع الحيف (أي الظلم) عن كل فرد، بَعْضُ النظر عن معتقده وجنسه».

بينما تريد العولمة أن تحقق استعباد الدول والشعوب والأفراد للصندوق الدولي والبنك الدولي أو كما سماها المؤلفان (شريعة الذئاب) ويتحدثون عن ملايين الضحايا من قربان العولمة (فالجزة الأعظم من العالم يتحول خلافاً لتلك الجزر إلى عالم بؤس وفاقة، عالم غني ببضع مدن كبرى وبأحياء فقر وجوع هي الأخرى كبرى أيضاً، ويسكنها مليارات من البشر لا يسدون رمقهم إلا بالكاد، ومما تجب الإشارة إليه هنا أن سكان هذه المدن يزدادون أسبوعياً مليون نسمة».

وينقل الكاتبان الألمان عن كابلان وطبيعة هذا الدين إذ يقول: «في هذا الجزء من العالم سيكون الإسلام بسبب تأييده المطلق للمقهورين والمظلومين أكثر جاذبية، فهذا الدين المطرد الانتشار على المستوى العالمي هو الديانة الوحيدة المستعدة للمنازلة والكفاح»^(١).

٧ - العولمة حرية مطلقة والإسلام حرية مقيدة: «العدالة في التوزيع تأتي على قمة سلم أولويات المجتمع العربي، فالإسلام يؤكد على حقوق الفقراء في أموال الأغنياء أكثر بكثير مما يؤكد على الحرية الفردية المطلقة في تجميع الثروة والتصرف بها، فالحرية الفردية في التصرف في القانون الروماني مطلقة بينما الحرية المطلقة في الإسلام مفسدة وأثمة أيضاً.. ولهذا كانت الطبقة المحافظة العربية بمعظمها مختلفة عن مثلتها الطبقة المحافظة الأوروبية والأمريكية في النظرة والدور والإمكانات، فالثانية تؤمن بحرية الفرد في تجميع الثروة والاحتفاظ بها وتوريثها بغض النظر عن طبيعة الحياة التي يعيشها الأفراد الآخرون في المجتمع، وتعتقد أن هذه هي إرادة الله في مكافأة الأفراد العاملين والمنتجين

يشاركها في تلك النظرة قسم كبير، أما الثانية وإن كانت تؤمن بما تؤمن به الأولى إلا أن التراث الثقافي والاجتماعي للمجتمع يحول بينه وبين بناء رأسمالية مزدهرة.. والمهم أن تقر بحقيقة موضوعية ثابتة تاريخياً^(١) وهي أن المجتمعات الإنسانية وفي كل مرحلة من مراحل تاريخها وفي إطار ظروفها الموضوعية تحاول دائماً إيجاد توازن من نوع ما بين فكرة الحرية التي يطالب بها ذوو الدخل الضعيف والمحدود والفقراء، وبين فكرة الحرية التي يطالب بها الأقوياء اقتصادياً، والولايات المتحدة بلد جديد نسبياً غني بمصادره الاقتصادية بالنسبة لسكانه الذين يؤمنون بثقافة أصلها القانون الروماني الذي يقدس الحرية الفردية والحرية الشخصية، وفكر يوناني في الأصل يقدس حرية الاختيار، وديانة بروتستانتية تشجع الفرد على العمل الاقتصادي، وتبارك أرباحه باسم الرب...

أما الذين يعيشون على عتبات الفقر أو فيه فيشعرون بأنهم مظلومون محرومون من الفرص؛ ولهذا يؤمنون بأن المصادر الاقتصادية في أي بلد هي لكل ساكنيه دونما تفریق، وأن وجود الفقر غير مقبول إنسانياً ولا اجتماعياً ويجب أن لا يكون هناك شيء كهذا اقتصادياً، وهي فكرة نجدها متجسدة في الوطن العربي^(٢).

إن الميزان في الاقتصاد الإسلامي - واضح كل الوضوح - هو الاعتدال والاقتصاد، ولو كان للاقتصاد ارتباط ولادة في التاريخ لكانت ولادته من الإسلام كما يقول ﷺ: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّ رِزْقٍ لِّكَ إِنَّا الْمَذِينُ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝ وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ أِنْتَعَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِن رَّبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٣٠].

٨ - في الإسلام المال مال الله والعبد مُستخلف فيه يعمل فيه وفق أوامر الله.

وفي العولمة: حق مكتسب للفرد، ولا حق لأحد فيه، حتى ولا للدولة، فمنطق الرأسمالية

(١) يحاول الدكتور الأبرش بخبث أن يربط فكرة العدالة بالصحراء والتخلف، وفكرة الحرية بالتقدم والحداثة، متناسياً أن ما وصلت له الحضارة الإسلامية في كل دول الأرض لم يصل لها أحد قبلها ولا بعدها، والتي مثلها خطاب هارون الرشيد للسحابة: «أذهبني حيث شئت فسيأتيني خراجك»، وأن ازدهار الحضارة الإسلامية على قرابة ثلثي أُمم الأرض لم يدفع إلى القضاء على الفقراء وصار الحرص على العدالة عيباً يُعير به العرب والمسلمون، وأصبح استعمار الشعوب وإفقار الأمم ميزة يُباهى فيها على البشر.

(٢) الخصخصة النظرية والواقع، للدكتور رياض الأبرش (ص ٦٢ - ٧٩)، مقتطفات.

« هو تحقيق أقصى حد ممكن من ربح رأس المال المستثمر في وقت قياسي مع الإشارة إلى نقطتين:

- الأولى: إن العولمة هي محاولة تسييد القوة بمفهومها الشامل، الاقتصادي والسياسي والتقني والإعلامي والثقافي، وهي الأساس الذي يصنع أو يصيغ شكل النظام الدولي في القرن الواحد والعشرين، بعبارة أخرى، إن استراتيجيات القوى التي تتواكب مصالحها والعولمة وفي مقدمتها الولايات المتحدة إنما تستهدف تحقيق مجموعة من الأهداف يأتي على رأسها اثنان متكاملان، تعميق العولمة الاقتصادية أي سيادة السوق عالمياً، وتدمير قوة الدول والقوميات والشعوب على المقاومة السياسية.

- الثانية: بما أن الولايات المتحدة تتمتع اليوم بأدوات ووسائل القوة بمعناها الشامل فإنها تحاول أن تسخر العولمة لصالحها حتى يمكننا القول: إن الخطط والأطروحات المتتابعة التي يشهدها العالم اليوم.. إنما ترتبط عمومًا بالمشروع السياسي الأمريكي الجديد وهو المشروع الساعي لتوحيد العالم من خلال رأسمالية السوق»^(١).

وخلاصة الأمر: أن الإسلام يسعى ليكون العالم عبداً لخالقه، والعولمة تسعى ليكون العالم عبداً لأمريكا إلى أن يظهر منافس قوي جديد.

٩ - الإسلام دين الأخلاق، والعولمة دين الحرية والإباحية، ولا داعي لإثبات أخلاقية الإسلام، فهذا من المسلّمات التي لا يُناقش فيها أحد، أما إباحية العولمة فتكاد تكون لا يُناقش فيها أحد كذلك، « وهذا يعني إبعاد جميع المطلقات وإحلال مطلق وحيد مكانها وهو حرية الفكر الكاملة، وكما تحدث مهاتير محمد: « إنكم ستفاجؤون عندما تعرفون أن ٥٠٪ من التعاملات المالية عبر الإنترنت في مجال المنتجات الإباحية، وبينما نحن المسلمين نغطي عوراتنا بكل طاعة واتباع لديننا، فإننا نجبر على استعراض أفحش الصور والأفلام على الإنترنت وتتهدد أخلاقنا وأخلاق أطفالنا والأجيال المقبلة حتى يصبح اعتناقنا للإسلام بلا معنى»^(٢)، وكما يقول الكاتبان الألمان: « إن ثمة جهوداً خارقة تبذل لكي يتخذ العالم صورة واحدة، ولا ريب في أن المحصلة النهائية لمثل هذا التطور ستكون

(١) العولمة والتحولات المجتمعية، فصل التسوية في زمن العولمة، للدكتور حسين معلوم، مقتطفات (ص ١٢٨ - ١٣٠).

(٢) المجتمع، العدد (١٤٠٩).

في المجال الثقافي سيادة الصراخ والزعيق الأمريكي بمفرده في العالم أجمع»^(١).

١٠ - الإسلام يوازن بين القطاعين العام والخاص وبين واجبات الدولة وواقع الأفراد.

والعولمة تسعى إلى الخصخصة وإلغاء القطاع العام، وإلغاء وظيفة الدولة، فتبرر العولمة « نقل الملكية من العام إلى الخاص بأنها تؤدي إلى:

- تقليص الأعباء المالية للدولة بالتخلص من المنشآت العامة الخاسرة.

- تحسين كفاءة ومردودية الاستثمار والموارد.

- تحسين الكفاءة الاقتصادية عامة باعتماد آليات السوق والمنافسة، والاستفادة من

مشاركة رأس المال الأجنبي»^(٢).

بينما ينطلق الإسلام من أن الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، وهو الذي يكبح جماح الاستغلال والاستثمار والاحتكار، ويقيم المشاريع للعاطلين عن العمل، ويوجد الفرص لهم، ويفسح المجال لحركة المال الخاص، ويزيل العقبات أمامه، فهو يوازن موازنة تامة بين الحرية والعدالة، ويفسح المجال للجهد والإبداع العلمي والمعلوماتي والمادي لأوسع الآفاق وبلا حدود، ضمن المبدأ الاقتصادي العام الخالد: « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، ولا تغفل لو أنني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان »، ولا فصل أبداً بين الروح والمادة، فكلاهما طريق لمرضاة الله، ﴿ كَلَّا نُمِدُّ هُنَّا لَكُمْ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

ثانياً: هل من لقاء؟

أ - في التطبيق العملي:

وفي ضوء ما سبق يمكننا أن نقول أن التطبيق العملي للعولمة ومبادئه الأساسية يتمثل

فيما يلي:

١ - الخصخصة.

٢ - الانفتاح.

(١) فخ العولة (ص ٤٩، ٥٠).

(٢) الخصخصة وأبعادها الاجتماعية والاقتصادية، للدكتور نبيل مرزوق (ص ١٦٤، ١٦٥).

٣ - الصرف العائم.

٤ - تخفيض مصروفات الدولة.

٥ - إلغاء التقنين من أجل إطلاق الحرية لفعل الأسواق.

٦ - وضع الشركات العالمية وقدرتها في السيطرة على الأسواق.

فكلها طرق مفتوحة يمكن الولوج إليها دون حرج مع مراعاة التوازن مع العدالة. ويمكن القول لحد ما أنه لا تعارض بينها وبين الإسلام ضمن تحفظاته، فلا يمكن أن يُضحي بالعدل لصالح الثروة وبالفقر لصالح الغني، ودليل ذلك تعامل دولة السودان الإسلامية فيها، فقد قبلت السودان خلال سنوات حكم الإسلاميين فيها كل شروط صندوق النقد الدولي ورفع القطاع العام يده عن كثير من المشروعات الإستراتيجية مثل المواصلات والاتصالات، ورفعت الدولة الدعم عن التعليم والصحة، ويشجع النظام الحاكم (الإسلامي القطاع الخاص والمبادرة الفردية).

ب - تقارن لمبادئ النظرية:

ويقول أحد خصوم الإسلام ودعاة العولمة: «أما على الصعيد النظري فتلتقي مبادئ الاقتصاد الإسلامي التي يعلنها المسلمون مع الرأسمالية والملكية الخاصة والحرية، فهم ينطلقون من فكرة الاستخلاف؛ لأن الأصل في الملكية لله وحده، أما بالنسبة للبشر المستخلفين فالملكية لها أسباب حققتها، فإما ناتجة عن ممارسة الإنسان لنشاط معين فكانت ناتجة عن جهده وسعيه، أو يكون مصدرًا إلهيًا تشريعًا كملكية الإرث والميراث، كذلك يضع في الاعتبار الفطرة - أي الطبيعة البشرية - وما فطرت عليه، فلم ينظر لغريزة التملك على ضرورة قتلها في النفس البشرية، ومن ناحية أخرى فالربح ليس له حدود^(١).

يقول الشيخ طنطاوي: «أما ما يتعلق بالربح فليس هناك ما يدل على تحديده في مجال من المجالات ما دام هذا الربح قد أتى عن طريق مشروع وتم بالتراضي المشروع بين الطرفين ولم يكن فيه ما يدل على الاستغلال أو الظلم أو الغش أو غير ذلك مما تأباه شريعة الإسلام، شريعة العدل والتراحم والمسامحة»^(٢).

(١) إشكالية الحركة الأصولية في الوطن العربي، لحيدر إبراهيم علي.

(٢) هي قضية خلافة، فهناك من يمنع (الربح الفاحش).

ج - الثورة المعلوماتية:

أما الثورة المعلوماتية، فليس لها هوية إنما هي ملك لمن حصل عليها، بل يحث الإسلام على أن يسبق المسلمون غيرهم في ذلك، ولعل ما تقدم كافٍ لعرض العولمة ما لها وما عليها في ميزان أهلها وفي ميزان خصومها وفي ميزان الإسلام.

ملخص البحث:

ونصل بعد هذا العرض إلى النتائج التالية:

١ - للعولمة اصطلاحات وتعريف عدة أجمعها: هو تعبير يطلق على الحقبة التاريخية التي تبدأ منذ سياسة الوفاق ونهاية الحرب الباردة بين القطبين، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وهي تجل لمظاهر اقتصادية أهمها تحرير الأسواق، وخصخصة الأصول، ونشر وتوزيع الإنتاج عبر القارات من خلال الاستثمار الأجنبي المباشر والتكامل بين الأسواق الرأسمالية، والاعتماد على سمو القدرات التكنولوجية وتتسم بهيمنة القيم الأمريكية على المؤسسات والنظم من خلال التمسك بمبادئ الرأسمالية الديمقراطية وإحياء دور المجتمع المدني في مجال التنمية.

٢ - الأوضاع التي أدت إلى العولمة هي:

أ - تضخم الأسعار.

ب - خسارة المصانع المؤممة.

ج - انخفاض الرغبة في العمل من قبل القادرين عليه.

د - هروب الرساميل إلى دول آسيا الشرقية.

هـ - بروز النمر الآسيوية الأربعة.

و - استفحال البطالة.

ز - منح الثقة للمحافظين.

٣ - المكونات الست للعولمة:

أ - نمو التجارة العالمية.

ب - زيادة توفيق الاستثمار الأجنبي.

- ج - الاستثمار المالي.
- د - الدور المتزايد للشركات متعددة الجنسيات.
- هـ - الهجرة.
- و - التكتلات الاقتصادية.
- ٤ - مثلث إدارة العولمة الجديدة:
- أ - الضلع النقدي.
- ب - الضلع المالي.
- ج - الضلع التجاري.
- ٥ - الخطوط العريضة للعولمة:
- أ - تأمين الإطار المستقر للسوق.
- ب - سياسات التكيف الهيكلي بتنفيذ شروط البنك الدولي.
- ج - تطبيق البرامج المطروحة.
- د - الخصخصة.
- ٦ - آثار تطبيق العولمة الاقتصادية:
- أ - استمرار العجز في المديونية التجارية وزيادته.
- ب - الاستعمار الجديد.
- ٧ - العولمة المضادة:
- أ - العولمة الأوربية.
- ب - العولمة الآسيوية.
- ج - العولمة الإسلامية، والعولمة الإسلامية من خلال خطين:
- (١) بناء نهج خاص للعولمة من خلال القيم الإسلامية والترويج لها.
- (٢) توكيد الواقع الاقتصادي والتكنولوجي للدول الإسلامية مثل باكستان وإيران وإندونيسيا وماليزيا.

- ٨ - رأي دعاة العولمة العرب في الإسلام:
- أ - الإسلام قام على العقيدة، والعولمة تقوم على هزيمة الاقتصاد.
- ب - الإسلام دين المتخلفين.
- ج - الأصولية في مواجهة التحديث والعولمة.
- د - أسلمة الحداثة أم تحديث الإسلام. ويلخص د. أمين رأيه بقوله: «إن الصحوة الإسلامية هي موجة رجعية تنخرط في استمرار فكر عصور الانحطاط، والمسلمون نتاج مجتمع فلاحى، الإسلام يقدم نفسه المطلق الوحيد بينما النسبية هي المطلق الوحيد».
- ٩ - العولمة والعرب:
- أولاً: في النظام العالمي الجديد سيقوم النظام الدولي باختراق القوميات، وتفتيت بعض الدول والكيانات إلى كتل اقتصادية تابعة لأوروبا أو أمريكا.
- ثانياً: الخطط المتتابة التي يشهدها العالم اليوم ترتبط عمومًا بالمشروع السياسي الأمريكي الذي يهدف إلى توحيد العالم من خلال رأسمالية السوق.
- ثالثاً: تصفية القضية الفلسطينية، وتسوية الصراع التاريخي بين العرب وإسرائيل ينسجم مع المصالح الأمريكية التي تدرك أن محور النفوذ العالمي يتمثل في جزء منه في السيطرة على الشرق الأوسط اقتصاديًا وعسكريًا.
- ١٠ - في إطار التحول الدولي السريع إلى مرحلة التكتلات العملاقة، فتحاول العولمة الأمريكية العمل على تحويل ثقل الرأسمالية العالمية من أوروبا إلى الشرق الأقصى في محاولة احتضان ١٨ دولة في متدد دولة منطقة إيبك الذي يضم نصف سكان العالم فيه الصين واليابان وأمريكا ودول جنوب شرقي آسيا.
- ١١ - وفي هذه الخطة تسعى أمريكا لاحتواء الأدوار العربية، ودمجها في منظومة إقليمية مع إسرائيل (المنظومة الشرق أوسطية)، وذلك في مواجهة اتحاد أوروبا الغربية الذي يضم كتلة قوامها ٨٠٠ مليون نسمة تسكن ٤٠ دولة بما فيها دول الشمال الإفريقي المطلة على البحر المتوسط وتلك الواقعة إلى الشرق منه.
- ١٢ - وبين هذين المحورين، محور (الشرق أوسطية) الأمريكي، ومحور (المتوسطية) الأوربي يتم الصراع للسيطرة، حيث تدرك أمريكا أن مصالحها الاقتصادية في هذه المنطقة تستطيع التحكم في العالم من خلالها.

١٣ - ومن خلال التسوية العربية الإسرائيلية التي طرحها شيمون بيريز مهندس أطروحة إسرائيل الكبرى اقتصاديًا وتكون عناصرها: النفط السعودي، الأيدي العاملة المصرية، المياه التركية، التقنية اليهودية أو العقول الإسرائيلية، حيث يضع العرب في متاهات الشرق أوسطية الجديدة، والتي يكون فيها الاقتصاد الإسرائيلي هو المسيطر على الساحة.

١٤ - وفي الحديث عن سورية والعولمة، يعتقد الحكام السوريون أن التحدي الأكبر الذي يواجههم هو تحدي العولمة التي تريد أن تنسف القطاع العام، والموقف الصحيح لهذه المواجهة هو السعي لتوليفة تضم القطاع العام والخاص وتشرف عليه الدولة، فالتجارب الوحيدة التي نجحت هي التي اعتمدت على أولوية الدولة والمزاوجة بين القطاعين الخاص والعام.

١٥ - هنالك ضغط كبير على سوريا من أجل الانضمام إلى اتفاقية التجارة الحرة، إضافة إلى تحديات تحرير التجارة في إطار السلام العربي الإسرائيلي، الذي يسعى إلى تحويل القلب العربي إلى قلب إسرائيلي يتلعب الاقتصاد الأردني والفلسطيني والسوري إذا لم يقف على قدمه.

١٦ - ويمكن لسورية أن تكون البديل عن إسرائيل إذا ارتبطت مع الاقتصاد اللبناني والفلسطيني والأردني لتشكيل النواة الاقتصادية المواجهة للاقتصاد الإسرائيلي، ولكن هذا لن يكون في ظل اقتصاد يعاني أسوأ أزمة ركود اقتصادي، وإذا كانت العولمة هي مجتمع الخمس مقابل الثمانين، فهذا قائم في سورية اليوم في ظل الاقتصاد الاشتراكي الذي يريد أن يتحول إلى الاقتصاد الحر بعد أربعين عامًا من الممارسة.

١٧ - إن أبعاد العولمة الصهيونية تنطلق من خلال المبادئ التي تحملها في السيطرة على العالم لأنها تمثل شعب الله المختار الذي أبيحت له ثروات الأمم وأرواحها، ومن خلال الربا الذي هو المركز الرئيسي للعولمة، فالفكر الصهيوني يحمل هاتين النقطتين: (إن الله سلط اليهود على الأجانب، فأخذ أموالهم وسلمها لليهود) و (مسموح غش الأمي وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش وغير مصرح لليهودي أن يُقرض الأجنبي إلا في الربا).

١٨ - صورة اليهود في القرآن في أكلهم السحت وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل، إضافة إلى صورتهم في كنز الذهب والفضة واحتجاز ثروات العالم.

١٩ - والصورة العلمية للعولمة القديمة من خلال سيرة قارون الذي بغى وجمع من الأموال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، ورفض وظائف المال الأربعة، واعتبر كل ما يملكه من حقه ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨]، وهذه صفة المجرمين.

٢٠ - كما تبرز العولمة الصهيونية من خلال التلاحم الإستراتيجي بين أمريكا والصهيونية والمتمثل في التماهي الثقافي والأيدولوجي للمجتمع السياسي والأمريكي والضغط اليهودية على صانعي القرار الأمريكي.

٢١ - ومن خلال مراجعة التيارات الثلاثة المتحكمة في القرار الأمريكي والتي تمثل علاقة تنسيق لا تنافر تنتهي كلها بخدمة المشروع الصهيوني.

٢٢ - وكانت إدارة كلينتون هي الأكثر يهودية في القرن العشرين، ويدهش المراقب حيث يقرأ هذه القوائم اليهودية للمنفذين في الإدارة الأمريكية من مسؤولين كبار في الوزارات السيادية ومنها الخارجية والدفاع والخزانة والأمن القومي وكذلك السلك الدبلوماسي والأسواق المالية والإعلام والسينما بالإضافة إلى الجريمة، فهناك ٦٤ مسؤولاً كبيراً في الإدارة الأمريكية، كما أن هناك ٢٣ سفيراً أمريكياً من اليهود، و ٣٦ عضواً في الكونجرس.

٢٣ - وكانت ماليزيا بمقدمة الدول الإسلامية التي حققت نهضة اقتصادية في ظل العولمة، ولم تقع في فخها، وكان من الممكن أن يصل دخل الفرد الماليزي في عام ٢٠٢٠م من ثروة بلاده إلى أربعة آلاف دولار لولا الضربة التي وجهها سيروس اليهودي للاقتصاد الماليزي، وكاد أن يحطمه لولا ثبات مهاتير محمد وإنقاذ اقتصاده.

٢٤ - وفي مؤتمر الإسلام والعولمة الذي عُقد في ماليزيا ركّز مهاتير محمد رئيس الوزراء الماليزي على أهمية دراسة التاريخ الإسلامي مع استعراض عام له، واستنباط الدروس المستفادة من ذلك، وأهمها التزام الأخوة الإسلامية، والاهتمام بالثقافة والمطالعة، ومواكبة عصر المعلومات.

٢٥ - تحدث بشكل خاص عن تجربة ماليزيا مع العولمة، وما عانت من سلبياتها وآثارها الخطيرة، وكيف حاولت الاستفادة من إيجابياتها.

٢٦ - نقد العولمة وتعربتها على يدي عالمين ألمانين في كتابهما « فخ العولمة »، وكشفوا زيف ادعائها من خلال الآتي:

أ - مجتمع الخمس الثري والأربعة أخماس الفقراء، والمسألة في المستقبل إما أن تأكل وإما أن تؤكل.

ب - إن ٣٥٨ مليارديراً يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه ٢,٥ مليار من سكان المعمورة، وسيطرة الاستعمار الثقافي الأمريكي.

ج - المضاربون في سوق المال أصبحوا يتحكمون في رفاهية وفقير الدول والأمم دون أن توجد سلطة لمحاسبتهم.

د - شريعة الذئاب التي تمضي في رفع مستوى البطالة الذي بلغ في أوروبا وحدها ٤٠ مليون مواطن كلهم ضحايا السوق العالمية.

هـ - كانت المكسيك أول ضحايا العولمة حيث أعلن إفلاس خمسة عشر ألف مشروع وفقد ٣ ملايين مواطن فرص عملهم.

و - خروج النمر الآسيوية على العولمة في إطار السيطرة السياسية على الدولة ونمو اقتصادها هي مهمة المستقبل في جو العولمة.

ز - لينقذ نفسه من يستطيع، ولكن من هو الذي يفلح؟ في جو ضمور الطبقة الوسطى، وبزوغ نجم المضللين وتسارع عملية الهدم للأمم.

ح - انحطاط السياسة، ومستقبل السيادة الوطنية، وتوافق مصلحة دعاة التجارة الحرة مع مصلحة مرتكبي الجرائم.

النقد الجديد للعولمة من خلال منتدى دافوس الاقتصادي، وبعد عشر سنوات من النقد السابق يتجاهل أصوات الفقراء:

أ - وقد قام منتدى بورتو المعاكس في شباط (٢٠٠١ م) في وقت انعقاد مؤتمر دافوس الذي طالب بإنشاء صندوق لفقراء الدول النامية، ونددوا بقواعد التجارة الدولية القائمة، واقترحوا إقامة نظام للمساواة العادلة بين الدول.

ب - والسؤال المطروح: هل أسمع صيحات المقهورين وتظاهراتهم سدنة العرابة أم أنها وقعت على آذان صماء في مراكز صنع القرار الاقتصادي المنهكة بالتبشير بنهاية عهد الدول والحكومات، وبداية عصر السوق المتفتل من القيود.

ج - تشير التقارير إلى أن قيمة ديون الدول النامية ارتفعت من ٥٢٠ مليار دولار في

عام (١٩٨٠م) إلى ٢٠٧٠ مليار عام (٢٠٠٠م)، أي ستة أضعاف ما كانت عليه رغم أنها سددت ٣٣٥٠ مليار خلال نفس الفترة، فكانت كلها فوائد متراكمة.

د - لقد كان أثرياء العالم ومجرموه على رأس الحاضرين في منتدى دافوس الذين ترتفع ثرواتهم عن ٥ مليار دولار.

هـ - وستبقى هذه الأزمة قائمة ومتفاقمة ما لم يحتكم البشر إلى شريعة الله التي تجعل حق الله في أموال الأغنياء، وأنه ما جاع فقير إلا بما بطر به غني، والانطلاق من مقولة الصديق: «والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه».

٢٨ - في دراسة الإسلام والعولمة يضع مهاتير محمد مخطط مواجهتها عملياً في تخطيط ثرواتنا الوطنية والتسابق في سوق العلم.

٢٩ - في المجال النظري: هناك نقاط التقاء ونقاط افتراق بين الإسلام والعولمة نوجزها بما يلي، أما نقاط الافتراق فهي:

- أ - الإسلام دين رباني والعولمة فكر بشري قاصر.
- ب - فلسفة العولمة الحرية المطلقة، وفلسفة الإسلام العدل المطلق.
- ج - أساس العولمة الربا الحرام، وفي الإسلام الله ورسوله حرب عليه.
- د - العولمة تكديس للثروة بيد حفنة ضئيلة، والإسلام يسعى لكي لا تكون الثروة دولة بيد الأغنياء.

- هـ - العولمة رفض للقومية والوطنية، والإسلام يحافظ عليهما ضمن مبادئه.
- و - الإسلام حرّر البشرية، والعولمة استعبدتها.
- ز - العولمة حرية مطلقة، والإسلام حرية مقيدة.
- ح - في الإسلام المال مال الله والبشر مستخلفون فيه، وفي العولمة المال للأقوى.
- ط - الإسلام دين الأخلاق، والعولمة دين الحرية والإباحية.
- ي - الإسلام يوازن بين القطاعين العام والخاص، وتقوم العولمة على الخصخصة.
- ٣٠ - ما دون ذلك فوسائل العولمة تدخل ضمن إطار المباح والمصلحة الإسلاميين مع المحافظة على مبادئ الإسلام وقيمه.

(٥)

الحريةالحرية لغة واصطلاحاً:

الحرية كلمة لها بريق عالمي وإنساني جذاب، طالما تغنى بها الشعراء، وأريقت من أجلها الدماء، وألفت حولها الكتب والمجلدات، ومع هذا كله فمن الصعب وضع تعريف محدد لها.

أما المعنى اللفظي لها، فلعله أقرب ما يكون لمضامينها، « فالحر: بالضم خلاف العبد، وخيار كل شيء... »^(١). والحرية: « الخلو من الشوائب أو الرق أو اللؤم، وكون الشعب أو الرجل حراً »^(٢).

وحديثاً أصبحت كلمة الحرية تملأ الأفق بصفتها شعاراً مرافقاً للأهداف الإنسانية أو أصل هذه الأهداف، فقد كان شعار الثورة الفرنسية في القرن التاسع عشر (حرية، عدالة، مساواة)، وشعار الأحزاب القومية المعاصرة (الوحدة، والحرية، والاشتراكية)، وشعار (الإخوان المسلمين) كبرى الحركات الإسلامية حديثاً: (الحق والقوة والحرية)، وفي هذا المسار نجد كلمة الحرية تنطلق من معنيين كبيرين:

المعنى الأول: وهو الذي ساد الشعوب المغلوبة وهو التحرر من الاستعمار، وهو الأمل الذي كان يرفرف على قلوب شعوب العالم الثالث في القرن العشرين.

المعنى الثاني: الحرية السياسية، وهي التي سادت العالم الحر المعاصر أو الدول الديمقراطية الغربية، حيث توسع مداها بحيث يشمل كل إنسان في هذه المجتمعات، ولا تزال التشريعات مستمرة في توسيع وتحقيق مضمون الحرية للوصول إلى المعنى الأساسي اللفظي، خير كل شيء.

(١) القاموس المحيط (ص ٤٧٨).

(٢) المعجم الوسيط (١/ ١٦٥).

الحرية وخلق الإنسان الأول:

إن العودة إلى خلق الإنسان الأول يعطينا صورة كاملة عن مفهوم الحرية للإنسان، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لَكُمْ أَنْبَاءُ مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

فإرادة الله اتجهت إلى خلق مخلوق غير الملائكة، عنده قدر من العلم يستطيع أن يخلف الأرض ويعمرها، فهو صاحب مسؤولية، وهذا هو المعلم الأول. والمعلم الثاني: ﴿وَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] فقد أعطاه الحرية بقيد واحد فقط هو عدم الأكل من الشجرة وهي تجربة على ممارسة الحرية، فهو مخلوق مسؤول مختار، حر بقيد، فلا حرية في الكون بلا قيود.

أما المعلم الثالث: فهو تحمل المسؤولية، ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. فقد أكل من الشجرة، وتلقى عقوبة المخالفة وأهبط إلى الأرض.

فالقيد الذي وضع على حريته لا يعني أنه لا يستطيع أن يمارس حريته، إنما يمارسها ويتحمل مسؤولية المخالفة، فهو قادر على الطاعة وقادر على المعصية، لكن عليه أن يستعد لتحمل مسؤولية هذه المخالفة في الدنيا والآخرة، فما من مخالفة منهج الله إلا وظلم معه يحيق بالنفس والآخرين ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الشيء الوحيد الذي فرض على الإنسان دون إرادته ومشيتته هو خلقه بهذه الصيغة وبهذه الصورة، فهذه إرادة ربانية لا ندري كنهها وسرها إلا بما علمنا الله عنها جل شأنه.

أما بعد الخلق فالمسؤولية والأمانة تمت على اختيار وقناعة ولم تفرض فرضاً من رب العالمين، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فنحن أمام عرض رباني وقبول بشري، ولقد كان هذا ابتداءً لكل مخلوق في هذا الوجود عندما كان في عالم الأرواح.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٣﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

فلم يكن العرض (أنا ربكم فآمنوا بي)، إنما كان: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

المفاهيم المختلفة للحرية:

أ - في النظرة الغربية:

«لقد كانت الروح العدمية هي المسيطرة على فلسفات الحرية حيث صورت الإنسان الحر كائنًا معزولًا قلقًا محطماً لا يرى سبيلاً إلى حريته غير تحطيم كل الروابط والقيم التي تشده إلى غيره مما لم يبق معه معنى لوجوده الحر غير الانتحار والعبث.. وتمثل الوجودية الملحدة مع سارتر وكامو خير نموذج لهذه الحرية العدمية»^(١)، وهذه صورة من حوار الحرية عند برناردشو بين (كيغان) اللامتمي، و (برودينيت) الواقعي.

«كيغان: إن هذا العالم يا سيدي بكل وضوح مكان تعذيب وعقاب، مكان ينال فيه الأحق كل شيء، ولا ينال فيه الطيب والحكيم إلا الكراهية والاضطهاد، مكان يعذب فيه الرجال والنساء بعضهم بعضاً باسم الحب، ويُستعبد فيه الأطفال باسم الواجبات الأبوية والتربية، ويعذب فيه ضعفاء الأجساد باسم العناية الصحية، ويُوضع فيه ضعاف العقول في عذاب السجن المفزع لا لساعات بل لسنوات باسم العدالة، إنه مكان يعتبر فيه العناء والشقاء الملاذ الوحيد من السأم والرعب اللذين تتصف اللذة بهما.. والآن يا سيدي فإن ديني لا يعرف إلا مكاناً واحداً للرعب والعذاب، وهذا المكان هو الجحيم، ولهذا فإن الواضح أن أرضنا هي الجحيم وأنا هنا للتكفير عن جرائم سبق لنا أن اقترفناها في وجود سابق...»

برودينيت:.. يلوح لي أنك تهمل التفكير في بعض الشرور التي وصفتها ضروري للمحافظة على المجتمع، أما الشرور الأخرى فلا يشجعها إلا المحافظون حين يكونون

(١) الحريات العامة في الدول الإسلامية (ص ٣١).

في الحكم، وإني لأجد العالم مناسباً لي بل إنه مكان بديع في الواقع.

كيغان: (ناظرًا إليه بدهشة شديدة) هل أنت قانع؟

برودينيت: كرجل عاقل، نعم فليس هنالك في هذا العالم - ما عدا الشرور الطبيعية طبعاً - شر لا تستطيع الحرية والاستقلال والنظام الإنكليزي أن تصلحه، ولست أظن ذلك لأني إنكليزي، وإنما لأن ذلك أمر معروف لكل إنسان.

كيغان: وعلى ذلك فأنت تحس بكامل حريتك في هذا العالم؟

برودينيت: بالطبع ألا تحس أنت أيضًا بذلك؟

كيغان: (من الصميم) لا.

برودينيت: (ببساطة) جرب حبوب الفوسفور، إنني أستعملها كلما شعرت بتعب ذهني^(١).

« غير أن البحث عن الحرية ما لبث أن غادر الميتافيزيقا واتجه إلى مجالات تمكن بها الرؤيا بشكل أوضح مثل المجال الأخلاقي والقانوني والسياسي، فانصب البحث على علاقة الإنسان بالمؤسسة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأصبح الحديث عن الحريات (بالجمع) بدل الحديث الفلسفي عن (الحرية)، لقد غدت الحرية هدفًا لنضال الشعوب المستضعفة والطبقات المضطهدة والضمائر الطيبة أكثر منها مادة لتأملات المفكرين^(٢).

لقد كانت الحرية ابتداءً تحررًا من الدين (النصراني)، ثم صارت تحررًا من سيطرة الملوك والإقطاعيين، ثم صارت الحرية سيطرة على السوق والدولة، ثم سيطرة على العالم، لقد كانت الثورة الأمريكية، ثم الثورة الفرنسية قد أججت موضوع الحرية وصاغته في أنظمة للحكم تضمن للمواطن ألا يكون لأحد سيطرة عليه لا للدين ولا للإقطاع ولا للملوك، وصاغته الدول الغربية في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

« وتعلق هذه الحريات بالصراع الذي دار بين الطبقة الجديدة (التجار وأرباب الصناعة من جهة، وملوك الإقطاع والكنيسة من جهة أخرى)، فناسب مصالح الطبقة الجديدة المناداة بحقوق للإنسان كإنسان لا سلطان عليه لملك أو رجل دين أو إله،

(١) برناردشو، المسرحيات الكاملة.

(٢) الحريات العامة في الدولة الإسلامية (ص ٣٢).

كما ناسب إزالة سلطان الكنيسة الدعوة إلى أوطان قومية تقوم فيها المواطنة على أساس لا صلة له بالدين إن لم يكن منوطاً له، وأن تزال جملة الحواجز التي فرضتها الطبقات القديمة على أعمال التجارة والصناعة»^(١).

« والمتأمل في تاريخ التجربة السياسية الأوروبية التي روجت المفهوم الوضعي المعاصر للحرية يرى كيف تحرر الإنسان يوماً ما من التسلط العالمي المتمثل في البابوية والإمبراطورية ليتورط لنهوه في أسر السلطان المحلي الذي قام ينزع ذلك السلطان العالمي، ويفرض الولاية على رقاب الرعية باسم الكنائس القومية والملكيات المستقلة والثورات الوطنية، ويرى المرء كيف تحرر الإنسان الأوروبي من النبلاء المحليين ليقع تحت سيطرة سلطة مركزية أسيراً للملك المركزي الذي بدد شمل هؤلاء المحليين في سلطة مركزية مطلقة، وكيف تحرر الإنسان في تجربته الاقتصادية من الطغيان التجاري للدولة ومن العقار العقاري للنظام الفيودالي الإقطاعي ليقع أسيراً للطبقات الرأسمالية أو للبيروقراطية المتمكنة باسم الاشتراكية، ثم التمس الإنسان التحرر الآثم في الليبرالية والعدالة الاقتصادية، ولكنه بالغاً في ذلك ما بلغ وقد ألقى بنفسه متورطاً بماديته في أهواء الاقتصاد والترف مسخراً كل العلم والجمال، مضحياً بكل العدالة والطمأنينة من أجل الشهوات الاقتصادية: وللمرء أن يتأمل أيضاً كيف انتهى التحرر الاجتماعي من التقاليد والأطر الضابطة إلى الارتواء في فتنة الجنس واللذة والمخدرات ونحو ذلك»^(٢).

ب - في النظرة الشيوعية:

جاء في كتاب المادية التاريخية (ص ٤٥٧) من الترجمة العربية:

« مع الانتقال إلى الإقطاعية صارت الأخلاق الإقطاعية هي السائدة، فهي لا تنظر إلى القرن كشيء وإنما كإنسان من الدرك الأسفل (العظم الأسود)، بينما كانت تنظر إلى ممثلي الطبقة السائدة كبشر من الصنف الممتاز (العظم الأبيض)، وإلى جانب هذا فقد كانت الأخلاق الإقطاعية تخفي ظلم الإقطاعيين الوحشي للفلاحين، وتُقنّع الشكل الإقطاعي للاستغلال... إن دين المجتمع الإقطاعي قام بتفسير الأخلاق السائدة وبوضع الأسس لها، إذ صوّر لمطالبها وحدودها التي تعبر في الواقع عن مصالح الإقطاعيين

(١) الحريات العامة في الدولة الإسلامية (ص ٣٢).

(٢) قضايا الحرية والوحدة، د. حسن الترابي (ص ١٣، ١٤).

كأوامر إلهية، والأخلاق الإقطاعية التي ارتكزت على الدين ساعدت على كبح جماح جماهير الفلاحين المسحوقة السوداء».

أما في ظل الرأسمالية فقد حدث تقدم ظاهري يخفي المضمون الحقيقي للأخلاق الطبقيّة الاستغلالية، جاء في نفس الكتاب (ص ٤٥٨ - ٤٥٩ من الترجمة العربية):

« ومع هذا فقد أحرز التقدم الاجتماعي خطوة إلى الأمام على صعيد الأخلاق فالأيديولوجيون البورجوازيون إذ يناضلون ضد الأيديولوجية والأخلاق الإقطاعيتين، ناضلوا في سبيل حرية الفكر وحرية النشاط من أجل تحرير الفرد من كل القيود الإقطاعية الممكنة، ولكن مع انتصار الرأسمالية ينكشف المضمون الحقيقي لأفكار الحرية والمساواة الإنسانية البورجوازية، فالمساواة شكلية وهي تخفي تبعية العامل للرأسمالي، والاستغلال الشديد الوطأة للمنتج المباشر، المقيد اقتصادياً من قبل الرأسماليين بقيود أقوى من أية قيود حديدية أخرى، إن الحرية البورجوازية هي تمتع الرأسماليين بحرية نشاط المؤسسة، وفي الاستيلاء على عمل الآخرين وهي بالنسبة للبروليتاريا بيع قوت عمله أو الموت جوعاً.. إن مبدأ الفردية هو السائد في سلوك البورجوازي إلا أنه ليس من مصلحة البرجوازية أن تعلن عن مصالحها الجشعة بصورة سافرة ومكشوفة، إن البرجوازي يسعى لتبرير أنانيته وفرديته في الوعي الأخلاقي، إذ يصور السعي لبلوغ أهدافه الجشعة في صورة اهتمام بالمصلحة العامة، وهنا تتجلى الفردية الحيوانية (كحرية الفرد)، ويتجلى استعمار العمال (كإنقاذ للمحرومين من الطعام) و (كتقديم الخبز للجائعين)، ويتجلى إنتاج السلع من أجل الحصول على الأرباح (كتأمين للمواد الضرورية للمجتمع)، ويتبدى استعباد الشعوب الأخرى كعملية (تمدين) لها؛ ولهذا فإن ما يميز الأخلاق البورجوازية هو طابعها المنافق عندما تتقنع شريعة الغاب في عالم الملكية الخاصة من تعاليم الأيديولوجيين البورجوازيين »^(١).

ويُعلّق الأستاذ محمد قطب على هذا التحليل قائلاً: « هذا أيضاً صحيح.. لأن الرأسمالية نظام جاهلي بحت^(٢) وكيف تتحقق الحرية في الفكر الشيوعي؟ بالديكتاتورية ».

« وأكثر وسيلة فعّالة لتحقيق ذلك هي قيام البروليتاريا (طبقة العمال) بثورة تطيح

(١) مذاهب فكرية معاصرة، للأستاذ محمد قطب (ص ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) الصفحة نفسها هامش (ص ٣٠٠).

بالنظام الرأسمالي بواسطة القوة، وقد رفض ماركس أسلوب التدرج لأنه يرى أن جميع الجهود الرامية إلى تحويل الرأسمالية على نحو تدريجي من شأنها أن تلقى الهزيمة على يد السلطة (الطبقة الرأسمالية الحاكمة)، ولا يمكن للجهود التي تبذلها الحكومات كيما تعدل أنماط التوزيع أن تؤدي إلى اشتراكية ناجحة، فلايجاد مجتمع شيوعي حقيقي يتجلى فيه المثل الأعلى القائل: من كل حسب استطاعته، ولكل حسب حاجته، لا بد أن تتعرض الرأسمالية إلى تحويل ثوري، فبعد أن تقوم الجماهير بتصفية البورجوازية، وتأميم وسائل الإنتاج ذات الملكية الخاصة، فإنه سيخلفها مجتمع راشد تقدمي خالٍ من الأجور والنقود والطبقات الاجتماعية، وفي خاتمة المطاف خالٍ من الدولة تجمع حر المنتجين في ظل رقابة خاصة بهم واعية هادفة، فسقوط البورجوازية وانتصار البروليتاريا أمران محتمان على حد سواء.

ثم ماذا كانت النتيجة: انتظرت البشرية سبعين عامًا لتحقيق هذا الحلم، وتبين أنه سراب، فقد قامت دكتاتورية الدولة، فبعد عشرين عامًا من قيام الثورة الشيوعية كان سبعين بالمائة من قادتها يعدمون رميًا بالرصاص، كما يقول خروتشوف في بيانه التاريخي الذي ألقاه في المؤتمر العشرين للأحزاب الشيوعية حيث يقول: وقفت على حقائق كثيرة من تلفيق بعض القضايا ضد الشيوعيين مخلصين، ويبين من تلك الوثائق أن من بين المائة والتسعة والثلاثين عضوًا الذين انتخبوا في المؤتمر السابع عشر ثمانية وتسعون - أي حوالي ٧٠٪ - اعتقلوا وأُعدموا رميًا بالرصاص خلال عامي (١٩٣٧، ١٩٣٨ م) على وجه الخصوص^(١)، وتبين أن دعوة ستالين التي أطلقها عام (١٩٣١ م) لتقليص المسافة التي تفصل بين الاتحاد السوفيتي والبلدان المتقدمة خلال عشر سنوات تبين أنها ضرب من الوهم، كما أن حلم خروتشوف في سد الهوة خلال عقد الستينيات لم يتحقق، فقد أدى انخفاض معدلات النمو إلى اتساع الهوة المطلقة بين اقتصاد الولايات المتحدة والاقتصاد السوفيتي). وذلك بعد أن ضحوا بـ ١٠ ملايين إنسان لإنجاح الثورة، ومارسوا أبشع ضرب من الدل والدكتاتورية باسم رفاهية الشعوب، (وها نحن نقف وقد رأينا في عام (١٩٩١ م) سقوط الفكر الماركسي على المستوى العالمي بانتصار الرأسمالية التي تعتمد الملكية الخاصة وامتداداتها الفكرية سياسيًا.... وبذلك نعود إلى نقطة البداية

(١) الشيوعية والصهيونية توأمان (ص ٧٢، ٧٣).

والأصل.. التي تؤكد ضرورة بقاء الدولة حيادية التوجه، فنية التحليل، وتعتمد في معالجتها الحلول التي تؤكد حق الملكية الفردية وحق الإرث، وحق المبادرة الحرة، وحق الاختيار، وحق التنافس والمنافسة بين الأفراد وبقية حقوق الإنسان المعاصر»^(١).

ج - الحرية في المنظور الإسلامي:

تختلف الحرية في المنظورين الغربي والشيوعي عنها في المنظور الإسلامي في المنطلق وفي المسؤولية وفي الهدف، فالحرية في المنظور البشري إنما هي نتيجة صراع اجتماعي وتصور بشري قاصر، يقر اليوم ما ينقضه غداً، أما الحرية في المنظور الإسلامي فهي هبة ربانية وهي « قدر الإنسان الذي تميز به عن كل مخلوق سواه، فمهما كانت الأشياء تسجد لله كرهاً، ومهما سجد كذلك العنصر المادي من جسم الإنسان فإنه بإرادته حر مختار إن شاء عبد الله تعالى طوعاً، وإن شاء كفر، ذلك هو قدر الإنسان الطبيعي وهو كذلك حكمه الشرعي.

... وما دام كذلك هو الأصل خلقاً وشرعاً، فالحرية مؤصلة في العقيدة، وأحكام الشريعة الفرعية إنما تعبر عن ذلك الأصل العقدي الذي أسس عليه الدين، ومن ثم نجد في الشريعة السياسية إباحة ضوابط التعليم والتوجيه... وليس لأحد أن يسكت الصوت الحر، له بالطبع أن يجادله، وله بالطبع أن يوصيه، ولكن ليس له أن يحول بين المسلم وعقله.. وليس لأحد كذلك في شريعة الاقتصاد الإسلامي أن يحول بين المسلم وحقه في أن يسخر الطبيعة المادية لعبادة الله ﷻ من أن يتنفع بكسبه في ذلك ثم في خاصة نفسه ثم يقدم العفو إنفاقاً يتحد به مع سائر حركة المسلمين الاقتصادية، وهكذا كل أحكام الشريعة تتيح للفرد المسلم بفكره أو اجتماعه أو اقتصاده أو سياسته أن يكسب كسبه الحر المختار، ويوحد بذلك الكسب إلى سائر كسب المسلمين ولكن الحرية في هذا الإطار العقدي التوحيدي ليست غاية، وليست قيمة معنوية، بل هي وسيلة لعبادة الله سبحانه وتعالى، يتحرر الإنسان من فتنة الأشياء وفتنة المجتمع وشهوات ماديته وميول أهوائه ليعبد الله وحده، وليس في التعبد لله قيلاً يستشعره الإنسان كما يستشعر وقع المذلة لسواه؛ لأن المؤمن لا يستشعر أدنى مجانبة إزاء الله سبحانه (فهو خالقه ورازقه).

أما ما سوى الله مما يقع على الإنسان في العبودية له فكله سبب للضيق والحرَج..

(١) الاختصاص آفاقها وأبعادها، للدكتور محمد رياض الأبرش (ص ٢٢٠)، دار الفكر، حوارات القرن الجديد.

فالحرية إذن وسيلة وثمره لعبادة الله يتحرر الإنسان من الذل للأشياء والناس ليخلص لعبادة ربه، فإذا محض العبادة أصبحت تحرراً من كل شرك آخر، فالحرية من خلال التدين التوحيدي حرية مطلقة؛ لأن المرء إذا خلص لله ﷻ تحرر من كل مخلوق في الطبيعة والمجتمع، فهي بذلك تنطوي على مغزى كامل إزاء كل الأشياء والناس، وتسري على مدى ثابت إذ تعتصم بالله الذي لا يموت^(١).

أنواع الحريات:

أولاً: الحرية الفردية:

أ - حرية العقيدة:

لقد أهبط الله تعالى آدم وحواء على الأرض عقوبة على خطيئتهما في الجنة، فهل شاءت إرادة الله ﷻ أن ينزع هذه الحرية من الإنسان لأنه لا يستحقها بعد أن عصى ربه بها، إننا نجد كثيراً من الطغاة يستعبدون الخلق بحجة أنهم ليسوا أهلاً للحرية، والله ﷻ خالق هذا الإنسان وبارئ له لم يشأ أن يسلبه هذه الحرية ويتزعمها منه حين لم يكن أهلاً؛ لمخالفته أمر ربه ومعصيته، فها هو الآن في الأرض، فهل هو مسلوب الحرية، أو هو مسلوب جزءاً منها أو لا يزال يملكها كاملة؟ وجاء الجواب من رب العالمين بعد هذا الانتظار: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ۝٧٧ فَلَمَّا أَهَيَّأُوا مِنْهَا جَمِيعًا قَامَا يَأْتِيَنَّكَ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٧٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٧ - ٣٩].

١ - اعتناق العقيدة: فكانت المشيئة الربانية أن تبقى الحرية لهذا المخلوق وهو يحقق خلافته في الأرض وأن يأتيه المنهج من عند الله لا ليرغم عليه، ولكن ليكون حراً في اختياره واتباعه، وينال ثمرة هذا الاتباع ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أو يكون حراً في رفضه والتخلي عنه، ويتحمل مسؤولية هذا الرفض وهذا التخلي ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فقبل أن نخوض إذن في تفصيلات هذه الحرية وتشعباتها نقرر أنها مشيئة ربانية لهذا المخلوق يمارس من خلالها مسؤوليته ورسالته في الأرض، ولا يُجبر على الإيمان بها

(١) قضايا الحرية، للدكتور الترابي (ص ١٠ - ١٢).

حين يتحمل مسؤولية رفض هذا الإيمان، وجاء القرآن الكريم ليؤسس هذا المعنى في البشرية بقوله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

« وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.. وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني.

... إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان التي يثبت له بها وصف إنسان، فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً، ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة.. وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة. والإسلام، وهو أرقى تصور للوجود والحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مرء، هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين، فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهي تفرض فرضاً بسلطان الدولة ولا يُسمح لمن يخالفها بالحياة؟! والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾... نفي الجنس كما يقول النحويون، أي: نفي جنس الإكراه، نفي كونه ابتداءً، فهو يستبعده في عالم الوجود والوقوع، وليس مجرد نهي عن مزاولته، والنهي في صورة النفي، والنفي للجنس أعمق إيقاعاً وأكد دلالة»^(١).

ورسول الله ﷺ وهو يتحرق على إيمان قومه، ويكاد يهلك نفسه حباً لهم لدخولهم في هذا الدين، يعاتبه ربه عتاباً شديداً للّهجة ليعلمه على أن الإيمان قرار شخصي، وليس فرضاً خارجياً حتى من الله ﷻ الذي لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ويحذر نبيه من اللجاج في قضية الإيمان وفرضه على الناس.

﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وبعد أربعة عشر قرنًا من هذا الإعلان الرباني، تأتي وثيقة حقوق الإنسان أو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ليعلن:

المادة (١): ولدت كل الكائنات البشرية أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق وقد وُهبوا العقل والضمير ويجب أن يتصرفوا نحو بعضهم البعض بروح من الأخوة.

المادة (١٨): لكل شخص الحق في حرية الفكر والضمير والدين، ويشمل هذا الحق تغيير دينه أو عقيدته، والحرية إما بمفرده أو باشتراك مع آخرين، وعلناً أو بمعزل، وأن يظهر دينه أو عقيدته في التدريس والممارسة والعبادة وأداء الشعائر.

المادة (١٩) لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق الحرية في اعتناق الآراء بدون تدخل، وأن يطلب ويتلقى معلومات وأفكارًا عن طريق أية وسائل بغض النظر عن الحدود.

٢ - الردة: ونقف ملياً مع المادة (١٨) الآنفه الذكر التي تبيح الارتداد عن الدين، نعم إن هذه المواد متضمنة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، لكن جميع الذين صاغوه ينطلقون من الديمقراطية عقيدة وأسلوب حكم، إنهم قادة ومفكرو الدول الغربية التي تؤمن بالعلمانية، أي فصل الدين عن الدولة، والدين عندهم عقيدة في القلب وشعيرة في الكنيسة أو الكنيس أو المسجد لا دخل له بالسياسة والحكم، والتقديس عندهم للشعب الذي يشرع، وأول تشريع ديمقراطي علماني ينطلق برفض التفرقة بين أبناء الأمة على أساس الدين أو الجنس أو اللون، والكل متساوون أمام القانون، ونحن حين نكون دعاة نعيش في ظل دولة لها قوانينها في مساواة المواطنين أمام القانون، فلسنا ضد هذه المساواة؛ لأننا لا نملك السلطة التي تمكننا من تطبيق مبادئ الإسلام، وليس لنا إلا الحوار في الحديث عن مبادئنا وديننا.

لكن الفرق كبير بين الدولة العلمانية والدولة الإسلامية التي نطمح لها، بين دولة تشرع بأهواء البشر، ودولة تحتكم إلى شريعة الله، فهي تطبق هذا الدين، وتلتزم بمبادئه وأحكامه، ومن مبادئ هذا الدين التفاضل بالتقوى والعمل الصالح، والتمسك بمبادئ هذا الدين، ومن أجل هذا نقف بتحفظ أمام بعض العبارات التي نقبلها في ظل دولة علمانية، ونحن فصيل من هذا الشعب نطرح مبادئنا من خلال الحوار، ونعيد النظر فيها ونحن دولة إسلامية مسؤولة عن تطبيق الحق الذي تؤمن به بعد أن وصلنا لهذه السلطة

من خلال الإرادة الشعبية، وتمت صياغة الدستور من خلال رأي الأكثرية التي تريد الإسلام عقيدة ودولة ونظام حكم ونظام حياة.

ومن هذه العبارات مثلاً: « ويشمل هذا الحق حرية تغيير دينه أو عقيدته ».

هذه الحرية قائمة في ظل دولة ديمقراطية، ترى الدين أمراً شخصياً لا علاقة له بالمجتمع والتشريع والدولة، ونحن لا سلطان لنا فيها ونحن فصيل من هذا الشعب، وحين يرتد مسلم عن دينه فحسابه على ربه لا على الجماعة المسلمة، وماذا فعل رسول الله ﷺ مع الذين فُتِنوا عن دينهم بعد حادثة المعراج؟ لم يفعل معهم شيئاً؛ لأنه لا سلطان له عليهم إلا سلطان الضمير، وفي مثل هذه الأحوال، لا تقام الحدود، إنما تقام الحدود في ظل دولة إسلامية ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ (١٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (١٣) فَعَذَابُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿ [الغاشية: ٢٢ - ٢٤].

أما عندما يكون للإسلام دولته فله تشريعاته التي هي جزء من الدستور والقانون المنبثق عن الإسلام وله فقهه في التعامل مع المرتد عن الإسلام الذي أصبح دولة من خلال اختيار الشعب له عقيدة ومنهج حياة لا من خلال فرضه بالقوة على الناس ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] لكن بعد إيمانهم واختيارهم الإسلام كاملاً بعقيدته وشريعته، تطبق أحكام هذا الدستور كاملة، ولا يجوز لأي فئة أو جماعة أو فرد أن يخرج عن أحكام هذا الدستور.

٣ - حد الردة: ويجب أن لا يغيب عن ذهننا أن الحدود إنما تطبق بعد قيام الدولة الإسلامية، ومن الحدود حد الردة « وحكم المرتد هو القتل كما هو معروف، ويستند الفقهاء في ذلك إلى حديث نبوي يقول: « من بدل دينه فاقتلوه »^(١)، فكيف نفسر هذا الاختلاف؟ لنستبعد الشك في صحة الحديث المذكور، فقتل المرتدين زمن خلافة أبي بكر واقعة تاريخية لا شك فيها، كما أن قتل المرتد مسألة لا خلاف فيها بين الفقهاء فهي بالتالي مسألة يحكمها الإجماع أيضاً، لماذا؟ لأن (المرتد) في هذه الحالة بعد قيام الدولة الإسلامية لم يكن مجرد شخص قد غيّر عقيدته فحسب، بل هو شخص خرج عن الإسلام عقيدة ومجتمعاً ودولة، وإذا أخذنا بالاعتبار أن دولة الإسلام في المدينة زمن

(١) البخاري (ح ٢٨٥٤)، وأحمد (ح ١٨٧١)، وأبو داود (ح ٤٣٥٣)، وابن ماجه (ح ٢٥٣٥)، والترمذي (ح ١٤٥٨)، والنسائي (ح ٣٥٢٢)، (أي الستة ما عدا مسلماً).

النبي ﷺ وزمن الخلفاء الأربعة كانت تخوض حرباً مستمرة مع (المشركين العرب ثم مع الروم والفرس) أدركنا أن المرتد زمن هذه الدولة هو في حكم الشخص الذي يخون وطنه ويتواطأ مع العدو زمن الحرب - بالتعبير المعاصر -، وحروب الردة على عهد أبي بكر كانت ضد أناس لم يقتصروا فقط على خيانة دولة الإسلام التي انضموا إليها زمن النبي، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك إذ نظموا أنفسهم للانقضاض عليها بعد عصيانهم لقوانينها (أي الامتناع عن دفع الزكاة) فالمرتد بهذا المعنى هو من خرج على الدولة الإسلامية محارباً أو متآمراً أو جاسوساً للعدو.

إذاً فحكم الفقه الإسلامي على المرتد بهذا المعنى ليس حكماً ضد حرية الاعتقاد، بل ضد خيانة الأمة والوطن والدولة فضلاً عن الدين والتواطؤ مع العدو أو التحول إلى لصٍّ أو عدو محارب، ومن هنا نفهم كيف يربط الفقهاء بين حكم (المحارب) وهو من يخرج على الدولة والمجتمع ويشهر السلاح ويقطع الطريق، وبين (المرتد)؛ ذلك أن (المرتد) في الخطاب الفقهي الإسلامي هو صنف من (المحاربين) وحكمه يختلف من فقيه إلى آخر حسب ما يكون (المرتد) محارباً بالفعل أم لا، فالمرتد المحارب يقتل باتفاق الفقهاء، أما قبل أن يحارب فاختلفوا، هل يستتاب أم لا؟ كما فرقوا بين المرتد إذا حارب وهو في دار الإسلام، وبين المرتد إذا لحق بدار الحرب (أرض العدو).

كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن فقهاء الإسلام كانوا يفكرون في المرتد لا من زاوية أنه شخص يمارس حرية الاعتقاد، بل من زاوية أنه شخص خان المجتمع الإسلامي وخرج ضده نوعاً من الخروج، وما نريد أن نخلص إليه من كل ما سبق هو أن الوضع القانوني للمرتد لا يتجدد في الإسلام بمرجعية الحرية (كما هو الحال في إعلان حقوق الإنسان) حرية الاعتقاد، بل يتحدد بمرجعية ما نسميه اليوم (الخيانة للوطن) بإشهار الحرب على المجتمع والدولة.. ويبقى مطلوباً من الاجتهاد الفقهي المعاصر النظر في ما إذا كان المسلم الذي يعتنق ديناً آخر اعتناقاً فردياً لا يمس من قريب أو بعيد بالمجتمع الإسلامي ولا بالدولة الإسلامية يدخل في دائرة بالمعنى الفقهي الذي شرعناه أم يدخل في زمرة المرتدين الذين تحدث عنهم الآيات التي تتوعد المرتدين الوعيد الأكبر ولكن دون التنصيص صراحة على وجوب قتلهم^(١).

(١) الديمقراطية وحقوق الإنسان، للدكتور عابد الجابري (ص ١٧٧ - ١٧٩).

ويمكن القول حول موضوع الردة ما يلي:

إن مفهوم الحدود المرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود الدولة الإسلامية الحاكمة المعروفة مبادئها يقوم على اعتبار الاعتداء على الحرمات الخمسة جريمة قد حددت عقوبتها في كتاب الله وسنة رسوله.

« ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة... وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات فهي أقوى المراتب في المصالح، ومثاله قضاء الشرع بقتل الكافر المضل وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته، فإن هذا يفوت على الخلق دينهم، وقضاؤه بإيجاب القصاص، إذ به حفظ النفوس، وإيجاب حد الشرب، إذ به حفظ العقل وهو مناط التكليف، وإيجاب حد الزنا، إذ به حفظ النسل والأنساب، وإيجاب زجر الغُصَّاب والسُّراق إذ به يحصل حفظ الأموال التي هي معاش الخلق وهم مضطرون إليها »^(١).

فقد كان حد الردة وجهاد الكفار لحفظ الدين، وحد القصاص لحفظ النفس، وحد الزنا والقذف لحفظ العرض والنسل، وحد الشرب لحفظ العقل، وحد السرقة لحفظ المال.

هذا هو فقه الحدود في الإسلام الذي جاء لصالح الإنسان والمجتمع والبشرية، بينما تنظر العلمانية الغربية إلى القضية من زاوية ما يخص الغير كالقتل والسرقة فهي اعتداء على النفس والمال، أما الثلاثة الأخرى فهي أمور شخصية لا علاقة للدولة بها مثل الزنا وشرب الخمر والردة والكفر، فله الحرية فيها. ومن جهة أخرى فلا علاقة للدين بالدولة، لأنه أمر تعبدي بين العبد وربّه، أما الدين والإسلام عندنا، فهو شريعة تحكم الفرد والمجتمع والدولة، وهذا هو جوهر الخلاف حول مفهوم الردة، فالردة خيانة للدين والجاسوسية خيانة للوطن.

ب - حرية العبادة:

ومع أن حرية العبادة تكاد كل نظم الأرض تقرُّ بها، ولا تتدخل في شؤون العباد، إلا أن النظم الدكتاتورية في الدول الشمولية تضطهد حتى حرية العبادة وحولت المساجد إلى

(١) السياسة الشرعية، للدكتور يوسف القرضاوي (ص ٨٧، ٨٨).

متاحف أو إصطبلات أو رميم، وحين يكون المسلمون دعوة في الأرض، ودعائه فضيل من فضائل الأمة، فحرية العبادة متاحة للجميع، فقد بقي رسول الله ﷺ في ظل المجتمع الجاهلي ثلاثة عشر عامًا، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، لم يتعرض لها محمد ﷺ ولا أصحابه بأذى، وحين لم يكن له سلطة على مكة، وللمسلمين دولة قائمة خارج مكة، دخل إليها، وطاف وسعى مع المسلمين وأقام بها ثلاثة أيام دون أن يتعرض لصنم واحد بأذى في ظل الدولة الجاهلية، لكن الأمر اختلف بعد فتح مكة حين صارت مكة جزءًا من دولة الإسلام، فقد هدم رسول الله ﷺ الأصنام في الكعبة المشرفة لا رفضًا لحرية العبادة كما يحلو للمستغلين أن يسموه، بل كان تصحيحًا لجريمة تاريخية في تحويل الكعبة بيت الله تعالى الذي بناه إبراهيم عليه الصلاة والسلام لإقامة التوحيد.

﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾

[البقرة: ١٢٥].

والدليل على ذلك أن كنائس النصارى وكنس اليهود بقيت قائمة خمسة عشر قرنًا في ظل الدولة الإسلامية لم تُمس بأذى ولا يحق لأحد أن يتدخل بهذه الحرية، حتى إن الفاروق رضي الله عنه رفض أن يصلي بكنيسة القيامة حتى لا يعتبرها المسلمون فيما بعد موطن صلاة أمير المؤمنين فيحولوا الكنيسة إلى مسجد.

١ - العبادة في الملاء: وحيث إن شعائر الأديان التي تعيش في ظل الإسلام لا تُقبل إلا في بيوت العبادة عندهم فلا غرو أن تكون صلواتهم داخل معابدهم لا على الملاء، وإن كان الإسلام لا يمنع غير المسلمين من إظهار شعائرهم الخاصة خارج معابدهم، فعدي بن حاتم ينفذ على رسول الله ﷺ على مسجده وفي عنقه صليب ذهبي كبير، والذين جاؤوا وعاهدوا رسول الله ﷺ على الجزية كانوا يقدمون بالصليب على صدورهم وجباههم كما تقتضي شعائرهم، دون أن يمنعوا من ذلك.

٢ - الجهاد في الإسلام لحرية العبادة: وبلغت عظمة الإسلام أن يعلن في مبادئه أن الجهاد في سبيل الله إنما فرض ليس فقط لحماية أماكن العبادة للمسلمين، بل لحماية أماكن العبادة للنصارى واليهود كذلك، وهذا يعني أن الإسلام يقيم حربًا ويستجيش المسلمين للجهاد لو جاء من يريد هدم كنائس النصارى واليهود ولم يتعرض لمساجد المسلمين، يشهد بذلك قول الله ﷻ: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفُتَّتْ صُومَةُ وَيُعَاجِلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

ج - حرية الدعوة:

والعقيدة التي لا يرافقها حرية الدعوة لها تختنق في القلب وتموت في الضمير، وكانت أكبر معاناة الجيل الأول في العهد المكي هو حرمانهم من حرية الدعوة، والذي يتصفح كتاب الله ﷻ يجد أنه عرض لمبادئ هذا الدين في صراعه مع خصومه، وتفنيد كل الباطل الذي يؤمنون به، ولو أن المسلمين اكتفوا بالإسلام عقيدة مستترة في القلب لما كانت هذه المعارك كلها ضد الإسلام، لكن الخطر الذي كانوا يخشونه - أي الأعداء - هو انتشار هذا الدين ومبادئه من خلال حرية الدعوة إليه، خصوصاً أن هذه الحرية كانت متاحة لقائد الدعوة محمد رسول الله ﷺ.

١ - الدعوة بين المؤمنين بالفكرة: ولا شك أن هذه القضية من المسلمات التي لا يناقض فيها أحد، فكل حزب أخذ حق الوجود من حقه أن يشرح أفكاره وآراءه لمؤيديه والمنتسبين إليه، وقد تكون هذه الأفكار مناقضة لأسس الإسلام، لكن حرية وجوده إذا اعترف بها، تقتضي حرية نشر أفكاره في صفوف أتباعه، وحين تكون الحركة الإسلامية دعوة لا سلطان لها، فلا مجال للشك أنها لا يحق لها أن تتدخل بشأن أحد، فالحركات المحاربة للإسلام أخذت شرعيتها من نظام الحكم الذي يحكم البلد، ولا يملك الدعاة إلى الله أكثر من الحوار مع خصومهم، مهما كانت الأفكار التي يحملونها.

٢ - الدعوة بين الخصوم: ونضع هذا السؤال: لو أن دولة الإسلام قامت، فما موقفها من خصومها، هل هو المنع والعبادة والحرب كما يحلو للحاقدين أن يصمموا الإسلاميين؟. يكاد يكون الإسلام هو النظام الوحيد في العالم الذي أبقى خصومه الفكريين داخل دولته من اليهود والنصارى، وحماهم من أي اعتداء، وحمى أرواحهم ومعابدهم وأموالهم وحافظ على وجودهم مقابل الجزية الرمزية التي يأخذها منهم؛ وهذا موقف المقوقس حاكم مصر يجلي هذا الأمر « قال المقوقس لمن حوله: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم من طاقة، إن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين، فقالوا: وأي خصلة نجيب إليها؟ قال: أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليه، ولن تصبروا صبرهم،

ولا بد من الثالثة. قالوا: أفنكون لهم عبيداً أبداً؟ قال: نعم تكونوا مسليطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذرائبكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهلكم وذرائبكم»^(١)، ثم اختار القوم الجزية «فصالح على جميع من فيها من الرجال من القبط من راهق الحلم إلى ما فوق ذلك، ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبي، فأحصوا بذلك على دينارين دينارين، فبلغت عدتهم ثمانية ألف ألف»^(٢).

ولم يمر إلا قليل من الزمن حتى غدت مصر أرض العروبة والإسلام بالدعوة والحكمة والموعظة الحسنة.

لا يزال السؤال قائماً: هل يحق لخصوم الإسلام أن يدعوا لأفكارهم المسلمين في ظل الدولة الإسلامية؟

والجواب هو أن هذا الحق قائم لهم من خلال الندوات المنتظمة مع دعاة المسلمين وعلمائهم، لا من خلال الاتصالات المباشرة المفتوحة مع عامة الناس، ونستشهد على ذلك بما يلي:

(١) الدارس لكتاب الله، ولعقائد الخصوم التي عرضها ثم دحضها يلاحظ - لحد ما - اختلاف المضمون فقط بين المرحلتين المكية والمدنية، ففي المرحلة المكية كان الرد ينصب على عقائد المشركين ويدحضها بالحجة والبينة، وفي المرحلة المدنية وللإسلام دولته كان الرد ينصب على عقائد النصارى واليهود ويدحضها بالحجة والبينة، وغدا القرآن المدني كأنما هو عرض لتاريخ بني إسرائيل كاملاً وتصحيحه ولعقائد اليهود والنصارى وتصحيحها.

(٢) كان المسجد النبوي موطن الحوار والنقاش بين المسلمين من جهة وبين النصارى واليهود من جهة أخرى، والمسلمون يشهدون الحوار علناً بين رسول الله ﷺ وبين قسس النصارى وأحبار اليهود الوافدين من اليمن ومن خيبر والمقيمين في المدينة، وحيث إن الإسلام اعترف بوجودهم، فقد اعترف بحقهم في عرض أفكارهم ضمن المعابر الرسمية، وما سورة البقرة وآل عمران والمائدة والأعراف إلا عرض لهذا الحوار الفكري.

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم (ص ٦٩).

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٥).

ولقد جعل الله تعالى ملك اليمين مفتوحاً للرجل، فهو الخبير بمن خلق فكل جارية ملك يمين للرجل، حين تلد ولدًا يكون ولدها حرًا، فولد الحر حر، وترتفع هي لتكون أم ولد فلا تباع ولا توهب، وبذلك يتحول العبيد إلى أحرار بالفطرة البشرية، وينشأ جيل الأحرار الذي ينقبض معه جيل العبيد، وفي تجفيف منابع الرق ينتهي الرق، هذا من جهة، ومن جهة ثانية سعى الإسلام لتحرير نفوس العبيد، فيذوقون طعم الحرية، وعندئذ يصبح العبد عن طريق المكاتبه مدرّبًا على المسؤولية فيشتري نفسه بنفسه، وينتهي حرًا لا كلاً على سيده، ويخلص من ربة الرق إلى الحرية.

٢ - الحرية من الاستعمار: والعجيب أن يكون الاستعمار من نتاج الديمقراطية الغربية، وهي التي قنتته بحجة قصور الأمم التي تستعمرها وتخلفها، ولقد ذاقَت هذه الشعوب من أفانين العبودية ما ذاقه الرقيق على يد السادة.

كما يقول شوقي:

وللمستعمرين وإن الأنوا قلوب كالحجارة لا ترقُ
وللحرية الحمراء بابٌ بكل يد مضرّجة يدُقُّ

وكم أريق من أنهار الدماء من الأمم المظلومة حتى تحررت من نير الاستعمار الغربي، ولقد قاد ثورات التحرير في الأراضي الإسلامية علماء الأمة وفقهاؤها انطلاقاً من الروح الإسلامية التي يحملونها، والمبادئ الإسلامية التي يعتنقونها، وحيث أنا نتحدث عن الحرية الفردية، وحق كل فرد أن يكون حرًا في حياته لا يستعمر أرضه أجنبي أو محتل كافر، يكفيننا في هذا المجال تفسير رسول الله ﷺ للشهادة ودفع الإسلام كل مسلم ليموت ذودًا ودفاعًا عن مقدساته.

فعن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد»^(١).

هذه النفسية التي رباها الإسلام عند كل مسلم أن يقتل دون مقدساته، ماله وأهله ودينه ونفسه، وجاء الفقه الإسلامي انطلاقاً من هذا المعنى ليجعل الجهاد فرض عين على كل مسلم حين يجتاح العدو الكافر أرض الإسلام، بل يلغي كثيراً من المسلّمات في مثل

(١) أخرجه أحمد (ح ١٦٥٢)، وابن ماجه (ح ٢٥٨٠)، والنسائي (ح ٣٥٥٨).

هذه الحالة كاستئذان المرأة زوجها، واستئذان العبد سيده، واستئذان الصبي أهله، هؤلاء الذين لا يفرض الإسلام عليهم الجهاد أبدًا إلا في حالة الغزو الخارجي.

« الثاني: يدخلون بلدة لنا فيلزم أهلها الدفع بالممكن، فإن أمكن تأهبٌ لقتال وجب الممكن حتى على فقير وولد ومدين وعبد بلا إذن، فمن قُصد دفع عن نفسه بالممكن إن علم أنه إن أُخذ قُتل »^(١).

وحتى المرأة فقد فصلَ الفقه في ذلك « أما المرأة فإن خافت امتداد الأيدي إليها بالفاحشة فعليها الدفع وإن قُتِلَتْ؛ لأن الفاحشة لا تباح عند خوف القتل، وإن لم تمتد الأيدي إليها بالفاحشة الآن، ولكن توقعتها بيد السيئ احتمال جواز استسلامها ثم تدفع إذا أريد منها »^(٢).

٣ - الحرية من الاستعباد: فالاستعمار مصطلح العدو الخارجي، أما الاستعباد فهو ظلم الطغاة لشعوبهم، وقد جعل الإسلام القتل دفاعًا عن هذه الحرية امتدادًا للشهادة في سبيل الله، فالنص السابق الذي ذكرناه لم يحدد الظالم ولم يتعرض لنوعه، سيان كان أجنبيًّا محتلًّا أو حاكمًا طاغية، فمن يقتل دون ماله ودون مظلّمته، ودون دمه ودون أهله فهو شهيد، فالأمر منصب على مقاومة الظلم وليس المهم جهة هذا الظلم، وهناك من النصوص ما كان خاصًّا بالحاكم الظالم الطاغية، ومما ورد في ذلك أن جعل الإسلام أفضل الجهاد هو مواجهة الظالمين ومقاومة الظلم، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »^(٣)، ولو أدى قول الحق إلى أن يدفع حياته ثمنًا لكلمة الحق، فهو مع سيد الشهداء حمزة ومثله، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فنهاه فقتله »^(٤).

ولا يعذر الإسلام أبدًا من يرضخ لظلم ويقبله، إنما عليه أن يعمل جاهدًا لإزاحة هذا الظلم ولو اقتضى الأمر الهجرة عند العجز عن المواجهة حرصًا على حرّيته.

(١) مغني المحتاج، للشربيني (٢٧٤ / ٤).

(٢) المصدر نفسه، الشرح (٢٧٤ / ٤).

(٣) أخرجه أبو داود (ح ٤٣٤٤)، وابن ماجه (ح ٤٠١١)، والترمذي (ح ٢١٧٤).

(٤) مجمع الزوائد، للهيثمي (٢٦٦ / ٧)، (٢٩٨ / ٩).

يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].
والمعذورون هم فقط المستضعفون من الرجال والنساء ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ (١٥) قَالُوا لَيْتَكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾.

وهذا هو مبرر هجرة المؤمنين إلى الحبشة فرارًا بدينهم إلى ملك عادل، حيث لم يكن يسمح لهم بالمواجهة المسلحة وكانوا مأمورين بكف اليد، فقالوا الملك الحبشة: « .. فلما قهرونا وظلمونا، وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك » (١).

يجب أن لا يفرض النظام الحاكم على الأمة بقوة السلاح، ومن الحرية الفردية للإنسان إذن كما تنص حقوق الإنسان « لكل فرد الحق في أن يشترك في حكومة بلده مباشرة أو عن طريق ممثلين مختارين بحرية » (٢).

هـ - الحرية القضائية:

وإذا كانت السلطة التنفيذية قد أصابها الخلل، فلا أقل من أن يبقى القضاء مستقلاً لا سلطان لأحد عليه ويطمئن المواطن إلى حريته كاملة وأهم هذه الحريات هي:

١ - لا عقوبة إلا بنص: فلا يجوز أن يُساق المواطن إلى المحاكمة في أمر لم ينص القانون على تجريمه فيه، وهذا مفهوم أن الإسلام يَجِبُ ما قبله، فما يعتبر جريمة في الإسلام لا يحاسب الكافر عليها بعد إسلامه، والله تعالى من عدله العظيم في خلقه أنه لا يحاسب ولا يعاقب إلا بعد إرسال الرسل، فنصوص الكتب المقدسة هي التي تحمّل الناس مسؤولية معصيتهم، وهذا هو مدلول قول الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الأنعام: ١٥].

فأحكام الشرائع التي يأتي بها الرسل هي الحجة على الخلق، وهو مدلول قول الله ﷻ: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٣٣٦/١).

(٢) من المادة (١٥) من إعلان حقوق الإنسان.

وهذا يتمثل في واقع الدولة المسلمة كذلك، فلا تجوز العقوبة إلا بنص شرعي أو قانوني على المخالفة أو المعصية، ولا بد أن تكون قد وصلت هذه النصوص إلى المواطن أو هو قادر على الوصول إليها.

٢ - المتهم بريء حتى يُدان: فلا تجوز العقوبة على الشبهات، ويقف الإسلام بجوار الإنسان ضد الدولة، فلا يكفي أن يحكم ببراءة المتهم حتى تثبت إدانته، بل يحض في روحه على محاولة إبعاد الاتهام عن المواطن لإثبات براءته، نستقي ذلك من حديث رسول الله ﷺ: «ادرؤوا الحدود بالشبهات».

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»^(١).

والفرق كبير جداً بين أن يكون الأصل (البريء متهم حتى يُبرأ)، فهو يؤخذ على الشبهة، ويحقق معه أحياناً لسنوات طويلة، فإذا ثبتت براءته خرج كما هو الحال في الأنظمة الشمولية والدكتاتورية، وبين أن يكون الأصل (المتهم بريء حتى يُدان) كما هو الحال في الأنظمة الديمقراطية، وبين توجيه القضاء لإخلاء السبيل بالشبهة، ورفع العقوبة بالشبهة، وأن يحمل القاضي خطأ العفو خير من أن يحمل خطأ العقوبة، كما هو الحال في النظام القضائي الإسلامي.

٣ - حق المتهم في الدفاع عن نفسه: وهو أمر بديهي تقتضيه الفطرة البشرية، لكن معظم الأنظمة الحاكمة لا تعطيه هذا الحق، بل تفرض عليه الاعتراف بالجريمة، وذلك حين تفسد الذمم، ويصبح القضاء ألعوبة بيد الحاكمين، وتبلغ المهازل حدّها الوضيع حيث تعيّن الدولة - باسم قانون الطوارئ - محامياً للدفاع عن المتهم، ولا نجد أعظم من الإسلام في إعطاء هذا الحق للمتهم في كل الشرائع الوضعية، حتى ليلبغ هذا الحق للأقدر في الوصول إلى حقه من خلال بلاغته وحجته، فيحذره رسول الله ﷺ أنه إن حَكَمَ له لقوة حجته وبراعة منطقته وضعف حجة خصمه، فلا يعني هذا أنه صاحب الحق عند الله، لكن القاضي يحكم بالظاهر ويدع السرائر إلى الله ﷻ، فعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت:

(١) أخرجه الترمذي (ح ١٤٢٤).

جاء رجلا من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما درست ليس بينهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: « إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن (أفوى) بحجته - أو قال: لحجته - من بعض، فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، وإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسقاطاً^(١) في عنقه يوم القيامة ».

فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما: حقي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: « أما إذا قتلتما فاذهبا فاقتما، ثم توخيا الحق ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه^(٢) ».

بل اعتبر عدم سماع أقوال الخصم ظلماً يحاسب عليه القاضي إن حكم بدونه، وهي خطيئة داود عليه الصلاة والسلام التي حوسب وعوتب عليها، يقول القرطبي:

« الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ لِسُوَالِ نَجَاكَ إِلَی نَعَاكَ ﴾ [ص: ٢٤] قال النحاس: فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظلمك من غير تثبت بينة، ولا إقرار من الخصم، هل كان هذا أو لم يكن؟ فهذا قول^(٣)، فقال تعالى له: ﴿ بَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] .

وهو ما نصَّ عليه ميثاق حقوق الإنسان..

٤ - المعاملة الإنسانية: وهي من المسلّمات الفطرية التي لا تحتاج إلى نص، لكن ما العمل إذا صار الأصل هو المعاملة الحيوانية في أقبيّة المخابرات والسجون، وصار الأصل أن يضرب المواطن ويجلد ويعذب حتى يفقد وعيه، ويهترئ جلده، وتنهشه الكلاب المسعورة، وتتف لحيته، وتتزع أظافره ويكسر ظهره، وتقتل خصوبته، ويخرج معتوهاً أو مجنوناً من السجن، لقد نهى رسول الله ﷺ عن التعذيب حتى للحيوان المذبوح: « إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته^(٤) ».

(١) الإسقاط: حديدة عريضة الرأس يحرك بها النار.

(٢) أخرجه أحمد (ح ٢٦٧٦٠)، وأبو داود (ح ٣٥٨٧) .

(٣) تفسير القرطبي (١٧٥ / ١٥ / ٨) .

(٤) أحمد (ح ١٧١٧٩)، وأبو داود (ح ٢٨١٧)، والترمذي (ح ١٤٠٩) .

ونهى الإسلام عن تعذيب أي روح مخلوقة، فقد كان الناس يضعون حيواناً حياً هدفاً يرمونه، فقال عليه الصلاة والسلام: « لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً »^(١).

أما تعذيب الإنسان فقد جاء فيه نص خاص...

فعن عروة بن الزبير قال: مرَّ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط قد أقيموا في الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قال: حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا »^(٢).

وفي رواية: « إن من أشد الناس عذاباً أشدهم عذاباً في الدنيا للناس »^(٣).

وإذا كان سبب الرواية السابقة التعذيب بالحبس، فسبب الرواية الثانية التعذيب بالجلد.

فعن شريح بن عبيد الحضرمي وغيره قال: جلد عياض بن غنم صاحب دار حين فتحت، فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض.

٥ - منع الاعتقال والاحتجاز التعسفي: ولنا من الرواية الأولى وسببها ما يمنع الحبس الذي احتج هشام عليه، لأن هؤلاء قد تخلفوا عن دفع الجزية، فذكر حديث رسول الله ﷺ في هذه المناسبة، ولا شك أن هناك فرقاً كبيراً بين الاعتقال الاحتياطي على ذمة التحقيق لبضعة أيام قد تضطر إليه الدولة، وبين الاعتقال التعسفي الذي يمتد لبضعة سنوات على ذمة التحقيق، فقد دعت فتاة سورية لخمس دقائق إلى التحقيق معها في أقبية المخبرات فامتدت هذه الفترة لتسع سنوات، وكتبت قصة حياتها وسمتها: خمس دقائق أو تسع سنوات سجن.

فلم يرض هشام بن حكيم ﷺ سجنًا لعدة ساعات قائلاً: إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا.

و - الحرية السياسية:

وتكاد تكون أهم أنواع الحريات، وغالباً عندما ينطلق الحديث عن الحرية ما ينصب على الحرية السياسية، وعلى الديمقراطية التي تعني أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، وأهم جوانب الحرية السياسية هي:

(١) أحمد (ح ٢٥٣٢)، وابن ماجه (ح ٣١٨٧)، والترمذي (ح ١٤٧٥).

(٢) أحمد (ح ١٥٣٦٦)، ومسلم (ح ٦٨٢٤)، وغيرهما.

(٣) أحمد (ح ١٥٣٦٩).

١ - حرية المواطن في الانتماء الحزبي: وهذه نقطة البدء في الحريات السياسية إذ تقوم الأحزاب بتقديم برامج العمل والمبادئ التي تسعى لتطبيقها، ويختار المواطن بناءً على هذه المبادئ والمناهج الحزب الذي يمثل قناعاته، وله كامل الحق في أن يختار الحزب الذي يريد. ونظرة إلى المجتمع الإسلامي الأول ترانا نشهد أحزاباً متنوعة في ظل دولة النبوة، دولة العقيدة، مع أن دستور الدولة الإسلام، فهناك حزب المهاجرين وحزب الأنصار، وحزب الأنصار ينقسم إلى فرعين كبيرين هما الأوس والخزرج، وهناك حزب المنافقين على رأسه عبد الله بن أبي، وحزب اليهود الذي كان موزعاً على ثلاث قيادات أو قل: أحزاب اليهود: بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير، وكان من حق كل فرد أن يكون منتبياً لأي من هذه الأحزاب، والذي يرجع إلى نص وثيقة المدينة يشهد مدى الحرية الحزبية للأفراد فيها^(١).

٢ - حريته في اختيار الحاكم: والذي اطلع على سقيفة بني ساعدة، والمداومات التي تمت في اختيار الحاكم بين الأحزاب المختلفة، ثم البيعة الشخصية لكل فرد يعرف مدى هذه الحرية التي مارسها الجيل واقعاً لا كلاماً، ويكفي أن الإسلام اعتبر أن خير الأمراء الذين يقومون على الحب والثقة لا الذين يقومون على التسلط والقهر، فعن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ألا أخبركم بخير أمرائكم وشرارهم، خيار أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم »^(٢).

بل يجعل الإسلام العلاقة بين كل فرد في الأمة وبين الحاكم علاقة تعاقد قائمة على البيعة المباشرة والتي يعادلها اليوم الإدلاء بالصوت الانتخابي في الاقتراع السري، ويؤكد أن هذا العقد يجب أن يقوم على الكفاءة لا على المصلحة الخاصة، ولا على القرابة والهوى.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص: كنا مع رسول الله ﷺ .. فقال: « ... ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر »^(٣).

(١) تمت معالجة هذا الموضوع بصورة مستفيضة في هذا الكتاب من خلال بحث (الأحزاب والتعددية السياسية).

(٢) أخرجه الترمذي (ح ٢٢٦٤)، وقال: حديث حسن غريب.

(٣) أحمد (ح ٦٥٠٣)، ومسلم (ح ٤٨٨٢) وغيرهما.

فالببيعة والاختيار للحاكم تقوم على الرضا والرغبة القلبية (فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه).
 ٣ - حريته في نقد الحاكم: والأمر في الإسلام أكبر من الحرية وأكبر من الحق، إنه واجب مناط بالمسلم، أن يقول الحق، كوجوب الطاعة عليه للأمير سواء بسواء، ولا تعني الطاعة أبدًا الموافقة في الخير والشر، وأوضح ما يبرز هذا المعنى ما رواه عبادة ابن الصامت رضي الله عنه حيث قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»^(١).

فنقد الحاكم حين يخطئ، وضمن المعايير الدستورية من الصحافة ومجلس الشعب وفي صفوف الحزب هو من حق المواطن لا على أن يكون التشهير هدفه.
 وفي حديث آخر ربط البراءة من النفاق بقول الحق عند الحاكم: فعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع»^(٢).

٤ - حريته في الاجتماع العام وإبداء الرأي: عندما تكون الحياة الشورية الحرة هي التي تسود في الأمة، ويكون التنظيم الحزبي مشروعًا من الدولة المسلمة، فمن حق المواطن المنتمي لحزبه أن يدعو لاجتماع عام في مركز الحزب أو في مرفق عام ويعلن كلمته ورأيه في الحاكم دون حرج، وما احتجاج الأنصار على توزيع غنائم حنين إلا صورة من هذه الصور، حيث اجتمعوا واتفقوا على إبلاغ رأيهم لرسول الله ﷺ ولم يرض رسول الله ﷺ أن يعلن موقفه منهم إلا عندما دعاهم لاجتماع خاص وأبلغهم ذلك «فعن الزهري قال: أخبرني أنس بن مالك قال: قال ناس من الأنصار حين أفاء الله تعالى على رسوله ما أفاء من أموال هوازن فطفق رسول الله ﷺ يعطي المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟! قال: فجمع النبي ﷺ ناسًا من الأنصار فقال: «إن قريشًا حديث عهد بجاهلية ومصيبة وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدين وتراجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟» قالوا: بلى، فسيد ولد آدم لا يجد حرجًا من العتب، ويجمع حزب الأنصار ليزيل الالتباس في التصرف النبوي،

(١) مسلم (ج ٤٨٧٤)، والبخاري (ج ٧١٩٩).

(٢) أحمد (ج ٢٦٥٧١).

فأي حاكم يحق له أن يمنع الاحتجاج العام وإبداء الرأي وهو ينتمي إلى الإسلام، وقد أقر رسول الله ﷺ ذلك وحث عليه، وأوضح الموقف الصحيح في هذه الأجواء؟!

ز - الحرية الاقتصادية:

وهي التي تضمن للمواطن حق التملك، وحق التصرف في ملكه، واختيار المهنة التي يريد وحرية الانضمام إلى النقابات التي تضمن له حقوقه، وتدافع عن مكتسباته.

١ - حرية التملك: وهي التي نص عليها القرآن الكريم ابتداءً بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْنَمُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمًا﴾ [النساء: ٣٢].

والحديث النبوي الشريف الذي حرّم الاعتداء على المال مثل حرمة الاعتداء على النفس، مثل حرمة الاعتداء على العرض، كما قال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع وهو يعلن هذا الأمر إلى قيام الساعة: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، اللهم هل بلغت» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد»^(١).

«فإن الله تعالى هو الذي وضع جميع الموارد تحت تصرف البشر، والإنسان بوصفه خليفة ليس هو المالك الأساسي لهذه الموارد، بل هو مجرد أمين عليها» ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وفي حين أن هذه الأمانة لا تعني إنكار الملكية الخاصة فإنها تنطوي على عدد من الآثار الهامة التي توجد فرقاً ثورياً بين مفهوم الملكية الخاصة لما ورد في الإسلام وفي النظم الاقتصادية الأخرى^(٢).

٢ - حرية التصرف: وهذا الذي يقودنا إلى حرية التصرف، فحرية التصرف قائمة في المال في حدود الشريعة، ففي المال حق للسائل والمحروم، وفي المال حق سوى الزكاة: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢١﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، وهذا الحق ليس صدقة من الغني على الفقير، بل هو حق الله تعالى في هذا المال؛ هو للفقير وليس للغني، ولله تعالى حقوق أخرى سوى الزكاة، تدرس في نظامها وما عدا ذلك فلا سلطة على صاحب المال لأحد يتصرف به كما يشاء.

(١) البخاري (ح ١٢١٨).

(٢) الإسلام والتحدي الاقتصادي، للدكتور محمد عمر شابرا (٤٢٦٤).

وحتى الموارد التي يتم الحصول عليها بطريقة مشروعة يجب التصرف بها وفقاً لشروط الأمانة وليس بتدمير أو هدر الموارد التي حبا الله الإنسان بها، ويمكن التدخل في التصرف حين يسيء المالك التصرف بالتبذير؛ لأن المال حق للأمة إضافة إلى حق الفرد: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

٣ - حرية اختيار العمل والمهنة التي يريد: فقد وجه الإسلام فقط للاحتراف تاركاً الاختيار للشخص أن يختار ما يشاء من علم يكسب به قوته، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أُطِيبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنْ أَوْلَاذُكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»^(١).

بل ترتفع إلى مستوى الفريضة كما في رواية عبد الله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة»^(٢).

وليس هناك مهنة غير قابلة للعمل حتى الاحتطاب كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب، ثم يأتي به يحمله على ظهره فيبيعه فيأكل خير له من أن يسأل الناس، ولأن يأخذ تراباً فيجعله في فيه خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عليه»^(٣).

٤ - حرته في الانضمام إلى النقابات أو تشكيلها: ولا نقول إن هناك نقابات أيام النبي ﷺ حتى نتحدث عن حرية الانتساب إليها، لكننا نقول إن دور النقابات في عصرنا الحاضر هو حماية العامل، والدفاع عن حقوقه، والمحافظة على مكتسباته، ورفع الضيم والأذى عنه في تحديد ساعات العمل، وفي تهيئة العناية الطبية والاجتماعية به، إذن يجمع هذا كله الحرص على منفعة العامل، وإبعاد الأذى عنه، فمن خلال هذا الهدف نجد أن الإسلام قد حصّ العامل على الحرص على منفعته، وترك وسائل تحقيقها للزمان والمكان المناسبين.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن

(١) رواه الترمذي (ح ١٣٥٨)، وأحمد (ح ٢٥٣٣٥)، وابن ماجه (ح ٢٢٩٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (ح ٨٧٤١).

(٣) أخرجه أحمد (ح ٧٤٨٢).

القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل لو، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١).

ومن طرف آخر فتمثل النقابات الاجتماع والتعاون على الخير والبر والتقوى، وهو مأمور به في الإسلام ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وإذا كانت النقابات خيراً ودعماً للضعيف، فتشكيل النقابة هو أخذ أجر من يقتدي به من دون أن ينقص من أجورهم شيئاً.

ح - الحرية الوطنية:

ما كان يخطر على البال أن يأتي يوم يُحرم فيه الإنسان من وطنه، ولكن بغى الطغاة لا حد له، فالذين يخالفونهم في الرأي يحكمون عليهم بالإعدام، كما هو الحال في بعض الدول العربية حيث كان يُعدم كل من ينتمي إلى منكر ديني، ويُمنعون من أبسط حقوق المواطنة بعد أن يهجروا من ديارهم، فتحرمهم السلطة حق الحصول على جواز يثبت انتماءهم لوطنهم في وقت لا يستطيع الإنسان أن يتحرك في الأرض إلا بجواز سفر.

١ - حق حرية الانتماء إلى الوطن: وهذا هو الأصل الطبيعي لكل إنسان أن يحمل جنسية بلده ووطنه، والإسلام يقر هذا الحق انطلاقاً من توزيع البشر إلى قبائل شتى وشعوب مختلفة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومن حق كل امرئ أن يتنسب إلى أهله وإلى قبيلته وإلى شعبه، بغض النظر عن الاختلاف الفكري والعقائدي، ولقد قامت وثيقة المدينة التي أصدرها الرسول ﷺ بينه وبين اليهود، وبين المهاجرين والأنصار على مفهوم المواطنة، فكانت المدينة هي وطن اليهود والمشرّكين والمسلمين من المهاجرين والأنصار، كل على ربعته وموطنه الذي هو فيه.

٢ - حرية التجنّس: وهذه القضية قد تكون خلافية في مثل هذا الحق، خاصة إذا كانت

الجنسية الجديدة جنسية بلد كافر، وتعني الجنسية حق المواطنة في هذا البلد الكافر، فبين البلدان والأوطان الإسلامية تبقى هذه الحرية قائمة؛ لأن الوطن الإسلامي وطن واحد وهذه الحدود بين أجزائه مصطنعة لا تلغي حق المسلم أن يحمل جنسية أي بلد مسلم وينتمي إليه، إنما الخلاف في الانتماء إلى بلد كافر، حيث تقوم وجهتا نظر شرعية في هذا الصدد:

- الأولى: حرمة ذلك، لأن رسول الله ﷺ حرم ذلك فيما رواه جرير عنه: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»، قالوا: يا رسول الله، ولم؟ قال: «لا ترايا ناراهما»^(١).

- الثانية: جواز ذلك، لأن شريعة الله معطلة في دول الإسلام ودول الشرك، ولأن المسلم جائز له ذلك إذا كان وجوده متميزاً في بلد الشرك حيث يكون داعية إلى الله فيه، وهذا ما فعله المسلمون في التاريخ حيث أدخلوا الناس في دين الله من خلال التعايش مع هؤلاء الناس، وطالما أن القضية خلافة، وبناءً على التنظيم المعاصر للأجناس والأديان وحقوق الإنسان فترجح جواز ذلك، وحرية الإنسان في التجنس، خاصة إذا اضطلع من وطنه بعقيدته.

٣ - حرية السفر والإقامة: فمن حق كل مواطن أن يكون حراً في السفر، وحرراً في الإقامة حيث يريد، وهذا لا يتعارض مع تنظيم موعد السفر والعودة، والخضوع لقوانين كل دولة فيها من حيث التأشيرات المطلوبة، لكن عصرنا الجديد وفي دولنا في العالم الثالث، هذا الحق البديهي يصبح حلمًا عند المواطنين، الذين يحرمون من حق الخروج من بلدهم باسم الأمن، حتى تحرم المرأة من الالتحاق بزوجها وتعتقل إن أقدمت على ذلك، ويمنع الأطفال من اللحاق بأبائهم، وعلى كل من يريد أن يغادر قطره لا بد أن يأخذ موافقة أجهزة الرعب على ذلك.

والإسلام لم يكتف بأن يعطي الحرية للإنسان بالتنقل والسفر والإقامة، بل حصص على ذلك وحث عليه بقوله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] - فالأرض متاحة للسفر والإقامة والتنقل للإنسان سعياً وراء الرزق، والتمتع بمباهج الدنيا وجمالها وزينتها.

(١) أخرجه الترمذي (ح ١٦٠٤).

ط - الحرية الاجتماعية:

وهي أوسع الحريات الفردية التي تنصب عليها معاني الحرية، ومن هذه الحريات:

١ - حرية الزواج: ولا يكتفي الإسلام بالحرية في الزواج فقط، بل هناك حصص عليه وترغيب فيه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاكْهِنُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَتِلْكَ وَرِثَةُ الْإِسْلَامِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلُوا﴾ [النساء: ٣].

وحيث إن الإسلام جعل أصل الزواج سنة نبوية «ومن رغب عن سنتي فليس مني»^(١)، أما قضية التعدد فهو في إطار المباح ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ لكن هذا المباح مقيد بقيد شديد، ليس العدل فقط كما يتوهم من يأخذ بظاهر الآية؛ بل (الخوف من عدم العدل) فمجرد الخوف يجعل التعدد محظوراً ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

هذا من جانب الرجل، وكذلك الحرية من جانب المرأة: «البكر تُسْتَأْذَنُ، والثيب أحق بنفسها من أهلها»، فالحرية كاملة للزوجين في الرضا، فهو عقد إيجاب وقبول بين الطرفين.

وحرية الافتراق بين الزوجين قائمة كذلك ضمن قيود وشروط تدرس في مظانها لحرص الإسلام على سلامة الأسرة، فلم يدع الافتراق هكذا مباحاً بدون قيود، إنما جعل تلك القيود المتعددة بحيث لا تخرج عن المبدأ ﴿فَإِذَا سَأَلَكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ إِحْسِنْ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والمبدأ ﴿وَإِنْ يَفْقَرَا يُعِنْهُمُ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠].

لكن انحراف البشرية في القرن الحادي والعشرين يعني أنها سادرة في غيها باسم الحرية، فبعد أن أعلنت في منتصف القرن العشرين وفي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: «الأسرة هي وحدة المجموعة الطبيعية والأساسية في المجتمع، ولها الحق في الحماية من المجتمع والدولة»^(٢)، تأتي وفي الوثيقة المقدمة لمؤتمر المرأة الذي انعقد في يونيو (٢٠٠٠م) وتقرر عقد مؤتمر آخر في سبتمبر لوضع الصيغة النهائية لتدمير الأسرة «وقد امتطى الغرب لذلك منظمة الأمم المتحدة التي توالى مؤتمراتها لتحقيق

(١) أحمد (ح ٢٣٥٢١).

(٢) المجتمع الكويتية، العدد (١٤٠٤)، (ربيع الأول يونيو ٢٠٠٠م).

هذا المخطط ابتداءً من نيروبي عام (١٩٨٥ م) مرورًا بالقاهرة (١٩٩٤ م) وبكين عام (١٩٩٥ م) ثم استانبول (١٩٩٦ م) ثم نيويورك عام (١٩٩٩ م)، وانتهاءً بمؤتمر بكين ٥ للمرأة عام (٢٠٠٠ م) الذي عقد في نيويورك في الفترة من (٥ - ٩ يونيو) بهدف عولمة البشرية وجرحها إلى الدمار الأسري بضرب مفاهيم الأسرة من الأساس، وابتداع أنماط شاذة من العلاقات الإنسانية.. وإشاعة الفاحشة بشتى صورها».

« وهم يهدفون إلى إقرار ما يلي:

١ - الأسرة ليست رجلًا وامرأة بعقد شرعي؛ بل هي أي رجل وامرأة وبدون عقد شرعي، وهي رجل ورجل، أو امرأة وامرأة، أي أباحوا السحاق، واللواط، والحرية الجنسية بين الفتيات والفتيان، كما أباحوا الحريات الجنسية للفتيات أكبر من سن ٢٠ سنة، ثم نزلوا بهذا السن إلى ١٨، ثم إلى ١٦ سنة.

٢ - تبكير الممارسة الجنسية وتأخير سن الزواج، ومع ذلك بشقيه يقع ما هو معلوم من الفساد والإفساد.

٣ - إباحة الإجهاض، فإذا حملت البنت فمن حقها أن تجهض نفسها، أما إذا أرادت أن تحتفظ بالطفل في إمكانها ولادته، فإن لم ترد دفعته للملاجئ.

٤ - تقليص سلطة الأبوين وولايتهم على الأبناء.. وهكذا إفساد خلقي، وتفكك أسري، وتحديد للنسل»^(١).

٢ - حرية الإنجاب: وكما نرى أن هذه الحرية عند أمم الغرب حق ترتفع في الإسلام إلى مرتبة الواجب، وحث الإسلام على الإنجاب واضح في روحه العامة من خلال حديث رسول الله ﷺ: «النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا فإنني مكاثركم الأمم..»^(٢)، وفي رواية «تزوجوا الولود الودود فإنني مباه بكم»^(٣)، من غير أن يمنع حق المرء والمرأة عن العزل، وتحديد النسل، فهو من باب الحرية والإباحة، وليس من باب الاستحباب والرغبة كما روى البخاري عن رسول الله ﷺ «فعن جابر رضي الله عنه قال: كنا نعزل على عهد النبي ﷺ والقرآن ينزل»^(٤)، وفي رواية: «فلم يأمرنا ولم ينهنا».

(١) المجتمع، العدد (١٤٠٢)، (مايو، يونيو ٢٠٠٠ م).

(٢) أخرجه ابن ماجه (ح ١٨٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود (ح ٢٠٥٠).

(٤) البخاري (ح ٥٢٠٩).

٣ - حرية العلاقات الأسرية: وإذا كانت العلاقات الأسرية في المجتمع الغربي آيلة إلى الزوال، ولم تعد هذه العلاقات تعدو بطاقة تهنئة بعيد الأم أو عيد الفصح، فالأمر عندنا أكبر بكثير من قضية الحرية، وكما قلنا هناك واجبات في العلاقات الأسرية لو تخلّى عنها الإنسان لوقع في غضب الله وسخطه، وأهم هذه العلاقات العلاقة مع الوالدين التي جعلها الله تعالى بعد عبادته، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴿ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، ومقابل ذلك فأكبر الكبائر بعد الشرك بالله عقوق الوالدين: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين»، وكان متكئا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور»، فما زال يقولها حتى قلت لبيته سكت»^(١).

ومن الوالدين إلى الأسرة الصغيرة: قال: من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله، قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، وفي رواية: «بر أمك ثم أباك ثم أختك ثم أخاك ثم أذنك فأذنك»، ومن الأسرة الصغيرة إلى الأسرة الكبيرة إلى الأقارب والأرحام، وصلة الرحم من أساسيات هذا الدين، فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائد بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]^(٢).

بينما تكون هذه العلاقات في المجتمعات الغربية قائمة على الحرية فمن شاء وصل ومن شاء قطع، ومن شاء هجر ومن شاء أحسن، ومن شاء أهان ومن شاء أكرم.

٤ - حرية حياته الخاصة في أسرته وأسراره: وهذه يلتقي فيها النظام الإسلامي مع

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٦١٣)، وأحمد (ح ٢٠٤٠١).

(٢) أخرجه أحمد (ح ٩٠٧٠)، والبخاري (ح ٥٦٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (ح ٨٣٤٩)، ومسلم (ح ٦٦٨٢).

النظام الديمقراطي، أما الأنظمة الدكتاتورية الشمولية والتي يكون دور أجهزة الرعب فيها التجسس على كل أبناء الشعب بلا استثناء؛ لأن القاعدة أن يكون لكل مواطن ملف عندهم يُحصون عليهم أنفاسهم، ويراقبون مجيئتهم وذهابهم ورؤايرهم، ويحاسبونهم على ما ينوون قوله، وما قال أبنائهم وذووهم، أما النظام الديمقراطي فيعطي الحرية كذلك بلا قيد، أقرب ما تكون إلى حرية البهائم، أما الحرية البشرية التي تتناسب مع إنسانية الإنسان فهي التي تتقيد بقيود الشريعة، ولننظر إلى روعة هذه القيود وروعة هذه الحرية.

يقول ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَEُضُكُم بَEُضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. فالحساب ليس على التجسس الذي يتم ويحرّمه الإسلام عملاً يمكن أن ينضبط، بل الحساب على مبدأ الظن والأخذ بالظنة والمحاسبة عليها على القلب، ولأن بعض الظن إثم فلا بد من تجنب القليل منه، والحساب على اللسان في ظهر الغيب، والحساب على التجسس، ويعتبر الإسلام أنه لا إيمان مع هذا التجسس.

فعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته »^(١).

٥ - حرية النشاطات الاجتماعية: وإذا كانت في المجتمعات العربية حرية، وبالمقابل فهي حق، فتزيد في النظام الإسلامي أنها واجب، هذه النشاطات (الخيرية) في مساعدة الفقراء والمحتاجين والمساعدة على الزواج، وبناء المستشفيات والمدارس ومقاومة الأوبئة والأمراض، والأنشطة الترفيهية والمسرة للمجتمع بجميع فئاته، هذه كلها مسؤوليات على عاتق كل فرد في المجتمع تدخل في إطار فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، لكن الحث عليه، والأجر فيه يبلغ مبلغاً عالياً جداً عند الله ﷻ، حيث تدخل كل هذه النشاطات ضمن نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعمل الخير، ويكفيها في هذا الصدد قول رسول الله ﷺ: « من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه

وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

وحين نشهد مناسبة الحديث يتضح أماننا الربط بين النشاطات الاجتماعية ودور الريادة فيها وبين هذا النص، وذلك عندما جاء مجموعة من الفقراء الأعراب المدقعين (فتمعر وجه رسول الله ﷺ لَمَّا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَأَمَرَ بِلَا لَأْ فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ وَقَالَ: « ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي فَسَّاءُ لُونُ بِهِ وَأَلَزَّحَمَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] والآية التي في الحشر: ﴿ ... اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٨] تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع برّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمره، قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبه، فقال رسول الله ﷺ: « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة »^(٢).

مشكلة اجتماعية، خلال لحظات تم حلها بالتنافس الشخصي على الخير لا بالأوامر الصارمة، وكان الرائد لهذا النشاط العظيم هو هذا الأنصاري الذي جاء بتلك الصرة التي كاد يعجز عن حملها، بل عجز، ثم تتابع الناس.

ي - الحرية الثقافية:

وكيف لا تكون الحرية الثقافية في دين أول كلمة وحي فيه من الله: ﴿ أَقْرَأْ ﴾؟

١ - حرية التأليف: وتعني حرية التأليف حرية التعليم، وفي الوقت الذي تعني حرية التأليف عند الغرب كل شيء بلا استثناء ولا قيد، فهي عندنا منطلقة من دين الله ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾، والإنسان هو أهم مخلوقاته ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ هذا الإنسان المخلوق من علق يتعلم من ربه ﷻ ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ وأعظم ما في خلق الإنسان علمه، وأعظم كرم الله ﷻ على هذا المخلوق هو العلم بالقلم ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾، وهو العلم الإبداعي والتجديدي ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]. وكل تأليف مبدع وتفكير تجديدي ضمن إطار الخالق وشرعته هو مأمور به وليس مسموحًا به فقط.

(١) أخرجه أحمد (١٩١٧٩)، ومسلم (٢٣٩٨) وغيرهما.

(٢) أخرجه أحمد (١٩١٩٧).

٢ - حرية النشر: فما يفيد تأليف بلا نشر، وإنما العلم بالتعلم، فنقل هذا العلم ونشره بين الناس هو المسؤولية الحقيقية للإنسان ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وليس الكسب المادي الرخيص هو الهدف وراء النشر، إنما العلم للعلم، ولتبليغه للناس كافة، وبلغ من حب الإسلام للعلم وحثه عليه أن فضّل تعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة من الأسرى المشركين في بدر أنه خير فداء للأسير الذي كان يدفع أربعة آلاف درهم ليفك أسرهم، فالنشر مرتبط بالتأليف، وحرتهما مرتبطتان بحرية الإنسان التي بينها الله تعالى له خالقه، هي الحرية التي لا يجور ولا يطغى فيها على الآخرين، وهي الحرية التي يصوغها له خالقه رب العالمين.

٣ - حرية التعلم: والأبواب مشرعة مفتوحة، كل يدرس حسب اختصاصه وميوله، ويحقق إبداعاً فيما يدرس ويحقق ثمرة لما يتعلم، وتلك جامعة ابن عباس - رضي الله عنهما - التي كان «يجلس يوماً ولا يذكر إلا الفقه، ويوماً للتأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً جلس إليه إلا خضع له»^(١).

ولا بد أن نشير إلى أن حرية التأليف والنشر والتعليم متاحة لكل أفراد الأمة طالما أن الإسلام قبل التعددية الفكرية في دولته، والحوار هو طريق التعامل بين المختلفين فكرياً في ظل دولة الإسلام.

٤ - حرية النوادي الأدبية والفنية: والنشاط الفكري ليس دائماً كتابة وتأليفاً ونشراً، بل كثيراً ما يكون محاضرات ومباريات أدبية وعلمية وتاريخية، لها بيئتها وروادها في النوادي الأدبية والفنية، ويرحب الإسلام بمثل هذه المواقع المرخصة حيث لا تعمل في الخفاء، إنما تمارس نشاطها بترخيص رسمي، ويوم نذكر في تاريخنا العظيم أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب عجز عن أن يمنع حسان بن ثابت من إنشاد الشعر في المسجد النبوي حيث حَجَّه حسان «فعن أبي هريرة أن عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس»، قال: اللهم نعم»^(٢).

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة (١٩٣/٣).

(٢) مسلم (ح ٢٤٨٥)، والبخاري (ح ٣٦١٢).

بل كانت الحوارات الشرعية بين المسلمين واليهود والنصارى إنما تقام في المسجد، ويقوم رسول الله ﷺ بإطعامهم وإكرامهم وضيافتهم بصفتهم وفودًا حلت على المدينة عاصمة دولة الإسلام.

ثانيًا: حرية الشعوب والمجتمعات:

وإذا تجاوزنا حرية الفرد الشخصية إلى الحديث عن حرية الشعوب والمجتمعات، فس نجد المفارقات العجيبة في هذا المجال:

أ - حرية تقرير المصير:

ورغم أن هذا الأمر أصبح معترفًا به في دول العالم والمؤسسات الدولية، لكنه يبقى عمليًا خاضعًا لأمزجة المستعمرين المسيطرين على الأمم المتحدة ومجلس الأمن، رأس المؤسسات الدولية.

ففي المادة (١) من الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الذي أقر في (١٦ من ديسمبر ١٩٦٦م) وبدأ سريانه في (١٩٧٦م) وبعد الديباجة:

« المادة (١): لكل الشعوب الحق في تقرير المصير، وبمقتضى هذا الحق فإنها تقرر بحرية وضعها السياسي وتتابع بحرية تنميتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية »^(١).

وهذا الحق يعترف به عندما يكون للنصارى، ففي خلال شهرين تم فصل تيمور الشرقية عن إندونيسيا المسلمة؛ لأن الذين يطالبون بهذا الحق نصارى ورعايا لدولة مسلمة، أما كشمير، فلصالح الهند الوثنية تمنع من تقرير مصيرها منذ عام (١٩٤٨م)؛ أي منذ أكثر من نصف قرن، ولا تزال بؤرة توتر عالمية بين الهند وباكستان، والشيشان التي دُمّرت مدنه وقراه بكل وسائل الدمار المعاصرة الروسية، ويمنع من حق تقرير المصير دون أن يرف جفن لدولة غربية؛ لأن الولايات المتحدة تريد ذلك، ويبقى هذا الأمر شأن داخلي من شؤون روسيا، فتباد الشعوب وتفننى باسم الشؤون الداخلية، وما لنا نبعد كثيرًا، والدول الاستعمارية التي صاغت ميثاق الأمم المتحدة هي نفسها التي صاغت نظام الانتداب والوصاية الدولية لهذه الدول المستعمرة على الشعوب المسحوقة.

« الفصل الخامس عشر: نظام الوصاية الدولي: تؤسس الأمم المتحدة نظامًا دوليًا

(١) حقوق الإنسان والسياسة الدولية، للدكتور إفيد. ب. فورسايت (ص ٣٢٨).

للوصاية خاضعاً لسلطانها، تدير به الأقاليم التي قد يعهد بها إليها بمقتضى اتفاقات فردية لاحقة.

المادة (٧٦): طبقاً لأغراض الأمم المتحدة المنصوص عليها في المادة الأولى من هذا الميثاق يجب أن تكون الأهداف الأساسية لنظام الوصاية هي:

أ - تدعيم السلم والأمن الدوليين.

ب - ترقية الأقاليم الموضوعة تحت الوصاية، هي وشعوبها في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، واطراداً لتهيئتها للحكم الذاتي أو الاستقلال حسب ما يناسب الظروف الخاصة لكل إقليم وشعوبه..

المادة (٧٧): يطبق نظام الوصاية على الأقاليم الداخلة في الفئات التالية وهي التي ستوضع تحت الوصاية بمقتضى اتفاقيات الوصاية: (أ) الأقاليم التي تقع الآن تحت الانتداب. (ب) الأقاليم التي قد تقتطع من دول الأعداء نتيجة للحرب العالمية الثانية. (ج) الأقاليم التي تضعها تحت الوصاية بمحض اختيارها دول مسؤولة عن إدارتها^(١).

لقد أسهبننا في عرض هذا النظام لنعلم أن حريات الشعوب ومجتمعاتها إنما هي رهن بإرادة الدول الكبرى التي تتحكم في مصير العالم، ولولا الصراع بين مصالح الاتحاد السوفيتي سابقاً وأمريكا لما نال كثير من الدول حقها في الحرية والاستقلال.

أما اليوم وبعد انتهاء الحرب بين المعسكرين، وأصبحت الأرض أحادية القطب بقيادة الولايات المتحدة، عدنا إلى أسوأ مما كنا عليه أيام الحرب الباردة.

أما في الإسلام، فحق تقرير المصير قائم لكل شعب؛ لأن الله تعالى خالق هذه الشعوب لتتعارف مع بعضها لا لتحكم بعضها بقوة السلاح ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ب - حرية التصرف بثرواتها الطبيعية:

وهو حق مقرر من الناحية النظرية في الميثاق الدولي، ففي الفقرة (٢) من المادة (١) من الاتفاقية الدولية الأنفة الذكر: (يمكن لكل الشعوب من أجل غاياتها الخاصة

(١) ملحق في كتاب خبراتي في الحكم، للأستاذ حسن الحكيم رئيس وزراء سوريا الأسبق (ص ٢١٨، ٢١٩).

أن تتصرف بحرية في ثرواتها الطبيعية ومواردها بدون الإضرار بأية التزامات تنشأ من التعاون الاقتصادي الدولي، ولا يمكن في أية حالة حرمان أي شعب من وسائل أرزاقه الخاصة.

هذا هو القرار النظري، لكن هل هذا هو الواقع العملي لشعوب الأرض اليوم؟ بالتأكيد لا.

وباعتراف الدول الكبرى تقرأ ما يلي: « ونحن نعلم أيضًا أننا كمواطنين في العالم الصناعي نستهلك الموارد الطبيعية بمعدل لم يسبق له مثيل ولا يمكن لنا أن نتحمله، إن الدول الصناعية والتي تشمل الخمس فقط من سكان العالم تستنفذ ثلثي جميع الموارد التي يتم استهلاكها وتنتج أربعة أخماس جميع النفايات والملوثات »^(١).

أما الخمس الآخر من البشرية فيعيش في فقر مدقع « أي أكثر من بليون شخص تحت خط الفقر »^(٢)، فلماذا هذا التمايز؟

ولا تزال حتى الآن مؤتمرات دول الشمال والجنوب تنفض عن غير اتفاق أمام ميزات الدول الصناعية واستثمارها بالثروة البشرية واستغلالها لضعف الشعوب الفقيرة.

ج - حرية تكوين الأحزاب:

وهذا من شأن الشعوب الداخلية، ومع أن الأمر طبيعي وقطري، لكننا نفاجأ أن هذه الشعوب لا تملك هذه الحرية في ظل الدول المستعمرة، كما لا تملكه في ظل الأنظمة المستبدة، وكثير من دول العالم الثالث يتحكم في مصيرها اليوم دولة استعمارية، أو فرد واحد، أو حزب واحد أو طائفة واحدة أو دكتاتورية عسكرية متسلطة تجعل مصير هذه الشعوب بيد هذه الأقليات، وتقيم الوصاية عليها، وتعتبرها تحت سن الرشد، فتفكر لها وتحكم باسمها، وعلى الجماهير أن تصفق وتهتف أو تنتظر مصيرها في المعتقلات وأقبيّة المخابرات، وما أسعد الشعب الذي يتصرف بكامل حريته، ويملك حقه في تعدد الأحزاب التي تعبر عن قناعات هذا الشعب الفكرية والسياسية، وما أبأس الشعوب التي تفكر بعقل فرعون القائل:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْنَ الْيَسَ إِلَىٰ مُلْكِي مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا

(١) قراءات في السكان والاستهلاك والبيئة، للدكتور لوري أن مازور (ص ٢).

(٢) المصدر السابق.

تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]، ومع مرور الزمن يصدق الشعب ألوهية الحاكم ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وهو نموذج الاستعباد في الأرض ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَنبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] وفرق كبير بين الشيعة والأحزاب التي يقيمها الحاكم أو المستعمر، وبين الأحزاب التي تعبر عن رغبات شعوبها، وتقدم برامج الإصلاح وتتنافس فيها في ظل تعددية سياسية.

د - حرية تكوين النقابات:

والنقابات صور من صور التقدم البشري المعاصر والتي تمثل فئات الشعب ومصالحه، والتي تكون ذات قوة تهز الأنظمة في الدول الديمقراطية كنقابات العمال والفلاحين، والنقابات العلمية كنقابات الأطباء والصيدالة والمعلمين، واتحادات الطلبة، والاتحادات النسائية، ونقابات المهندسين، والتي تمثل قطاعات الشعب كله، وترعى مصالح أبنائها وتقود مسيرة الشعوب بوعيتها ونضالها للوضع الأقوم لهذه الشعوب.

هـ - حرية اختيار نظام الحكم:

ومع بداهة هذا الأمر وهذه الحرية، لكن هناك من يغتال هذه الحرية، فالأصل أن لا سلطة أعلى من الشعب في اختيار نظام الحكم الذي يريده، والذي تختاره أكثرية الأمة، لكننا كثيراً ما نجد الأقلية تتحكم بمصير الأكثرية، وتحكمها بالحديد والنار، وتحدث باسمها، والملاحظ أن كثيراً من هؤلاء الطغاة لا يؤمنون بالديمقراطية والتعددية إلا عندما يُزاحون عن الحكم، ويدخلون السجون، ويدوقون مرارة الظلم، فعندئذ يحسون بطعم الحرية، ويخرجون على الناس يدعون إلى الحرية وإلى الانتخابات وإلى الديمقراطية، وهل ستبقى الشعوب دائماً حقل تجارب لهؤلاء الطغاة، وإن ثار الشعب على جلّاديه فالثوار إرهابيون، ودعاة الديمقراطية الغربية الذين يحاسبون حكامهم على النقيير والقطمير، يسندون طغاة العالم الثالث، ويباركون ظلمهم، فهم يعتقدون أن هذه الشعوب لا تستحق الديمقراطية، فهم كاذبون ماضون وراء مصالحهم؛ لأن طريقة التعامل مع الطغاة سهلة وكما يقول كيسنجر: «التعامل مع شيخ القبيلة»، فلا حاجة لمؤسسات ولا مجالس نيابية، فيأقنع شخص واحد يحققون مصالحهم أسهل بكثير من المؤسسات، ونسأل إلى أين وصل الغرب في حرية اختيار حكامه كما يقول (يانكلوفيتش): «إن حريتنا السياسية

ليست في خطر، فلا يوجد هناك ديككتاتور يبدو في الأفق، وليس هناك انقلاب عسكري وشيك الحدوث، ومهما كان الخطر الذي كان يهدد حريتنا السياسية من الشيوعية في الماضي، فإن هذا الخطر تضاعف كثيرًا، وسيظل الأمر يكون أحرارًا في المستقبل مثلما كانوا في الماضي في التصويت للمرشح الذي يختارونه، وأن يعربوا في حرية عما يدور في أذهانهم، وأن يستمتعوا بمزايا الصحافة الحرة»^(١).

فمتى تصل شعوبنا إلى هذا الاستقرار؟

وإذا أردنا المستند الشرعي لحق الشعب في الاختيار لحكامه، فالأصل فيه قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَتَنَبَّهْ﴾ [الشورى: ٣٨] وليس فرضًا أو جبرية أو تسلطًا، والأصل كذلك ترك رسول الله ﷺ الأمر للمسلمين بعد وفاته يختارون من يحبون، ويوم عدل ﷺ عن استخلاف الصديق علل ذلك برضا المؤمنين بأنهم لا يرضون غيره «ثم قلت: يدفع الله ويأبى المؤمنون»^(٢)، وحين اختار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عثمان على علي قال له: «أما بعد يا علي، إني نظرت في أمر الناس فلم أراهم يعدلون بعثمان فلا تجعل على نفسك سبيلًا»^(٣)، والحديث: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»^(٤).

و - حرية اختيار العقيدة أو المذهب:

ومع الفطرة التي تمثل هذه الحرية، فقد كان الجحيم الشيوعي يفرض على الناس دينًا جديدًا من الكفر والإلحاد، ويحارب الناس في دينهم غير حربهم في أرزاقهم وأفكارهم ف «إن عدد مسلمي الاتحاد السوفيتي انخفض خلال الثلاثين سنة الماضية إلى النصف أو أكثر قليلًا، فبعد أن كان عددهم ٤٥ مليونًا هبط إلى ٢٢ مليون، وقد روى فريق من المسلمين اللاجئيين من الاتحاد السوفيتي قصصًا مثيرة عن حوادث التعذيب والتجويع والتقتيل التي عانوا منها الأمرين على أيدي السوفييت، وقد كان من الجرائم العظمى بروسيا في يوم من الأيام أن يُضبطَ روسي متلبسًا بجريمة الصلاة أو العبادة في كنيسة أو مسجد، وقد هدمت المساجد والكنائس جميعًا في روسيا منذ سنين عديدة، وحُولَ

(١) الديمقراطية وقرار الجماهير، للدكتور دانييل يانكلوفيتش (ص ١٦)، ت: كمال عبد الرؤوف.

(٢) البخاري (ح ٧٢١٧).

(٣) البخاري (ح ٧٢٠٧).

(٤) مسلم (ح ١٨٥٢).

كثير منها إلى مصانع أو مخازن أو مسارح للهو، أو زرائب للماشية، وبقي قليل منها كمتاحف تمثل عهد الرجعية الاستغلالية البائد»^(١)، وتقول صحيفة (تركمانكيا) في (١ كانون الأول عام ١٩٥٨ م):

«إن العقيدة الدينية الإسلامية هي القوة المظلمة التي لا تزال تفسد العقول وحياة الشعوب، وتعيق النمو وتقف كأي حاجز في طريق السعادة والنور والمعرفة، هذا وإن الطقوس الدينية لا تزال لاصقة ثابتة كما أن الديانة لم تتوقف عن كونها مادة الأفيون لدى بعض الناس»^(٢).

بينما يعلن الإسلام المبدأ القائل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] والمبدأ القائل ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ومن حق أي شعب أن يختار العقيدة التي يريد ويتحمل مسؤولية هذا الاختيار.

ثالثاً: حرية الدولة:

إن الدولة حين تنبثق من إرادة شعبية تصبح شخصاً معنوياً يمثل الأمة كلها، ويغدو الاعتداء على الدولة أو السلطة اعتداء على الشعب والوطن نفسه، وحين تقوم المؤسسات بشكل سليم وصحيح ويقوم مجلس منبثق عن الشعب يكون من حقه ابتداء...

أ - حرية اختيار الدستور:

ففي عصرنا الحاضر يمثل دستور الأمة نظامها السياسي والفكري والقضائي ويحدد هويتها وثوابتها التي تنطلق منها، ويعتبر الدستور أحق من كل الأمور بالتمثيل الصحيح للأمة، فإذا جاءت حفنة تريد فرض قناعاتها على الأمة باسم الدستور فهذا سرقة وامتهان لأكرم ما عند الدولة من الكرامة، ففي بعض الدول العربية مثلاً نجد حكم حزب واحد وفرد واحد هو الأساس في بناء الدستور بحجة إرادة الشعب، وقناعة الشعب، وكل الأحزاب الأخرى، والقناعات الأخرى تمثل أعداء الشعب ولا حرية لأعداء الشعب، ورغم فشل الحزب في تحقيق جميع أهدافه، ورغم إخفاق كل برامجه التي وعد بها الأمة، مع كل ذلك فهو الحزب القائد، وهذه إرادة الأمة، وخلال ثلث قرن استطاع

(١) حقيقة الشيوعية، مقتطفات لأمين شاعر وسعيد العريان وعلي أدهم (ص ١٨١ - ١٩٢).

(٢) حركات ومذاهب (ص ١٦).

الحاكم الفرد أن ينقل الحكم لابنه، ويعدل الدستور ليكون مناسباً لِسِنِّه الصغير، ومع ذلك، فهذا هو حكم المؤسسات.

لقد أقام السوريون الدنيا وما أقعدوها ضد فرنسا عندما أرادت أن تلغي بعض مواد الدستور عام (١٩٢٨ م)، أو تقيّد الدستور بموافقة المفوض السامي، وتعطلت الحياة السياسية قرابة عشر سنوات صراعاً بين إرادة الشعب السوري وإرادة الحاكم المستعمر، ويأتي الفرد الواحد ليصوغ الأمة على مزاجه وهواه معلناً حكمه إلى الأبد، وننتهي إلى أن حرية اختيار الدستور هو الذي يميز الشعب المستعبد من الشعب الحر، والدولة الديمقراطية من الدولة المستبدة، وذلك في مجتمع وعصر أصبح احتكام الشعب للدستور يفوق احتكامه لمبادئ دينه.

ب - حرية إصدار القوانين:

وهي حرية مستمدة من حرية اختيار الدستور، فالشعب يختار القوانين التي تناسبه في شتى مجالات حياته، بحيث لا تتعارض مع الدستور في الدولة الديمقراطية، ولا تتعارض مع الإسلام ومع مبادئ الدستور في الدولة الإسلامية، ولمجلس الشعب دوره الرئيسي في إصدار القوانين بحيث يمثل سلطة التشريع في الدولة الديمقراطية، وحين يكون صادراً عن إرادة حرة يكون ممثلاً لقناعة الأمة، أما إن كان تعييناً من السلطان الحاكم أو الحزب الحاكم، فتأتي كل القوانين لتخدم هوى الطاغية مهما كان اسمه ولونه لا لتخدم مصلحة الشعب العامة، وتلبي رغباته، وتحقق تطلعاته.

ج - حرية ترابها وعدم الاعتداء عليها:

صحيح أن تراب الوطن هو أقرب لتمثيل الأمة منه للدولة، لكن الدولة هي الناطقة باسم الوطن، وهي المعترف عليها في المنظمات الدولية، وممثلوها هم ممثلون للوطن والشعب في كل مكان في العالم، وإن اعتداء أي شعب أو دولة ومحاولة احتلاله أرض أي دولة أخرى بالقوة هو حق معترف عليه - ولو نظرياً على الأقل - في مواثيق الأمم المتحدة والشرعة الدولية، ففي الأصل الأول من ميثاق منظمة الأمم المتحدة وفي المادة (٢) (الفقرة ٤) - يجب على أعضاء الهيئة جميعاً أن يمتنعوا في علاقاتهم عن التهديد بالقوة أو استخدامها للاعتداء على سلامة أراضي أي عضو في الهيئة أو استغلاله

السياسي أو سلامة واستغلال أي دولة أو يسلكوا أي سبيل يتعارض مع أغراض الأمم المتحدة»^(١).

وأصبح في الدول الوطنية المعاصرة قدسية لتراب الأرض، بحيث تقدم الأرواح في سبيل الذود عن هذا الوطن، ولا عجب، فقد رأينا كيف يوجب الإسلام الجهاد على كل أبناء الوطن بلا استثناء إن اجتاحت عدو أرض المسلمين، أو استولى عليها، وعلى المسلمين في الأرض كلهم عونهم لهذا القطر على صد الاعتداء عنه.

د - حرية انضمامها أو انفصالها لدول أخرى:

وحين لا يعارض الدستور مثل هذا الانضمام ابتداءً وتقر المؤسسات الدستورية الممثلة للشعب هذا الانضمام، فهو من صلاحيات الدولة أن تقوم بتنفيذ ذلك، حتى لو تغير اسم الدولة لاسم آخر، وما أحوج أمتنا العربية أن تلغي كل هذه الكيانات المصطنعة الثلاثة والعشرين، وتكون دولة العرب الكبرى بحيث يؤخذ بنظام الاتحاد الفيدرالي الذي يحقق لكل شعب خصوصيته وحكمه الذاتي، وتبقى وزارات السيادة واحدة في هذه الدولة، ومن العيب أن تستمر هذه الدول الإقليمية على الساحة، وتبقى هذه الكيانات وتقدس هذه الحدود، والعرب المسلمون أمة واحدة ذو تاريخ واحد وثقافة واحدة، عاشت وبلغت ذروة أمجادها في ظل الإسلام الذي كان شريعة الحكم لها خلال أحقابها السالفة دون أن يمس حرية المعتقد لكل الديانات التي تتعايش مع الإسلام في منطلق واحد، فالإسلام عقيدة للمسلم وشرعه لكل العرب منبثقة من هوية الأمة وذاتيتها، وإيمانها بالله رب العالمين، وتاريخها القانوني العريق، وبمقدار ما يكون هذا الحق قائماً للدولة في الانضمام إلى دولة أخرى بمقدار ما تملك حق الانفصال عنها، وهذا ما جرى بين سورية ومصر بعد وحدة اندماجية بين القطرين؛ حيث شكلتا دولة واحدة هي الجمهورية العربية المتحدة، ولم تستمر هذه الوحدة أكثر من ثلاث سنين حيث عادت سوريا فانفصلت عن مصر، وعادت دولتين اثنتين، ولعل وحدة اليمن كانت أقوى وأرسخ في الربع الأخير من القرن العشرين حيث كونتا دولة واحدة ولم تحافظ على وحدتها إلا بأنهار من الدماء.

(١) من ميثاق الأمم المتحدة المنشور بملاحق كتاب (خبراتي في الحكم) لحسن الحكيم (ص ١٩٨).

هـ - حرية تكوين اتحادات سياسية واقتصادية:

ولعل هذه الاتحادات أقرب إلى واقع العرب المتخلف من الدولة الواحدة، وحتى هذه الاتحادات لم تدم طويلاً ولم تعش كثيراً لأمزجة الحكام وأهوائهم، فالمادة (١) من الدستور السوري:

١ - الجمهورية العربية السورية دولة ديمقراطية شعبية واشتراكية ذات سيادة لا يجوز التنازل عن أي جزء من أراضيها وهي عضو في دولة اتحاد الجمهوريات العربية.

٢ - القطر العربي السوري جزء من الوطن العربي.

٣ - الشعب في القطر العربي السوري جزء من الأمة العربية يعمل ويناضل لتحقيق وحدتها الشاملة.

و - حرية الانضمام للتحالفات والتكتلات الدولية:

ومن الوحدة إلى الاتحاد إلى التحالفات السياسية، وكلها من اختصاصات الدولة التي تبحث عن مصلحتها في ذلك، فالدول العربية جميعاً تشكل فيما بينها جامعة الدول العربية، وتشكل مع الدول الإسلامية في العالم منظمة المؤتمر الإسلامي التي تضم قرابة خمسين دولة، والدولة العربية الأفريقية عضو في منظمة الدول الأفريقية، وقد كانت أكبر كتلة سياسية فيها معظم الدول العربية هي كتلة دول عدم الانحياز التي تلاشت بعد انتهاء المعسكرين الشيوعي والرأسمالي.

ز - حرية دخولها الهيئات العالمية:

وهذه الميزة الرئيسية للدولة المستقلة، حيث تساهم هذه الدول في عضوية الأمم المتحدة وجميع الهيئات المتفرعة عنها مثل منظمة العمل الدولية، ومحكمة العدل الدولية، وهيئات حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، وغيرها من الهيئات المنبثقة عنها، وهي حرية اختيارية، وإن كانت منظمة الأمم المتحدة تجر الآن من قبل العلمانيين والمنحرفين في الأرض إلى تبني الشذوذ الجنسي ودمار الأسرة بحجة إنقاذ المرأة ورفع مستواها، وسيبقى المسلمون في الأرض الذين يقتربون من خمس البشرية لا يمثلون أي وزن سياسي في العالم طالما أنهم دول متفرقة متخلفة محرومة، وهذا الاتحاد الأوربي يعتبر نموذجاً حياً للجمع بين المصالح الإقليمية، ومصلحة القارة الأوربية، وأصبح كيئناً يُخشى خطره أن يمثل توازن القوى في العالم مقابل الولايات المتحدة، ويرحم الله أيام

الرشد حين كان يخاطب السحابة: اذهبي حيث شئت فسيأتيني خراجك، وما أحوجنا إلى العودة إلى تلك الروح، وإلى تلك الوحدة، وذلك حين ننطلق من روح هذه الأمة من الإسلام، وإلا فما أحرانا أن نبقي في ذيل القافلة.

ح - بين الحرية الفردية وحریات الآخرين:

يبقى الفكر البشري القاصر هو الذي يمثل طغيان الحرية الفردية في النظام الغربي على حساب المجتمع والدولة والعدالة والمساواة، كما يشهد طغيان حرية الدولة على الحرية الفردية في الأنظمة الشمولية حيث تكون مصلحة الدولة والمجتمع هي الأساس ويسحق الفرد فيه ويتحول إلى رقم من الأرقام ويفقد إنسانيته وذاته ووجوده، الإسلام وحده في الأرض هو الذي يحقق هذا التوازن بين حرية الفرد وحرية المجتمع، وبين الحرية الشخصية وحریات الآخرين لأنه من لدن خبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فما من حرية شخصية في الإسلام إلا ولها قيود تحقق مصلحة المجتمع كله من خلالها، في الملكية الفردية، في الحرية السياسية، في الحرية الاجتماعية، في الحرية الثقافية، ولا حاجة لضرب الأمثلة في ذلك، فكل بحث الحرية يقدم هذه التوازنات، ونماذج عنها، ولعل هذا الحديث الشامل يعطي بعضاً من هذه القيم العليا المتوازنة في المجتمع: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته»، قال: وحسبت أن قد قال: «والرجل راعٍ في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١).

(فجميع النظريات تفترض أن العقل الإنساني هو لوح فارغ تُسجَّل عليه العوامل الخارجية ما شاءت من انطباعات، بهذه النظرة تجعل من البشر مخلوقات سلبية عاجزة مجردة من أية رسالة تحيا من أجلها وحياء البشر تحددها القوى المادية للتاريخ (ماركس)، أو أنها تتحدد من جراء مؤثرات نفسية (فرويد)، وغريزة (لورنز)، وبيئية (بافلوف) و (واطسن) و (سكينر) وغيرهم، وهذا يقود إلى إصدار حكم على غرار (سكينز) بأن الحرية الفردية هي خرافة لا يمكنها التوفيق بين الجبرية والمسؤولية البشرية، ولا يسع الوصفة الماركسية القائلة بإزالة البورجوازية والملكية الفردية وإقامة دكتاتورية

(١) البخاري (ح ٨٥٣، ٢٢٧٨)، ومسلم (ح ٤٨٣٢).

الدولة مكانها إلا أن تطرح نوعاً آخر من الجبرية في الحياة الإنسانية، ألا وهي الجبرية التي يفرضها المكتب السياسي.

وعلى النقيض من الجبرية هنالك وجودية (سارتر) فيما أنه لا يوجد إله فإن الإنسان محكوم عليه بالحرية ولا حدود لحرية سوى أنه ليس حراً في أن يتخلى عن كونه حراً، إن كل جانب من جوانب حياة الإنسان الفكرية يصدر عن عزم وتصميم وعلى مسؤوليته، ولا شك أن هذا أفضل من الجبرية، لكن سارتر يرى أن هذه الحرية مطلقة فكل شيء مباح، فلا يوجد معنى ولا غاية متأصلة في الحياة البشرية، ولا يوجد قيم سامية أو موضوعية محددة للبشر، ولا قوانين إلهية، ولا مثل أفلاطونية ولا أي شيء آخر، فالبشر مهجورون ومنبوذون في العالم وعليهم الاهتمام بأنفسهم، والأساس الوحيد للقيم هو الحرية البشرية، ومثل هذا المفهوم للحرية المطلقة لا يمكن إلا أن يؤدي إلى مفاهيم عدم التدخل الرأسمالية.

وعلى نقيض كامل لهذه الأفكار فإن مفهوم الخلافة يرقى بالبشر إلى مركز شريف وكريم في الكون ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. ويعطي معنى لحياة الرجل والمرأة على حد سواء ويحملهما رسالة، وهذا معنى يتولد من الإيمان بأن الإنسان لم يخلق عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. ورسالته هي أن يتصرف وفقاً للهدى الإلهي رغم كونه حراً، وهذا ما يُستفاد من مفهوم العبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، بالمعنى الإسلامي التي يتضمن أمراً لا يجوز تجاوزه ألا وهو تأدية حقوق العباد وتعزيز رفاهيتهم وتحقيق مقاصد الشريعة، فلا عجب أن يُشدد الإسلام شأنه في ذلك شأن الأديان الكبرى الأخرى على الواجبات أكثر من الحقوق، والحكمة الكامنة وراء ذلك هي أنه إذا نفذت الواجبات من جانب كل شخص فإن المصلحة الخاصة تبقى تلقائياً ضمن حدود، وتبقى حقوق الجميع مصونة بلاريب «فالإسلام بسيط وسهل الفهم والتسوية وهو يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية هي: التوحيد، والخلافة (عن الله)، والعدالة، وهذه المبادئ هي الإطار للنظرة الإسلامية إلى الحياة كما هي منبع مقاصد الشريعة واستراتيجيتها»^(١).

الطرق بين الحرية والتحرير:

أ - طبيعة المعركة:

لم يكن الحديث عن الحرية في الإسلام مجرد طرح فلسفي بارد، بل كان مهمة أساسية من مهام هذا الدين، وهو نقل الناس من العبودية إلى الحرية، وبالمصطلح الإسلامي: نقل الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، لقد حرّر فكرهم ابتداءً بأنهم خلقوا أحراراً من أصل واحد. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُقُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَنْفُقُوا إِلَهَ الَّذِي نَسَاءُ لَوْنَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

من أجل هذا كان العبيد المستضعفون هم النواة الأولى لهذا الدين حين شعروا أن الإسلام هو الذي يعيد لهم كرامتهم وآدميتهم، وكذلك النساء اللاتي كن يعانين من عبودية ورقّ بطريق آخر كما قال عمر رضي الله عنه: «كنا لا نعد النساء شيئاً»، إضافة إلى الشباب المتحررين من عقد الزعامة ومصالح السلطة، أما المتغطرسون المتكبرون المستعبدون فقد وقفوا ضد هذا الدين، والقرآن الكريم يعرض هذه المعركة كاملة في الصراع بين الشرك والتوحيد بين (الملا) و (الذين استكبروا)، وبين (المستضعفين) و (المؤمنين) في عرض يبلغ مساحة كبيرة في كتاب الله، وجعل الميزة فقط بين البشر بالتقوى والعمل الصالح:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ب - الحرب على الظالمين:

وروح القرآن كله ونصوصه تعلن الحرب على الظالمين في الأرض، على الطغاة المستبدين الذين يتحكمون بأرواح الناس وعقائدهم وأفكارهم وأقواتهم، ويجعل المهمة الأولى للإسلام في إزاحة هؤلاء الطواغيت من طريق الدعوة، بل اعتبر الإسلام الكفر قرين الظلم سواء بسواء، وقدم لنا مصارع هؤلاء الطغاة على مدار التاريخ البشري الذين كانوا يسخرون من الذين استضعفوا وآمنوا وكيف أهلكهم الله تعالى: ﴿وَقَرُّوْا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَكَذَلِكَ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ج - فجر جديد للبشرية:

وكان هذا الفجر بانتقال معركة الحرية من النطاق (المحلي) إلى النطاق (العالمي)، ومع الرسالة الإعلامية الربانية الأخيرة للبشرية جاء فجر جديد لها، بحيث أصبح المؤمنون المستضعفون هم الذين ينتصرون من الظالمين بالجهاد والكفاح، وليس هلاك الطغاة بمعجزة ربانية.

وقد حفل ثلث القرآن وأكثر بعرض هؤلاء المستضعفين الذين انتصروا على المستكبرين وأقاموا دولة الإسلام في الأرض؛ الإسلام لله وحده لا لبشر، ولا لطاغية، ولا لحزب، ولا لفئة ولا لقوم، فسيد ولد آدم حين يقتل في المعركة بين (المؤمنين) و (الكافرين) فلا بد أن يتابع جنوده الجهاد من بعده؛ لتمكين هذا الدين في الأرض لا لشخصه أو الثأر له.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ... ﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٦] (١).

لو كان لبشر أن يؤله لكان ذلك لمحمد ﷺ، ولما لم يكن له ذلك فقد انتهى تأليه البشر في الأرض، كما قال الصديق عليه السلام عقب وفاة المصطفى ﷺ: « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ».

وأصبحت معارك (التحرير) في بدر وأحد والخندق وغيرها، ليست معارك محلية بين الأنصار والمهاجرين وبين قريش، إنما هي معارك تحرير كبرى، ومعالم تغيير في تاريخ البشرية، وانتقلت من أن تكون تاريخاً يحكى إلى أن تغدو قرآناً يتلى على أجيال البشرية اللاحقة أن تتابع النسيج على منواله.

د - تحرير الجزيرة العربية:

وقاد معارك التحرير التالية أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وأنهى الطغاة والمستكبرين والجبارين في جزيرة العرب من خلال حروب (الردة)؛ الردة التي كانت

(١) وقد نزلت هذه الآيات بعد غزوة أحد حيث أشيع قتل رسول الله ﷺ في الصف المؤمن، وزلزل هذا الصف.

تود أن تعود بالبشرية إلى عهود الطغيان والذل والعبودية وحقق الله تعالى بهم موعوده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وحين أنهى الصديق الظلم والطغيان في قلب الجزيرة العربية أطلق جيوشه نحو الأرض كلها في فارس والروم، فلم تنته المهمة بعد، إنما كانت هذه نقطة انطلاق نحو حرب التحرير (البشرية) بعد حرب التحرر (العربية).

هـ - مبادئ حروب التحرير الإسلامية:

وكان انطلاق خط تحرير (البشرية) بهذا المنهج الذي مثله خطبة الصديق ﷺ ووصيته للأمرء الذين بعثهم لفتح الشام: «يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على أقوام يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خففاً، اندفعوا باسم الله»^(١).

و - العهد الذهبي للحرية:

وكان العهد النبوي والعهد الراشدي عهد تحرير البشرية من سلطان الطغاة في الأرض، ليدخلوا في دين الله لا في دين أحد من خلقه، واستمر ثلث قرن من الزمان كان عرس الحرية بكل أبعادها المدنية السياسية في طريقة اختيار الحاكم، وفي المنهج الذي يسير عليه الحاكم، وفي محاسبته ومساءلته كما حدّد أبو بكر ﷺ ذلك بقوله: «إني وُلّيت عليكم ولست بخيركم.. إن أحسنت فأطيعوني، وإن زغت فقوموني... أطيعوني ما أطيع الله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم».

وكما حدّد عمر ﷺ: «إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سدتها ما تسع بعضنا

لبعض، فإن عجز عن ذلك عنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم، ولست معلمكم إلا بالعمل، إني والله ما أنا بملك فاستعبدكم، وإنما أنا عبد الله عرض عليّ لأمانة فإن رددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت، وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيت، ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً، وبقيت لا أقال ولا أرد فاستعتب»^(١).

«وذاك عثمان ؓ يبعث في الأمصار قائلاً: أما بعد فإنني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفع عليّ شيء، ولا أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرون يضربون فيا من ضرب سراً، وشتم سراً من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين»^(٢).

وتلك خطبة البيعة لعلي ؓ، وطريق بيعته:

«اجتمع المهاجرون والأنصار فأتوا علياً فقالوا: يا أبا حسن، هلم نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم، فمن اخترتم فقد رضيت به فاختاروا، فقالوا: والله لا نختار غيرك، قال: فاختلفوا إليه مراراً بعدما قتل عثمان، ثم أتوه في آخر ذلك فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم قد اختلفتم إليّ وأيتتم، وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت أمركم، وإلا فلا حاجة لي فيه، قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله، فجاء فصعد المنبر، فاجتمع الناس إليه، فقال: إني كنت كارهاً لأمركم، فأيتتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي أمر دونكم، ألا إن مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منكم درهماً دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، ثم بايعهم على ذلك»^(٣).

ونفقه من هذه النصوص ما يلي:

١ - الحاكم يدع شعبه لتقويمه إن انحرف عن الطريق، والثورة عليه، وعدم طاعته إن عصى الله.

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم (ص ٧٠).

(٢) المصدر السابق (ص ٦٧٩).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٦٤٨).

٢ - الحاكم يعيش حياة أفقر أبناء شعبه ليستوي معهم بالكفاف، ومهمة الحاكم أن يشبع شعبه ويتعب ويحزن ليفرح شعبه، وكل خوفه من ربه أن يقصر فلا يقبله ربه ولا تقبل عذره.

٣ - الحاكم يسلط شعبه على كبار موظفي دولته، ويدعو المظلومين إلى لقاء رئيس الدولة للاقتصاص من نواب رئيس الدولة، بينما يسامح الشعب بحق الولاة عليهم.

٤ - الحاكم يعلن لمجلس شورا أنه لا سلطة له إلا برأيهم، ولا حق له بدرهم واحد من خزينة الدولة إلا راتبه المتواضع.

ز - من الخلافة إلى الملك:

أول الخلل من الخلافة إلى الملك: وانتهى العهد الذهبي للبشرية وللحرية مع انتهاء العهد الراشدي أو أرشد عهود البشرية كما قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه الإمام أحمد عن سفينة عليه السلام، قال: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»^(١)، وبرز الخلل واضحاً في الانتقال إلى ولاية العهد عن البيعة الحرة من الأمة وهو الذي عبر عنه ابن الصديق عليه السلام بسنة كسرى وقيصر.

«أخرج الزبير عن عبد الله بن نافع قال: خطب معاوية فدعا الناس إلى بيعة يزيد فكلمه الحسين بن علي وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر فقال له عبد الرحمن: أهرقية كلما مات قيصر كان قيصر مكانه؟! لا نفعل والله أبداً»^(٢).

وفي رواية «فقال مروان: سنة أبي بكر وعمر فقال عبد الرحمن: سنة هرقل وقيصر»^(٣)، وكانت ثورة الحسين وابن الزبير - رضي الله عنهم -.

وتوفي يزيد، لكن الأمة عادت بعد حروب إلى ولاية العهد، ولم تستطع أن ترتفع إلى مستوى الخلافة الراشدة خلال أربعة عشر قرناً من الزمان، هذا المستوى هو الوصول إلى الإمرة عن طريق الانتخاب لا البيعة المفروضة بالقوة.

وكان الخلل الثاني في الانتقال من الخلافة إلى الملك، هو في حق التصرف بمال الدولة، وحق المحاسبة للخليفة، فعمر عليه السلام يحدد سلطة رئيس الدولة بالمال بقوله:

(١) رواه أحمد (ح ٢١٩٧٨)، والترمذي (ح ٢٢٢٦)، والنسائي (ح ٨١٥٥).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (٢/٤٠٨).

(٣) المصدر السابق نفسه.

« إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين، حلة^(١) للشتاء وحلة للصيف، وما أحج به وأعتمر، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين ».

فليس إذن أعلى راتب في الدولة هو راتب رئيسها، بل هو راتب أوساط الموظفين، أما الأمراء وحكام الولايات فما هي شروطهم عند عمر رضي الله عنه:

عن ابن خزيمة بن ثابت الأنصاري، قال: كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار واشترط عليه أن لا يركب برذوناً^(٢)، ولا يأكل نقياً^(٣)، ولا يلبس رقيقاً، ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس.

وفي عهد معاوية رضي الله عنه بعد أن تحولت الخلافة إلى الملك، خطب ذات يوم فقال: « إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه، ومن شئنا منعناه، فلم يجبه أحد، فلما كان في الجمعة الثانية، قال مثل ذلك، فلم يجبه أحد، فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته، فقام إليه رجل فقال: كلا، عن المال مالنا والفيء فيئنا، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيفنا، فنزل معاوية، فأرسل إلى الرجل فأدخله، فقال القوم: هلك الرجل، ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير، فقال معاوية: إن هذا أحيانى أحياء الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سيكون من بعدي أمراء يقولون ولا يُرد عليهم، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة ».

وإني تكلمت أول جمعة فلم يرد علي أحد، فخشيت أن أكون منهم، ثم تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد علي أحد، فقلت في نفسي: إني من القوم، فلما تكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد علي فأحيانى أحياء الله ﷻ »^(٤).

إنه لو بقي هذا الأمر في عهد معاوية وفي أرجاء ملكه لقلنا أننا لا نزال في عهد خليفة، لكن ما أعلنه زياد بن أبيه والي العراق ولم يرد عليه أحد يغير هذا المفهوم حيث ختم خطبته بقوله: « أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله

(١) الحلة: الثوب أو البزة.

(٢) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوي الأرجل.

(٣) النقي: الخبز المنخول.

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٩/٣٩٣)، وأبو يعلى (ح ٧٣٨٢)، قال الهيثمي: رجاله ثقات.

الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحيينا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا»^(١).

ولم يرد عليه أحد، ولم يجب إلا ما ذكر عن مرداس بن أدية الذي وقف فقال: أنبأ الله بغير ما قلت، فقال زياد: إنا لا نجد إلى ما تريد أنت وأصحابك سبيلاً حتى نخوض إليها الدماء.

فمعاوية أكرم الرجل وأجلسه بجواره وأثنى عليه، أما زياد فهدده ببخور الدماء حتى يستقر الملك.

مفاهيم إسلامية عن الحرية:

أ - الفراق بين الكتاب والسلطان:

عننا حديثان يسمان تاريخنا الإسلامي الحاكم:

الأول: « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء لأن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء لأن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء لأن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء لأن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة»، ثم سكت^(٢).

الحديث الثاني: « ألا إن الكتاب والسلطان دائران، فدوروا مع الكتاب حيث دار.. ألا إنه سيليكم أمراء إن أطعتموهم ضلوكم أو عصيتموهم قتلوكم»، قالوا: فما نفعل يا رسول الله؟ قال: « افعلوا كما فعل أصحاب عيسى ابن مريم صلبوا على الخشب، ونشروا بالمنشير، ما صدّهم ذلك عن دين الله، والذي نفسي بيده لموت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله ».

إن الإسلام الذي دعانا أن نناضل لإعادة السلطان إلى الكتاب، هو الذي يقودنا إلى الخلافة على منهاج النبوة، حيث يترك للأمة اختيار حكامها كما فعلت بعد رسول الله ﷺ وفي عهدنا الذهبي، وتضع تحكيم كتاب الله وسنة رسوله دستوراً، وتقوم المؤسسات التي تراقب وتحاسب وتصوّب وتسدّد، والمؤسسات التي تساهم في تقديم الخدمات للأمة في كل شيء، فنعود لمنبع النور من جديد.

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٩٨).

(٢) رواه أحمد (١٨٤٣٠ ح)، والبيهقي في دلائل النبوة (ح ٢٨٤٣)، وإسناده حسن.

ب - من هم الظالمون؟

المعنى العظيم الذي لا نجاه في أي دستور من دساتير الأرض غير كتاب الله، عن الظالمين، هو أن الظالمين والمظلومين من أتباعهم وخدمهم وجنودهم وغوغائهم كلهم ظالمون، فالرضوخ للظلم وقبوله والسكوت عليه دخل المماليئين في عداد الظالمين:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنتُمْ شُجْرَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ آيَلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣]. فهو لاء المستضعفون لا يعبا الله لهم، بل لهم عذاب المستكبرين أنفسهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨]. فالذين يسيرون في فلك الطغاة والمستبدين وينفذون مخططاتهم ويهتفون لباطلهم هم والطغاة سواء في ميزان الله.

ج - ثورة المستضعفين:

إنما يريد الإسلام من أتباعه أن يكونوا هم الثورة الحقيقية ضد الطغيان والطغاة مهما كلفهم ذلك من ثمن، حتى يقدموا الحرية لهم ولأجيالهم من بعدهم وإلا فالنار مصيرهم.

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

هذه الخطوة الأولى، والخطوة الثانية الانتقال من الجانب السلبي في عدم الركون إلى الكافرين إلى مواجهة هذا الظلم، ففيه وحده النجاة من غضب الله: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦]، فهم (المترفون) وهم (الظالمون) وهم

(المجرمون)، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ هم وصنائعهم وزبانياتهم وأتباعهم إلا الذين قاوموا هذا الظلم - على قلتهم - وواجهوا هذا الفساد، فهم الذين أنجاهم الله من العذاب في الدنيا والآخرة، وتحملوا مسؤولية هذا النهي عن الفساد تشريداً واعتقالاتاً وقتلاً وإبادة.

د - ثورات التحرير في عالمنا الإسلامي المعاصر:

لقد شهد القرن العشرون استعمار العالم الإسلامي من دعاة الديمقراطية الغربية، وشهد كذلك تحرر العالم الإسلامي من نير الاستعمار، والظاهرة التي لا تخفي نفسها هي أن التاريخ قد شوّه هذه الثورات واعتبر دعاة القومية والوطنية هم المحررين، ولم يكتف بذلك، بل اتهم الإسلاميين ودعاة الإسلام بأنهم عملاء بريطانيا وعملاء أمريكا، وعملاء الإمبريالية والصهيونية، ولئن شوّه هذا التاريخ في ظل حكم العلمانيين العرب، لكنهم لن يستطيعوا أبداً أن يحجبوا ضوء الشمس بأكفهم أو يطفئوا نور الله بأفواههم.

فمن الذي ينكر دور (الأزهر) العظيم في مصر، وهو الذي كان يحرك الملايين بإشارة منه للثورة السلمية أو الحرية منذ نابليون حتى حرب أكتوبر مروراً بالثورات ضد الإنجليز في كل مكان، وحرب قناة السويس ضد العدوان الثلاثي، ومن قبل ضد الاستعمار البريطاني، ولقد ألفت كتب في هذا الجهاد العظيم منها «ودخلت الخيل الأزهر».

ولن ينسى التاريخ أن سليمان الحلبي الشامي، الطالب الأزهري هو الذي قتل كبير خليفة نابليون في مصر، وكتائب (الإخوان المسلمين في حرب فلسطين)، و (المقاومة السرية في قناة السويس)، والوجه الإسلامي (لحرب أكتوبر) التي يطلق عليها المصريون تبركاً (حرب رمضان)؛ لأنها كانت والجنود يؤدون فريضة الصيام لربهم جلّ جلاله، وكيف كان (حسن البنا) رمز النضال في مصر، فطالب الإنجليز برأسه من العرش البريطاني وحلّ جماعته.

وإذا انتقلنا إلى ثرى الشام الطهور، فمن ينكر مفجر الثورة السورية الشيخ (بدر الدين الحسيني) الذي زار كل المحافظات السورية واتصل برجالها حيث أعلنت الثورة بعد ذلك، والبطولات العظيمة في الغوطة، والتي كان يشرف على قيادة عملياتها بنفسه، فكان (سعيد العاص وحسن الخراط) يلتقيان به فجر كل يوم يمدّهم بالمال والسلاح، والشيخ (محمد الأشمر) والشيخ (كامل القصاب) الذي حكم عليه بالإعدام أكثر من مرة، وفي

فلسطين التي لم تعرف أبناء سلاح حقيقيين مثل العلماء، ابتداءً بالشيخ (عز الدين القسام) في الثلاثينيات، ومرورًا بالحاج (أمين الحسيني)، والبطل (عبد القادر الحسيني)، والبطل (مصطفى السباعي) الذي قاد كتائب الإخوان السوريين في فلسطين، وجاب الأرض أثناء الهدنة بحثًا عن السلاح، واستشهد معه كرام أبناء دمشق، وكان لهم شرف الحفاظ على القدس أثناء التقسيم، ومن ينكر قيادة الإمام الشهيد (حسن البنا) للقاء في فلسطين حيث قاد كتائب الإخوان في سوريا والأردن وفلسطين من خلال الشهداء العظام (محمد فرغلي ويوسف طلعت) الذين كوفئوا بالإعدام على يد عبد الناصر.

ومن ينكر دور الخليفة العظيم السلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض أن يفرط في ذرة تراب من ثرى فلسطين، وكان أن انتقم اليهود منه بإقصائه عن عرشه لرفضه لمخططاتهم، فكان حاخام اليهود أحد الذين سلموه طلب وثيقة التنازل عن العرش، وذكره أن هذا ثمن رفض تنفيذ مخططات صهيون.

نحن لا ننكر أن الشعب بكل فئاته في سورية ومصر قاوم الاستعمار في حوران والجبل وحمص وحماة وحلب، لكننا نؤكد أن دور الريادة في التحرير كانت لعلماء الأمة وقادتها المجاهدين المسلمين، من الشرق العربي إلى المغرب العربي، الذي لا نكاد نرى فيه ثورة إلا بقيادة رجالات الإسلام العظام، ابتداءً من ليبيا حيث السنوسية كلها التي ربّت أبناءها على الجهاد ضد الطليان، وعمر المختار رمز الصمود والمقاومة في هذا القطر هو عالم من أعظم علماء الإسلام هناك، ومرورًا بعلال الفاسي في تونس رئيس حزب الاستقلال، ونضاله مع إخوانه الآخرين للتحرير من الاستعمار الفرنسي، ومحمد عبد الكريم الخطابي في المغرب، وعبد القادر الجزائري في الجزائر، والشيخ عبد الحميد باديس الذي قام تلامذته بتفجير ثورة الـ ٥٦ والتي اعترفت على أثرها فرنسا بالثورة الجزائرية، كما اعترف بذلك (بن بيلا) رئيس أول جمهورية بعد الاستقلال.

وحين تغادر الوطن العربي إلى الوطن الإسلامي تجد قادة ثورات التحرير كلهم يستمدون روحهم القتالية من مبادئ الإسلام ورجالاته الذين كانوا على رأس الحركة الوطنية في كل قطر، وما حرب الأفغان والشيشان والبوسنة والهرسك بسر، حتى أصبح هذا العصر يطلقون عليه عصر الإرهاب الإسلامي، زورًا وبهتانًا، لأن هؤلاء ثاروا ضد الصليبية الحاقدة والديمقراطية الزائفة التي احتلت بلادهم باسم التقدم

والعمران، والوصاية والانتداب، وانتهاء بروسيا جزارة الشعوب، وفكرها الأحمر في العهد الشيوعي، وتاريخها الأسود في العهد الديمقراطي الغربي، وحملت حماس الراهة لتحرير فلسطين من النهر إلى النهر بجوار (كتائب الجهاد) باسم الإسلام، حين استراح ثوار القومية والوطنية من وعثاء السفر، وراحوا يوقعون وثائق الخزي والعار بالتنازل عن فلسطين، وأخذ الفتات، الذي لا يعادل عشر أرض فلسطين باسم السلام.

ويمكن العودة إلى (وثائق) التاريخ التي تثبت هذه الجولة ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

كيف نحقق الحرية اليوم؟

أ - واقع الحرية في عالمنا الإسلامي المعاصر:

للأس الذي عاناه المسلمون في القرن العشرين أصبح مفهوم الحرية عندهم هو تحرير الأرض من المستعمرين، ومواجهة المحتلين لأرضهم بعد أن مُزقت أرض الخلافة الإسلامية كلها، ووزعت على دول الغرب أئمة الديمقراطية، فأصبح الحلم الأكبر للمسلمين في الأرض هو تحرير أوطانهم من الأعداء المحتلين، كان هذا في نصف القرن الأول، ورافق هذا الاستعمار إلغاء شريعة الله من الحكم.

وكان النصف الثاني من ذلك القرن أن سيطرت أفكار الوطنية والقومية والاشتراكية لتكون بديلاً عن الإسلام، وكانت ملاحقة دعاة الإسلام في الأرض الإسلامية وفي أوطانهم من حكامهم الوطنيين أنفسهم، ولمحافظة هؤلاء الحكاميين على السلطة لم يدعوا وسيلة من وسائل التعذيب والحرب إلا نفذوها ضد دعاة الإسلام، وغدت مهمة الجيوش أن تحتل الشوارع، وتهدد الشعوب، وتنفيذ الانقلابات، وتقمع الأمة، وبرزت بجوارها أجهزة الأمن في كل قطر إسلامي تبث الرعب في كل بيت، وتحكم البلدان الإسلامية من وراء ستار.

لقد قدمت الأنظمة المستبدة أكبر هديتين لشعوبهما من الرعب والجوع، فلم يطعموهم من جوع ولم يؤمنوهم من خوف، وحق عليهم قول الله ﷻ: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

لقد أصبح حلم الجماهير المسلمة اليوم الأمن والغذاء والدواء، وبين الواقع وبين الحلم مسافة هائلة.

فمتى يتحقق هذا الحلم؟

والحلم الآخر هو حلم الحرية الحقيقية...

لقد عادت الحرية حلمًا تهفو له قلوب الملايين وملايين الملايين من المسلمين، هذه الحرية هي أن يُترك للشعوب الإسلامية حق تقرير مصيرها، وانتخاب حكامها، واختيار قادتها وممثليها، والمسلمون يحلمون بجوار الحرية إلى حرية العقيدة وحرية الدعوة على الله، وحلم عودة الإسلام شريعة تحكم المسلمين من جديد، والتفت التيارات كلها تحلم باليوم الذي لا تستيقظ فيه على حكم الحديد والنار، وأن تقول ما تشاء، وتدعو لما تشاء وتتجاوز التيارات كما تشاء، ويُترك أمر الحكم للمنافسة الحرة البعيدة عن التزوير والتوجيه، بينما الحكام والطغاة يتنافسون في إعلان نتائج انتخاباتهم بين التسعات الثلاث والأربع والخمس دون حياء أو خجل، وهم يعلمون أن القوة التي في أيديهم لو وقفت على الحياد لما كان لهم نسبة الواحد بالمائة.

ب - الحرية تربية:

لا بد أن نعمل جاهدين على تثقيف شعبنا ابتداءً على قيم الحرية ومبادئها، ونواة الانطلاق في ذلك أن يتربى شعبنا أن لا يخضع إلا لله، وبمقدار ما تتحقق هذه العبودية لله، بمقدار ما يتحرر شعبنا من كل عقد الخوف، الخوف على الرزق، الخوف على الحياة، الخوف على الأمن، وحين يتحرر الإنسان من الخوف من البشر يكون قد أصبح حرًا حقيقة، لأن الرزق بيد الله، والحياة بيد الله، والموت بيد الله، وكل ما قدر الله لو اجتمعت البشر جميعًا على منعه لم يمنعه .. ولو اجتمعت الأمة على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف .»

والمعنى الثاني الذي لا بد من التربية عليه هو حرية الآخرين، وأن الحق قائم لكل فرد بإبداء رأيه وإعلان موقفه كما علمنا الله ﷻ: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] . وكما علمنا كذلك: ﴿لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

وَلَسَمِعْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرْتُمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿ [آل عمران: ١٨٦].

هذا والمسلمون في السلطة، أما وهم في غير السلطة، فالقوة ليست هي الحل، ولا حل إلا بالحوار، ولا حل إلا بالدعوة ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥].

عندما يتربى الشعب بكل فئاته على هذه المعاني، ويتدرب على أن يحيها واقعا منذ نعومة أظفاره بأن يقبل الخصم ويحل مشاكله معه بالحوار لا بالقوة ولا بالعنف، يتربى الجيل عليها حتى يربي الوالد أولاده وأبناءه عليها كذلك فهو صاحب سلطة، فلا ينطلق من سلطة الأبوة لفرض الرأي إنما ينطلق من هذه السلطة بالإقناع والتفاهم، حين يقوم المدرس بغرس هذه المعاني في نفوس طلابه، ولا يستعمل ذاته وأنانيته لفرض رأيه، والتهديد بإنقاص العلامات لمن خالف رأيه، حين لا يستبد أحد لا الأم ولا المدرس، ولا مدير الشركة، ولا الزوج ولا الضابط، حين يتعامل الجميع بمفهوم الرعاية لا بمفهوم الوصاية، حينئذ ينشأ جيل لا يخاف إلا ربه، ولا يخشى إلا ذنبه، ولا يفرض رأيه على خصمه؛ لأن كل طرف رعية من جهة وراعٍ من جهة ثانية، هكذا بلا استثناء « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » ابتداءً بالإمام وانتهاءً بالولد والخادم، لكل مسؤوليته ولكل دوره، فلا أحد فوق أحد لأن كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، إنه تدريب شاق يبتدىء بالقناعة بهذه المعاني، وينتهي بتطبيقها، والجهد في سبيل تحقيقها.

ج - الحرية مجاهدة:

إن الكلام النظري سهل وشيق لكن التطبيق العملي صعب ومكلف، فلا ألد من استعمال السلطة من الأعلى على الأدنى، نراها حتى في الأخ الصغير على الكبير إن استطاع أن يستغل نفوذ والديه وحبهم له، فإذا الحرية مجاهدة، قد تفشل في البداية، وقد تخفق في أول الطريق، لكن الرواد دعاة الحرية لا يياسون ولا يتراجعون، ويحلون الكثير من القضايا على حساب أعصابهم ووقتهم ومركزهم ومصالحهم، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. « والرجل الذي يخالط الناس ويصبر

على أذاهم خير من الرجل الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»، هي قيم يزرعها الإسلام في نفوس أبنائه «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

لقد استطاع سيد البشرية أن يربي أعظم جيل على الصبر بعد أن كان الثأر يجري في عروقه أكثر مما يجري الهواء في جسمه، وقال له: «لقد كان من كان قبلكم يُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لِحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصْدهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَكَانَ يَوْضَعُ الْمَنْشَارَ عَلَى رَأْسِهِ فَيَقْسِمُهُ نِصْفَيْنِ مَا يَصْدهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِ اللَّهِ... وَلَكِنْكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

إن هذه التربية من الثأر إلى الصبر، والموضوعية في الحكم البعيدة عن الغضب والرضا لم تتم بسهولة، وجعلت من عمر الذي كان على استعداد لقتل محمد وقتل أخته وصهره ثورة لقناعته، جعلته يقف أمام قاتل أخيه ولا سلطان فوقه إلا سلطان الله، فيقول له: «والله لا أحبك حتى تعشق الأرض الدم، قال: يا أمير المؤمنين أيمنعني ذلك حقاً؟ قال: لا، قال: أحبني أولاً تَهْنِئِي إِنَّمَا يَأْسَى عَلَى الْحَبِّ النِّسَاءُ» إنها مجاهدة عظيمة حقاً جعلت أمير المؤمنين يعترف بحرية الآخرين ولو كانوا قتلة أحب الناس إليه، ولا يجرو أن يمسّه بسوء مع أنه كان بإمكانه أن يزجه وكل من يؤيده بالسجن المؤبد كما يفعل طغاة الأمس واليوم، المجاهدة التي جعلت نبي الله وسيد البشرية يعاتب من ربه بعشر آيات؛ لأنه صدق باتهام يهودي من بعض أصحابه وفيها صدق الوعيد ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، المجاهدة التي جعلت عثمان أمير السلطة العليا يقول لمواطن شد أذنه في ساعة غضب أن يقتص منه فيشد أذنه فيقول له عثمان: «اشدد حبذا قصاص في الدنيا ولا قصاص في الآخرة»، المجاهدة التي جعلت أمير المؤمنين وصاحب السلطة العليا في الدولة يتحاكم مع يهودي للقاضي لخصمه، المجاهدة التي دفعت بالقبطي أن يقطع آلاف الأميال ليرفع ظلم ابن عمرو ابن العاص عنه لثقة أنه في دولة الإيمان والقانون، فيقول للمواطن القبطي: «أجل سوطك على صلعة عمرو، يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!»، فكل هذه النماذج لولا المجاهدة الدؤوبة لما أمكن أن تنتقل من فكر القبيلة وثقافة القبيلة إلى حرية المبدأ وسيادة الإنسان في الأرض بصفته الإنسانية المستخلف فيها من خلال

الحرية المتاحة له من ربه، ورفض عنصر الإكراه في الفكر ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

د - الصيغ العملية لتطبيق الحرية:

إن الحرية السياسية هي أساس كل الحريات لأن السلطة حين تكون مستبدة تتحكم بحرية الناس كما تهوى وتعبد لهم لها، أما عندما تكون الحرية السياسية قائمة على الشورى، لا على الاستبداد، فهذه نقطة التحول الكبرى التي تنبع منها كل التحولات في المجتمع والدولة والفرد، فحرية الناس في اختيار عقائدهم واختيار أفكارهم واختيار حكمائهم واختيار نظام حكمهم هي الصيغة الكاملة لتطبيق الحرية، « وإذا كانت الديمقراطية (آلية) فهي ليست معروضة مقابل الإسلام، وإنما في مقابل الدكتاتورية، وإذا لم نحترم ونرغب في هذا السبيل فلن يكون أماننا سوى التمسك بالحكم عن طريق القوة والتسلط.. ما من طريق ثالث البتة، وفي العمق من التحليل (يثبت خاتمي) حقيقة أن الديمقراطية لم تعد مرتبطة ارتباطاً عضوياً ولا سياسياً بالعلمانية الرأسمالية »^(١).

والحرية السياسية تعني أن الناس هم مصدر شرعية الحكومة وأن لهؤلاء الناس الحكم لها أو عليها، بكلمة أخرى: الحرية السياسية تعني حرية الفكر وحرية التعبير وحرية الاجتماع وحرية محاسبة الحكومة ومساءلتها، وهذه الحرية لا يمكن أن تكون من جانب واحد، لا بد من اعتراف كل التيارات الفكرية والسياسية في المجتمع بحقها جميعاً في الحياة، وليس الفرد الواحد أو الحزب الواحد، إن الرضى والدعوة والافتناع بالحزبية هو الأساس الذي يقوم عليه بنیان الحرية السياسية، فلا حرية سياسية بلا أحزاب ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مَخْلَفِينَ﴾ ﴿١٣﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، ولا بد أن تتقدم هذه الأحزاب ببرامج علمها ومناهجها في الحكم، ويترك للشعب اختيار من يراه أقدر على تحقيق مصالحه، لا بد من إلغاء الوصاية في مجتمعاتنا على بعضنا البعض، وترك للناس اختيار من يحبون من أمرائهم لأنهم هم الخيار « فخير أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم »؛ حيث الحياة تقوم على النصيح والخدمة،

(١) مطالعات في الدين والإسلام والعصر، لمحمد خاتمي الرئيس الإيراني من كتاب الديمقراطية بين العلمانية والإسلام (ص ١٦٠).

والصدق في القول والعمل، وهو المجتمع الخير فلا يكفي الحب فقط لا بد من التبادل بين الشعب والحاكم ليؤدي كل امرئ دوره في الموقع الذي هو فيه، أما صورة الشر وصورة الشرار، فمرهونة بالذين يفرضون أنفسهم على أنفاس الناس « وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم »، فلا يكتفي بالجانب التعليمي فقط بل يتجسد لعنه على الأمة ولعنة على الحاكمين، وكل ما يتذرع به دعاة الاستبداد من خوفهم من الفوضى، فلا بديل عندهم إلا أن يستبعد فرق أو حزب أو عسكر لبقية الأمة، وهو منطق مرفوض لأنه يقوم على القوة والقهر لا على الرضا والاختيار، فالأحزاب والتعددية السياسية، والتداول السلمي للسلطة والذي لا يجوز أن يكون (دولة بين الأغنياء منكم) فقط، ولا الأقوياء ولا المستغلين، إنما متداول بين كل أبناء الأمة حيث يبرز الكفاء، ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

هـ - ضمانات التنفيذ وميثاق شرف:

إن ضمانات التنفيذ للديمقراطية والحرية قابعة في قلوب وصدور الاتجاهات والأحزاب والقادة السياسيين للأمة، ولا ضمان أكبر من ذلك، فالعدالة في نفس القاضي قبل أن تكون في نص القانون، ولا بد ثانيًا من أن يحسن صياغة الدستور الذي يحكم الأمة، ويحدد المسؤوليات، ويحدد السلطات، ويزيل الغش والاحتمالات، بحيث يعرف كل امرئ أو جماعة أو حزب حده فيقف عنده، إن حسن صياغة الدستور قمين بأن يحول دون استغلال فريق أو فئة أو جماعة أو حزب أو جماعة لهذا الشعب، ويتم ذلك من خلال ميثاق شرف يتعهد به السياسيون جميعًا أن يخلصوا لهذا النظام التشاوري ويوقعوا عليه على الملأ أمام الناس جميعًا، هذا التعهد مفاده أن يقبلوا بالنظام الديمقراطي حاكمًا لهم وعليهم، وأن يرفضوا استعمال القوة طريقًا إلى الحكم، وأن يكون العمل لمصلحة الشعب لا للمصلحة الخاصة دون إثرة أو محاباة أو تمييز أو استغلال أو استئثار.

وأن يكون الاحتكام إلى الدستور الذي يتفق عليه الشعب ويتوافق عليه، وأي فريق يفوز بثقة أكثرية الشعب فله الحق أن ينفذ برامج التي طرحها على الناس ويحكم بها، وهذا لا يعني إلغاء المعارضة أبدًا، ولا يعني إلغاء الرأي الآخر أبدًا، بل يبقى من حق الرأي الآخر أن يعلن موقفه، ويحاسب الحزب الحاكم على المبادئ التي تقدم إلى الشعب بتطبيقها، وأن يسائل الحاكم عن تصرفاته وتحقيق إنجازاته.

صحيح أن الأكثرية تحكم، لكنها لا تلغي الأقلية ولا تضطهدها ولا تقضي عليها لأن الزمن قد يمر وتصبح الأقلية أكثرية والعكس، إن الالتزام بهذه المبادئ من خلال ميثاق شرف جزء أساس من فقه السياسة الإسلامية، فإذا كان حلف الفضول قائماً على أن لا يقر بمكة ظالم، فلم لا يتحالف أبناء الشعب وقادته على أن لا يقر في دولتهم ظالم، وأن يكونوا يد واحدة عليه، «إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى وسيلة ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين إن أيديهم عليهم جميعاً».

بهذا الميثاق يمكن أن يولد فجر جديد للأمة يلغي الظلم في صفوفها وتنعم بالحرية وتنعم بالأمن وتنعم بالعدل فتكون المثل الذي ضربه الله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قُرْبَىٰ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

ملخص البحث:

ونخلص بعد هذا البحث إلى النتائج التالية:

- ١ - الحرية ببعديها المدني والسياسي هدف عام للبشرية كافة، وللأمة المسلمة خاصة.
- ٢ - الحرية أساس خلق الإنسان المختار من رب العالمين، مع المسؤولية الكاملة عن هذا الاختيار.
- ٣ - حرية العقيدة أول ما أعطيه الإنسان في الأرض، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].
- ٤ - للحرية مفاهيمها المختلفة ما بين النظرة الغربية والنظرة الشيوعية والنظرة الإسلامية.
- ٥ - أهم مفاهيم الحرية الغربية تحررها من الدين، ثم تحررها من القيم ثم فصل الدين عن الدولة ثم حقوق الإنسان وتصل إلى العبث والعدمية في جانبها الفردي.
- ٦ - أهم مفاهيم الحرية الشيوعية دكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة)، ولا بد

من التحول الثوري الدموي لتحقيق الحرية بتأميم وسائل الإنتاج للوصول إلى الشيوعية العادلة (من كل حسب استطاعته ولكل حسب حاجته).

٧ - تختلف الحرية في المنظورين الغربي والشيوعي عنها في المنظور الإسلامي في المنطلق وفي المسؤولية وفي الهدف، فهي هبة ربانية تميز بها هذا المخلوق عن غيره، وله مشيئته في الإسلام أو الكفر، ويتحمل تبعه موقفه من العذاب في النار أو النعيم في الجنة، وحرية دائمة مقيدة بحقوق وحرقات الآخرين، وكلما تعبد الله كلما ازداد حرية.

٨ - أنواع الحريات هي: الحرية الفردية، وحرقات الشعوب والمجتمعات، وحرية الدولة.

٩ - حرية العقيدة المنطلقة من قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] و ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

١٠ - الردة في المفهوم الغربي داخلة ضمن إطار حرية العقيدة، لأن الدين في الأصل علاقة شخصية بين الإنسان وربه، أما الردة في المفهوم الإسلامي، فخرج على مجتمع ودولة وشريعة ونظام حياة، وهي أقرب ما تكون إلى خيانة الوطن العظمى.

١١ - وعلى هذا الأساس يأخذ حد الردة القتل للمرتد على مراحل متعددة وتنظيمات قبل تنفيذ الحد، وإذا كان الخروج على دستور الدولة خيانة للوطن، فالخروج على دين الدولة خيانة للدين، وكلاهما افتئات على حق الله الذي فرض الحدود وأوجبها.

١٢ - حرية العبادة لم تشهد اضطهاداً إلا في ظل الأنظمة الشيوعية، والنظام الديمقراطي والإسلامي لا يناقشان في حرية العبادة لكن الاختلاف حين تكون العبادة في الملاء بعيداً عن المساجد والكنائس والكنس ومدى جرحها للشعور العام للأمة.

١٣ - حرية الدعوة في صفوف المؤمنين بالدعوة لا يحظره إلا الأنظمة الشمولية المستبدة، لكن حرية الدعوة وضمن المعابر والمنتديات المأذون بها فلا حرج فيها كذلك، إنما الخلاف في حرية الدعوة على كل المستويات وهي خلافية نرجح جوازها إذا كانت بعلم الدولة لا في الخفاء والسر.

١٤ - الحرية الإنسانية بأبعادها الثلاثة، الحرية من الرق، والحرية من الاستعباد، هي على قمم مفاهيم الحرية، والتي لا يكتفي الإسلام فيها بالحق، إنما يطالب بالواجب في ممارسة هذا الحق.

١٥ - الحرية القضائية وفي مفاهيمها المختلفة (لا عقوبة إلا بنص، حق المتهم في الدفاع عن نفسه، المعاملة الإنسانية أثناء الاعتقال والمحاكمة، منع الاعتقال والحجز التعسفي لأمد طويل) هي من المسلّمات الإسلامية في الحرية.

١٦ - الحرية السياسية وهي أهم أنواع الحريات (في الانتماء الحزبي وفي اختيار الحاكم، وفي نقد الحاكم، وفي الاجتماع العام وإبداء الرأي) قضايا لا تقبل المساومة في النظام الإسلامي، بل هي من أهم أسسه.

١٧ - الحرية الاقتصادية في أنواعها (حرية التملك، وحرية اختيار العمل والمهنة، وحرية الانضمام إلى النقابات وتشكيلها) يضمنها الإسلام للأمة ضمن مراعاة حقوق الآخرين وحرّياتهم.

١٨ - الحرية الوطنية في (الانتماء إلى الوطن، وحرية التجنس، وحرية السفر والإقامة) ومع أن بعضها من المسائل الخلافية، لكننا نرجح الإباحة على ضوء تطور المجتمع البشري، ومدى الوجود الدولي للإسلام على الساحة.

١٩ - الحرية الاجتماعية: وهي أوسع الحريات الفردية التي تنصب عليها معاني الحرية مثل (حرية الزواج، وحرية الإنجاب، وحرية الافتراق بين الزوجين، وحرية التعدد) ضمن تنظيمات تشمل ضبط كل آثار هذه الحريات على الفرد والمجتمع، ويضاف إلى ذلك حرية العلاقات الأسرية وحرية حياة الإنسان الخاصة الأسرية وحرية النشاطات الاجتماعية.

٢٠ - الحرية الثقافية مضمونة في الإسلام ضمن الإطار العام للمجتمع في (حرية التأليف والنشر والتعلم والانتماء للنوادي).

٢١ - وحين نتقل من الحرية الشخصية الفردية إلى حرية الشعوب والمجتمعات يطالعنا ابتداءً (حرية تقرير المصير - والذي ينقضه نظام الوصاية والانتداب - وحرية تكوين الأحزاب، وحرية اختيار نظام الحكم، وحرية اختيار الحاكم، هي قضايا من صلب النظام الإسلامي السياسي والاجتماعي، إضافة إلى حرية اختيار العقيدة والمذهب).

٢٢ - وتأتي حرية الدولة في اختيار دستورها، وسن قوانينها، وحرمة ترابها، ومنع الاعتداء إضافة إلى حرّيتها في الانضمام للدول الأخرى أو الانفصال عنها، وحرية

تكوين اتحادات سياسية أو اقتصادية، وحرية الانضمام للتحالفات والتكتلات الدولية هي من مقومات الدولة، إذا نفذت قوانينها المرعية بالعودة إلى الشعب في ذلك.

٢٣ - الإسلام هو النظام الوسط الذي وازن بين الحرية الفردية وحرقات الآخرين دون أن يطغى جانب على آخر بين طغيان الحرية الفردية في النظام الليبرالي، وسحقها في النظام الشيوعي، وإعطاء كل ذي حق حقه في النظام الإسلامي.

٢٤ - الفرق كبير جدًا بين الحديث النظري عن الحرية، وعن التحرير الفعلي الذي قام به الإسلام للبشرية المستعبدة.

٢٥ - فقد اعتبر الإسلام معركته بين المؤمنين والكافرين هي نفسها بين المستضعفين والطغاة، وكان مبرر وجوده الحرب على الظالمين الذين اغتصبوا الحاكمية لله وجعلوها لأنفسهم من دونه، ولا يقوم الإسلام إلا بإزاحة هؤلاء الطواغيت من طريق الدعوة، والباب مفتوح لهم لانضمامهم جنودًا فيها.

٢٦ - ولعل فجر البشرية ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩] هو التحرير الحقيقي، وكما قال رباعي بن عامر ليزدجرد: «جننا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

٢٧ - وكانت مبادئ حروب التحرير الإسلامية العشرة: لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا بقرة ولا شاة ولا بعيرًا إلا لأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

٢٨ - لقد كان العهد الذهبي للحرية أيام النبي ﷺ وأيام الراشدين حيث كانت الخلافة بيعة اختيارية بين الحاكم والمحكوم، والحاكم هو الذي يذكر الشعب بحقه في المحاسبة، ويطالبه بعزله إن أساء ويدعوه للقصاص منه.

٢٩ - انتقلت الخلافة الشورية إلى الملك ثم الملك الجبري ثم الملك الفوضوي، وكان الذي افتقده الانتقال إلى الملك بعد ثلاثين عامًا من الخلافة الراشدة هو استعمال الحاكم للمال بلا حساب، وفقدان حق محاسبة الخليفة.

٣٠ - وعلى مرور الزمن كان اللقاء حينًا والافتراق أحيانًا بين الكتاب والسلطان،

وكان على الطلائع المؤمنة أن تدور مع الكتاب حيث دار وتحمل مسؤولية هذا الموقف مهما كان خطيراً ولو على حساب الدم.

٣١ - من مفاهيم الإسلام في الحرية اعتبار الظالمين وأتباعهم وسدنتهم وزبائنتهم جميعاً من الظالمين، ولا عذر للضعفاء والمستضعفين في الخنوع للظالم، فأرض الله واسعة للخروج من نير الظلم، ومن قبله وزينه للظالم فهو ظالم مثله.

٣٢ - لقد كان الإسلام ثورة المستضعفين في الأرض ﴿ وَلَا تَزْكُتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

٣٣ - وكانت ثورات التحرير الإسلامية في عالمنا المعاصر استجابة لهذا النداء الرباني، وكان الإسلام وحملته هم وقود التحرير.

٣٤ - تحقق الحرية اليوم بعد فهم واقعنا البائس مع حكامه الطغاة الذين أذاقوه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

٣٥ - وحلم تحقيق الحرية في اختيار الحاكم، مع حرية الكلام والتعبير والرأي والدعوة، وأن تتعافى الأمة من الطغاة.

٣٦ - الحرية تربية على مبادئ ومثل، وتطبيق لهذه المبادئ، ومجاهدة للشبث عليها والتضحية في سبيلها.

٣٧ - والصيغ العملية لتطبيق الحرية هي حرية للأحزاب وقناعة للتعددية السياسية والتداول السلمي للسلطة.

٣٨ - واجتماع على ميثاق شرف يوقعه كل السياسيين في البلد الواحد والتعاهد على الوفاء به داخل السلطة وخارجها.

٣٩ - ولن يكون ضمان أكبر من ضمير الساسة والقادة كفيلاً بقيام الحرية واستمرارها، فالعدالة في ضمير القاضي لا في نص القانون.



السيرة الذاتية للمؤلف

د. منير محمد الغضبان.

الميلاد: ولد سنة (١٩٤٢م) في التل، دمشق، سوريا.

المؤهلات العلمية:

- ١ - إجازة في الشريعة، جامعة دمشق (١٩٦٧م).
- ٢ - دبلوم عام في التربية، جامعة دمشق (١٩٦٨م).
- ٣ - ماجستير في اللغة العربية من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة (١٩٧٢م).
- ٤ - دكتوراه في اللغة العربية من جامعة القرآن الكريم بالسودان (١٩٩٧م).
- ٥ - حائز على جائزة سلطان بروناي للسيرة النبوية عام (٢٠٠٠م).

من المؤهلات الوظيفية:

- ١ - داعية في الخارج برئاسة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية (خارج المملكة)، (١٤٠٠ - ١٤٠٧هـ).
- ٢ - باحث تربوي بجامعة أم القرى بمركز الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة (١٤٠٧ - ١٤٢٠هـ).
- ٣ - باحث ثقافي في الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٤١٢هـ).

السجل الفكري والعلمي:

- ١ - مقالات متعددة في الصحف والمجلات الإسلامية.
- ٢ - مشاركة في تأليف الكتب المدرسية في رئاسة تعليم البنات في الرياض (أصول التدريس، محو الأمية، كتب الفقه والحديث).
- ٣ - تأليف الكتب الإسلامية والفكرية في المجالات التالية:
 - أ - السيرة النبوية.
 - ب - التاريخ الإسلامي.
 - ج - المرأة

د - الفكر الإسلامي والمعادي.

هـ - التربية الإسلامية.

المؤلفات المطبوعة:

(أ) في السيرة النبوية:

١ - المنهج الحركي للسيرة النبوية.

المنهج التربوي للسيرة النبوية (أحد عشر مجلدًا).

٢، ٣، ٤ - التربية الجهادية.

٥، ٦، ٧، ٨ - التربية القيادية.

٩، ١٠ - التربية الجماعية.

١١، ١٢ - التربية السياسية.

١٣، ١٤ - المنهج الإعلامي للسيرة النبوية (الشعر في عهد النبوة).

١٥ - فقه السيرة النبوية (وهو مقرر مادة السيرة النبوية في جامعة أم القرى والعديد من الجامعات العربية والإسلامية).

١٦ - التراتيب الإدارية في نظام الحكومة النبوية، تقريب وتهذيب.

١٧ - التربية السياسية للطفل المسلم.

١٨ - فقه التمكين في السيرة النبوية.

١٩ - أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية.

٢٠ - الأخوات المؤمنات (وقد قررته الرئاسة العامة لتعليم البنات بالسعودية كتابًا مساعدًا لمدة سبع سنوات لطالبات المرحلة الثانوية).

٢١ - كتاب الأربعين في سيرة سيد المرسلين.

٢٢ - محمد ﷺ (بالاشتراك مع آخرين).

(ب) في التاريخ الإسلامي:

٢٣ - معاوية بن أبي سفيان.

٢٤ - أبو ذر الغفاري.

- ٢٥ - المسيرة الإسلامية للتاريخ.
- ٢٦ - عمرو بن العاص (الأمير المجاهد).
- ٢٧ - هند بنت عتبة.
- ٢٨ - المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة - عهد الصديق - (تحرير العراق والشام والجزيرة).
- ٢٩ - جولات نقدية في كتاب الخلافات السياسية بين الصحابة.
- (ج) فكر إسلامي ومعادي:
- ٣٠ - الحركات القومية في ميزان الإسلام.
- ٣١، ٣٢ - سورية في قرن.
- ٣٣ - سيد قطب ضد العنف.
- ٣٤ - إليك أيها الفتى المسلم.
- ٣٥ - إليك أيتها الفتاة المسلمة.
- ٣٦ - أفكار التي أحيانا من أجلها.
- ٣٧ - التحالف السياسي في الإسلام.
- ٣٨ - نحن والغرب على ضوء السنن الربانية (العراق وأمريكا نموذجا).
- (د) في التربية الإسلامية:
- ٣٩ - من معين التربية الإسلامية.
- ٤٠ - طرق تدريس المواد الدينية (للصف الثاني بدار المعلمات) (بالاشتراك مع آخرين).
- ٤١ - طرق تدريس المواد الدينية واللغة العربية (للصف الثالث بدار المعلمات) (بالاشتراك مع آخرين).
- ٤٢ - الحقوق المائة للمرأة المسلمة.
- ٤٣ - الحوار: شريعة وواقعاً وتاريخاً.
- ٤٤ - المغيرة بن شعبة (السياسي المجاهد).

- ٤٥ - شباب في العهد النبوي.
 ٤٦ - شباب في العهد الراشدي.
 ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠ - المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة.

كتب تحت الطبع:

- ٥١ - التل في ذاكرتي وفي قلبي (الوجه الإسلامي).
 ٥٢ - الاتجاه الإسلامي عند الرصافي.
 ٥٣ - المسلسلات التاريخية السورية (نماذج) دراسة.
 ٥٤ - مدخل إلى السيرة المنهجية.
 ٥٥ - المنهج السياسي في السيرة النبوية.
 ٥٦ - في ظلال الظلال.
 ٥٧ - السيرة النبوية عند السحّار (عرض ورأي).



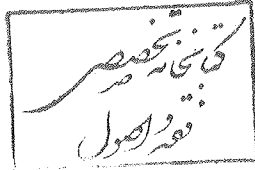
من إصدارات دار السلام

- آفات السهر ومنافع البكور (أ.د. طلعت محمد عفيفي) عربي / إنجليزي.
- أبجديات البحث في العلوم الشرعية (فريد الأنصاري).
- إجازة تخصص الدعاة (ضمن كتاب كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر) (سعيد حوى).
- الاجتهاد بين حقائق التاريخ ومتطلبات الواقع (أ.د. أحمد بوعود).
- إحياء الربانية - الإجابات (ضمن كتاب كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر) (سعيد حوى).
- أخلاقية الداعية (ضمن كتاب سلسلة مدرسة الدعاة) (د. عبد الله ناصح علوان).
- الأخوة الإسلامية (د. عبد الله ناصح علوان).
- آداب الخطبة والزفاف وحقوق الزوجين (د. عبد الله ناصح علوان).
- أدب الاختلافات الفقهية وأثره في العمل الإسلامي المعاصر (أ.د. طلعت محمد عفيفي).
- (الإسلام) طبعة منقحة خص بها المؤلف دار السلام (سعيد حوى).
- الإسلام دين السلام (رسالة إلى الضمير الإنساني لإنقاذ السلام العالمي) (أ.د. عبد الصبور شاهين).
- الإسلام دين السلام (رسالة إلى الضمير الإنساني لإنقاذ السلام العالمي) (إنجليزي) (أ.د. عبد الصبور شاهين).
- الإسلام شريعة الزمان والمكان (د. عبد الله ناصح علوان) عربي / إنجليزي.
- الإسلام ضد الإرهاب (إسباني) (عبد الله بن عبد المحسن التركي).
- الإسلام والبشرية الحاضرة (عبد الوهاب عبد السلام طويلة).
- الإسلام والجنس (د. عبد الله ناصح علوان) عربي / إنجليزي.
- الإسلام والحب (د. عبد الله ناصح علوان) عربي / إنجليزي.
- الإسلام والغرب - رؤية محمد أسد (Leopold Weiss سابقاً) (صفوت مصطفى خليلوفيتش) عربي / إنجليزي / ألماني.
- الإسلام وحاجة البشرية إليه (أ.د. رفعت فوزي عبد المطلب).
- إشكالية التحيز في الفن والعمارة - رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد (بيتر واتكنز وآخرون).
- أصحاب النبي ﷺ بين المادحين والقادحين (أ.د. طلعت محمد عفيفي) عربي / إنجليزي / فرنسي / ألماني.
- الإصلاح الإسلامي المعاصر قراءات منهجية واجتماعية (أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان).
- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام (الإمام محمد الطاهر ابن عاشور).
- الالتزام في الإسلام (أ. وجدي غنيم).
- إلى كل أب غيور يؤمن بالله (د. عبد الله ناصح علوان).

- إلى ورثة الأنبياء والدعاة إلى الله (د. عبد الله ناصح علوان).
- الإنسان بين السراء والضراء في تصوير القرآن الكريم (محمد السيد محمد يوسف).
- الإنسان بين شريعتين - رؤية قرآنية في معرفة الذات ومعرفة الآخر (أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان).
- الأوقاف الخيرية وعمارة الإنسان والمكان (إشراف/ منى عبد المنعم أبو الفضل).
- الإيمان والعمل الصالح (أ. وجدي غنيم).
- الباهر في حكم النبي ﷺ بالباطن والظاهر (الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي).
- بصائر دعوية (محمد أبو الفتح البيانوني).
- بواكير حركة الترجمة في الإسلام (أ.د. عبد الحميد عبد المنعم مذكور).
- البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي نحو بيان قرآني للدعوة الإسلامية (فريد الأنصاري).
- التأصيل الشرعي للتنمية الذاتية (أ.د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي).
- تجديد الفكر الديني في جهود العلامة محمد كرم شاه الأزهر (د. حافظ محمد منير الأزهر).
- التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية (د. محمد راكان الدغمي).
- تعدد الزوجات في الإسلام وحكمة تعدد زوجات النبي ﷺ (د. عبد الله ناصح علوان) عربي/ إنجليزي.
- تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة (الإمام محمد الطاهر بن عاشور).
- التعليم الديني بين التجديد والتجديد (أ.د. طه جابر العلواني).
- تعريف موجز بدين الإسلام (مع دفع شبهات المغرضين) (عبد الوهاب عبد السلام طويلة).
- التوهم رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة (الحارث بن أسد المحاسبي) عربي/ إنجليزي.
- ثقافة الداعية (د. عبد الله ناصح علوان).
- جند الله ثقافة وأخلاقاً، طبعة منقحة (سعيد حوى).
- حتى يعلم الشباب (د. عبد الله ناصح علوان).
- الحرية الدينية ومقاصدها في الإسلام (وصفي عاشور أبو زيد).
- حرية الرأي في الإسلام (مفهومها وضوابطها ومجالاتها في ضوء الكتاب والسنة) (أ.د. مصطفى عبد الواحد).
- حقائق وشبهات (حول السباحة الإسلامية وحقوق الإنسان) (أ.د. محمد عمارة).
- حقائق وشبهات (حول مكانة المرأة في الإسلام) (أ.د. محمد عمارة).
- حماية الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية (محمد راكان الدغمي).
- الحوار منهج حياة تأملات في الحوار في القرآن الكريم (د. الحسين زروق).
- الحوافز الذاتية بين المبادرة والالتزام (عدنان علي رضا النحوي).
- حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان (د. عبد الله ناصح علوان) عربي/ إنجليزي.
- الخشوع في الصلاة (محمد بن لطفي الصباغ).
- الخطاب الديني بين تحديث الدخلاء وتجديد العلماء (أ.د. محمد نعيم محمد هاني ساعي).

- دروس في العمل الإسلامي (سعيد حوى).
- الدعاء المستجاب من الحديث والكتاب (أحمد عبد الجواد) عربي / إنجليزي / فرنسي / إسباني.
- الدعوة إلى الإسلام وأركانها (أحمد عز الدين البيانوني).
- دور الشباب في حمل رسالة الإسلام (د. عبد الله ناصح علوان).
- الدين هو الصلاة والسجود لله باب الفرج (فريد الأنصاري).
- الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني (أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان).
- رحلة عبر الغيب بين آيات القرآن وصفحات الأكوان (عبد الكريم عثمان).
- رسالة الإصلاح رؤية في المنهج والشروط (بدوي محمود الشيخ).
- رسالة إلى المتحابين من الشباب (أ.د. نظمي خليل أبو العطا).
- رسالة إلى المعلمة المسلمة (أ.د. نظمي خليل أبو العطا).
- رسالة إلى ولدي (رسالة في الحث على طلب العلم) (جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي).
- رسالة من ميت إلى أهل الدنيا والابتلاء والعمل (أ.د. نظمي خليل أبو العطا).
- روحانية الداعية (د. عبد الله ناصح علوان).
- زواج الأقارب بين العلم والدين (د. علي أحمد السالوس).
- زوجة الغائب دراسة مقارنة بين الشريعة الإسلامية والشريعتين المسيحية واليهودية (محمد عبد الرحيم).
- سباحة الفكر في الجهر بالذكر (أبو الحسنات محمد عبد الحفي اللكنوي الهندي).
- سبحة الله (أ.د. محمد عبد المنعم عبد العال).
- سعادة الضرائر واقع أم خيال؟ (أ. محمد أحمد العكش).
- سعادة المرأة في ظل الإسلام (أ.د. عبد السلام الهراس).
- السلوك الاجتماعي في الإسلام (حسن أيوب) عربي / إنجليزي.
- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط (مجدي محمد محمد عاشور).
- السيرة بلغة الحب والشعر (سعيد حوى).
- سيئات المرأة في الإسلام بين النفس والصورة (فريد الأنصاري).
- الشباب وأوقات الفراغ (أحمد حسن كرزون).
- صفحات مشرقات من حياة الصحابييات (طلعت محمد عفيفي).
- صناعة الشباب (محمد سعيد حوى) عربي / إنجليزي.
- ضرب المرأة هل هو الفهم الصواب لحل الخلافات الزوجية (أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان).
- الطريق إلى السعادة الزوجية (أ. وجدي غنيم).
- عقبات الزواج وطرق معالجتها على ضوء الإسلام (د. عبد الله ناصح علوان).
- عقبات في طريق الدعوة (د. عبد الله ناصح علوان).

- العلاقة الجنسية منظور قرآني (أ.د. منى أبو الفضل).
- العلماء بين التوقير والتطاول (أ.د. طلعت محمد عفيفي).
- العمل التطوعي في ميزان الإسلام (أحمد محمد عبد العظيم الجمل).
- العنف من منظور العلوم الفقهية (نور الدين مختار الخادمي).
- فضل الدعوة والداعية (د. عبد الله ناصح علوان).
- الفطرية بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام (فريد الأنصاري).
- فلسفة الزبي الإسلامي للمرأة (د. صهباء محمد بندق).
- فن التعامل مع الناس (أ. وجدي غنيم).
- في مسيرة إسلامية المعرفة (أ.د. عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب).
- القرآن الكريم وإقامة أمة العلم (د. الحسين زروق).
- القرآن الكريم وتنمية الوعي بالتاريخ (أ.د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي).
- فتاويل الصلاة مشاهدات في منازل الجمال (فريد الأنصاري).
- قوانين البيت المسلم (سعيد حوى).



رقم الإيداع

٢٠١٢/٢٠٨٢

I. S. B. N الترقيم الدولي

978 - 977 - 214 - 007 - 7



عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهداً نحسبه ممتازاً ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائماً نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقاً لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨]

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فتتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعاً في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم ... ،